غابرييل غارسيا ماركيز

مئة عام من العزلة

رواية

ترجمة: صالح علماني

مئة عام من العزلة

اسم المؤلف : غابرييل غارسيا ماركيز
عنوان الكتاب : مئة عام من العزلة
المترجم : صالح علماني
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٥
الحقوق العربية محفوظة

Author : Gabriel García márqez (1976)
Title : Cien años de soledad
Translator: Saleh Almani
Al- Mada P.C.
First Edition : 2005
Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

غابرييل غارسيا ماركيز

مئة عام من العزلة

ترجمة: صالح علماني

إلى خومي غارسيا أسكوت
وماريا لويسا إيليو

بعد سنوات طويلة، وأمام فصيلة الإعدام، سيتذكر الكولونيل أوريليانو بوينديا ذلك المساء البعيد الذي أخذه فيه أبوه للتعرف على الجليد. كانت ماكوندو آنذاك قرية من عشرين بيتاً من الطين والقصب، مشيدة على ضفة نهر ذي مياه صافية، تنساب فوق فرشة من حجارة مصقولة، بيضاء وكبيرة، مثل بيوض خرافية. كان العالم حديث النشوء، حتى إن أشياء كثيرة كانت لا تزال بلا أسماء، ومن أجل ذكرها، لا بد من الإشارة إليها بالإصبع. وفي شهر آذار من كل عام، كانت أسرة غجر ذوي أسمال، تنصب خيمتها قريباً من القرية وتدعو، بدويٍ أبواقٍ وطبول صاخبة، إلى التعرف على الاختراعات الجديدة. جاءت أولاً بالمغنطيس. وقام غجري مربوع، له لحية كثة ويدا عصفور دوري، قدم نفسه باسم ميلكيادس، بعرض عام صاخب، لما أسماه أعجوبة علماء الخيمياء المقدونيين الثامنة. مضى من بيت إلى بيت، وهو يجر سبيكتين معدنيتين، فاستولى الذعر على الجميع حين رأوا القدور والطسوت والكماشات والمواقد تتساقط من أماكنها، والأخشاب تطقطق لأن المسامير والبراغي راحت تتململ، لتنتزع نفسها من الخشب. بل إن الأشياء المفقودة منذ زمن بعيد، بدأت تظهر حيث بحثوا عنها طويلاً من قبل، وراحت تتجرجر منقادة في حشد مضطرب، وراء حديدتي ميلكيادس السحريتين، بينما الغجري

يصرخ بصوت أجش: «للأشياء أيضاً حياتها الخاصة، والمسألة هي في إيقاظ روحها.» وقد فكر خوسيه أركاديو بوينديا - وكانت مخيلته الجامحة تتجاوز، على الدوام، عبقرية الطبيعة، وتمضي إلى ما وراء الإعجاز والسحر - في أنه بالإمكان استخدام ذلك الاختراع، عديم الجدوى، لاستخراج الذهب المدفون في الأرض. لكنّ ميلكيادس الذي كان رجلاً نزيهاً، حذّره: «الاختراع لا ينفع في ذلك.» إلا أن خوسيه أركاديو بوينديا، لم يكن يؤمن آنذاك بنزاهة الغجر، واستبدل بغلة وشلعة ماعز بالسبيكتين المغنطتين. أما زوجته، أورسولا إيغواران، التي كانت تعقد الأمل على تلك الحيوانات، لتوسيع ميراث الأسرة الهزيل، فلم تتمكن من ثنيه عن عزمه. فقد ردّ عليها زوجها: «عما قريب سيكون لدينا فائض من الذهب لتبليط أرضية البيت». وانهمك طوال شهور، في إثبات صحة تكهناته. ارتاد المنطقة شبراً شبراً، بما في ذلك قاع النهر، وهو يجر وراءه السبيكتين الحديديتين، ويرتل بصوت عال تعويذة ميلكيادس. وكان الشيء الوحيد الذي استطاع استخراجه من باطن الأرض، هو درع حديدية من القرن الخامس عشر، جميع أجزائها ملتحمة بطبقة من الصدأ، ولجوفها رنين أجوف كرنين قرعة ضخمة مملوءة بأحجار. وعندما تمكن خوسيه أركاديو بوينديا ورفاق حملته الأربعة، من فك مفاصل الدرع، وجدوا فيها هيكلاً عظمياً متكلساً، يحمل قلادة نحاسية معلقة حول عنقه، فيها خصلة من شعر امرأة.

عاد الغجر في آذار. وجاؤوا معهم، هذه المرة، بمنظار مقرّب، وعدسة بحجم طبل، عرضوهما على أنهما آخر اكتشافات يهود أمستردام. أجلسوا غجرية في أقصى القرية، ونصبوا المنظار عند

مدخل خيمتهم. وبدفع خمسة ريالات، راح الناس ينظرون من خلال المنظار، فيرون الغجرية في متناول اليد. وكان ميلكيادس يعلن: «لقد ألغى العلمُ المسافات. وعما قريب، سيتمكن الإنسان من رؤية ما يحدث في أي مكان من الأرض، دون أن يتحرك من بيته». وفي ظهيرة يوم قائظ، قاموا بعرض مذهل بالعدسة العملاقة: وضعوا كومة من العشب اليابس في منتصف الشارع، وأضرموا فيها النار، بتركيز الأشعة الشمسية. وخوسيه أركاديو بوينديا الذي لم يكن قد وجد لنفسه العزاء بعد، من إخفاق مغنطيسيه، تصوَّرَ فكرةَ استخدام ذلك الاختراع كسلاح حربي. حاول ميليكادس، مرة أخرى، أن يثنيه عن عزمه. لكنه انتهى إلى قبول السبيكتين المغنطتين، وثلاث قطع عملة ذهبية استعمارية، مقابل العدسة. بكت أورسولا من هول الصدمة. فتلك النقود، تشكل جزءاً من صندوق عملات ذهبية، جمعها أبوها على امتداد حياة من الحرمان. وكانت قد دفنتها تحت السرير، بانتظار فرصة مناسبة لاستثمارها. لم يحاول خوسيه أركاديو بوينديا ولو مواساتها، لأنه كان مستغرقاً تماماً في تجاربه التكنيكية، بتفاني العالِم وإنكاره لذاته، حتى لو أدى ذلك إلى المجازفة بحياته. ففي محاولته إثبات فعالية تأثير العدسة على القوات المعادية، عرّض نفسه للأشعة الشمسية المركّزة، وأصيب بحروق، تحولت إلى قروح، تأخر شفاؤها طويلاً. وكان على وشك أن يحرق البيت، بسبب احتجاجات زوجته المذعورة من ذلك الاختراع الخطر. كان يقضي ساعات طويلة في غرفته، يُجري الحسابات حول الإمكانيات الاستراتيجية لسلاحه الجديد، إلى أن توصل إلى تأليف مرجع مذهل بوضوحه التعليمي، وقدرته التي لا تقاوم على الإقناع. بعث

به إلى السلطات، مرفقاً إياه بشهادات متعددة من تجاربه، وعدة وثائق تضم رسوماً توضيحية. كلف بإيصاله مراسلاً اجتاز سلسلة الجبال، وتاه في مستنقعات فسيحة، وعاكس تيار أنهار صاخبة، وأوشك على الموت تحت براثن الضواري واليأس والطاعون، قبل أن يصل إلى درب متصل بطريق بغال البريد. وبالرغم من أن الرحلة إلى العاصمة، في ذلك الحين، كانت أقل من المستحيل بقليل، فقد تعهد خوسيه أركاديو بوينديا بمحاولة السفر، فور تلقيه أمراً من الحكومة، كي يقدم عروضاً عملية لاختراعه أمام رجالات السلطات العسكرية، ويعلّمهم بنفسه مهارات فنون الحرب الشمسية المعقدة. انتظر الردّ عدة سنوات. وأخيراً، عندما أنهكه الانتظار، تأسف أمام ميلكيادس لإخفاق مبادرته، فقدم له الغجري عندئذ دليلاً مقنعاً على نزاهته: أعاد إليه القطع الذهبية مقابل العدسة، وترك له فوق ذلك بعض الخرائط البرتغالية، وعدداً من أدوات الإبحار. وكتب بخط يده ملخصاً مكثفاً لدراسات الراهب هيرمان، وضعه تحت تصرفه، كي يتمكن من الاستفادة من الأسطرلاب، والبوصلة، وآلة السدس. أمضى خوسيه أركاديو بوينديا شهور فصل الأمطار الطويلة، معتكفاً في حجرة صغيرة، بناها أقصى الفناء، كيلا يعكر عليه أحدٌ استغراقه في تجاربه. وبتخليه الكامل عن واجباته المنزلية، ظل ليالي بطولها في الفناء، يرصد مسار الكواكب. وأوشك أن يصاب بضربة شمس، وهو يحاول إقرار منهج دقيق لتحديد منتصف النهار. وعندما صار خبيراً في استخدام أدواته وتشغيلها، تكوّن لديه تصوّر للفضاء أتاح له الإبحار في بحار مجهولة، وزيارة أراضٍ غير مأهولة، وإقامة علاقات مع كائنات عجيبة، دون حاجة لأن يغادر مكتبه.

وكان أن اكتسب، في هذه الفترة، عادة التكلم وحيداً، وهو يتمشى عبر البيت، دون أن يبالي بأحد، بينما أورسولا والأولاد يكسرون ظهورهم في البستان، وهم يعنون بالموز والقلقاس، واليكة والنيامي، والأهوياما [1] والباذنجان. وفجأة، دون سابق إنذار، انقطع نشاطه المحموم، وحلّ محله نوع من الافتتان. ظل أياماً كالمسحور، يردد لنفسه بصوت خافت، سلسلة من التكهنات المذهلة، دون أن يولي اهتماماً لفهمه الخاص. وأخيراً، في يوم ثلاثاء من شهر كانون الأول، وفي موعد الغداء، أطلق شحنة عذابه دفعة واحدة. وسيتذكر الصغار طوال ما تبقى من حياتهم، الوقار المكروب الذي جلس به أبوهم إلى رأس المائدة، وهو يرتجف من الحمى، مستنفداً من طول السهر واحتدام مخيلته، وأعلن لهم اكتشافه الذي توصل إليه:

- الأرض مدورة مثل برتقالة.

فقدت أورسولا صبرها، وصاحت: «إذا كنت ستجن، فافعل ذلك وحدك. ولكن لا تحاول أن تلقن الصغار أفكارك الغجرية». لم يسمح خوسيه أركاديو بوينديا، المحتفظ بهدوئه، لنفسه بالفزع من قنوط زوجته التي حطمت له، في سورة غضب، الاسطرلاب، بضربه على الأرض.. صنع آخر، ثم جمع رجال القرية في حجرته الصغيرة، وأثبت لهم بنظريات بدت غير مفهومة للجميع، إمكانية العودة إلى نقطة الانطلاق، إذا ما تم الإبحار باتجاه الشرق دون انحراف. وكانت القرية بأسرها قد أيقنت أن خوسيه أركاديو بوينديا فقد عقله، عندما جاء ميلكيادس ليضع الأمور في

---

(1) اليكة yuca والنيامي ñame، والأهوياما ahuyama: أنواع نباتات درنية الجذور وصالحة للأكل.

نصابها. فقد أشاد أمام الملأ بذكاء ذلك الرجل الذي استطاع، بالتأمل الفلكي النظري البحت، أن يبني نظرية بُرهن على صحتها في الممارسة العملية، وإن كانت غير معروفة حتى ذلك الحين في ماكوندو. وكدليل على تقديره، قدم إليه هدية، سيكون لها تأثير حاسم على مستقبل القرية: مخبر خيمياء.

كان ميلكيادس، في ذلك الوقت، قد شاخ بسرعة عجيبة. ففي رحلاته الأولى، كان يبدو في مثل عمر خوسيه أركاديو بويندياً. لكن، بينما ظل هذا يحتفظ بقوة غير عادية، تتيح له أن يطرح حصاناً بإمساكه من أذنيه، بدا الغجري متلفاً بداء مستعص، هو في الواقع حصيلة أمراض عديدة وغريبة، أُصيب بها في طوافه، مرات لا حصر لها، حول العالم. وحسب ما روى هو نفسه لخوسيه أركاديو بوينديا، بينما كان يساعده في تركيب معدات المخبر، فإن الموت كان يلاحقه في كل مكان، متشمماً ساقي بنطاله، ولكن دون أن يحسم أمره بتوجيه الضربة القاضية إليه. فهو ناج من كل ما ساط الإنسانية من أوبئة وكوارث. فقد نجا من داء الحُصاف[1] في فارس، ومن داء الإسقربوط في أرخبيل ماليزيا، ومن الجذام في الإسكندرية، ومن مرض البريبري في اليابان، ومن جائحة الدُّبَيلي[2] في مدغشقر، ومن زلزال صقلية، ومن غرق جماعي في مضيق ماجلان. ذلك الكائن العجيب الذي يقول إنه يملك مفاتيح نبوءات نوستراداموس، كان رجلاً كئيباً، تحيط به هالة حزن، وذا نظرة آسيوية، تبدو كما لو أنها تعرف الجانب الآخر للأشياء. كان يعتمر قبعة كبيرة سوداء مثل جناحي غراب

---

(1) الحصاف pelagra أو داء الذرة: مرض خطير ناشئ عن سوء التغذية.

(2) الدبيلي bubonica داء يسببه خُرّاج كبير يظهر في الجوف.

مفتوحين، ويرتدي صدرية مخملية غطاها زنجار القرون. ولكنه، على الرغم من سعة علمه، ومن جوّه السري الغامض، كان له وزن إنساني، شرط أرضي، يبقيه متورطاً في مشاغل الحياة اليومية الصغرى. كان يشكو من أمراض الشيخوخة، ويعاني من أتفه النكسات المادية. وكان قد انقطع عن الضحك منذ أمد بعيد، لأن داء الحفر أودى بكل أسنانه. وفي الظهيرة الخانقة التي كشف فيها أسراره، أيقن خوسيه أركاديو بوينديا أنها بداية صداقة عظيمة. وقد ذهل الصغار بحكاياته العجيبة. وأوريليانو الذي لم يكن له من العمر، آنذاك، أكثر من خمس سنوات، سيتذكر طوال ما تبقى من حياته، كيف رآه في تلك الظهيرة، جالساً أمام خلفية ضوء النافذة المعدني المتوهج، منيراً بصوته العميق كأرغن، أشد أراضي المخيلة ظلمة، بينما تسيل على صدغيه قطرات الشحم التي يذيبها الحر. ولسوف ينقل أخوه الأكبر، خوسيه أركاديو، تلك الصورة المدهشة، كذكرى متوارثة، إلى كل ذريته. أما أورسولا بالمقابل، فاحتفظت بذكرى سيئة من تلك الزيارة، لأنها دخلت الغرفة في اللحظة التي كسر فيها ميلكيادس، سهواً، قارورة فيها بيكلورور الزئبق.

- إنها رائحة الشيطان - قالت.

فصحح لها ميلكيادس:

- غير صحيح مطلقاً. فمن المثبت أن للشيطان خصائص كبريتية، أما هذا فليس إلا قليلاً من الزئبق المُصعّد (السُليماني).

وباندفاعه التعليمي الدائم، قدم عرضاً مفصلاً لمزايا الزُنْجُفر الشيطانية. لكن أورسولا لم توله اهتماماً، وإنما أخذت الطفلين للصلاة. وقد ظلت تلك الرائحة اللاذعة مرتبطة، في ذاكرتها، إلى

الأبد، بذكرى ميلكيادس.

كان المخبر البدائي مؤلفاً - فضلاً عن وفرة من القدور، والأقماع، والمُعَوَّجات، والمُرشِّحات، والمصافي - من أنبوب بدائي، وأنبوبة اختبار زجاجية، عنقها طويل وضيق، تحاكي **البيضة الفلسفية**، وجهاز تقطير من صنع الغجر أنفسهم، وفق المواصفات الحديثة لإنبيق ماري اليهودية ذي الثلاثة أذرع. وإضافة إلى هذه الأشياء، ترك ميلكيادس نماذج من المعادن السبعة المطابقة للكواكب السبعة، ومعادلات موسى وزوسيم لمضاعفة الذهب، ومجموعة ملاحظات ورسوم حول عمليات **المعلم الأكبر** التي تتيح، لمن يتوصل إلى حل رموزها، محاولة صنع الحجر الفلسفي. ومفتوناً بسهولة معادلات مضاعفة الذهب، راح خوسيه أركاديو بويندیا یغازل أورسولا طوال عدة أسابيع، كي تسمح له بالنبش عن عملاتها الاستعمارية المطمورة في الأرض، ومضاعفتها مرات، بالقدر الذي تتيحه تجزئة الزئبق. استسلمت أورسولا، مثلما يحدث دائماً، لإلحاح زوجها اللجوج. عندئذ ألقى خوسيه أركاديو بويندیا، ثلاثين مسكوكة ذهبية قديمة في قِدر، وصهرها مع برادة نحاس، ورهج الزرنيخ الأصفر، وكبريت ورصاص. ووضع ذلك كله يغلي على نار حامية، في قدر مملوءة بزيت الخروع، إلى أن حصل على سائل كثيف ونتن، أشبه بسكاكر الكاراميلا العادية منه بالذهب العظيم. وبعد عمليات تقطير عشوائية ويائسة، وصهر مع معادن الكواكب السبعة، ومعالجة بالزئبق المحكم والزاج القبرصي، ثم إعادة طهوٍ بشحم الخنزير، لعدم وجود زيت الفجل، اختُزل ميراث أورسولا الثمين إلى شحم متفحم لا يمكن انتزاعه من قعر القدر.

عندما رجع الغجر، كانت أورسولا قد هيأت جواً معادياً لهم بين الأهالي كلهم. لكن الفضول تغلب على الخوف، لأن الغجر جابوا القرية في تلك المرة، مطلقين ضجة تبعث على الصمم، من كل أنواع الآلات الموسيقية، بينما كان المنادي يعلن عن عرض أكثر اكتشافات النازسيانسين خرافية. وهكذا ذهب الجميع إلى الخيمة، وبدفع سنتافو واحد، رأوا ميلكيادس شاباً متجدداً، دون تجاعيد، وبأسنان جديدة لامعة. ومن يتذكرون لثته التي عاث بها الإسقربوط فساداً، وخديه المترهلين وشفتيه الذاويتين، ارتجفوا ذعراً حيال ذلك الدليل الحاسم على قوى الغجري الخارقة. وتحول الذعر إلى رعب، عندما انتزع ميلكيادس أسنانه السليمة التي ترصع لثته، وعرضها على الجمهور للحظة - لحظة خاطفة، عاد خلالها رجل السنوات السابقة الهرم نفسه - ثم أعادها ثانية إلى فمه، وابتسم من جديد، بسيطرة تامة على شبابه المرمم. حتى إن خوسيه أركاديو بويندیا نفسه، اعتبر أن معارف ميلكيادس قد بلغت حدوداً لا يمكن التساهل معها. ولكنه أحس بابتهاج صحي، عندما بيّن له الغجري، على انفراد، آلية أسنانه الاصطناعية. بدا له ذلك بسيطاً وعجيباً في الوقت نفسه، وفقد بين عشية وضحاها أي اهتمام بأبحاثه الخيميائية، وعانى أزمة تعكر مزاج جديدة، ولم يعد يأكل بصورة منتظمة، وصار يقضي يومه متجولاً في أنحاء البيت. وكان يقول لأورسولا: «تحدث في العالم أشياء لا تُصدق. فهناك بالضبط، على ضفة النهر الأخرى، توجد كل أنواع الأجهزة السحرية، بينما نواصل نحن العيش كالحمير». ومن يعرفونه منذ أزمنة تأسيس ماكوندو، كانوا مذهولين بمقدار التبدل الذي طرأ عليه بتأثير ميلكيادس.

لقد كان خوسيه أركاديو بويندِيا، في البدء، أشبه ببطريرك فتي، يقدم توجيهات بشأن مواعيد البذار، ونصائح لتربية الأطفال والحيوانات، ويشارك في كل شيء، بما في ذلك الأعمال الجسدية، من أجل حسن سير حياة الجماعة. ولأن بيته كان منذ اللحظة الأولى، الأفضل في القرية، فقد أعيد ترتيب البيوت الأخرى على شاكلته. كانت فيه قاعة واسعة وجيدة الإضاءة، وغرفة طعام على شكل شرفة فيها أزهار ذات ألوان بهيجة، وغرفتا نوم، وفناء فيه شجرة كستناء عملاقة، وبستان صغير أُحسن زرعه، وحظيرة تعيش فيها جنباً إلى جنب، بوئام، الماعز والخنازير والدجاج. وكانت الحيوانات الوحيدة المحظورة، ليس في البيت فقط، وإنما في القرية كلها، هي ديوك المصارعة.

كان دأب أورسولا في أعمالها، يجاري دأب زوجها. لقد كانت نشيطة، ضئيلة، صارمة، تلك المرأة ذات الأعصاب الراسخة، والتي لم تُسمع، في أي لحظة من حياتها، تدندن أغنية، وتبدو كما لو أنها في كل مكان، منذ الفجر حتى ساعة متقدمة من الليل، يتبعها على الدوام الحفيف الخافت لتنانيرها المنشاة. بفضلها كانت الأرضية الترابية مرصوصة، وجدران الطين دون تبييض، والأثاث الخشن الذي صنعوه بأيديهم نظيفاً دائماً، والصناديق القديمة التي تُحفظ فيها الثياب، تنبعث منها رائحة حبق فاترة.

كان خوسيه أركاديو بويندِيا، الرجل الذي لم تعرف القرية قط من هو أكثر مبادرة منه، قد رتب أوضاع البيوت، بحيث يمكن الوصول منها جميعاً إلى النهر، والتزود بالماء، بجهد متساوٍ. وخطط الشوارع بحصافة، بحيث لا يتلقى أحد البيوت قدراً أكبر من حرارة الشمس، في ساعات اشتداد الحر. وخلال سنوات

قصيرة، صارت ماكوندو، بسكانها الثلاثمئة، أفضل القرى المعروفة حتى ذلك الحين تنظيماً وانكباباً على الشغل. كانت في الحقيقة قرية سعيدة، لا أحد فيها يزيد عمره على الثلاثين سنة، ولم يمت أحد فيها بعد.

منذ أزمنة التأسيس، صنع خوسيه أركاديو بوينديا أفخاخاً وأقفاصاً. وخلال وقت قصير امتلأت بيوت القرية كلها، وليس بيته فقط، بطيور التروبيال والكناري والقرقف الأزرق وأبي الحناء. وصارت أوركسترا تلك العصافير المتنوعة كلها، تسبب البلبلة، فسدت أورسولا أذنيها بشمع النحل حتى لا تفقد حسها بالواقع. وعندما جاءت قبيلة ميلكيادس أول مرة، لتبيع كرات زجاجية لعلاج وجع الرأس، فوجئ الجميع بتمكنهما من العثور على تلك القرية الضائعة في سبات منطقة المستنقعات، فاعترف الغجر بأنهم استرشدوا، في توجههم، بتغريد الطيور.

اختفت روح المبادرة الاجتماعية تلك خلال وقت قصير، تذروها حمى المغناطيسين، والحسابات الفلكية، وأحلام تحويل المعادن، واللهفة إلى معرفة عجائب الدنيا. وتحول خوسيه أركاديو بوينديا من شخص مبادر ونظيف، إلى رجل ذي مظهر متشرد، مهمل في ملبسه، بلحيةٍ مشعثة لا تتمكن أورسولا من تشذيبها إلا بمشقة، مستخدمة إحدى سكاكين المطبخ. ولم يكن يعدم من يعتبره ضحية نوع غريب من السحر الخبيث. ولكن أشد المقتنعين بجنونه، هجروا أعمالهم وأسرهم للحاق به، عندما ألقى أدوات الحفر على كتفه، وطلب مساعدة الجميع، لشق درب يضع ماكوندو على اتصال بالاختراعات العظيمة.

كان خوسيه أركاديو بوينديا يجهل تماماً جغرافية المنطقة. وما

كان يعرفه هو أن هناك، باتجاه الشرق، سلسلة جبال لا يمكن اجتيازها، وفي الجانب الآخر من السلسلة، توجد مدينة ريوهاتشا القديمة، حيث في عهود غابرة - مثلما أخبره جده أوريليانو بوينديا الأول - كان السير فرانسيس دريك، يستمتع برياضة اصطياد التماسيح بقذائف المدافع، ثم يرقِّع جلودها بعد ذلك، ويملؤها بالقش، ليحملها إلى الملكة إليزابيث. كان خوسيه أركاديو بوينديا قد اجتاز، هو ورجاله، سلسلة الجبال في شبابهم، مع نسائهم وأطفالهم وحيواناتهم وكل أنواع اللوازم البيتية، بحثاً عن مخرج إلى البحر، ثم تخلوا بعد ستة وعشرين شهراً عن مشروعهم ذاك، وأسسوا ماكوندو كي لا يضطروا إلى العودة من حيث جاؤوا. لم تكن تهمه طريق العودة تلك، لأنها لن تقوده إلا إلى الماضي. أما إلى الجنوب، فكانت المستنقعات التي تغطيها قشدة فطريات نباتية أبدية، وعالم الثيناغا (المستنقع) الكبير الذي لا تحده حدود، حسب شهادة الغجر. فالثيناغا الكبير، يختلط في الغرب بامتداد مائي بلا أفق، حيث توجد حيتان ذات جلود رقيقة، لها رؤوس النساء وجذوعهن، تضلل البحارة بفتنة أثدائها الضخمة. وكان الغجر يبحرون ستة شهور في ذلك الطريق البحري، قبل أن يصلوا إلى حزام الأرض اليابسة، حيث تمرّ بغال البريد. ووفقاً لحسابات خوسيه أركاديو بوينديا، فإن الإمكانية الوحيدة للاتصال بالحضارة، هي في اتخاذ طريق الشمال. وهكذا زود الرجالَ أنفسهم الذين رافقوه في تأسيس ماكوندو، بأدوات الحفر وأسلحة الصيد؛ ووضع ما لديه من أدوات التوجه والخرائط في جعبة الظهر، وانطلق في تلك المغامرة المخيفة.

لم تواجههم في الأيام الأولى أية عقبة تستحق الذكر. ساروا

نزولاً مع ضفة النهر حتى المكان الذي وجدوا فيه، قبل سنوات، درع المحارب؛ ومن هناك توغلوا في الغابة عبر درب تحف به أشجار البرتقال البري. وفي نهاية الأسبوع الأول، قتلوا غزالاً وشووه، ولكنهم اكتفوا بأكل نصفه، وتمليح ما تبقى من أجل الأيام التالية. كانوا يحاولون بهذا الإجراء تأجيل اضطرارهم إلى مواصلة أكل ببغاوات الغواكامايّا التي للحمها الأزرق طعم المسك الحرّيف. وبعد ذلك، مضت عشرة أيام لم يروا خلالها الشمس. صارت الأرض طرية ورطبة، مثل رماد بركاني. وصارت الخضرة أكثر فأكثر خداعاً، وتباعد زعيق الطيور وصخب القرود أكثر فأكثر، وصار العالم كئيباً إلى الأبد. أحس رجال الحملة بأن أقدم ذكرياتهم تُثقل عليهم في جنة الرطوبة والصمت تلك السابقة على الخطيئة الأصلية، حيث تغوص الجِزَمُ في حفر زيوت مدخنة، وتقطع مناجل المتشيتي زنابق دامية وسمادل مذهبة. وطوال أسبوع، دون أن يتبادلوا الكلام تقريباً، تقدموا كمنومين في عالم من الغم، تكاد لا تضيء عليهم فيه سوى انعكاسات خافتة من حشرات مضيئة، وبرئات تُثقل عليها رائحة دم خانقة. ولم يعد بإمكانهم الرجوع، لأن الدرب الذي كانوا يشقونه بمرورهم، يعود للانغلاق بعد قليل بخضرة جديدة، يرونها تنمو أمام عيونهم تقريباً. فكان خوسيه أركاديو بوينديا يقول: «ليس مهماً. فالأمر الأساسي هو ألا نفقد الاتجاه». وبمراقبته الدائمة للبوصلة، واصل قيادة رجاله باتجاه الشمال غير المرئي، إلى أن تمكنوا من الخروج من المنطقة المسحورة. كانت ليلة شديدة الكثافة، لا نجوم فيها، غير أن الظلمة كانت تعبق بهواء جديد ونقي. كانوا منهوكين من المسيرة الطويلة، فعلقوا أراجيح نومهم، وناموا بعمق لأول مرة منذ

أسبوعين. وعندما استيقظوا، وكانت الشمس قد ارتفعت، ففروا أفواههم مفتونين. فأمامهم، محاطة بالسرخس والنخيل، بيضاء ومعفرة على نور الصباح الصامت، كانت تنتصب سفينة شراعية إسبانية ضخمة. مائلة قليلاً على ميمنتها، تتدلى من صواريها السليمة مزق متسخة من شراعها، بين حبال ومعدات مذهبة بما نما عليها من أزهار الأوركيديا. وكان هيكلها المغطى بطبقة من أسماك اللشك المتحجرة والطحالب الطرية، مغروساً بثبات في أرض صخرية. بدت تلك العمارة بأكملها وكأنها في جو خاص بها، حيز من العزلة والنسيان، محمية من آفات الزمن وعادات الطيور. وفي داخلها الذي استطلعه رجال الحملة بحماس متيقظ، لم يكن هناك شيء سوى أجمة كثيفة من الأزهار.

حطم العثور على السفينة، وهو مؤشر إلى قرب البحر، اندفاع خوسيه أركاديو بوينديا. فقد رأى أن من سخريات قدره اللعوب، أن يكون قد بحث عن البحر، دون أن يجده، متكبداً تضحيات وعذابات لا حصر لها، ثم يجده الآن دون أن يبحث عنه، معترضاً طريقه كعقبة لا سبيل إلى تجاوزها. بعد سنوات طويلة من ذلك، عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا لاجتياز تلك المنطقة، بعد أن صارت طريقاً نظامية للبريد، وكان الشيء الوحيد الذي وجده من السفينة هو هيكل أضلاعها المتفحمة، وسط حقل من شقائق النعمان. ولاقتناعه عندئذ فقط، بأن تلك القصة لم تكن من بنات مخيلة أبيه، تساءل كيف أُمكن للسفينة التوغل إلى هذه البقعة من اليابسة. ولكن خوسيه أركاديو بوينديا لم يطرح على نفسه هذا التساؤل عندما وجد البحر، بعد أربعة أيام أخرى من المسير، وعلى بعد اثني عشر كيلومتراً من السفينة. فقد توقفت أحلامه قبالة

ذلك البحر الذي بلون الرماد، المزبد والقذر، والذي لا يستحق ما تطلبته مغامرته من المجازفة والتضحيات. فصاح:

- يا للعنة! ماكوندو محاطة بالماء من كل الجهات.

سادت لزمن طويل فكرة أن ماكوندو هي شبه جزيرة، بوحي من الخريطة الاعتباطية التي رسمها خوسيه أركاديو بوينديا، حين رجع من حملته. لقد رسم خطوطها بسخط، مبالغاً في مصاعب الاتصال عن عمد، وبسوء نية، كما لو أنه يريد معاقبة نفسه لانعدام التبصر الذي اختار به موقع القرية. وصار يتحسر أمام أورسولا: «لن نستطيع الوصول إلى أي مكان قطّ. سوف نتعفن هنا في الحياة، دون أن نتلقى منافع العلم». وقد قاده هذا اليقين الذي اجتره، في حجيرة مخبره، طوال شهور عديدة، إلى وضع تصور لفكرة نقل ماكوندو إلى مكان أكثر ملاءمة. غير أن أورسولا استبقت هذه المرة نواياه المحمومة. فحرضت، بدأب نملة وبسرية، نساء القرية ضد تقلب أهواء رجالهن الذين بدؤوا يستعدون للرحيل. ولم يدر خوسيه أركاديو بوينديا، في أي لحظة، ولا بفعل أية قوى مضادة، راحت خططه تتعرقل في شبكة عويصة من الذرائع، والعوائق الطارئة، وأشكال التملص، إلى أن تحولت ببساطة إلى مجرد وهم. وكانت أورسولا تراقبه باهتمام بريء، إلى أن أحست بقليل من الشفقة عليه، في صباح اليوم الذي وجدته فيه في حجيرة أقصى الفناء، يناقش نفسه، بصوت من بين أسنانه، في أحلام الرحيل، بينما هو يرتب أجزاء مخبره في صناديقها الأصلية. تركته ينهي ذلك. وتركته يُسمِّر الصناديق ويكتب عليها الحروف الأولى من اسمه بريشة مبللة بالحبر، دون أن توجه إليه أي تأنيب، ولكنها كانت تعرف أنه يعرف (لأنها

سمعته يقول ذلك في منولوجاته الخافتة) بأن رجال القرية لن يشاركوه في مغامرته. وحين بدأ بفك باب المخبر، تجرأت أورسولا على سؤاله لماذا يفعل ذلك، فأجابها بشيء من المرارة: «بما أن أحداً لا يود الرحيل، فسوف نذهب وحدنا». فلم تتأثر أورسولا، وقالت:

- لن نذهب. سنبقى هنا، لأننا أنجبنا هنا ابناً.

فقال:

- لكن أحداً لم يمت لنا بعد. والمرء لا ينتمي إلى أي مكان، ما دام ليس له فيه ميت تحت التراب.

وردت أورسولا بحزم لطيف:

- إذا كان لا بد من أن أموت كي تبقوا هنا، فإنني سأموت.

لم يتصور خوسيه أركاديو بوينديا أن إرادة امرأته ستكون بتلك الصلابة. وحاول أن يغريها بسحر تخيلاته، والوعد بعالم عجيب، يكفي أن تُصب فيه بعض السوائل السحرية على الأرض حتى تعطي النباتات ثمارها وفق مشيئة الإنسان، وحيث تباع، بأبخس الأثمان، كل أنواع أجهزة معالجة الآلام. لكن أورسولا لم تتأثر بتنبؤاته، وردت عليه:

- بدل أن تقضي الوقت في التفكير بتخيلاتك الجنونية، عليك أن تعتني بابنيك. انظر إليهما، إنهما متروكان لرحمة الله، مثل الحمير.

أخذ خوسيه أركاديو بوينديا كلمات امرأته بحرفيتها. فنظر من النافذة، ورأى الطفلين حافيين في البستان المشمس، وراوده إحساس بأنهما قد بدأا بالوجود في تلك اللحظة فقط، بقدرة مناشدة أورسولا له. عندئذ حدث شيء في داخله؛ شيء غامض

وحاسم اجتثه من زمنه الحاضر، وحمله دون هدى عبر منطقة غير مرتادة من الذكريات. وبينما واصلت أورسولا كنس البيت الذي أيقنت الآن أنها لن تغادره طوال ما تبقى من حياتها، ظل هو يتأمل الطفلين بنظرة ساهمة، إلى أن اغرورقت عيناه بالدموع، فمسحهما بظاهر يده، وأطلق زفرة استسلام عميقة. ثم قال:

- حسن. قولي لهما أن يأتيا لمساعدتي في إخراج الأشياء من الصناديق.

كان خوسيه أركاديو، أكبر الطفلين، قد أكمل أربع عشرة سنة. له رأس مربع، وشعر كثيف، وطبع أبيه العنيد. وعلى الرغم من تمتعه بفورة أبيه نفسها في نموه ومتانته الجسدية، إلا أن افتقاره إلى المخيلة كان واضحاً منذ ذلك الحين. لقد حملت به أمه وأنجبته خلال رحلة اجتياز سلسلة الجبال الشاقة، قبل أن إنشاء ماكوندو. وقد شكر أبواه السماء حين تأكدا من عدم وجود أي عضو حيواني فيه. أما أوريليانو، أول كائن بشري ولد في ماكوندو، فكان سيبلغ السادسة من عمره في آذار. وكان صامتاً ومنطوياً على نفسه. وقد بكى وهو في بطن أمه، وخرج إلى النور بعينين مفتوحتين. وبينما هم يقطعون له الحبل السري، كان يحرك رأسه من جهة إلى أخرى، ليتعرف على أشياء الغرفة، ويتفحص وجوه الناس بفضول ودون دهشة. وبعد ذلك، وبلا مبالاة بمن يقتربون منه للتعرف عليه، أبقى اهتمامه مركّزاً على سقف السعف الذي بدا وكأنه سينهار تحت وابل المطر الرهيب. ولم تعد أرسولا إلى تذكر زخم تلك النظرة، حتى يومٍ دخل فيه أوريليانو الصغير المطبخ، وهو في السنة الثالثة من عمره، في اللحظة التي كانت ترفع فيها قِدراً تغلي عن الموقد وتضعها على المائدة. فقال

الصغير المتردد، وهو عند الباب: «سوف تسقط.» كانت القدر ثابتة تماماً في وسط المنضدة، لكنها بدأت تتحرك، فور إعلان الطفل ذلك، حركة لا رجوع عنها باتجاه الحافة، وكأنها مدفوعة بآلية داخلية، وتهشمت على الأرض. روت أورسولا المذعورة الحادثة لزوجها، لكن هذا فسرها على أنها ظاهرة طبيعية. هكذا كان دائماً، غير عابئ بوجود ابنيه، لأنه يعتبر الطفولة مرحلة قصور عقلي من جهة، ولأنه كان مستغرقاً تماماً، على الدوام، في تأملاته الخيالية من جهة أخرى.

ولكنه منذ مساء اليوم الذي استدعى فيه الطفلين لمساعدته في إفراغ أدوات المخبر من الصناديق، كرس لهما ساعات وقته. وفي تلك الحجرة المنفصلة التي راحت جدرانها تمتلئ، شيئاً فشيئاً، بخرائط غير معقولة، ومخططات خيالية، علّمهما القراءة والكتابة والحساب، وحدّثهما عن عجائب الدنيا، ليس بالقدر الذي تتيحه له معارفه، وإنما بعصر مخيلته إلى حدود لا تُصدق. وكان أن تعلم الطفلان، بهذه الطريقة، أن هناك في أقصى جنوبي أفريقيا، بشراً بالغي الذكاء ومحبين للسلام، شاغلهم الوحيد هو الجلوس للتفكير والتأمل، وأنه بالإمكان اجتياز بحر إيجة سيراً على الأقدام، بالقفز من جزيرة إلى أخرى، حتى الوصول إلى ميناء سالونيك. لقد ظلت تلك الجلسات الهذيانية مطبوعة في ذاكرة الطفلين، لدرجة أنه بعد سنوات طويلة، وقبل ثانية واحدة من إصدار ضابط الجيش النظامي، الأمر لفصيلة الإعدام، بإطلاق النار، عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا ليعيش ذلك المساء الدافئ من شهر آذار، عندما قطع أبوه درس الفيزياء، ووقف مشدوهاً، يده معلقة في الهواء وعيناه جامدتان دون حراك، مصغياً، من

بعيد، إلى نايات الغجر وطبولهم وخشخاشاتهم، في قدومهم مرة أخرى إلى القرية، ليعلنوا عن اختراع حكماء ممفيس الأخير والمذهل.

كانوا غجراً جدداً. نساء ورجال في ريعان الشباب، لا يتكلمون سوى لغتهم، نماذج بشرية بديعة، ذات بشرة زيتية، وأيد بارعة، زرعت رقصاتهم وموسيقاهم في الشوارع جنون مرح صاخب، مع ببغاواتهم الملونة بكل الألوان، والتي ترتل أغنيات رومانس إيطالية، والدجاجة التي تبيض مئة بيضة ذهبية على إيقاع الدف، والقرد المروَض الذي يحزر الأفكار، والآلة متعددة الاستخدامات التي تنفع في الوقت نفسه لتثبيت الأزرار وخفض حرارة الحمى، وجهاز نسيان الذكريات الخبيثة، ولزقة تبديد الوقت، وألف اختراع آخر، جميعها عبقرية وفريدة، حتى إن خوسيه أركاديو بوينديا، رغب في اختراع آلة الذاكرة، كي يتذكر كل تلك الآلات.

لقد قلبوا القرية في لحظة واحدة. ووجد أهالي ماكوندو أنفسهم، فجأة، ضائعين في شوارع قريتهم، مشدوهين بذلك المهرجان الحاشد.

أمسك خوسيه أركاديو بوينديا كل واحد من الطفلين بإحدى يديه، كيلا يضيعا في الزحام، ومرّ بمشعوذين أسنانهم ملبسة بالذهب، وبهلوانات لهم ستة أذرع، وأحس بالاختناق برائحةٍ هي خليط من الروث والصندل، تفوح من الجموع المحتشدة. ومضى يمشي كمجنون، باحثاً عن ميلكيادس في كل مكان، ليكشف له أسراراً لا حصر لها في ذلك الكابوس الخرافي. توجه إلى غجر عديدين لم يفهموا لغته. وأخيراً اتجه إلى المكان الذي اعتاد ميلكيادس نصب خيمته فيه، فوجد أرمنياً قليل الكلام، يعلن

بالقشتالية عن شراب الإخفاء. وكان قد شرب، في جرعة واحدة، كأساً من السائل العنبري، عندما شق خوسيه أركاديو بوينديا طريقه بمنكبيه، وسط حشد مذهول يشهد الاستعراض، وتمكن من توجيه السؤال إليه. أحاطه الغجري بجو نظرته الذاهلة، قبل أن يتحول إلى بقعة نتنة ومدخنة من القطران، بقيت تطفو فوقها أصداء إجابته: «لقد مات ميلكيادس». ظل خوسيه أركاديو بوينديا الذي صعقه الخبر، جامداً، يحاول أن يسيطر على حزنه، إلى أن تفرق الحشد في طلب ألاعيب أخرى، وتبخرت تماماً بقعة الأرمني قليل الكلام. وفي ما بعد ذلك، أكد له غجر آخرون أن ميلكيادس قد مات فعلاً، تحت وطأة الحمى في كثبان شواطئ سنغافورة، وأن جثمانه قد ألقي في أعمق مكان من بحر جاوا. لم يهتم ابناه بالخبر. فقد كانت تتسلط على عقليهما فكرة أن يأخذهما أبوهما للتعرف على أعجوبة حكماء ممفيس الجديدة التي أُعلن عنها على مدخل خيمة كانت، حسب زعمهم، للملك سليمان. وقد ألحا إلى حدّ دفع معه خوسيه أركاديو بوينديا ثلاثين ريالاً، واقتادهما إلى وسط الخيمة، حيث كان يقف مارد حليق الرأس، يغطي صدره شعر كثيف، ويتدلى من أنفه خاتم من النحاس، وتحيط بكاحليه سلسلة ثقيلة من الحديد، يحرس صندوق قرصان. ما إن رفع المارد الغطاء حتى انبعثت منه نفحة جليدية. لم يكن في الصندوق إلا كتلة ضخمة شفافة، فيها عدد لا حصر له من الإبر، يتفتت عليها ضوء الغسق في نجوم ملونة. استولت الحيرة على خوسيه أركاديو بوينديا، وهو يعلم أن الطفلين ينتظران منه تفسيراً فورياً، فتجرأ على الدمدمة:

- إنها أكبر ماسة في العالم.

فصحح الغجري:

- لا. إنه جليد.

ودون أن يفهم خوسيه أركاديو بوينديا ما يعنيه ذلك، مد يده إلى كتلة الثلج، لكن المارد أزاحها بعيداً وهو يقول: «خمسة ريالات أخرى للمسها.» دفع خوسيه أركاديو بوينديا، ووضع يده عندئذ على الجليد، وأبقاها عدة دقائق، بينما كان قلبه يتضخم خوفاً ونشوة من ذلك الملمس الغامض. ودون أن يدري ما يمكنه قوله، دفع عشرة ريالات أخرى كي يعيش ابناه تلك التجربة العجيبة. رفض خوسيه أركاديو الصغير لمسها. أما أوريليانو، فتقدم خطوة إلى الأمام، ووضع يده، ثم سحبها على الفور وهو يصيح مذعوراً: «إنها تغلي». لكن أباه لم يعره انتباهاً. فقد نسي في تلك اللحظة، وهو منتشٍ بجلاء الأعجوبة، إخفاق مشاريعه الهذيانية، وجثمان ميلكيادس المهجور لشهية الحباريات البحرية. دفع خمسة ريالات أخرى، وهتف وهو يضع يده على الكتلة، وكأنه يقدم شهادة ويده على الكتاب المقدس:

- هذا هو أعظم اختراعات عصرنا.

عندما هاجم القرصان فرنسيس دريك مدينة ريوهاتشا، في القرن السادس عشر، ارتعبت أم جدة أورسولا إغواران من قرع أجراس الإنذار ودوي المدافع، ففقدت السيطرة على أعصابها، وجلست على الموقد المشتعل. فخلّفتها الحروق وقد تحولت إلى زوجة لا نفع فيها مدى الحياة. ولم يعد بإمكانها الجلوس إلا على جنب واحد، محاطة بالوسائد. ولا بد أن شيئاً غريباً قد أثَّر على طريقتها في المشي، لأنها لم تعد قطُّ إلى السير على مرأى من الناس. وتخلت عن كل العادات الاجتماعية، بعد أن تسلطت على عقلها فكرة أن رائحة شواط تنبعث من جسدها. كان الفجر يفاجئها، وهي في الفناء، لا تجرؤ على النوم، لأنها كانت تحلم بأن الإنكليز، ومعهم كلاب اقتحامهم المتوحشة، يدخلون من نافذة مخدعها، ويخضعونها لأعمال تعذيب مخجلة، بحدائد محماة حتى الاحمرار. وقد أنفق زوجها، التاجر الأراغونيّ الذي أنجبت منه ابنين، نصف متجره على الأدوية ووسائل اللهو، لعله يجد طريقة يهدئ بها من رعبها. وأخيراً صفى تجارته وانتقل بأسرته للعيش بعيداً عن البحر، في دسكرة هنود مسالمين، تقوم على أحد منحنيات سلسلة الجبال، وبنى لزوجته هناك، غرفة نوم بلا نوافذ، كيلا يجد قراصنة كوابيسها مكاناً يدخلون منه.

كان يعيش، منذ زمن بعيد، في تلك الدسكرة النائية، مزارعُ

تبغ كريوليّ، يدعى دون خوسيه أركاديو بوينديا، أقام معه جد أورسولا الثالث شراكة تجارية مزدهرة، وفرت لهما جمع ثروة خلال سنوات قليلة. وبعد قرون من ذلك، تزوج حفيد الكريولي من حفيدة الأراغونيّ. ولهذا كانت أورسولا، كلما أخرجها جنون زوجها عن طورها، تقفز راجعة فوق ثلاثمئة سنة من المصادفات، لتلعن الساعة التي هاجم فيها فرنسيس دريك مدينة ريوهاتشا. لقد كانت مجرد وسيلة للتفريج عن نفسها، لأنهما كانا مرتبطين في الحقيقة، حتى الموت، برباط أشد متانة من الحب: رباط تأنيب الضمير المشترك. فقد كانا ابني عم. ترعرعا معاً في الدسكرة القديمة التي حولها أجدادهما، بالعادات الحميدة، إلى واحدة من أفضل قرى المقاطعة. ومع أن زواجهما كان قد مقرراً سلفاً، قبل مجيئهما إلى الدنيا، فإن ذويهما أنفسهم حاولوا منع ذلك الزواج، عندما أعلنا رغبتهما فيه. فقد خشي أفراد الأسرتين من أن يتعرض هذان الفرعان السليمان المعافيان من سلالتين، اختلطتا بالتزاوج منذ أجيال، لعار إنجاب عظاءات إغوانا. وقد كانت هناك سابقة رهيبة. فإحدى عمات أورسولا التي تزوجت من عم لخوسيه أركاديو بوينديا، أنجبت ابنا أمضى حياته كلها ببنطال واسع فضفاض يضمه، ومات نزفاً بعد أن عاش اثنتين وأربعين سنة من العذرية الخالصة، لأنه ولد وكبر بذيلٍ غضروفي على شكل لولب، ينتهي بخصلة شعر. لقد كان له ذنب خنزير، لم يسمح قط لأي امرأة أن تراه. وكلفه حياته، عندما أراد صديقٌ جزارٌ أن يقدم له جميلاً، وأقدم على قطع الذيل بساطور الجزارة. وبطيش سنوات عمره التسع عشرة، حلّ خوسيه أركاديو بوينديا المشكلة بجملة واحدة: «لا يهمني أن أنجب خنازير، ما داموا قادرين على التكلم».

وهكذا تزوجا في حفلِ موسيقى وألعاب نارية استمر ثلاثة أيام. وكان يمكن لهما أن يعيشا سعيدين منذ ذلك اليوم، لو لم تعمد أم أورسولا إلى إخافتها بكل أنواع النبوءات المشؤومة عن ذريتها، إلى أن أوصلها الخوف إلى حد امتناعها تحقيق فعل الزواج. ولخوفها من أن يعمد زوجها القوي والعنيد إلى اغتصابها وهي نائمة، صارت أورسولا تلبس، قبل أن تنام، بنطالاً بدائياً صنعته لها أمها من قماش سميك، وعززته بجهاز من الأحزمة والسيور المتقاطعة، يُغلق من أمام، بإبزيم حديدي سميك. بقيا شهوراً عديدة على تلك الحال. فكان هو يرعى خلال النهار ديوك المصارعة التي يملكها، بينما هي تطرز على الطارة مع أمها. وفي الليل، تحدث بينهما مناوشة، تستمر عدة ساعات، بعنف جزع يبدو بديلاً لفعل الحب، إلى أن اشتم الحدس العام أن شيئاً غير طبيعي يحدث، وانطلقت الشائعة بأن أورسولا ما زالت عذراء بعد سنة من زواجها، لأن زوجها عنين. وكان خوسيه أركاديو بوينديا هو آخر من علم بالإشاعة.

- ها أنت ترين يا أورسولا ما الذي يقوله الناس - قال ذلك لزوجته بهدوء كبير.

فقالت:

- دعهم يتكلمون. فنحن نعرف أن ما يقولونه غير صحيح.

وهكذا استمرت الحال على المنوال نفسه ستة شهور أخرى، حتى يوم الأحد المأساوي الذي كسب فيه خوسيه أركاديو بوينديا صراع ديوك ضد برودينثيو أغيلار. فابتعد الخاسر الغاضب والهائج، لمرأى دماء ديكه، عن خوسيه أركاديو بوينديا، كي يتمكن جميع من في حلبة صراع الديوك من سماع ما سيقول له، وصاح:

- أهنئك. ولنر إذا ما كان هذا الديك سيقدم خدماته أخيراً لامرأتك.

حمل خوسيه أركاديو بوينديا ديكه بهدوء، وقال للجميع: «سأعود حالاً.» ثم توجه إلى برودينثيو أغيلار:

- وأنت، اذهب إلى بيتك وتسلّح، لأني سأقتلك.

رجع بعد عشر دقائق حاملاً رمحاً مجرباً كان لجده. وعند بوابة حلبة صراع الديوك، حيث اجتمع نصف أهالي القرية، كان برودينثيو أغيلار ينتظره. لم يُتح له خوسيه أركاديو بوينديا الوقت للدفاع عن نفسه، لأن رمحه المقذوف بقوة ثور، وبالتسديد الصائب نفسه الذي أباد به أوريليانو بوينديا الأول نمور المنطقة، اخترق حنجرته. في تلك الليلة، بينما كان يجري السهر على الجثمان في حلبة صراع الديوك، دخل خوسيه أركاديو بوينديا إلى غرفة النوم، حين كانت امرأته تقوم بارتداء بنطال العفة. فأمرها وهو يهز الرمح في مواجهتها: «اخلعي هذا». ولم يخامر الشك أورسولا في تصميم زوجها. فدمدمت: «ستكون مسؤولاً عما سيحدث». غرس خوسيه أركاديو بوينديا الرمح في أرض الغرفة الترابية، وقال:

- إذا كنت ستلدين إغوانات[1] فسوف نربي إغوانات. ولكن لن يكون هناك موتى آخرون بسببك في القرية.

كانت ليلة طيبة من ليالي حزيران، ندية ومقمرة، وقد بقيا مستيقظين يتقلبان على السرير حتى الفجر، غير عابئين بالريح التي تنفذ إلى الحجرة، محملة ببكاء ذوي برودينثيو أغيلار.

صُنفت القضية على أنها مبارزة دفاع عن الشرف، ولكن كليهما

---

[1] إغوانات iguanas (مفردها إغوانا) وهي حرباء استوائية ضخمة.

ظلا تحت وطأة وخز الضمير. وفي ليلة لم تجد فيها أورسولا إلى النوم سبيلاً، خرجت إلى الفناء لتشرب ماء، فرأت برودينثيو أغيلار إلى جانب الجرة. كان شاحباً، وبملامح شديدة الحزن، يحاول أن يسد، بسدادة من أوراق الحلفاء، الثقب الذي في حنجرته. لم يسبب لها الخوف، وإنما الشفقة. فرجعت إلى الحجرة لتخبر زوجها بما رأته، لكنه لم يولِ الأمر أهمية، وقال: «الموتى لا يخرجون ثانية. وكل ما هنالك أننا لا نستطيع تحمل وطأة عذاب الضمير.» وبعد ليلتين من ذلك، رأت أورسولا، مرة أخرى، برودينثيو أغيلار في الحمَّام، يغسل بأوراق الحلفاء الدم المتخثر على عنقه. وفي ليلة أخرى رأته يتمشى تحت المطر. تضايق خوسيه أركاديو بوينديا من رؤى زوجته. وخرج إلى الفناء مسلحاً بالرمح. وهناك كان الميت بملامحه الحزينة. فصاح به خوسيه أركاديو بوينديا:

- اذهب إلى الجحيم. فكل مرة تعود فيها، سأعود لقتلك من جديد.

لم ينصرف برودينثيو أغيلار، ولم يجرؤ خوسيه أركاديو على قذفه بالرمح. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يستطيع النوم. فقد كان يقلقه الأسى الهائل الذي نظر به الميت إليه من خلال المطر، والحنين العميق الذي يتشوق به إلى الأحياء، وجزعه في تفتيش البيت بحثاً عن ماء يبلل به سدادة أوراق الحلفاء. وكان يقول لأورسولا: «لا بد إنه يتألم كثيراً. يبدو جلياً أنه وحيد جداً.» وقد تأثرت كثيراً، حتى إنها عندما رأته، في المرة التالية، يرفع أغطية القدور التي على الموقد، أدركت ما الذي يبحث عنه، وصارت منذ ذلك الحين، تضع له طسوت ماء في كل أنحاء البيت. وفي إحدى

الليالي، وجده خوسيه أركاديو بوينديا يغسل جراحه في غرفته نفسها، فلم يستطع الصمود أكثر، وقال له:

- حسن يا برودينثيو. سوف نرحل عن هذه القرية، سنمضي أبعد ما نستطيع، ولن نعود إليها أبداً. فانصرف مطمئناً الآن.

وهكذا انطلقوا في رحلة اجتياز سلسلة الجبال. قام عدد من أصدقاء خوسيه أركاديو بوينديا، شباب مثله، مدفوعين بحب المغامرة، بهجر بيوتهم، وحمل نسائهم وأبنائهم معهم، متوجهين إلى الأرض التي لم يَعِدهم بها أحد. وقبل الرحيل، دفن خوسيه أركاديو بوينديا الرمح في فناء البيت؛ وذبح، واحداً فواحداً، ديوك الصراع البديعة التي كان يملكها، موقناً أنه يمنح برودينثيو أغيلار، بهذه الطريقة، قليلاً من السلام. الشيء الوحيد الذي حملته أورسولا معها، هو صندوق ثياب عرسها، وبعض الأدوات المنزلية، والصندوق الصغير الذي يضم قطعاً ذهبية ورثتها عن أبيها. لم يضعوا لرحلتهم خط سير محدد. وإنما حاولوا فقط أن يمضوا في اتجاه معاكس لطريق ريوهاتشا، حتى لا يخلّفوا وراءهم أثراً، ولا يلتقوا بأناس يعرفونهم. لقد كانت رحلة عبثية. وبعد أربعة عشر شهراً، أتلف فيها لحم القرود وحساء الأفاعي معدة أورسولا، وضعت مولوداً كل أجزاء جسده بشرية. كانت قد قضت نصف الطريق في أرجوحة نوم معلقة بعصا طويلة، يحملها رجلان على كتفيهما، لأن انتفاخ بطنها شوه ساقيها، وبدأت الدوالي تتفجر مثل فقاعات. وعلى الرغم من منظر الأطفال المحزن، ببطونهم المشدودة وعيونهم الواهنة، إلا أنهم تحملوا الرحلة خيراً من آبائهم، وبدت لهم في معظم الأوقات ممتعة ومسلية. وفي صباح أحد الأيام، بعد ما يقارب السنتين من المسير، كانوا أول

البشر الفانين الذين يرون السفح الغربي للسييرا. ومن القمة المكللة بالغيوم، تأملوا بطحاء الماء الشاسعة التي يشكلها المستنقع الكبير الممتد حتى الطرف الآخر من العالم. ولكنهم لم يجدوا البحر قط. وفي إحدى الليالي، بعد شهور من التيه بين المستنقعات، بعيداً عن آخر السكان الأصليين الذين التقوا بهم في الطريق، أقاموا مخيمهم على ضفة نهر حصوي، تبدو مياهه مثل سيل زجاج متجمد. بعد سنوات من ذلك، خلال الحرب الأهلية الثانية، حاول الكولونيل أوريليانو بوينديا أن يسلك الطريق نفسها، ليهاجم ريوهاتشا بصورة مباغتة، ثم أدرك بعد ستة أيام من المسير، أن ما يقوم به مجرد جنون. ومع ذلك، فقد كان لأفراد الجماعة المرافقة لأبيه، في تلك الليلة التي خيّموا فيها قرب النهر، مظهر غرقى لا سبيل لنجاتهم، غير أن عددهم كان قد ازداد خلال الرحلة، وجميعهم كانوا مصممين (وتوصلوا إلى ذلك) على ألا يموتوا إلا من الشيخوخة. وفي تلك الليلة، حلم خوسيه أركاديو بوينديا، بأن مدينة صاخبة تنتصب في ذلك المكان، جدران بيوتها من المرايا. سأل ما هي تلك المدينة، فأجابوه باسم لم يسمع به من قبل، وليس له أي معنى على الإطلاق، غير أنه كان، في الحلم، ذا رنين خارق للطبيعة: **ماكوندو**. وفي اليوم التالي، أقنع رجاله بأنهم لن يجدوا البحر أبداً. وأمرهم بأن يقطعوا الأشجار ليحصلوا على فسحة من الأرض إلى جانب النهر، في أكثر الأمكنة نداوة على الضفة. وهناك أنشأوا القرية.

لم يتوصل خوسيه أركاديو بوينديا إلى تفسير حلم البيوت التي جدرانها من المرايا، حتى اليوم الذي تعرف فيه إلى الجليد. وقد ظن عندئذ أنه فهم معناه العميق. فكر في أنه سيكون بالإمكان،

في مستقبل قريب، صنع كتل من الجليد بكميات كبيرة، من مادة أولية شديدة العادية واليومية، مثل الماء، ليبنوا بها بيوت القرية الجديدة. فلا تعود ماكوندو مكاناً ملتهباً، تلتوي فيها مفصلات الأبواب ومقارعها من الحر، لتتحول إلى مدينة شتائية. وإذا كان لم يلح على محاولات بناء مصنع للجليد، فإنما لأنه كان منكباً آنذاك بحماس على تعليم ابنيه، وخاصة أوريليانو الذي كشف منذ اللحظة الأولى عن ميل نادر إلى الخيمياء. فقد جرى نفض الغبار عن المخبر. وقام بتفحص ملاحظات ميلكيادس، وفعل الآن ذلك بترو، دون الاندفاع إلى المستجدات، وحاول في جلسات عمل طويلة وصبورة، فصل ذهب أورسولا عن البقايا الملتصقة بقعر القدر. كانت مشاركة خوسيه أركاديو الصغير ضئيلة في هذه العملية. وبينما كان أبوه منصرفاً بجسده وروحه إلى موقد المخبر، كان الابن البكر العنيد، والذي كان على الدوام أكبر من عمره، يتحول إلى يافع ضخم. تغير صوته، وبدأ زغب خفيف بالظهور حول فمه. وفي إحدى الليالي، دخلت أورسولا إلى الغرفة وهو يخلع ثيابه لينام، فأحست بشعور مختلط من الخجل والشفقة: لقد كان أول رجل تراه عارياً، بعد زوجها، وكان مجهزاً على أحسن وجه للحياة، حتى إنه بدا لها غير طبيعي. فعاودت أورسولا، وكانت حبلى للمرة الثالثة، مخاوفها التي عانت منها وهي عروس.

كانت تأتي إلى البيت في ذلك الحين، امرأة مرحة، وقحة، مثيرة، للمساعدة في الأعمال المنزلية، وكانت تعرف قراءة المستقبل في ورق اللعب. حدثتها أورسولا عن ابنها. وكانت تظن أن في ضخامة جسده شيئاً غير طبيعي، مثل ذيل الخنزير في ابن عمها. فأطلقت المرأة ضحكة مجلجلة، ترددت أصداؤها في كل

أرجاء البيت، كتَفَتُت الزجاج، وقالت: «بالعكس. سيكون سعيداً.» ولكي تؤكد نبوءتها، جلبت معها بعد أيام ورق اللعب إلى البيت، واختلت بخوسيه أركاديو في مستودع للحبوب مجاور للمطبخ. فردت الورق بهدوء كبير على منضدة نجارة قديمة، وراحت تتحدث عن أي شيء يخطر لها، بينما الفتى ينتظر بجوارها، وهو أقرب إلى الملل منه إلى الدهشة. وفجأة، مدت يدها ولمسته وهي تقول بخوف حقيقي: «يا للعظمة» وكان هذا هو كل ما استطاعت قوله. أحس خوسيه أركاديو بأن عظامه قد امتلأت زبداً، وأنه يشعر بخوف خامل، وبرغبة رهيبة في البكاء. لم تقدم له المرأة أي تلميح، لكن خوسيه أركاديو ظل يبحث عنها طوال الليل، في رائحة الدخان التي تنبعث من تحت إبطيها، والتي ظلت متغلغلة تحت جلده. رغب في أن يكون معها طوال الوقت، وأن تكون هي أمه، وألا تخرج أبداً من المستودع، وأن تقول له يا للعظمة، وأن تعود للمسه والقول له يا للعظمة. وذات يوم، لم يعد يستطيع التحمل، فذهب للبحث عنها في بيتها. قام بزيارة رسمية، غير مفهومة، وظل جالساً في الصالة، دون أن ينطق بكلمة واحدة. لم يشتهها في تلك اللحظة. فقد وجدها مختلفة، غريبة تماماً عن الصورة التي توحي بها رائحتها، كما لو أنها امرأة أخرى. شرب القهوة، وغادر البيت محبطاً. وفي تلك الليلة، في هول الأرق، عاد لاشتهائها بلهفة وحشية، ولكنه لم يرغب فيها عندئذ مثلما كانت في مستودع الحبوب، وإنما مثلما رآها في عصر ذلك اليوم.

وبعد عدة أيام، وبصورة غير متوقعة، دعته المرأة إلى بيتها، حيث كانت وحيدة مع أمها، وأدخلته إلى غرفة النوم بحجة أنها ستعلمه إحدى خدع ورق اللعب. وراحت تلمسه عندئذ بكل حرية،

حتى إنه أحس بخيبة أمل بعد الرعشة الأولية، وكان شعوره بالخوف أكبر من إحساسه باللذة. وطلبت منه أن يأتي إليها في تلك الليلة. أبدى الموافقة، لكي يخرج من المأزق، وهو يعلم أنه سيكون عاجزاً عن الذهاب. لكنه أدرك في تلك الليلة، وهو في سريره الملتهب، بأن عليه أن يذهب إليها حتى لو كان عاجزاً عن ذلك. ارتدى ثيابه بالتلمس، وهو يسمع في الظلام أنفاس أخيه الهادئة، وسعال أبيه الجاف في الغرفة المجاورة وربو الدجاج في الفناء، وأزيز البعوض، وطبل قلبه، وضجة العالم الهائلة التي لم يكن يلحظها حتى ذلك الحين، وخرج إلى الشارع الهاجع. كان يتمنى من كل قلبه أن يكون الباب مقفلاً، وليس مغلقاً فقط مثلما وعدته هي. لكنه كان مفتوحاً. دفعه برؤوس أصابعه، فأطلقت المفصلات أنّة كئيبة واضحة، كان لها صدى جليدي في أحشائه. منذ اللحظة التي دخل فيها مواربة، محاولاً ألا يحدث ضجة، تعرف إلى الرائحة. كان لا يزال في الصالة الصغيرة، حيث يعلق أخوة المرأة الثلاثة أراجيح نومهم، في أوضاع يجهلها، ولا يمكنه تحديدها في الظلام، فكان عليه أن يجتازها متلمساً طريقه، وأن يدفع باب غرفة النوم، وأن يحسن التوجه هناك، دون أن يخطئ السرير. وقد توصل إلى ذلك. اصطدم بحبال أراجيح النوم المعلقة على مستوى أكثر انخفاضاً مما توقعه، فانقلب رجل نائم كان يشخر حتى تلك اللحظة، وقال بنوع من خيبة الأمل: «كان يوم أربعاء». وعندما دفع باب حجرة النوم، لم يستطع الحيلولة دون تعثره باختلاف مستوى الأرضية. وفجأة، في الظلمة المطبقة، أدرك بحنين مؤكد أنه يمضي في وجهة خاطئة تماماً. ففي تلك الحجرة الضيقة، كانت تنام الأم، وابنة أخرى مع وزوجها، وطفلان

آخران، والمرأة التي ربما لم تكن تنتظره. كان يمكن له التوجه مسترشداً بالرائحة، لو لم تكن الرائحة تعبق في البيت كله، خادعة، وفي الوقت نفسه محددة، مثلما هي طوال الوقت في جلده. بقي واقفاً دون حراك برهة طويلة، يتساءل مذهولاً عما فعله ليصل إلى هاوية الخذلان تلك، عندما امتدت يد بكامل أصابعها، متلمسة في الظلام، واصطدمت بوجهه. لم يفاجأ، لأنه كان ينتظر ذلك دون أن يعرف. وعندئذ اسلم نفسه لتلك اليد، وسمح لها، وهو في حالة الإنهاك الرهيبة تلك، بأن تقتاده إلى مكان لا شكل له، حيث نُزعت عنه ملابسه، وجرى طرحه مثل كيس بطاطا، وتقليبه على الوجه والقفا، في ظلمة بعيدة الغور، وجد لديه فيها فائض من الأذرع، وحيث لم يعد يشم رائحة امرأة، وإنما رائحة أمونياك؛ وحيثما حاول أن يتذكر وجهها، كان يلتقي بوجه أورسولا. وكان يعي بصورة مبهمة، أنه يفعل شيئاً تمنى منذ زمن طويل أن يتمكن من فعله، ولكنه لم يتخيل قط أنه يمكن له أن يفعله حقاً، دون أن يدري كيف يفعله، لأنه لم يكن يدري أين هو الرأس وأين هي الأقدام، ولا رأس من هو، أو أقدام من، وأحس أنه غير قادر على كبح ضجيج كليتيه الجليدي، وهواء أحشائه، والخوف، واللهفة المجنونة إلى الهرب، وفي الوقت نفسه إلى البقاء، إلى الأبد، في ذلك الصمت الحانق، وتلك الوحدة المرعبة.

كان اسمها بيلار تيرنيرا. وكانت ضمن الهجرة الذي تُوّجت بتأسيس ماكوندو، اقتادتها أسرتها لإبعادها عن الرجل الذي اغتصبها وهي في الرابعة عشرة، وظل يحبها حتى بلوغها الثانية والعشرين، لكنه لم يحسم أمره قط في إعلان علاقتهما أمام الملأ، لأنه كان رجلاً غريباً. وعدها بأن يلحق بها حتى نهاية العالم،

ولكن في ما بعد، عندما يرتب شؤونه. وقد تعبت هي من انتظاره، والتعرف عليه دوماً في الرجال طوال القامة وقصارها، الشقر والسمر، ممن يعدها ورق اللعب بمجيئهم من دروب البر ومن دروب البحر، خلال ثلاثة أيام، أو ثلاثة شهور، أو ثلاث سنوات. وكانت قد فقدت في انتظاره قوة فخذيها، وصلابة نهديها، وعادة الرقة، ولكنها حافظت على جنون قلبها سليماً. أما خوسيه أركاديو المذهول بتلك اللعبة العجيبة، فصار يتبع أثرها كل ليلة عبر متاهة غرفة النوم. وفي إحدى الليالي، وجد الباب مقفلاً، فطرقه مرات عديدة، وهو يعلم أنه ما دام قد تجرأ على قرعه مرة فلا بد له من أن يواصل حتى الأخيرة. وبعد انتظار لا نهاية له، فتحت له الباب هي نفسها. كان في النهار، وهو منهوك من النعاس، يستمتع سراً بذكريات الليلة السابقة. ولكن، عندما تدخل هي إلى البيت، سعيدة، غير مبالية، متمادية في المزاح، لم يكن عليه أن يبذل أي جهد لإخفاء توتره، لأن تلك المرأة التي كانت ضحكتها تخيف الحمائم، لم تكن لها أي علاقة بالقوة الخفية التي تعلمه كيف يكبح أنفاسه، ويتحكم بضربات قلبه، والتي أتاحت له أن يدرك لماذا يخاف الرجال الموت. وقد كان غارقاً في تأملاته، إلى حد لم يفهم معه سعادة الجميع، عندما ملأ أبوه وأخوه البيت صخباً بنبأ توصلهما إلى تفكيك الفضلة المعدنية، واستخلاص ذهب أورسولا منها.

وبالفعل، فقد توصلا إلى ذلك، بعد أيام من العمل المعقد والدؤوب. وكانت أورسولا سعيدة، حتى إنها شكرت الرب على اختراع الخيمياء، بينما كان أهل القرية يتزاحمون في المخبر، وتقدم إليهم حلوى الجوافة والبسكويت، احتفالاً بالأعجوبة. وكان

خوسيه أركاديو بويندیا يعرض عليهم البوتقة وفيها الذهب المستعاد، وكأنه قد اخترعه للتو. ولكثرة ما عرضها، وجد نفسه في النهاية قبالة ابنه الأكبر الذي لم يعد يكاد يأتي إلى المخبر في الفترة الأخيرة. فوضع كتلة المعدن اليابسة والمائلة إلى الصفرة أمام عينيه، وسأله: «ما رأيك؟» فردّ خوسيه أركاديو بصراحة:

- إنه براز كلب.

وجه إليه أبوه، بقفا يده، صفعه قوية أصابت فمه، أسالت منه الدم والدموع. في تلك الليلة، وضعت بيلار تيرنيرا كمادات زهرة العطاس على الورم، متحسسة القطن والقارورة في الظلام، وفعلت له كل ما يريد دون أن يزعج نفسه بعمل شيء، لكي تحبه دون أن تؤلمه. وقد توصلا إلى حالة من الحميمية، صارا يتمتمان معها، بعد قليل، دون أن ينتبها. فقال لها:

- أريد أن أكون وحيداً معك. في أحد هذه الأيام سأخبر الجميع بكل شيء، وسينتهي الاختباء.

لم تحاول هي تهدئته، وقالت:

- سيكون ذلك بديعاً. فعندما نكون وحيدين، سنُبقي المصباح مضاء كي نرى نفسينا جيداً، وسيكون بإمكاني أن أصرخ بما أشاء، دون أن يتدخل أحد؛ وتهمس أنت في أذني بكل البذاءات التي تخطر في بالك.

هذه المحادثة، والضغينة الحادة التي أحس بها ضد أبيه، والإمكانية الوشيكة لحب يتجاوز الحدود، ألهمته شجاعة هادئة. وبصورة عفوية، دون أي إعداد مسبق، أخبر أخاه بكل شيء.

في البدء لم يلمح أوريليانو الصغير سوى المجازفة، والخطر الكبير الذي يترتب على مغامرات أخيه، ولكنه لم يستطع تصور

شيء من فتنة الهدف. وشيئاً فشيئاً راحت تنتقل إليه عدوى اللهفة. وصار يدفعه لأن يحكي له أدق تفاصيل مغامراته، فيتوحد مع ألم أخيه ومتعته، ويحس بالخوف والسعادة. كان ينتظره مستيقظاً حتى الفجر، متوحداً في السرير الذي يبدو كأن فيه حصيرة من الجمر، ويواصلان الحديث حتى موعد الاستيقاظ. وهكذا، سرعان ما صارا يعانيان، معاً، النعاس نفسه، ويشعران بالازدراء نفسه تجاه الخيمياء وحكمة أبيهما، ولاذا بالعزلة. فكانت أورسولا تقول: «هذان الصغيران يمضيان مذهولين. لا بد أنهما مصابان بالدود». أعدت لهما شربة كريهة من أزهار نبتة رجل الإوز المطحونة، تناولاها بصبر غير متوقع، وجلسا في الوقت نفسه على مبولتيهما، إحدى عشرة مرة في يوم واحد، فطردا بعض الطفيليات الوردية، وأرياها للجميع بابتهاج كبير، لأنها أتاحت لهما تضليل أورسولا عن منشأ سهوهما وخمولهما. لم يكن بمقدور أوريليانو أن يفهم آنذاك تجارب أخيه وحسب، وإنما كان قادراً على أن يعيشها أيضاً، كأنها أشياء خاصة به، لأنه بينما كان أخوه يشرح له، في إحدى المرات، أدق تفاصيل آلية الحب، قاطعه ليسأله: «وبماذا نحس؟» فقدم له خوسيه أركاديو إجابة فورية:

- إنه مثل هزة أرضية.

وفي يوم خميس من شهر كانون الثاني، في الساعة الثانية فجراً، ولدت آمارانتا. وقبل أن يدخل أحد إلى الحجرة، تفحصتها أورسولا بتمعن. كانت خفيفة ومبللة كسحلية، لكن أجزاء جسدها كلها كانت بشرية. ولم يعلم أوريليانو بالحدث الجديد إلا عندما أحس بأن البيت يغص بالناس. ومحتمياً بحالة الفوضى، خرج في طلب أخيه الذي لم يكن في سريره منذ الساعة الحادية عشرة.

وقد كان قراراً غريزياً، إلى حد لم يجد معه الوقت ليتساءل عما سيفعله كي يخرجه من بيت بيلار تيرنيرا. ظل يطوف حول البيت عدة ساعات، مصفراً بإشارة خاصة، إلى أن أجبره بزوغ الفجر على العودة. وفي غرفة أمه، وجد أخاه خوسيه أركاديو، بوجه يقطر براءة، يداعب أخته الوليدة.

لم تكد أورسولا تنهي استراحة الأربعين يوماً، حتى عاد الغجر. كانوا البهلوانات ولاعبي الخفة أنفسهم الذين جاؤوا بالجليد. وقد أثبتوا خلال وقت قصير، على خلاف قبيلة ميلكيادس، أنهم ليسوا نذراً للتقدم، وإنما تجار تسليات رخيصة. وحتى عندما جاؤوا بالجليد، لم يعلنوا عنه بمنافعه للبشر، وإنما باعتباره إحدى عجائب السيرك. وبين ما جاؤوا به من ألعاب لهو، في هذه المرة، كان هناك بساط طائر. ولكنهم لم يقدموه كمساهمة أساسية في تطور النقل، وإنما كأداة تسلية. وقد نبش الناس الأرض، بالطبع، ليُخرجوا آخر نقودهم الذهبية، ويستمتعوا بجولة طيران سريعة فوق بيوت القرية. وفي كنف التساهل العذب الذي أشاعته الفوضى العامة، عاش خوسيه أركاديو وبيلار، على هواهما، ساعات من الحرية. فكانا خطيبين سعيدين وسط الجموع، وبلغ بهما الأمر حد تصور أنه يمكن للحب أن يكون شعوراً أشد عمقاً من اللذة المفرطة - إنما الآنية العابرة - في لياليهما السرية. غير أن بيلار كسرت ذلك الافتتان. فقد شجعتها الحماسة التي يستمتع بها خوسيه أركاديو بمرافقتها، فأخطأت في اختيار الطريقة والمناسبة، وألقت بثقل العالم كله على كاهله دفعة واحدة. فقد قالت له: «أنت الآن رجل بالفعل». ولأنه لم يفهم ما الذي تعنيه، فقد أوضحت الأمر حرفاً فحرفاً:

- سيكون لك ابن.

لم يتجرأ خوسيه أركاديو على الخروج من البيت طوال عدة أيام. كان يكفيه أن يسمع ضحكة بيلار المجلجلة في المطبخ، ليهرع للاختباء في المخبر، حيث استعادت أدوات الخيمياء حيويتها، بمباركة من أورسولا. استقبل خوسيه أركاديو بويندِيا ابنه الضال بابتهاج، وبدأ بتعليمه البحث عن حجر الفلاسفة، وهو عمل كان قد انطلق فيه مؤخراً. وفي مساء أحد الأيام، تحمس الصبيان للبساط الطائر الذي مرّ سريعاً عند مستوى نافذة المخبر، حاملاً سائقه الغجري، وعدداً من أطفال القرية الذين كانوا يلوحون بأيديهم محيين بسعادة. لم يتكلف خوسيه أركاديو بويندِيا عناء النظر إليه، وقال: «دعوهم يحلمون. أما نحن فسنطير أفضل منهم، بوسائل أكثر علمية من غطاء السرير البائس هذا». وبالرغم من تظاهره بالاهتمام، لم يفهم خوسيه أركاديو قط، ما هي قدرات **البيضة الفلسفية**، وكانت تبدو له، ببساطة، قارورة سيئة الصنع. ولم يكن قادراً على الهرب من قلقه. فقد الشهية والقدرة على النوم، واستسلم لتعكر المزاج، مثلما كان يحدث لأبيه كلما أخفق أحد مشروعاته. وكان اضطرابه كبيراً إلى حد عمد معه خوسيه أركاديو بويندِيا نفسه، إلى إعفائه من واجباته في المخبر، معتقداً أن ابنه قد استغرق كثيراً في اهتمامه بالخيمياء. أما أوريليانو، فقد أدرك بالطبع، أن منشأ تأثر أخيه لا علاقة له بالبحث عن الحجر الفلسفي، غير أنه لم يتمكن من انتزاع أي مصارحة منه. كان قد فقد عفويته القديمة. وتحول من متواطئ إلى متكتم وعدائي. وفي جزع وحدته، تنهشه ضغينة حادة ضد العالم، غادر في إحدى الليالي سريره، كما هي عادته، لكنه لم يذهب إلى بيت

بيلار تيرنيرا، وإنما ليضيع في زحمة المهرجان. وبعد أن تجول بين كل أنواع آلات التسلية، من دون أن يهتم بأي واحدة منها، توقف متأملاً شيئاً لم يكن ضمن اللعب: غجرية فتية، تكاد تكون طفلة، مثقلة بالخرز، أجمل امرأة رآها خوسيه أركاديو في حياته. كانت بين حشد تتفرج على العرض الحزين للرجل الذي تحول إلى أفعى، لأنه عصى أبويه.

لم يول خوسيه أركاديو اهتماماً للمشهد. فبينما كان يتوالى استجواب الرجل الأفعى المحزن، شق طريقه بين الحشد، حتى الصف الأول، حيث الغجرية، وتوقف وراءها. التصق بظهرها. حاولت الفتاة التملص، لكن خوسيه أركاديو التصق بها، ضاغطاً على ظهرها بقوة أكبر. عندئذ أحست به. فظلت ملتصقة به، ترتجف من المفاجأة والخوف، دون أن تتمكن من تصديق ما يحدث. وأخيراً، أدارت رأسها، ونظرت إليه بابتسامة مرتعشة. وفي تلك اللحظة، أدخل غجريان الرجلَ الأفعى إلى قفصه، وحملاه إلى داخل الخيمة. وأعلن الغجري الذي يدير المشهد:

- والآن، سيداتي سادتي، سنرى دليلاً على المحنة الرهيبة للمرأة التي يُقطع رأسها كل ليلة، في مثل هذا الوقت، طوال مئة وخمسين سنة، عقاباً لها لأنها رأت ما كان ينبغي لها ألا تراه.

لم يشهد خوسيه أركاديو والفتاة قطع الرأس. ذهبا إلى خيمتها، حيث تبادلا القبلات بلهفة يائسة، بينما هما يخلعان ثيابهما. وتخلصت الغجرية من صداراتها المتراكمة بعضها فوق بعض، ومن تنانيرها المتعددة المصنوعة من الدنتيلا المنشاة، ومن مشدّها غير المجدي ذي الأسلاك، ومن حمولتها من خرز الزينة، وتحولت عملياً إلى لا شيء. فقد كانت ضفدعاً ضامرة، ذات

نهدين أولبين، وساقين بالغتي النحول، لا تزيدان ثخانة عن ذراعي خوسيه أركاديو، إلا أنها تتمتع بتصميم وحرارة يعوضان عن هشاشتها. ومع ذلك، لم يستطع خوسيه أركاديو مجاراتها، لأنهما كانا في ما يشبه خيمة عامة، يمر منها الغجر، حاملين أدوات السيرك، ويرتبون أمورهم، بل يتوقفون إلى جانب السرير ليلعبوا رمية نرد. وكان المصباح المعلق على العارضة الرئيسية ينير المكان كله. وفي وقفة استراحة وسط المداعبات، تمدد خوسيه أركاديو على السرير عارياً، لا يعلم ماذا يفعل، بينما الفتاة تحاول استثارته. بعد قليل، دخلت غجرية وافرة اللحم، يرافقها رجل لا ينتمي إلى الجماعة الجوالة، ولكنه ليس من القرية كذلك. وبدأ كلاهما بخلع ثيابهما قبالة السرير. ودون أن تتعمد ذلك، نظرت المرأة إلى خوسيه أركاديو، وتفحصت بنوع من الحماس الوطني، حيوانه المهيب الذي لا يزال رخواً، وهتفت:

- ما هذا يا فتى! فليحفظه الله لك!

طلبت منهما رفيقة خوسيه أركاديو أن يتركاهما دون إزعاج، فرقد الرجل والمرأة على الأرض، قريباً جداً من السرير. وأيقظ اندفاعهما حمى خوسيه أركاديو. ولدى أول اتصال، بدت عظام الفتاة كما لو أنها قد تخلعت من مفاصلها، في فرقعة مختلة، كأنها علبة أحجار دومينو، وتحلل جلدها إلى عرق شاحب، وامتلأت عيناها بالدموع، وأطلق جسدها بكامله أنَّة كئيبة، ورائحة وحل غامضة. لكنها تحملت الصدمة بعزيمة وبسالة عجيبتين. وعندئذ، أحس خوسيه أركاديو بأنه يطفو مرتفعاً نحو حالة من الإلهام الملائكي، حيث تفتق قلبه عن ينبوع بذاءات رقيقة، راحت تدخل إلى الفتاة عبر أذنها، وتخرج من فمها مترجمة إلى لغتها.

كان يوم خميس. وفي ليلة السبت، عقد خوسيه أركاديو خرقة حمراء حول رأسه، ورحل مع الغجر.

عندما اكتشفت أورسولا غيابه، بحثت عنه في كل أنحاء القرية. لم يكن هناك، في موقع مخيم الغجر، سوى أكوام متناثرة من النفايات، بين رماد المواقد المُطفأة التي ما زال يتصاعد منها الدخان. كان هناك شخص، يبحث بين القمامة عن خرز، قال لأورسولا إنه رأى ابنها وسط جلبة جماعة البهلوانات، يدفع عربة فيها قفص الرجل الأفعى. «لقد صار غجرياً!»، هذا ما صرخت به لزوجها الذي لم يُبدِ أدنى قدر من الاهتمام لاختفاء ابنه.

وقد قال خوسيه أركاديو بوينديا، وهو يطحن في الهاون المادة المطحونة ألف مرة، لإعادة تسخينها وطحنها من جديد:

- عسى أن يكون ذلك صحيحاً. فهكذا سيتعلم كيف يصير رجلاً.

سألت أورسولا عن الدرب الذي مضى الغجر فيه. وواصلت السؤال وهي في الطريق التي دلوها عليها، وواصلت الابتعاد عن القرية، معتقدة أنه ما زال لديها متسع من الوقت للحاق به، إلى أن أدركت أنها قد ابتعدت كثيراً، ولم تعد تفكر في الرجوع. لم يكتشف خوسيه أركاديو بوينديا غياب امرأته، إلا في الساعة الثامنة ليلاً، عندما ترك المادة التي كان يعيد تسخينها على فرشة من الروث، ومضى ليرى ما الذي جرى للصغيرة آمارانتا التي بُح صوتها من البكاء. وخلال ساعات قليلة، جمع فريقاً من الرجال المجهزين جيداً، ووضع آمارانتا بين يدي امرأة تطوعت لإرضاعها، وتاه في دروب خفية في أثر أورسولا. رافقهم أوريليانو في البحث. وعند الفجر، أخبرهم بالإيماءات، بعض صيادي السمك،

من السكان المحليين الذين يجهلون لغتهم، أنهم لم يروا أحداً يمر من هناك. وبعد ثلاثة أيام من البحث دون طائل، رجعوا إلى القرية.

خلال عدة أسابيع، استسلم خوسيه أركاديو بوينديا للذهول. وصار يهتم، مثل أم، برعاية الصغيرة آمارانتا. فكان يحمّمها ويبدل ثيابها، ويأخذها لإرضاعها أربع مرات في اليوم، بل كان يغني لها، في الليل، الأغنيات التي لم تعرف أورسولا أن تغنيها قط. وفي إحدى المرات، عرضت بيلار تيرنيرا أن تقوم بأعمال المنزل إلى أن تعود أورسولا. لكن أوريليانو الذي زادت التعاسة من رهافة حدسه الخفي، أحس بوميض تبصر حين رآها تدخل. وعرف عندئذ أنها مسؤولة، بصورة لا يستطيع تفسيرها، عن هرب أخيه، وما تلاه من اختفاء أمه، فعذبها بعدائه الصامت والقاسي، إلى حدّ لم ترجع معه المرأة إلى البيت.

أعاد الزمن الأمور إلى نصابها. ولم يدر خوسيه أركاديو بوينديا وابنه في أي لحظة وجدا نفسيهما، من جديد، في المخبر، ينفضان الغبار، ويشعلان النار في الموقد، لينهمكا مرة أخرى في معالجتهما الدؤوب للمادة النائمة منذ بضعة شهور على فرشة الروث. حتى آمارانتا، الممددة في سلة من الخيزران، كانت تراقب، بفضول، استغراق أبيها وأخيها في العمل، في الحجرة التي تخلخل أبخرةُ الزئبق هواءها. وفي إحدى المرات، بعد شهور من ذهاب أورسولا، بدأت تحدث أشياء غريبة. فإحدى القوارير الفارغة، والمنسية في خزانة، منذ زمن طويل، ثَقُلَ وزنها حتى صار من المستحيل تحريكها. وبدأت قدر ممتلئة بالماء، وموضوعة على منضدة العمل، بالغليان دون نار، طوال نصف ساعة، إلى أن تبخر

الماء تماماً. كان خوسيه أركاديو بوينديا وابنه يراقبان تلك الظواهر بابتهاج يخالطه الذعر، دون أن يتوصلا إلى تفسيرها، ولكنهما عللاها بأنها إشارات من المادة. وفي أحد الأيام، أخذت سلة آمارانتا بالتحرك، بقوة دفع ذاتية، ودارت دورة كاملة في الغرفة، أمام دهشة أوريليانو الذي سارع إلى إيقافها. لكن أباه لم يتأثر. أعاد السلة إلى مكانها، وربطها بقائمة إحدى المناضد، موقناً أن الحدث المنتظر صار وشيكاً. وفي هذه المناسبة نفسها، سمعه أوريليانو يقول:

- إذا لم تخش الله، فاخش المعادن.

وفجأة، بعد خمسة شهور من اختفائها تقريباً، عادت أورسولا. جاءت باندفاع، مستعيدة فتوتها، وبملابس جديدة من نمط لم تعرفه القرية. وبصعوبة، تمكن خوسيه أركاديو بوينديا من تجاوز الصدمة، وراح يصرخ: «هذا هو الأمر! كنت أعرف أن هذا سيحدث.» وقد كان مقتنعاً بذلك فعلاً، لأنه في اعتكافه الطويل، بينما هو يعالج المادة، كان يتضرع في أعماق قلبه، ألا تكون الأعجوبة المنتظرة هي لقية الحجر الفلسفي، ولا تحرير نفحة الروح التي تمنح الحياة للمعادن، ولا القدرة على تحويل مفصلات البيت وأقفاله إلى ذهب، بل ما حدث الآن: عودة أورسولا. أما هي فلم تشاطره بهجته. فقد قبلته قبلة تقليدية، كما لو أنها لم تغب لأكثر من ساعة، وقالت له:

- انظر خارج الباب.

احتاج خوسيه أركاديو بوينديا وقتاً طويلاً ليستعيد السيطرة على حيرته، عندما خرج إلى الشارع ورأى الحشد. لم يكونوا غجراً. بل كانوا رجالاً ونساء مثلهم، لهم شعور سبطة، وبشرة

سمراء، يتكلمون لغتهم نفسها، ويعانون من الأوجاع نفسها. جاؤوا ببغال محملة بمأكولات، وعربات تجرها الجواميس، محمّلة بالأثاث والأدوات المنزلية، وأمتعة ولوازم دنيوية، نظيفة وبسيطة، معروضة للبيع، دون حركات التصنع التي يبديها أشباه تجار الواقع اليومي. كانوا قادمين من الجانب الآخر للبحيرة المستنقعية، على مسيرة يومين فقط، حيث توجد قرى يصلها البريد كل شهر، وتعرف آلات الرفاهية. لم تستطع أورسولا اللحاق بالغجر، ولكنها وجدت الطريق الذي لم يستطع زوجها اكتشافه في بحثه المحبط عن الاختراعات الكبرى.

حُمل ابن بيلار تيرنيرا إلى بيت جديه، بعد أسبوعين من ولادته. وتقبلته أورسولا باستياء، مذعنة، مرة أخرى، لعناد زوجها الذي لم يستطع التسامح مع فكرة بقاء فرع من دمه، مبحراً على غير هدى، مع التيار. ولكنها فرضت شرط عدم إطلاع الطفل على هويته الحقيقية. ومع انه سُمي خوسيه أركاديو، فقد انتهوا إلى مناداته، ببساطة، أركاديو وحسب، تجنباً للبلبلة. كان هناك نشاط واسع في القرية آنذاك، وأعمال كثيرة في البيت، فتراجعت العناية بالأطفال إلى مرتبة ثانوية. وأوكلت إلى بيسيتاثيون، وهي هندية غواخيرية، جاءت إلى القرية مع أخيها، هرباً من وباء الأرق الذي أصاب قبيلتهما، منذ عدة سنوات. كلاهما كان وديعاً وخدوماً، إلى حدّ وافقت معه أورسولا على تحمل مسؤوليتهما، لكي يساعداها في الأعمال المنزلية. وهكذا تكلم أركاديو وآمارانتا اللغة الغواخيرية، قبل أن يتكلما القشتالية. وتعلما تناول حساء الحراذين، وأكل بيض العناكب، دون أن تنتبه أورسولا إلى ذلك، لأنها كانت مشغولة تماماً بتجارة واعدة، بأشكال حيوانات تصنعها من السكاكر. كانت ماكوندو آخذة بالتبدل. فالناس الذين جاؤوا مع أورسولا، اكتشفوا جودة أرضها، وموقعها الممتاز بالنسبة لمنطقة المستنقعات، وسرعان ما تحوّلت الضيعة التي كانت صغيرة ومتواضعة، في أزمنة أخرى، إلى قرية تعج بالنشاط. فيها متاجر

وورش حرِفية، وطريق تجاري دائم، جاء عبره أول العرب الذين ينتعلون البابوجات، ويعلقون الأقراط في آذانهم، ليقايضوا عقوداً من الزجاج ببغاوات. لم يعد خوسيه أركاديو بويندیا يجد لحظة راحة واحدة. كان مفتوناً بواقع مباشر، بدا له حينذاك أكثر خيالية من عالم تخيلاته الفسيح، ففقد أي اهتمام بمخبر الخيمياء، وترك المادة المستنفدة بشهور من المعالجات، لتستريح. وعاد ليكون الرجل المبادر، مثلما كان في الأزمنة الأولى، يتخذ قرار تخطيط الشوارع، ومواقع البيوت الجديدة، بحيث لا يتمتع أحدها بامتيازات لا تتوفر للبيوت الأخرى جميعها. واكتسب سلطة واسعة بين القادمين الجدد الذين لم يضعوا أسس بيت، ولا نصبوا سياجاً، دون استشارته. وتقرر أن يكون هو من يتولى تقسيم الأرض. وعندما رجع الغجر البهلوانيون، ومعهم الآن مهرجانهم المتنقل، وقد تحول إلى مؤسسة عملاقة لألعاب الحظ والمصادفات، استقبلوا بابتهاج، للاعتقاد بأن خوسيه أركاديو قد رجع معهم. ولكن خوسيه أركاديو لم يرجع، ولم يأتوا معهم كذلك بالرجل-الأفعى، وهو الوحيد الذي يمكن له، مثلما فكرت أوروسولا، أن يقدم لها الخبر اليقين عن ابنها. وهكذا لم يُسمح للغجر بالبقاء في القرية، ولا بالعودة إليها في المستقبل، لأنهم اعتُبروا رسل الدعارة وفساد الأخلاق. ومع ذلك، فقد كان خوسيه أركاديو بويندیا واضحاً في القول إن قبيلة ميلكيادس القديمة التي أسهمت كثيراً في رقي الضيعة، بحكمتها العريقة واختراعاتها الخرافية، ستجد الأبواب مشرعة على الدوام. ولكن قبيلة ميلكيادس، حسب ما روى جوابو الآفاق، مُسحت عن وجه البسيطة، لأنها تجاوزت حدود المعرفة البشرية.

وبانعتاقه، في الوقت الراهن على الأقل، من عذابات الخيال، فرض خوسيه أركاديو بويندي، خلال وقت قصير، حالة من النظام والعمل، لم يسمح فيها إلا بتصريح وحيد: إطلاق سراح الطيور التي كانت، منذ تأسيس ماكوندو، تبعث المرح في الجو بألحانها، واستبدالها بساعات موسيقية في كل البيوت. وهي ساعات جميلة من الخشب المشغول بمهارة، كان العرب يبادلونها بالببغاوات، وقد ضبطها خوسيه أركاديو بويندي بدقة تامة، بحيث صارت البهجة تعم القرية، كل نصف ساعة، بنغمات متوالية من المقطوعة نفسها، إلى أن تبلغ ذروتها في منتصف نهار دقيق وإجماعي، بعزف مقطوعة الفالس كاملة. وكان خوسيه أركاديو بويندي أيضاً، هو من قرر في تلك السنوات، أن تُزرع في شوارع القرية أشجار لوز بدل الأكاسيا؛ ومن اكتشف، دون أن يُكشف ذلك أبداً، طرق جعل تلك الأشجار خالدة. بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما تحوّلت ماكوندو إلى معسكر بيوت خشبية، سقوفها من التوتيا، كانت لا تزال تنتصب، في أقدم الشوارع، أشجار اللوز المكسرة والمعفرة تلك، لكن أحداً لم يكن يدري من الذي زرعها. وبينما كان الأب منهمكاً في تنظيم القرية، والأم في تعزيز الثروة المنزلية بصناعتها البديعة من الديوك والأسماك السكرية التي تخرج من البيت مرتين في الأسبوع، مغروسة بعيدان قصيرة، كان أوريليانو يقضي ساعات لانهائية في المخبر المهجور، يتعلم فيه، من خلال البحث المحض، فن الصياغة. كانت قامته قد طالت كثيراً، فلم تعد تناسبه، بعد وقت قصير، الثياب التي خلّفها أخوه؛ فبدأ يستخدم ملابس أبيه. غير أنه كان على فيسيتاثيون أن تعمل طياً في القمصان، وزمّاً في البنطلونات، لأن أوريليانو لم يرث جسامة

الآخرين. كان البلوغ قد انتزع منه عذوبة صوته، وحوّله إلى صموت ومتوحد، لكنه أعاد إليه، بالمقابل، التعبير الزخم الذي كان لعينيه عند مولده. وكان مستغرقاً في تجاربه في الصياغة إلى حد يكاد لا يغادر معه المخبر إلا لتناول الطعام. ولقلق خوسيه أركاديو بوينديا من استغراق ابنه في التأمل، بادر إلى إعطائه مفاتيح البيت وقليلاً من المال، مفكراً في أنه قد يكون بحاجة لامرأة. لكن أوريليانو أنفق النقود في شراء حامض الكلوريدريك، لإعداد الماء الملكي، وجمّل المفاتيح بحمام ماء ذهبي. لم تكن تصرفاته هذه لتقارن بسلوك أركاديو وآمارانتا اللذين بدأت أسنانهما بالظهور، ولا يزالان يمضيان متعلقين طوال اليوم بأذيال الهنديين، عنيدين في تصميمهما على عدم التكلم بالقشتالية، وإنما بلغة هنود غواخيرا. فكانت أورسولا تقول لزوجها: «لا مبرر لديك للشكوى. فالأبناء يرثون جنون آبائهم.» وبينما هي تشكو سوء طالعها، موقنة من أن شذوذ أبنائها لا يقل رعباً عن ولادتهم بذيل خنزير، صوّب إليها أوريليانو نظرة أحاطتها بجو من القلق. وقال لها:

- هناك شخص قادم.

ومثلما تفعل، كلما أعلن عن واحدة من نبوءاته، حاولت أورسولا أن تثبط من عزيمته، بمنطقها البيتي. من الطبيعي أن يأتي أحد ما. فعشرات الغرباء يمرون كل يوم بماكوندو، دون أن يثير مجيئهم أي قلق أو يكون استباقاً لكشف أسرار. غير أن أوريليانو، وتجاوزاً لكل منطق، كان واثقاً من نبوءته. فألح:

- لستُ أدري من هو القادم، ولكن أياً يكن، فهو آت في طريقه إلينا.

وبالفعل، وصلت ريبيكا يوم الأحد. لم يكن لها من العمر أكثر من إحدى عشرة سنة. وكانت قد قامت برحلتها الشاقة من ماناوري، مع تجار جلود كُلفوا بمهمة تسليمها، مع رسالة، لبيت خوسيه أركاديو بوينديا، لكنهم لم يستطيعوا أن يوضحوا بدقة، من هو الشخص الذي طلب منهم تلك الخدمة. كان كل متاعها مؤلفاً من صندوق ثياب صغير، وكرسي خشبي هزاز، تزينه أزهار ملونة رُسمت باليد، وكيس من قماش الخيم، تصدر عنه باستمرار قرقعة كلوك كلوك كلوك، تُحفظ فيه عظام أبويها. وكانت الرسالة الموجهة إلى خوسيه أركاديو بوينديا، مكتوبة بعبارات شديدة المودة، من شخص لا يزال يحبه كثيراً، على الرغم من مرور الزمن، وبُعد المسافة، ويجد نفسه مضطراً، بدافع شعور إنساني أولي، إلى القيام بعمل خير، بإرساله إليه هذه اليتيمة البائسة، المحرومة من الحماية، وهي ابنة عم أورسولا من الدرجة الثانية، وبالتالي قريبة خوسيه أركاديو بوينديا أيضاً، وإن تكن درجة القرابة أبعد، لأنها ابنة الصديق الذي لا يُنسى نيكانور ايلوا، وزوجته الجديرة جداً بالاحترام، ريبيكا مونتييل، ليحفظهما الله في ملكوته القدسي، ورفاتهما مرفقة مع هذه الرسالة، لتدفن وفق الأصول المسيحية. لقد كانت الأسماء المذكورة، ومثلها التوقيع الذي تحمله الرسالة، مقروءة جيداً، لكن خوسيه أركاديو بوينديا لم يتذكر، مثلما لم تتذكر أورسولا، بأن لهما أقارب بهذا الاسم، وما كانا يعرفان كذلك أحداً له اسم المرسل، لا سيما في بلدة ماناوري النائية. وكان من المستحيل الحصول، من خلال الطفلة، على أية معلومات إضافية. فمنذ لحظة وصولها، جلست تمص إصبعها على كرسي هزاز، وتتأمل الجميع بعينيها الكبيرتين المذعورتين، دون أن تبدي ما يدل

على أنها تفهم ما يسألونها عنه. كانت ترتدي ثوباً من الدياغونال مصبوغاً بالأسود، وبالياً من طول الاستخدام، وحذاء كشط جلده اللماع. وكان شعرها مجموعاً وراء أذنيها بشرائط سوداء. وترتدي فوق ثيابها كتفية محا العرق رسومها، وفي معصم يدها اليمنى ناب حيوان لاحم، محاط بطوق من النحاس، كتميمة ضد الإصابة بالعين. وكان لونها الأخضر، وبطنها المكور والمشدود مثل طبل، يكشفان سوء صحة، وجوعاً أكبر منها. ولكنها حين قدموا لها الطعام، أبقت الطبق على ساقيها دون أن تذوقه. وبلغ بهم الأمر حدّ الظن أنها صماء بكماء، إلى أن سألها الهنديان، بلغتهما، إن كانت تريد قليلاً من الماء، فحركت عينيها وكأنها تعرفت عليهما، وقالت نعم، بهز رأسها.

استبقوها عندهم لأنه لم يكن هناك حلّ آخر. وقرروا تسميتها ريبيكا، وهو حسب الرسالة، اسم أمها، لأن أوريليانو قرأ أمامها، بصبر، سجل أسماء القديسين كاملاً، ولم تُبدِ أي رد فعل تجاه أي واحد من الأسماء. ولأنه لم تكن ثمة مقبرة في ماكوندو، إذ لم يمت أحد فيها بعد، فقد احتفظوا بكيس العظام إلى أن يصير هناك مكان لائق لدفنها. وظل الجميع يتعثرون بتلك العظام في كل مكان، ويجدونها في أماكن لا تخطر على بال، مصدرة على الدوام قرقعة كأنها نقيق دجاجة حاضنة. مرّ زمن طويل قبل أن تندمج ريبيكا في الحياة الأسرية. كانت تجلس على الكرسي الصغير الهزاز، لتمص إصبعها، في أكثر أركان البيت انزواء. ولم يكن هناك ما يثير اهتمامها، سوى موسيقى الساعات التي تبحث عنها، كل نصف ساعة، بعينين مذعورتين، كأنما تنتظر أن ترى الموسيقى في مكان ما من الجو. لم يتمكنوا من جعلها تأكل طوال

عدة أيام. ولم يفهم أحد كيف لم تمت جوعاً، إلى أن اكتشف الهنديان اللذان يلحظان كل شيء، لأنهما يجوبان البيت دون انقطاع بخطوات أقدامهما المتكتمة، أن ريبيكا لا تحب أن تأكل إلا تراب الفناء الرطب، وشرائح الكلس التي تنتزعها من الجدران بأظفارها. وكان واضحاً أن أبويها، أو أياً كان من رباها، كانوا يؤنبونها على تلك العادة، إذ أنها تمارسها في الخفاء، وبإحساس بالذنب، محاولة تبديل أماكن إخفاء وجباتها، لتأكلها عندما لا يكون هناك من يراها. أخضعوها منذ ذلك الحين لمراقبة دائمة. وصاروا ينثرون مرارة البقر في الفناء، ويطلون الجدران بفلفل حار، معتقدين أنهم سيتمكنون، بتلك الأساليب، من التغلب على إدمانها الضار؛ ولكنها أظهرت من دلائل الدهاء والمهارة، في العثور على التراب، ما أجبر أورسولا على استخدام أساليب ذات مفعول أقوى. فصارت تخلط عصير برتقال مع عشبة الراوند في قدر تبقيها مكشوفة طيلة الليل، تحت السماء، وتسقيها الشراب في اليوم التالي، على الريق. ومع أن أحداً لم يقل لها إن ذلك الشراب، هو الدواء الخاص لعلاج عادة أكل التراب، إلا أنها كانت تعتقد بأنه لا بد لأي مادة مرة، في معدة خاوية، من أن تُفعّل الكبد. كانت ريبيكا شديدة التمرد والقوة، على الرغم من نحولها، فكان لا بد لهم من فتح فمها بالقوة، مثلما يفعلون بعجل، لكي تبتلع الدواء، وكانوا لا يتمكنون، إلا بصعوبة، من كبح رفساتها وتحمّل كلماتها الهيروغليفية التي تنطق بها، بالتناوب مع العض والبصاق، وهي على حد قول الهنديين المستنكرين، أقذع بذاءات يمكن تصورها في لغتهما. وحين علمت أورسولا ذلك، استكملت العلاج بالضرب بالحزام. ولم يتم التوصل قط، إلى معرفة إذا ما كان الراوند أم

الضرب هو الذي أعطى مفعولاً، ولكن المؤكد أن بوادر الشفاء بدأت تظهر على ريبيكا، بعد أسابيع قليلة. وصارت تشارك في ألعاب أركاديو وآمارانتا اللذين استقبلاها كأخت كبرى لهما؛ وصارت تأكل بشهية، مستخدمة أدوات المائدة على أحسن ما يرام. وسرعان ما تكشف أنها تتكلم القشتالية بالطلاقة نفسها التي تتكلم بها لغة الهنود، وأنها تتمتع بمهارة ملحوظة في الأعمال اليدوية، وتغني فالس الساعات، بكلمات لطيفة جداً، ابتدعتها هي نفسها. وسرعان ما اعتبرها الجميع فرداً من الأسرة. وكانت تبدي لأورسولا محبة أكبر مما أبداه لها أبناؤها على الإطلاق، وتدعو آمارانتا وأركاديو بأخوي الصغيرين، وأوريليانو بالعم، وخوسيه أركاديو بويندیا بالجد. وانتهى بها الأمر إلى أن تستحق، بجدارة لا تقل عن الآخرين، اسم ريبيكا بويندیا، وهو الاسم الوحيد الذي عُرفت به دوماً، وحملته بجدارة حتى موتها.

في إحدى الليالي، في الفترة التي شفيت فيها ريبيكا من عادة أكل التراب، وصارت تنام في حجرة الأطفال الآخرين، استيقظت، مصادفة، الهنديةُ التي كانت تنام معهم، وسمعت جلبة غريبة متقطعة في الركن. فنهضت مذعورة، لاعتقادها بأن حيواناً قد دخل الغرفة، ورأت عندئذ ريبيكا في كرسيها الهزاز، تمص إصبعها، وعيناها تلمعان كعيني هرٍّ في الظلام. وتعرفت فيسيتاثيون في تينك العينين، وقد جمدها الخوف وأحزنها شؤم قدرها، على أعراض الداء الذي أجبرها تهديده، على أن تهجر، مع أخيها، مملكة عريقة في قِدمها، كانا فيها أميرين. إنه وباء الأرق.

وفي الفجر، كان الهندي كاتاوري قد غادر البيت هارباً. أما

أختـه، فبقيـت. لأن قلبـها القـدري أنبأهـا بـأن الـداء المـهلك سيلاحقها، على أية حال، حتى آخر ركن فـي الأرض. غير أن أحداً لـم يفـهم سبب ذعـر فـيسيتاثيون. وراح خوسـيه أركـاديو بوينديـا يقول: «سيكون من الأفضل لنا ألا ننـام، لأن الحيـاة سـتصبح أكثر عطـاء.» لكن الهندية أوضحت لـه أن الرهيب فـي داء الأرق ليس استحالة النوم، لأن الجسـد لا يحس بأي نـوع مـن التعـب، وإنمـا تطوره المحتوم إلى مظهر أشـد حرجاً: النسيان. وكانت تعنـي أنـه عندما يعتاد المريض علـى حالـة السـهر، تبـدأ ذكريـات الطفولـة بالامحاء من ذاكرته، وبعد ذلك أسماء الأشياء ومدلولاتها، وأخيراً هوية الأشخاص، بل ووعي الكائن نفسه، إلى أن يهوي في نوع من العته الـذي بـلا مـاض. وقـدّر خوسيه أركاديو بوينديا، وهـو يكـاد يموت من الضحك، بأن الأمـر لا يعدو أن يكون واحـداً مـن العلل الكثيرة التي تختلقها خرافات السـكان الأصليـين. لكـن أورسـولا احتاطت للأمر، تحسباً، فعزلت ريبيكا عن الأطفال الآخرين.

بعد أسابيع من ذلك، عندما بدا أن مخاوف فـيسيتاثيون قد هـدأت، وجد خوسيه أركاديو بوينديا نفسه، فـي إحـدى الليـالي، يتقلب فـي فراشه دون أن يتمكن من النوم. فسـألته أورسـولا التـي استيقظت أيضاً، عما أصابه، فأجابها: «لقد عدت للتفكير مجدداً ببرودينثيو أغيلار.» لم يناما دقيقة واحدة، ولكنهما كانا يشعران فـي اليوم التالي بالراحة والنشاط، إلى حدّ نسيا معه سوء ليلتهما. وفـي أثناء تناول الغداء، قال أوريليانو باستغراب إنه يجد نفسه فـي أحسـن حـال، مع أنـه أمضـى الليـل بطوله فـي المخبر، يُذَهِّب مشبك شعر ليقدمه هدية إلى أورسولا فـي عيد ميلادها. لم يأبهوا للأمر حتى اليوم الثالث، عندما وجدوا أنفسهم، فـي موعد

النوم، لا يشعرون بالنعاس. عندئذ انتبهوا إلى أنهم لم يناموا منذ أكثر من خمسين ساعة.

وقالت الهندية بقناعاتها القدرية:

- الأطفال مستيقظون أيضاً. حين يدخل الوباء بيتاً، لا يفلت منه أحد.

لقد أصيبوا فعلاً، بعدوى داء الأرق. وبادرت أورسولا التي تعلمت من أمها قدرة النباتات العلاجية، فأعدت شراباً من أعشاب البيش، وسقت الجميع منه، لكنهم لم يستطيعوا النوم، وإنما أمضوا اليوم كله يحلمون وهم مستيقظون. وفي حالة هذيان اليقظة تلك، لم يكونوا يرون صور أحلامهم فقط، وإنما كان كل منهم يرى الصور التي يحلم بها الآخرون أيضاً. فبدا البيت كأنه قد امتلأ بالزوار. وبينما هي جالسة على كرسيها الهزاز في أحد أركان المطبخ، حلمت ريبيكا برجل يشبهها كثيراً، يرتدي ثياباً من الكتان الأبيض، وياقة قميصه مغلقة حول عنقه بزر من الذهب، يحمل إليها باقة ورد. ترافقه امرأة حساسة اليدين، تناولت وردة من الباقة ووضعتها في شعر الطفلة. وأدركت أورسولا أن الرجل والمرأة هما أبوا ريبيكا. ولكنها أكدت يقينها، على الرغم من الجهد الكبير الذي بذلت كي تتعرف عليهما، بأنها لم ترهما قط من قبل. وفي أثناء ذلك، وبسبب إهمال لم يغفره خوسيه أركاديو بويندا لنفسه أبداً، تواصل صنع حيوانات السكاكر في البيت، وبيعها في القرية. فكان الأطفال والكبار، يمصون مفتونين، ديوك الأرق الخضراء اللذيذة، وأسماك الأرق الوردية الشهية، وأحصنة الأرق الصفراء الطرية، بحيث فاجأ فجر الاثنين جميع من في القرية، مستيقظين. في البدء، لم بشعر أحد بالذعر. بل على العكس،

فقد ابتهجوا لأنهم لم يناموا، لأن هناك عمل كثير في ماكوندو لا بد من إنجازه، وكان الوقت يكاد لا يتسع لذلك. اشتغلوا كثيراً جداً، وسرعان ما لم يعد لديهم ما يفعلونه، ووجدوا أنفسهم يقاطعون أذرعهم على صدورهم في الساعة الثالثة فجراً، ويحصون عدد نغمات فالس الساعات. ومن رغب منهم في النوم، ليس من التعب، بل بدافع الحنين إلى الأحلام، لجأ إلى أساليب الإجهاد. فكانوا يجتمعون لتبادل الأحاديث، دون انقطاع، وتكرار الدعابات نفسها طوال ساعات وساعات، وتعقيد قصة الديك المخصي حتى حدود الغيظ، وهي لعبة لا نهائية يسألهم فيها الراوي إذا ما كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المخصي، وعندما يردون بنعم، يقول لهم الراوي إنه لم يطلب منهم أن يقولوا نعم، وإنما سألهم إذا كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المخصي. وعندما يجيبون بلا، يقول لهم الراوي إنه لم يطلب منهم أن يقولوا لا، وإنما سألهم إذا كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المخصي. وعندما يصمتون، يقول الراوي إنه لم يطلب منهم أن يصمتوا، وإنما سألهم إذا كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المخصي. ولا يستطيع أحد الذهاب، لأن الراوي يقول إنه لم يطلب منهم الذهاب، وإنما سألهم إذا كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المخصي. وتدوم الحال على هذا المنوال، في حلقة مفرغة تستمر ليالي كاملة.

عندما أدرك خوسيه أركاديو بوينديا أن الوباء اجتاح القرية، جمع زعماء الأُسر كي يشرح لهم ما يعرفه عن داء الأرق، واتفقوا على إجراءات يتخذونها للحيلولة دون انتقال البلاء إلى القرى الأخرى في منطقة المستنقعات. وهكذا، انتزعوا من أعناق التيوس

الأجراس التي بادلهم إياها العرب ببغاوات، ووضعوها عند مدخل القرية، تحت تصرف من يستخفون بنصائح الحراس وتوسلاتهم، ويصرون على زيارة القرية. فكان على كل الغرباء الذين يجوبون شوارع ماكوندو، في ذلك الوقت، أن يرنّوا جرساً كي يعرف المرضى، أنهم أصحاء. ولم يكن يُسمح لهم بأكل أو شرب أي شيء خلال وجودهم، إذ لم يكن هناك شك في أن الداء لا ينتقل إلا عن طريق الفم، وأن كل الأشياء التي تؤكل وتُشرب ملوثة بداء الأرق. وبهذه الطريقة، ظل الوباء محاصراً ضمن إطار القرية. وقد كان الحجر الصحي فعالاً إلى حد جاء معه يوم، صار يُنظر فيه إلى حالة الطوارئ على أنها أمر طبيعي، وجرى تنظيم الحياة بطريقة استعاد فيها العمل إيقاعه السابق، ولم يعد هناك من يولي اهتماماً لعادة النوم غير المجدية.

كان أوريليانو هو الذي توصل إلى الصيغة التي ستحميهم، طوال عدة شهور، من تسرب الذاكرة. وقد أكتشفها مصادفة. بوصفه أرقاً خبيراً، ولأنه أحد أول المصابين. كان قد تعلم فن الصياغة إلى درجة الإتقان، وفي أحد الأيام، راح يبحث عن السندان الصغير الذي يطرق عليه المعادن، ولم يتذكر اسمه. فقال له أبوه: «سندان صغير». فكتب أوريليانو الاسم على ورقة ألصقها بالصمغ على قاعدة السندان: «سندان صغير». وأيقن بهذه الطريقة أنه لن ينساه في المستقبل. لم يخطر له أن تلك هي أول مظاهر النسيان، لأن الأداة لها اسم يصعب تذكره. ولكنه اكتشف بعد بضعة أيام، أنه يجد صعوبة في تذكر أسماء كل أشياء المخبر تقريباً. فسجل عندئذ، على كل شيء اسمه، بحيث يتمكن من التعرف عليه بمجرد قراءة الاسم. وعندما أخبره أبوه بخوفه من

أن يكون قد نسي أبرز أحداث طفولته، شرح له أوريليانو طريقته، فوضعها خوسيه أركاديو بويندیا موضع التطبيق في البيت، ثم فرضها على القرية كلها في ما بعد. وبفرشاة مغموسة بالحبر، سجل على كل شيء اسمه: ***منضدة، كرسي، ساعة، باب، حائط، سرير، قدر***. وذهب إلى الحظيرة، وسجل الحيوانات والنباتات: ***بقرة، تيس، خنزير، دجاجة، يوكا، قلقاس، موز***، وشيئاً فشيئاً، بينما هو يدرس احتمالات النسيان غير المحدودة، انتبه إلى أنه قد يأتي يوم يجري فيه التعرف على الأشياء من الكتابة المدونة عليها، ولكن دون التعرف على فائدتها واستخداماتها؛ فزاد عندئذ في التوضيح. وكانت اليافطة التي علقها حول عنق البقرة، نموذجاً مثالياً للطريقة التي استعد بها أهالي ماكوندو لمكافحة النسيان: ***هذه هي البقرة، يجب حلبها كل صباح كي تعطي حليباً، ويجب غلي الحليب، من أجل مزجه بالقهوة، وصنع قهوة بالحليب***. وهكذا ظلوا يعيشون في واقع متفلت، يمسكون به آنياً، بالكلمات، لكنه سيفلت منهم نهائياً، عندما ينسون مدلول الكلمات.

وُضعت عند مدخل الطريق المؤدي إلى منطقة المستنقعات، يافطة تقول ***ماكوندو***، وأخرى أكبر منها، في الشارع المركزي، تقول: ***الرب موجود***. وكُتبت في كل البيوت رموز لحفظ الأشياء والمشاعر في الذاكرة. ولكن هذا النظام كان يتطلب الكثير من اليقظة والتماسك المعنوي، مما أوقع كثيرين في سحر واقع تخيلي، اخترعوه بأنفسهم، وبدا لهم أقل عمليه ولكنه أكثر راحة. كانت بيلار تيرنيرا هي أكثر من ساهم في نشر هذه الخدعة، عندما خطرت لها فكرة قراءة الماضي في أوراق اللعب، مثلما كانت تقرأ المستقبل من قبل. وبهذه الوسيلة، بدأ المؤرقون يعيشون

في عالم مشيد من خيارات أخرى ملتبسة، حيث يكاد لا يتم تذكر الأب إلا بأنه الرجل الأسمر الذي جاء في بداية نيسان، ويكاد تَذَكُّر الأم أن ينحصر في أنها المرأة السمراء التي تضع خاتماً ذهبياً في يدها اليسرى، وحيث يُختزل تاريخ الولادة إلى آخر يوم ثلاثاء غنت فيه القبرة على شجرة الغار. عندئذ، قرر خوسية أركاديو بوينديا، بعد هزيمته أمام ممارسات المواساة والتسكين هذه، أن يصنع آلة الذاكرة التي تمنى وجودها في أحد الأيام، كي يتذكر اختراعات الغجر العجيبة. وتستند هذه الآلة إلى إمكانية القيام، صباح كل يوم، بمراجعة كل المعلومات المكتسبة مدى الحياة، منذ البداية وحتى النهاية. وكان يتصورها كمعجم دوار، يمكن لشخص مستقر في محورها أن يحركها بواسطة ذراع تدوير، بحيث تمر أمام عينيه، خلال ساعات قليلة، المعارف والمفاهيم الضرورية لمواصلة العيش. وكان قد توصل إلى كتابة ما يقارب أربعة عشر ألف جزازة، عندما ظهر عبر طريق المستنقعات، شيخ عجيب يحمل الجرس الذي يستخدمه من ينامون، ويجر عربة صغيرة مغطاة بخرق سوداء. واتجه مباشرة إلى بيت خوسيه أركاديو بوينديا.

لم تعرفه فيسيتاثيون عندما فتحت له الباب، وظنت أنه آت ليبيع شيئاً ما، جاهلاً أنه لا يمكن بيع أي شيء في قرية تنزلق غارقة، دون مهرب، في مخاضات وحول النسيان. كان رجلاً هرماً. ومع أن صوته أيضاً، كان مشروخاً بعدم اليقين، وتبدو يداه متشككتان بوجود الأشياء، إلا أنه آت، دون شك، من العالم الذي لا يزال البشر فيه قادرون على النوم والتذكر. وجده خوسيه أركاديو بوينديا جالساً في الصالة، يهوّي بقبعة سوداء مرقعة، بينما هو

يقرأ باهتمام مشفق اليافطات الملصقة على الجدران. حيَّاه بمغالاة في مظاهر المودة، خشية أن يكون قد عرفه في زمن آخر، ولم يعد يتذكره الآن. لكن الزائر أدرك التصرف الزائف. وأحس أنه منسي، ليس بنسيان القلب الذي يمكن علاجه، وإنما بنسيان آخر أشد قسوة، ولا رجوع عنه، يعرفه جيداً، لأنه نسيان الموت. وعندئذ فهم كل شيء. فتح محفظته المترعة بأشياء لا يمكن تصنيفها، وأخرج منها حقيبة صغيرة، فيها قوارير كثيرة. قدم إلى خوسيه أركاديو بوينديا مادة ذات لون هادئ، ليشربها؛ فشع النور في ذاكرته. تخضلت عيناه بالدموع، قبل أن يرى نفسه في صالة عبثية، حيث الأشياء مُعَلَّمة بلصاقات، وقبل أن يخجل من الحماقات المهيبة المكتوبة على الجدران، وحتى قبل أن يتعرف على القادم الجديد، في ومضة سعادة مبهرة. لقد كان ميلكيادس.

وبينما ماكوندو تحتفل باستعادتها الذكريات، كان خوسيه أركاديو بوينديا وميلكيادس ينفضان الغبار عن صداقتهما القديمة. لقد جاء الغجري مصمماً على البقاء في القرية. فقد كان فعلاً، في دنيا الموت، لكنه رجع من هناك لأنه لم يستطع تحمل الوحدة. وبعد أن نُبذ من قبيلته، وجُرد من كل قدرة خارقة، عقاباً له على وفائه للحياة، قرر اللجوء إلى ذلك الركن من العالم الذي لم يكتشفه الموت بعد، وأن يتفرغ في استثمار مخبر تصوير دغرتيب. لم يكن خوسيه أركاديو بوينديا قد سمع من قبل قط، بذلك الاختراع. ولكن الذهول أصابه بالبكم، عندما رأى نفسه، وكل أفراد أسرته، مثبتين في سنٍّ أبدية، على صفيحة معدن معالجة بمادة ملونة. وإلى تلك الفترة، ترجع صورة الدغرتيب الصدئة التي يظهر فيها خوسيه أركاديو بوينديا بشعره الرمادي المنفوش، وياقة

قميصه المقواة بالكرتون، والمثبتة بزر نحاسي، وفي هيئته وقار ذاهل، هي الهيئة التي كانت تصفها أورسولا وهي تكاد تموت ضحكاً بأنها هيئة «جنرال مرعوب». والحقيقة أن خوسيه أركاديو بوينديا كان مرعوباً في ذلك الصباح الصافي من شهر كانون الأول الذي التقطت له فيه صورة الدغرتيب، لأنه كان يفكر في أن الناس يُستَهلَكون شيئاً فشيئاً كلما نُقلت صورهم إلى الصفائح المعدنية. وبانعكاس يثير الفضول، لما هو معهود. كانت أورسولا هي التي انتزعت تلك الفكرة من رأسه، وكانت هي أيضاً من تناست أحقادها القديمة، وقررت إبقاء ميلكيادس، للعيش معهم في البيت. ولكنها لم تسمح قط بالتقاط صورة لها لأنها (حسب ما قالته حرفياً) لا تريد أن تظل أضحوكة لأحفادها. ألبست صغارها، في ذلك الصباح، أفضل ثيابهم، ومسحت وجوههم بمسحوق البودرة، وسقت كل واحد منهم ملعقة من شراب النخاع، كي يتمكنوا من البقاء ثابتين تماما، قرابة دقيقتين، في مواجهة كاميرا ميلكيادس المهيبة. في صورة الدغرتيب العائلية تلك، وهي الصورة الوحيدة للأسرة، يظهر أوريليانو مرتدياً مخملاً أسود، بين آمارانتا وريبيكا. وتبدو عليه ملامح الوهن نفسها، والنظرة المتبصرة نفسها التي ستبدو عليه، بعد سنوات من ذلك، في مواجهة فصيلة الإعدام. ولكنه لم يكن يشعر بعد، بنذر قدره. فقد كان صائغاً مجرباً، يلقى التقدير في منطقة المستنقعات كلها، لدقة صنعته وجمالها. ويكاد لا يُسمع إلا تنفسه في المشغل الذي يتقاسمه مع مخبر ميلكيادس الهذياني. وكان يبدو كما لو أنه يلوذ بزمن آخر، بينما أبوه والغجري يفسران، صارخين، نبوءات نوستراداموس، وسط جلبة قوارير وطسوت، وكارثة سكب

الأحماض وضياع بروميد الفضة، بسبب تصادم مرافقهما وعثرات أقدامهما في كل لحظة. ذلك الانكباب على العمل، والحكمة في إدارة مصالحه، أتاحت لأوريليانو أن يكسب من المال، في زمن قصير، أكثر مما تكسبه أورسولا من مملكة حيواناتها السكرية، غير أن الجميع كانوا يستغربون من أنه لم يُعرف عنه علاقة بامرأة، رغم اكتمال رجولته. والحقيقة أنه لم يعرف أية امرأة.

بعد شهور رجع فرانثيسكو الرجل، وهو عجوز جواب آفاق، عمره حوالي مئتي سنة، كان يتردد على ماكوندو، وينشر فيها الأغنيات التي يؤلفها بنفسه. وكان فرا نثيسكو الرجل يروي بتفصيل دقيق، في تلك الأغنيات، أخبار ما يحدث في القرى التي يمر بها، بدءاً من مانـاوري حتى أقاصي منطقة البحيرات المستنقعية، فكان من يريد إرسال رسالة، أو نشر خبر حدث، يدفع له سنتافين اثنين كي يُضمنه في قائمة أغنياته. بهذه الطريقة علمت أورسولا، بمحض المصادفة، بموت أمها، وهي تستمع ذات ليلة إلى الأغاني، لعلها تخبرها شيئاً عن ابنها خوسيه أركاديو. وكان فرانثيسكو الرجل، وهو يدعى بهذا الاسم لأنه هزم الشيطان في مبارزة بارتجال الأغاني، ولا أحد يعرف اسمه الحقيقي، قد اختفى من ماكوندو خلال وباء الأرق، وعاد في إحدى الليالي للظهور، دون سابق إنذار، في حانوت كاتارينو. ذهب جميع من في القرية للاستماع، كي يعرفوا ما الذي جرى في العالم. وقد جاءت معه، في هذه المرة، امرأة شديدة البدانة، يحملها أربعة هنود في مقعدها الهزاز، وتتولى مراهقة خلاسية، ذات مظهر مخذول، حمايتها من الشمس بمظلة. في تلك الليلة، ذهب أوريليانو إلى حانوت كاتارينو؛ فوجد فرانثيسكو الرجل، مثل حرباء من قطعة

حجرية واحدة، جالساً وسط دائرة من الفضوليين. يغني الأخبار بصوته الهرم، وبمرافقة الأكورديون القديم نفسه الذي أهداه إليه السير والتر رالي في غويانا، ويضبط الإيقاع بقدميه الكبيرتين المشاءتين، المشققتين من ملح البارود. وأمام باب في أقصى المكان، يدخل ويخرج منه بعض الرجال، كانت تجلس، وتهوّي بصمت، امرأة الكرسي الهزاز البدينة. وكان كاتارينو الذي يضع وردة من اللباد على أذنه، يبيع القادمين طاسات من عصير قصب السكر المخمَّر، ويتحين الفرص ليدنو من الرجال، ويضع يده حيث لا ينبغي له أن يضعها. في حوالي منتصف الليل، صار الحر لا يطاق. وقد استمع أوريليانو إلى الأخبار، حتى نهايتها، دون أن يجد بينها خبراً يهم أسرته. وكان يتأهب للعودة إلى البيت، عندما أومأت له المرأة البدينة بيدها، وقالت:

- ادخل أنت أيضاً. لن يكلفك ذلك إلا عشرين سنتافو.

ألقى أوريليانو قطعة النقود في الحصالة التي تضعها البدينة بين ساقيها، ودخل الحجرة دون أن يدري السبب. كانت المراهقة الخلاسية، بنهديها الشبيهين بضرع كلبة، عارية على الفراش. وكان قد مرّ على الغرفة، قبل أوريليانو، في تلك الليلة، ثلاثة وستون رجلاً، فكان هواء الغرفة، لكثرة استخدامه، وعجنه بالعرق والتنهدات، قد بدأ بالتحول إلى وحل. نزعت الفتاة ملاءة الفراش المبللة، وطلبت من أوريليانو أن يمسك بأحد طرفيها. كانت ثقيلة كأنها قماش خيمة. عصراها، بفتلها من طرفيها، إلى أن استعادت وزنها الطبيعي. وقلبا الحصيرة، فخرج العرق من الجانب الآخر. تمنى أوريليانو، بجزع، ألا تنتهي تلك العملية أبداً. لقد كان يعرف آلية الحب نظرياً، لكنه لم يكن قادراً على البقاء واقفاً بسبب

تراخي ركبتيه، ومع أن جلده كان مقشعراً ومتأججاً، إلا أنه لم يستطع مقاومة تقيؤ ثقل أحشائه المُلحّ. عندما انتهت الفتاة من إعداد الفراش، أمرته بأن يخلع ثيابه، فقدم لها توضيحاً معذباً: «لقد أدخلوني. طلبوا مني أن ألقي عشرين سنتافو في الحصالة، وقالوا لي ألا أطيل المكوث.» تفهمت الفتاة انبهاره، فقالت له بعذوبة: «يمكنك البقاء لوقت أطول قليلاً، إذا ما ألقيت عشرين سنتافو أخرى عند الخروج.» خلع أوريليانو ثيابه، يعذبه الحياء، دون أن يستطيع التخلص من فكرة أن عريّه لا يصمد أمام المقارنة بعريّ أخيه. وعلى الرغم من جهود الفتاة، كان يشعر بمزيد من عدم المبالاة، وبأنه وحيد بصورة رهيبة. «سأدفع عشرين سنتافو أخرى»، قال بصوت مغموم. وشكرته الفتاة بصمت. كان ظهرها مكشوفاً بلحمه الحي. وكان جلدها ملتصقاً بالأضلاع، وتنفسها مضطرباً بإنهاك لا يسبر غوره. قبل سنتين من ذلك، وفي مكان بعيد جداً، غلبها النوم دون أن تطفئ الشمعة، واستيقظت لتجد نفسها محاصرة بالنار. تحول البيت الذي كانت تعيش فيه، مع جدتها التي تولت تربيتها، إلى كومة من الرماد. ومنذ ذلك الحين، تنتقل بها جدتها من قرية إلى قرية، وتجعلها تضاجع الرجال مقابل عشرين سنتافو، كي تدفع لها ثمن البيت المحترق. وحسب تقديرات الفتاة، فإنها ما زالت بحاجة إلى حوالي عشر سنوات، تضاجع خلالها سبعين رجلاً في كل ليلة، لأن عليها أن تدفع، فوق ذلك، نفقات السفر والطعام لكلتيهما، وأجور الهنود الذين يحملون الكرسي الهزاز. عندما طرقت البدينة الباب للمرة الثانية، خرج أوريليانو من الغرفة دون أن يكون قد فعل شيئاً، تشوشه الرغبة في البكاء. لم يستطع النوم في تلك الليلة، وهو يفكر بالفتاة،

بمزيج من الشهوة والشفقة. كان يشعر بحاجة لا تقاوم إلى حبها وحمايتها. وعند الفجر، بينما هو مستنفد من الأرق والحمى، اتخذ القرار الهادئ، بالزواج منها ليحررها من طغيان جدتها، وليستمتع كل ليلة بالمتعة التي تمنحها لسبعين رجلاً. لكنه عندما وصل، في الساعة العاشرة إلى حانوت كاتارينو، كانت الفتاة قد غادرت القرية.

تكفل الزمن بتهدئة نواياه من قراره الطائش، ولكنه فاقم من إحساسه بالإحباط؛ فلاذ بالعمل. وارتضى لنفسه أن يظل رجلاً بلا امرأة، مدى الحياة، كي يخفي خجله من انعدام جدواه. في أثناء ذلك، انتهى ميلكيادس من تثبيت كل ما هو قابل للتصوير في ماكوندو، على صفائحه المعدنية، وتخلى عن مخبر تصوير الدغرتيب، لهذيانات خوسيه أركاديو بوينديا الذي قرر أن يستعمله للتوصل إلى دليل علمي على وجود الرب. ومن خلال عملية عرض صور متراكبة ومعقدة، مأخوذة في أمكنة مختلفة من البيت، توصل إلى القناعة بأنه سيتمكن، عاجلاً أو آجلاً، من التقاط صورة للرب، إذا كان موجوداً، وإلا فإنه سيضع حداً، إلى الأبد، لفرضية وجوده. أما ميلكيادس، فقد تعمق في تفسيرات نوستراداموس. ظل إلى وقت متأخرة، مختنقاً في صداره المخملي حائل اللون، يخربش أوراقاً بيديه الصغيرتين كيدي عصفور دوري، وكانت خواتمه قد فقدت البريق الذي كان لها في زمن آخر. وفي إحدى الليالي، ظن أنه وجد نبوءة حول مستقبل ماكوندو. فهي ستغدو مدينة مشعة، ببيوت كبيرة من زجاج، لا يبقى فيها أثر لسلالة بوينديا. فانفجر خوسيه أركاديو بوينديا: «هذا خطأ. لن تكون بيوتاً من زجاج، وإنما من جليد، مثلما حلمتُ أنا. وسيظل

هناك أحد آل بوينديا على الدوام، إلى أبد الآبدين.» في ذلك البيت المهووس، كانت أورسولا تناضل للحفاظ على الحس السليم، وكانت قد وسعت تجارة حيوانات السكاكر، بفرن يُنتج كل ليلة، سلالاً وسلالاً من الخبز، وتشكيلة عجيبة من حلوى البودين والكريما والبسكويت، تنفد خلال ساعات قليلة على دروب منطقة المستنقعات الوعرة. كانت قد بلغت السن التي يحق لها فيها أن تستريح؛ ولكنها كانت، مع ذلك، تزداد نشاطاً كل يوم. وقد كانت مستغرقة في تجارتها المزدهرة إلى حد أنها نظرت ساهية في أحد الأيام نحو الفناء، بينما كانت الهندية تساعدها في تحلية العجين، فرأت فتاتين مجهولتين وجميلتين، تطرزان على نول على ضوء الغسق. كانتا ريبيكا وأمارنتا. وقد نزعتا، قبل وقت قصير، ملابس الحداد على الجدة، بعد حداد صارم استمر ثلاثة أعوام، وبدا كما لو أن الملابس الملونة قد منحتهما مكاناً جديداً في هذا العالم. وخلافاً لما كان يمكن توقعه، بدت ريبيكا هي الأجمل. كانت لها بشرة صافية، وعينان واسعتان وهادئتان، ويدان ساحرتان تبدوان كما لو أنهما تشتغلان لحمة التطريز بخيوط غير مرئية. أما آمارانتا، الصغرى، فكانت تفتقر قليلاً إلى الجاذبية، ولكنها تمتلك التأنق الطبيعي، والاعتداد الداخلي للجدة المتوفاة. وإلى جانبهما، كان أركاديو يبدو طفلاً، على الرغم من تكشفه عن اندفاع أبيه الجسدي. وكان يعكف على تعلم فن الصياغة مع أوريليانو الذي تولى تعليمه القراءة والكتابة أيضاً. وانتبهت أورسولا فجأة، إلى أن البيت قد امتلأ بالناس، وأن أبناءها صاروا على وشك الزواج وإنجاب أبناء، وسوف يجدون أنفسهم مضطرين إلى الرحيل والتشتت لضيق المكان. عندئذ أخرجت المال المتراكم

خلال سنوات طويلة من العمل الشاق، وتوصلت إلى اتفاقات مع زبائنها، وبدأت عملية توسيع البيت. أمرت بناء صالة رسمية لاستقبال الزوار، وأخرى أكثر راحة وبرودة للاستخدام اليومي، وغرفة طعام بمائدة تتسع لاثني عشر شخصاً، يجلس إليها أفراد الأسرة جميعهم والضيوف؛ وتسع غرف نوم تطل نوافذها على الفناء، وردهة طويلة تحميها من وهج الظهيرة حديقة ورود، وحاجز توضع عليه أحواض سرخس، وأصص بيغونيا. وأمرت بتوسيع المطبخ، من أجل بناء فرنين فيه، وهدم مستودع الحبوب القديم، حيث قرأت بيلار تيرنيرا مستقبل خوسيه أركاديو، وبناء مستودع آخر أكبر مرتين، كيلا يفتقد البيت المؤن أبداً. وأمرت أن يبنى في الفناء، في ظل شجرة الكستناء، حمام للنساء وآخر للرجال، وأن يقام في أقصى الفناء إسطبل كبير، وقن دواجن محاط بسياج أسلاك، وزريبة لحلب البقر، وبيت للعصافير مشّرع للرياح الأربع، يمكن أن تستقر فيه، على هواها، العصافير التي تمضي على غير هدى. وكما لو أن عدوى حمى زوجها الهذيانية قد انتقلت إليها، راحت أورسولا، يتبعها عشرات البنائين والنجارين، تنظم وجهة الضوء ومسار الحرارة، وتوزع المكان دون أدنى إحساس بحدوده. امتلأ بناء المؤسسين البدائي بأدوات ومواد البناء، وبعمال مثقلين بالعرق، يرجون الجميع ألا يعرقلوا حركتهم، دون أن يخطر لهم أنهم هم أنفسهم من يعرقلون، متضايقين من كيس عظام بشرية، يتبعهم أينما توجهوا بقرقعة صماء. ووسط ذلك الإزعاج، وتنفس الكلس الحي وروائح القطران، لم يفهم أحد كيف راح ينبثق من باطن الأرض، ليس أكبر بيت عرفته القرية وحسب، وإنما أكثر البيوت كرم ضيافة وبرودة في محيط منطقة

المستقعات بأسرها. وكان خوسيه أركاديو بوينديا المنهمك في محاولة رصد العناية الإلهية ومفاجآتها، وسط فوضى تلك الكارثة، هو أقل الجميع فهما لما يجري. وكان البيت الجديد قد أوشك على الانتهاء، عندما أخرجته أورسولا من عالم أوهامه، لتخبره بأن هناك أوامر بطلي الواجهة باللون الأزرق، وليس الأبيض الذي يرغبون فيه. أرته الأمر الرسمي مكتوباً على الورق. ودون أن يفهم خوسيه أركاديو بوينديا ما تقوله زوجته، أمعن النظر في التوقيع، وسأل:

- ومن هو هذا الشخص؟

- إنه الحاكم - قالت أورسولا بحزن، وأضافت:- يقولون إنه سلطة أرسلتها الحكومة.

كان دون أبولينار موسكوتي، الحاكم، قد وصل إلى ماكوندو دون ضجة. ونزل في فندق يعقوب - الذي أقامه أحد أول العرب الذين جاؤوا يقايضون بضائعهم التافهة بالببغاوات - وفي اليوم التالي، استأجر غرفة يطل بابها على الشارع، على بُعد كوادرتين عن بيت آل بوينديا. ووضع فيها منضدة وكرسياً، اشتراهما من يعقوب، وعلق على الجدار شعار الجمهورية الذي أحضره معه، وخطّ على الباب يافطة: **الحاكم**. وكان أول أمر أصدره، هو طلاء البيوت كلها باللون الأزرق احتفالاً بعيد الاستقلال الوطني. ووجده خوسيه أركاديو بوينديا ينام القيلولة، في أرجوحة النوم التي علقها في مكتبه المتقشف، عندما جاء إليه وبيده نسخة من الأمر. سأله: «حضرتك من كتب هذه الورقة؟». فرد دون أبولينار موسكوتي، وهو رجل ناضج، خجول، ذو دماء مختلطة، بالإيجاب. وعاد خوسيه أركاديو بوينديا لسؤاله: «وبأي حق؟» فبحث دون

أبولينار موسكوتي عن ورقة في درج المنضدة، وعرضها عليه: «لقد عُينت حاكماً لهذه القرية». لم يكلف خوسيه أركاديو بوينديا نفسه عناء النظر إلى أمر التعيين، وقال دون أن يفقد هدوءه:

- لا نتعامل بأوامر الورق في هذه القرية. وعليك أن تعلم، مرة واحدة، أننا لا نحتاج هنا أي حاكم، لأنه لا وجود لما يتطلب الإصلاح.

وحيال عدم تأثر دون أبولينار موسكوتي، قدم له، دون أن يرفع صوته، رواية مفصلة لكيفية تأسيسهم القرية، وكيف وزعوا الأرض، وشقوا الطرق، وأدخلوا التحسينات التي راحت تستدعيها الحاجة، دون أن يزعجوا أية حكومة، ودون أن يزعجهم أحد، ثم قال: «نحن مسالمون إلى حدّ أننا لم نمت بعد موتاً طبيعياً. وكما ترى، لا توجد لدينا مقبرة بعد.» ولم يتذمر من عدم مساعدة الحكومة لهم. بل على العكس، كان سعيداً لأنها تركتهم، حتى ذلك الحين، يكبرون بسلام؛ وكان يأمل أن تواصل تركهم على تلك الحال، لأنهم لم يؤسسوا قرية لكي يأتي أول غريب ليملي عليهم ما يجب أن يفعلوه. كان دون أبولينار موسكوتي قد ارتدى سترة من الكتان، بيضاء كبنطاله، دون أن يفقد في أي لحظة نقاء حركاته. وانتهى خوسيه أركاديو بوينديا إلى القول:

- وهكذا، إذا كنت تريد البقاء هنا، مثل أي مواطن عادي آخر، فعلى الرحب والسعة. أما إذا جئت لتزرع الفوضى بإجبار الناس على طلاء بيوتهم بالأزرق، فيمكنك حمل أشيائك والعودة من حيث جئت. لأن بيتي سيكون أبيض مثل حمامة.»

شحب لون دون أبولينار موسكوتي. تراجع خطوة إلى الوراء، وضغط فكيه كي يقول بشيء من الغم:

- أريد أن أنبهك إلى أنني مسلح.

لم يدر خوسيه أركاديو بوينديا في أية لحظة، صعدت إلى يديه قوة شبابه التي كان يطرح بها حصاناً. أمسك دون أبولينار موسكوتي من ياقة سترته، ورفعه إلى مستوى عينيه. وقال له:

- أفعلُ هذا لأنني أفضل أن أحملك حياً، على أن أواصل حملك ميتاً طوال ما تبقى من حياتي.

وهكذا أخرجه إلى عرض الشارع، معلقاً من ياقته، إلى أن أوقفه على قدميه في الطريق إلى منطقة المستنقعات. بعد أسبوع من ذلك، رجع ومعه ستة جنود حفاة وممزقو الثياب، مسلحون بالبنادق، وعربة تجرها الجواميس، جاءت فيها زوجته وبناته السبع. وجاءت في ما بعد عربتان أخريان، تحملان الأثاث والصناديق والأدوات المنزلية. أسكن الأسرة في فندق يعقوب، ريثما يجد بيتاً، وأعاد فتح المكتب تحت حماية الجنود. صمم مؤسسو ماكوندو على طرد الغزاة، فذهبوا مع أبنائهم الكبار ليضعوا أنفسهم تحت تصرف خوسيه أركاديو بوينديا. لكنه عارض ذلك، لأن دون أبولينار موسكوتي، كما أوضح لهم، قد رجع مع امرأته وبناته، وليس من خلق الرجال إهانة رجل آخر أمام أسرته. ولهذا قرر تسوية الوضع بالحسنى.

رافقه أوريليانو. وكان قد بدأ، في تلك الأثناء، بإطلاق شاربه الأسود ذي الطرفين المصمغين، واكتمل صوته الجهوري الذي تميز به خلال الحرب. دخلا إلى مكتب الحاكم أعزلين من السلاح، دون أن يأبها بالحراس. لم يفقد دون أبولينار موسكوتي هدوءه. وقدم إليهما اثنتين من بناته كانتا هناك مصادفة: أمبارو ذات الستة عشر عاماً، السمراء كأمها، وريميديوس التي لم تكمل التاسعة من

العمر، وهي طفلة بارعة الجمال، بشرتها زنبق وعيناها خضراوان. كانتا لطيفتين وحسنتي التربية. ففور دخولهما، قدمتا إليهما كرسيين ليجلسا، قبل أن يعرّف أبوهما القادمين بهما. لكن خوسيه أركاديو بويندیا وابنه ظلا واقفين. وقال الأب:

- حسن يا صديقي. سوف تبقى هنا، ليس لأن أمام بابك قطاع الطرق المسلحين بالبنادق هؤلاء، وإنما تقديراً لزوجتك وبناتك.

ارتبك دون أبولينار موسكوتي، لكن خوسيه أركاديو بويندیا لم يتح له وقتاً للرد. وأضاف: «لكننا نضع شرطين فقط. الأول: أن يطلي كل شخص بيته باللون الذي يرغب فيه. والثاني: أن يرحل الجنود فوراً. ونحن نضمن استتباب الأمن.» رفع الحاكم يده اليمنى وهو يمد كل أصابعها:

- كلمة شرف؟

- كلمة عدو - قال خوسيه أركاديو بويندیا، وأضاف بنبرة مريرة:- لأن هناك شيئاً أريد أن أقوله لك: أنت وأنا سنبقى عدوين.

في عصر ذلك اليوم بالذات، غادر الجنود. وبعد أيام قليلة، وفر خوسيه أركاديو بويندیا بيتاً لأسرة الحاكم. وخيم السلام على الجميع، ما عدا أوريليانو. فصورة ريميديوس، ابنة الحاكم الصغرى، والتي يمكن لها في تلك السن، أن تكون ابنته، ظلت تسبب له آلاما في مكان من جسده. كان إحساساً جسدياً يضايقه في المشي، مثل حصاة صغيرة في الحذاء.

جرى تدشين البيت الجديد، الأبيض مثل حمامة، في حفلة راقصة. كانت أورسولا قد وضعت تصوراً لفكرة هذه الحفلة، منذ مساء اليوم الذي رأت فيه ريبيكا وآمارانتا وقد تحولتا إلى مراهقتين، ويمكن القول تقريباً، إن دافعها الرئيسي للبناء هو الرغبة في توفير مكان لائق، تستقبل فيه الفتاتان الزيارات. وكيلا ينتقص شيء من ألق نيتها تلك، عملت في أثناء تنفيذ الإصلاحات، كمحكوم عليه بالتجديف في السفن. وأوصت، قبل انتهاء تلك الإصلاحات، على أدوات وأجهزة غالية للتزيين والخدمة، وذلك الاختراع البديع الذي سيستثير ذهول القرية وبهجة الشباب: البيانولا. جيء به قطعاً مفككة، معبأة في صناديق مع الأثاث الفييني، والكريستال البوهيمي، وأواني المائدة من شركة الهند، والشراشف الهولندية، وتشكيلة غنية من القناديل والشمعدانات، ومن المزهريات والزينات والسجاجيد. وقد أرسلت الشركة المورِّدة، على نفقتها، خبيراً إيطالياً، هو بيترو كريسبي، كي يُرَكِّب جهاز البيانولا ويضبطه، ويدرب المشترين على استخدامه، ويعلمهم الرقص على الموسيقى الرائجة المطبوعة على ست لفافات من الورق.

كان بيترو كريسبي شاباً أشقر. أوفر الرجال الذين رأتهم ماكوندو جمالاً، وأفضلهم تهذيباً. شديد الهوس بأناقة ملبسه؛

فقد كان يعمل، على الرغم من الحرارة الخانقة، وهو يرتدي صدرية البروكار، وسترة الجوخ القاتم السميكة. وقد أمضى عدة أسابيع معتكفاً في الصالة، مبللاً بالعرق، ومحافظاً على مسافة احتياط عن أصحاب البيت، في انهماك لا يدانيه إلا انهماك أوريليانو في مشغل الصياغة. وذات صباح، دون أن يفتح الباب، ودون أن يدعو أحداً ليكون شاهداً على المعجزة، وضع إحدى اللفافات في البيانولا. فتوقفت ضربات المطرقة، وجلبة العوارض الخشبية الدائمة، في صمت ذاهل، حيال انتظام الموسيقى وصفائها. هرع الجميع إلى الصالة. وبدا خوسيه أركاديو بوينديا مصعوقاً، ليس بجمال اللحن، وإنما لأن البيانولا كانت تعزف بنفسها، فنصب آلة تصوير ميلكيادس في الصالة، أملاً في التقاط صورة للعازف الخفي. في ذلك اليوم، تناول الإيطالي الغذاء معهم. أعدت ريبيكا وآمارانتا المائدة، وقد أفزعتهما الانسيابية التي يستخدم بها ذلك الرجل الملائكي أدوات الطعام، بيديه الشاحبتين، والخاليتين من الخواتم. وفي حجرة المعيشة، المجاورة لصالة الاستقبال، علمهما بيترو كريسبي الرقص. كان يلقنهما الخطوات، بالإشارة، دون أن يلمسهما، ضابطاً سرعة الإيقاع بمقياس مترونوم، تحت رقابة لطيفة من أورسولا التي لم تكن تغادر الصالة ثانية واحدة، خلال تلقي ابنتيها الدروس. كان بيترو كريسبي يرتدي في تلك الأيام بنطالاً خاصاً، شديد المرونة وملتصقاً بجسمه، وحذاء رقص. فكان خوسيه أركاديو بوينديا يقول لامرأته: «لا تقلقي كل هذا القلق. فهذا الرجل مخنث.» لكنها لم تمل المراقبة إلى أن انتهى التعليم، ورحل الإيطالي عن ماكوندو. عندئذ بدأ الإعداد لإقامة الحفلة. وضعت أورسولا قائمة مدعوين

صارمة، لم تختر فيها سوى أبناء مؤسسي ماكوندو، باستثناء أسرة بيلار تيرنيرا، وكانت هذه قد أنجبت ابنين آخرين من أبوين مجهولين. وقد كان انتقاء طبقياً، في الواقع، لم تحدده سوى مشاعر الصداقة، ذلك أن المختارين لم يكونوا فقط، أقدم المقربين من بيت خوسيه أركاديو بوينديا، حتى قبل رحلة الشتات التي انتهت بتأسيس ماكوندو، بل إن أبناءهم وأحفادهم كذلك كانوا رفاق أوريليانو واركاديو المعهودين، منذ الطفولة، وكانت بناتهم هن الوحيدات اللواتي يأتين إلى البيت، ليطرزن مع ريبيكا وآمارانتا.
أما دون أبولينار موسكوتي، الحاكم الرقيق، الذي كان دوره يقتصر على أن يعيل، بموارده الشحيحة، شرطيين مسلحين بعصوين تنتهيان بكرتين من الخشب، فكان سلطة تزيينية. ومن أجل تغطية النفقات المنزلية، افتتحت بناته مشغلاً للخياطة، حيث كان سواء لديهن، صنع زهور من اللبد، أو شطائر الجوافة، أو كتابة رسائل حب حسب الطلب. وعلى الرغم من كونهن مستقيمات وخدومات، وأجمل فتيات القرية، وأبرعهن في الرقصات الجديدة، لم ينجحن في أن يؤخذن بالاعتبار ويدعين إلى الحفلة.

بينما كانت أورسولا والفتاتان يُخرجن الأثاث من الصناديق، ويُلمعن أواني المائدة، ويعلقن لوحات آنسات في زوارق محملة بالورد، ويبعثن نفحة حياة جديدة في الأركان المقفرة التي بناها البناؤون. توقف خوسيه أركاديو بوينديا عن ملاحقة صورة الرب، مقتنعاً بعدم وجوده، وعكف على انتزاع أحشاء البيانولا كي يحل لغز سحره السري. وقبل يومين من الحفلة، كان غائصاً في كومة متناثرة من النوابض والمطارق والمسامير الخشبية الفائضة، يتخبط وسط أوتار متشابكة، ما أن يحلها من طرف حتى تتشابك في

الطرف الآخر، متوصلاً بذلك إلى إفساد تركيب الجهاز. لم يشهد البيت من قبل قط، ارتباكاً واضطراباً مثل تلك الأيام. غير أن مصابيح القطران أُضيئت في اليوم والساعة المحددين، وفتُح البيت الذي مازال يعبق برائحة راتنج وكلس رطب، وتعرف أبناء وأحفاد المؤسسين إلى ردهة السرخس والبيغونيا، والحجرات الصامتة، والحديقة المترعة بعبق الورد، واجتمعوا في صالة الاستقبال، قبالة الاختراع المجهول المغطى بملاءة بيضاء. ومن كان يعرف منهم، من قبل، البيانو المنتشر في قرى منطقة المستنقعات الأخرى، أحس بشيء من خيبة الأمل، غير أن خيبة أمل أورسولا كانت أشد مرارة، عندما وضعت اللفافة الأولى في الجهاز، كي تفتتح آمارانتا وريبيكا الرقص، ولم تعمل آلية الجهاز. عندئذ لجأ ملكيادس، وقد صار أعمى تقريباً، ومفتتاً من الشيخوخة، إلى فنون معارفه القديمة، في محاولة لإصلاحه. وأخيراً، تمكن خوسيه أركاديو بوينديا، عن طريق الخطأ، من تحريك قطعة عالقة في الجهاز، فخرجت الموسيقى في أول الأمر بفوران فقاعات، ثم تحولت إلى ينبوع ألحان متداخلة. وبالضرب على الأوتار الموضوعة دون انتظام ولا انسجام، تفككت المطارق. لكن الأبناء العنيدين للواحد وعشرين رائداً جسوراً، ممن توغلوا في سلسلة الجبال، باحثين عن البحر بالتوجه غرباً، تجاوزا عثرات التبدل اللحني، وتواصلت حفلة الرقص حتى الفجر.

رجع بيترو كريسبي لإصلاح البيانولا. وساعدته ريبيكا وآمارانتا في ترتيب الأوتار، وحاكيتا ضحكاته من انقلاب الفالسات. كان ودوداً إلى أقصى الحدود، ومن طينة بالغة النزاهة، حتى إن أورسولا تخلت عن المراقبة. وقد ارتجلت عشية سفره

حفلة راقصة، على أنغام البيانولا، لوداعه. وقدم هو مع ريبيكا عرضاً بارعاً للرقصات الحديثة. وقد جاراهما أركاديو وآمارانتا بالرشاقة والبراعة. ولكن العرض توقف، لأن بيلار تيرنيرا، وكانت عند الباب مع الفضوليين، تشاجرت بالعض وشدّ الشعر، مع امرأة تجرأت على التعليق بأن للفتى أركاديو إليتي امرأة. وعند منتصف الليل، ودعهم بيترو كريسبي بخطبة قصيرة مؤثرة، ووعد بأن يرجع قريباً جداً. رافقته ريبيكا حتى الباب، وبعد أن أغلقت البيت وأطفأت المصابيح، مضت إلى غرفتها لتبكي. كان بكاء لا سلوى له، استمر عدة أيام، ولم تعرف سببه حتى آمارانتا نفسها. لم يكن تكتمها مستغرباً. ومع أنها كانت تبدو منفتحة وودودة، إلا أنها كانت ذات طبع منعزل، وقلب عصي على الاختراق. لقد كانت مراهقة بديعة، ذات عظام طويلة ومتينة، ولكنها تصر على مواصلة استخدام الكرسي الهزاز الخشبي الصغير الذي جاءت به معها إلى البيت، والذي جرى تدعيمه عدة مرات وأزيل ذراعاه الجانبيان. لم يكتشف أحد أنها مازالت، وهي في هذه السن، تحافظ على عادة مص إصبعها. ولهذا لم تكن تفوت فرصة للانزواء في الحمام. واكتسبت عادة النوم مديرة وجهها باتجاه الجدار. وفي الأمسيات الماطرة، بينما هي تطرز مع جماعة من الصديقات، في ردهة البيغونيا، كانت تسهو عن متابعة خيط الأحاديث؛ وتُملّح حلقها دمعة حنين، عندما ترى عروق التراب الرطبة، وأكوام الطين التي تبنيها الديدان في الحديقة. هذه الملذات السرية التي هزمها، في زمن آخر، البرتقال مع الرواند، انفجرت في تلهف لا يمكن كبحه عندما بدأت البكاء. عادت إلى أكل التراب. فعلت ذلك في المرة الأولى، بدافع الفضول تقريباً،

مقتنعة بأن الطعم الكريه سيكون أفضل دواء ضد ذلك الإغراء. ولم تستطع، بالفعل، تحمل التراب في فمها. لكنها أصرت، وقد هزمتها اللهفة المتزايدة، وشيئاً فشيئاً راحت تستعيد الشهية السالفة، مذاق المعادن البدائية، والشبع الكامل من الغذاء الأصلي. صارت تدس حفنات من التراب في جيوبها، ثم تأكلها خفية كحبيبات، بإحساس مختلط يجمع بين السعادة والغضب، بينما هي تعلِّم صديقاتها أصعب غُرز التطريز، وتتحدث عن رجال آخرين لا يستحقون تضحية أن يؤكل من أجلهم كلس الجدران. كانت حفنات التراب تجعل الرجل الوحيد الذي يستحق ذلك الانحطاط أقل بعداً عنها، وأكثر حقيقية، كما لو أن التراب الذي يطأه بحذائه الأنيق اللماع الناعم، في مكان آخر من العالم، ينقل إليها كثافة دمه وحرارته، في مذاق معدني يخلّف طعماً حريفاً في فمها، وترسبات سلام في قلبها. وذات مساء، دون أي مسوغ، طلبت أمبارو موسكوتي السماح لها بالتعرف على البيت. وقد استقبلتها آمارانتا وريبيكا، المذهولتين لهذه الزيارة غير المتوقعة، استقبالاً رسمياً صارماً. أريتاها البيت الذي أعيد إصلاحه، وأسمعتاها لفافات البيانولا، وقدمتا إليها شراب البرتقال والبسكويت. وقد أعطت أمبارو درساً في الوقار، وفي الجاذبية الشخصية، وفي الأساليب الراقية، مما أثار إعجاب أورسولا خلال حضورها، للحظات القليلة، اللقاء مع الزائرة. وبعد مضي ساعتين، عندما بدأ الحديث يفتر، انتهزت أمبارو لحظة سهو من آمارانتا، وسلّمت رسالة إلى ريبيكا. وقد تمكنت هذه من رؤية اسم الآنسة المحترمة دونيا ريبيكا بوينديا، مكتوباً بالخط الدقيق نفسه، والحبر الأخضر نفسه، وبتنسيق الكلمات البديع نفسه الذي كُتبت به تعليمات

تشغيل البيانولا، فطوت الرسالة برؤوس أصابعها، وخبأتها في صدريّتها وهي تنظر إلى أمبارو موسكوتي بامتنان لانهائي وغير مشروط، وبوعد صامت بالتواطؤ حتى الموت.

صداقة أمبارو موسكوتي وريبيكا بويندیا المفاجئة، أيقظت آمال أوريليانو؛ فذكرى ريميديوس الصغيرة كانت لا تزال تعذبه، ولكنه لا يجد الفرصة لرؤيتها. فعندما يتمشى في القرية مع أصدقائه المقربين، ماغنيفيكو فيسبال وخيرينيلدو ماركيز - ابني المؤسسين اللذين يحملان الاسمين نفسيهما - يبحث عنها بنظرة جزعة في مشغل الخياطة، فلا يرى غير أخواتها الكبيرات. وقد كان مجيء أمبارو موسكوتي إلى البيت أشبه بتنبيه مسبق. «لا بد أن تجيء معها»، كان أوريليانو يقول ذلك لنفسه بصوت خافت «لا بد أن تجيء.» وقد ردد هذا القول مرات ومرات، وبيقين راسخ، حتى مساء يوم كان يقوم فيه بتركيب سمكة مذهبة، وراوده يقين بأنها قد استجابت لندائه. وبعد قليل، سمع الصوت الطفولي، فعلاً، فرفع عينيه وقد تجلد قلبه فزعاً، ورأى الصغيرة عند الباب، بفستان من الأورغنزا الوردية وحذاء أبيض.

- لا تدخلي هناك يا ريميديوس. - قالت أمبارو موسكوتي وهي في الردهة - إنهم يشتغلون.

لكن أوريليانو لم يتح لها الوقت للاستجابة. رفع السمكة المذهبة المعلقة بسلسلة صغيرة تخرج من فمها، وقال لها:

- ادخلي.

اقتربت ريميديوس، ووجهت بضعة أسئلة عن السمكة، لم يستطع أوريليانو الإجابة عليها لأن ربواً مفاجئاً منعه من ذلك. ودّ لو يبقى دوماً إلى جوار بشرة هذا الوجه الزنبقية، إلى جوار هاتين

العينين الزمرديتين، قريباً جداً من هذا الصوت الذي يقول له مع كل سؤال «يا سيد» بالاحترام نفسه الذي تتوجه به إلى أبيها. كان ميلكيادس في الركن، جالساً إلى منضدة المكتب، يخربش رموزاً غير مفهومة. كرهه أوريليانو. ولم يستطع أن يفعل شيئاً، سوى أن يقول لريميديوس إنه سيهدي إليها السمكة الذهبية. وخافت الطفلة من الهدية إلى حد غادرت معه المشغل مسرعة. في ذلك المساء فقد أوريليانو صبره السري الذي انتظر به رؤيتها. فأهمل العمل. واستدعاها مرات ومرات، بجهود تركيز ذهنية يائسة، لكن ريميديوس لم تستجب. بحث عنها في مشغل أخواتها، بين ستائر بيتها، في مكتب أبيها، لكنه لم يجدها إلا في الصورة التي أترعت وحدته الرهيبة. صار يقضي ساعات في الصالة مع ريبيكا، مستمعاً إلى فالسات البيانولا. وكانت ريبيكا تستمع إليها لأنها الموسيقى التي علّمها بها بيترو كريسبي الرقص. أما أوريليانو فكان يستمع لأن أي شيء، ببساطة، حتى الموسيقى، يذكره بريميديوس.

فاض البيت حباً. وعبّر أوريليانو عن ذلك بأشعار لا بداية لها ولا نهاية. كان يكتبها على رقاق خشنة، يهديه أياها ميلكيادس، وعلى جدران الحمام، وعلى جلد ذراعيه، وفيها جميعاً تظهر ريميديوس متجلية: ريميديوس في هواء الثانية بعد الظهر المنوِّم، ريميديوس في تنفس الورود الصامت، ريميديوس في الساعة السرية للعث، ريميديوس في رائحة الخبز عند الفجر، ريميديوس في كل مكان، وريميديوس إلى الأبد.

كانت ريبيكا تنتظر الحب في الساعة الرابعة مساء، وهي تطرز بجوار النافذة. تعرف أن بغلة البريد لا تأتي إلا كل خمسة

عشر يوماً، لكنها تنتظرها دوماً، مقتنعة بأنها ستجيء، ذات يوم، في موعد خاطئ. لكن ما حدث هو العكس تماماً: البغلة لم تصل، ذات مرة، في موعدها المقرر. نهضت ريبيكا في منتصف الليل، وقد أصابها اليأس بالجنون، وأكلت حفنات من التراب في الحديقة، بنهم انتحاري، وبكاء ألم وغضب، ماضغة ديدان طرية، ومكسرة أضراسها بقواقع حلزونات. ظلت تتقيأ حتى الفجر. وغرقت في حالة وهن محموم، وفقدت الوعي، وانفتح قلبها في هذيان بوح بلا حياء. عمدت أورسولا، وقد أثارت الفضيحة استنكارها، إلى خلع قفل الصندوق، فوجدت في قاعه الرسائل الست عشرة المعطرة، مربوطة بشرائط وردية، وهياكل عظمية لأوراق وبتلات أزهار محفوظة في كتب قديمة، وفراشات محنطة، تحولت لدى لمسها إلى غبار.

كان اوريليانو هو الوحيد القادر على فهم كل هذا الحزن؛ ففي مساء ذلك اليوم، بينما كانت أورسولا تحاول إنقاذ ريبيكا من حمأة الهذيان، ذهب مع ماغنيفيكو فيسبال وخيرينيلدو ماركيز إلى حانوت كاتارينو. كان المحل قد توسع بردهة من حجرات خشبية، تعيش فيها نساء وحيدات لهن رائحة زهور ميتة. وكانت مجموعة أكورديونات وطبول تعزف أغنيات فرانثيسكو الرجل الذي لم يظهر في ماكوندو منذ عدة سنين. وشرب الأصدقاء الثلاثة عصير قصب السكر المختمر. ومع أن ماغنيفيكو وخيرينيلدو كانا في مثل سن أوريليانو، إلا أنهما أكثر منه دراية في شؤون الدنيا، فكانا يشربان بمنهجية، والنساء يجلسن على ركبهما. وقد أقدمت إحداهن، وهي امرأة ذاوية، لها أسنان مذهبة، على مداعبة أوريليانو بحركة تبعث القشعريرة. فأبعدها عنه. كان قد اكتشف

أنه كلما زاد من تناول الشراب، ازداد تذكره لريميديوس، لكن قدرته على تحمّل عذاب ذكراها تصير أكبر. ولم يدرِ في أي لحظة بدأ يطفو. ورأى صديقيه والنساء يبحرون في انعكاسات إشعاعية، بلا وزن ولا حجم، يقولون كلمات لا تخرج من شفاههم، ويقومون بإيماءات غامضة لا تتفق مع حركاتهم. وضع كاتارينو يده على ظهره، وقال له: «أوشك الوقت بلوغ الحادية عشرة.» فأدار أوريليانو رأسه، ورأى الوجه الضخم المشوه، وعلى أذنه زهرة من اللبد، عندئذ فقد الذاكرة، مثلما في زمن النسيان، ثم استعادها في فجر غريب، وفي حجرة غريبة عليه تماماً، حيث كانت بيلار تيرنيرا بقميص داخلي، حافية، مشعثة الشعر، تضيئه بمصباح، مذهولة وغير قادرة على التصديق.

- أوريليانو!

استند أوريليانو إلى قدميه، ورفع رأسه. كان يجهل كيف وصل إلى هناك، ولكنه كان يعرف الهدف، لأنه يخبئه منذ الطفولة في ركن راكد، لا يمكن اختراقه، من قلبه. قال لها:

- جئت لأنام معك.

كانت ثيابه ملطخة بالوحل والقيء. لم توجه إليه بيلار تيرنيرا أي سؤال، وكانت تعيش آنذاك وحيدة، مع ابنيها الصغيرين. قادته إلى السرير. نظفت وجهه بليفة رطبة، وخلعت عنه ثيابه، ثم تعرت تماماً، وأسدلت الكلّة كي لا يراها ابناها إذا ما استيقظا. كان قد أعياها انتظار الرجل الذي بقي، والرجال الذين مضوا، والرجال الكثيرين الذين أضاعوا طريق بيتها، وقد اختلط عليها أمرهم بتشكك ورق اللعب. وفي الانتظار، تشقق جلدها، وأُفرغ ثدياها، وانطفأت جمرات قلبها. بحثت عن أوريليانو في الظلام، ووضعت

يدها على بطنه، قبلته من عنقه بحنان، ودمدمت: «يا طفلي المسكين». ارتعش أوريليانو. ودون أدنى بلادة، خلّف وراءه هوة الألم، ووجد ريميديوس متحولة إلى مستنقع بلا آفاق، تعبق برائحة حيوان فظ، وثياب مكوية للتو. وعندما خرج طافياً، كان يبكي. في البدء كانت إجهاشات غير إرادية ومتقطعة. ثم أُفرغت بعد ذلك في ينبوع منفلت، وهو يشعر أن شيئاً متورماً ومؤلماً قد انفجر في أعماقه. وانتظر بيلار، وهي تحك له رأسه بأطراف أصابعها، إلى أن فرغ جسمه من المادة القاتمة التي لا تتركه يعيش. وعندئذ سألته بيلار تيرنيرا: «من هي؟» وأخبرها أوريليانو. فأطلقت الضحكة التي كانت تطيّر الحمائم، في أزمنة أخرى، ولم تعد توقظ الطفلين الآن. وقالت له ساخرة: «ينبغي أن تقوم بتربيتها أولاً». ولكن، تحت هذه السخرية، وجد أوريليانو ملاذ تفهم. وعندما غادر الغرفة، مخلفاً هناك، ليس الشكوك في رجولته وحسب، وإنما كذلك ثقل المرارة الذي تحمَّله شهوراً طويلة في قلبه، قدمت له بيلار تيرنيرا وعداً طوعياً:

- سأتحدث إلى الطفلة - قالت - وسترى كيف سأقدمها لك على طبق.

وفت بما وعدت. ولكن في وقت غير موات، لأن البيت كان قد فقد سلام الأيام الأخرى. فمع اكتشاف هوى ريبيكا، بعد أن لم يعد بالإمكان إبقاءه سراً، بسبب صراخها، عانت آمارانتا من نوبة ارتفاع في الحرارة. فقد كانت هي أيضاً تعاني من شوكة حب متوحد. وكانت تحبس نفسها في الحمام، وتفرّج عن نفسها عذاب عاطفة بلا أمل، بكتابة رسائل محمومة، تقنع بإخفائها في قاع الصندوق. صارت أورسولا لا تجد متسعاً لأكثر من العناية

بالمريضتين. ولم تتوصل في استجواباتها الطويلة والمخاتلة، إلى تقصي أسباب انحطاط قوى آمارانتا. وأخيراً، في لحظة إلهام أخرى، خلعت قفل الصندوق، ووجدت الرسائل المربوطة بشرائط وردية، والمنتفخة بزنابق طازجة لا تزال مبللة بالدموع، موجهة، دون أن تُرسل قط، إلى بيترو كريسبي. وبينما هي تبكي من الغضب، لعنت الساعة التي فكرت فيها بشراء البيانولا، ومنعت دروس التطريز، وأعلنت نوعاً من الحداد، دون ميت، سيتواصل إلى أن تتخلى البنتان عن آمالهما. ولم تكن ثمة جدوى من تدخل خوسيه أركاديو بوينديا الذي صحح انطباعه الأول عن بيترو كريسبي، وأُعجب بمهارته في إدارة الآلات الموسيقية. وهكذا، عندما جاءت بيلار تيرنيرا لتقول لأوريليانو إن ريميديوس موافقة على الزواج، أدرك أن الخبر سيكون محنة لأبويه. لكنه تصدى للوضع. استدعي خوسيه أركاديو بوينديا وأورسولا إلى اجتماع رسمي في الصالة، واستمعا بهدوء أعصاب لتصريح ابنهما. ولكن، حين عرفا اسم العروس، احمر وجه خوسيه أركاديو بوينديا من الغيظ. «الحب وباء» أرعد صارخاً، ثم أضاف: «على الرغم من وجود الكثير من الفتيات الجميلات والمحترمات، فإن الشيء الوحيد الذي خطر لك هو الزواج من ابنة العدو.» لكن أورسولا وافقت على الاختيار. وأعربت عن محبتها لبنات موسكوتي السبع، بسبب جمالهن، وانكبابهن على العمل، واستقامتهن، وحسن تربيتهن. واحتفت بسداد رأي ابنها. عندئذ، عمد خوسيه أركاديو بوينديا، المهزوم حيال حماس زوجته، إلى وضع شرط: أن تتزوج ريبيكا من بيترو كريسبي، لأنها تلقت منه رداً على رسائلها. وأن تأخذ أورسولا آمارانتا في رحلة إلى عاصمة المقاطعة، عندما

يتوفر لها الوقت، كي يخفف الاتصال بأناس آخرين من خيبة أملها. استعادت ريبيكا صحتها فور علمها بالاتفاق، وكتبت إلى خطيبها رسالة بهيجة، أخضعتها لموافقة أبويها، ثم وضعتها في البريد دون وسطاء. وتظاهرت آمارانتا بقبول القرار، وشفيت شيئاً فشيئاً من الحمى، لكنها عاهدت نفسها بأن ريبيكا لن تتزوج إلا بالمرور على جثتها.

يوم السبت التالي، ارتدى خوسيه أركاديو بيونديا بدلة الجوخ القاتمة، وياقة السيلولويد، وحذاء جلد الغزال الذي دشنه في ليلة الحفلة، وذهب ليطلب يد ريميديوس موسكوتي. استقبله الحاكم وزوجته بسعادة وقلق في الوقت نفسه، لأنهما يجهلان هدف الزيارة غير المتوقعة، ثم ظنا بعد ذلك أنه أخطأ في اسم العروس المنشودة. ومن أجل تبديد الخطأ، أيقظت الأم ابنتها ريميديوس، وحملتها بين ذراعيها إلى الصالون، وهي لا تزال في غيبوبة النعاس. سألوها إن كانت مصممة على الزواج حقاً، فردت متباكية بأنها ترغب فقط في أن يتركوها تنام. تفهم خوسيه أركاديو بيونديا سبب اضطراب آل موسكوتي، فذهب ليستوضح الأمور من أوريليانو. وعندما رجع، كان الزوجان موسكوتي قد ارتديا ملابس رسمية، وغيرا ترتيب الأثاث، ووضعا أزهاراً جديدة في المزهريات، وجلسا بانتظاره مع بناتهما الكبيرات. وقد أكد لهم خوسيه أركاديو بويندیا، المتضايق من الموقف المحرج، ومن إزعاج الياقة القاسية، بأن ريميديوس هي المختارة فعلاً. فقال دون أبولينار موسكوتي مذهولاً: «هذا أمر لا معنى له. لدينا ست بنات أخريات عازبات، وفي سن الزواج المستحقة، يسعدهن أن يكن زوجات فاضلات لسادة جادين ومحبين للعمل، مثل ابنك؛ ويأتي

أوريليانو ليضع عينه على الوحيدة التي ما زالت تبول في فراشها.» لكن زوجته، وهي امرأة ما زالت تحافظ على مظهر جيد، ذات جفون وحركات كئيبة، لامته على تصرفه غير السليم. وعندما انتهوا من تناول شراب الفواكه المخفوقة، كانوا قد وافقوا جميعهم على قرار أوريليانو. غير أن السيدة موسكوتي رجتهم أن يسمحوا لها بالتحدث على انفراد مع أورسولا. ذهلت أورسولا، واعترضت لأنهم سيورطونها في شؤون تخص الرجال، ولكنها كانت في الواقع خائفة من الانفعال، وذهبت في اليوم التالي لزيارتها. وبعد نصف ساعة، رجعت بخبر أن ريميديوس لا تزال غير بالغة. ولم ير أوريليانو في ذلك عقبة خطيرة. فقد انتظر طويلاً، ويمكنه أن ينتظر الوقت اللازم، إلى أن تصبح خطيبته في سن القدرة على الحَبَل.

لم يعكر الصفاء المستعاد إلا موت ميلكيادس. ومع أن الحدث كان متوقعاً، إلا أن الظروف المحيطة به لم تكن كذلك. فبعد شهور قليلة من عودته، عملت فيه تحولات هرم سريعة وحاسمة، وسرعان ما غدا مثل واحد من أولئك الأجداد عديمي الجدوى، ممن يطوفون كالظلال في غرف النوم، مجرجرين أقدامهم، ومتذكرين بصوت عالٍ، أزمنة أفضل، دون أن يهتم بهم أو يتذكرهم أحد في الواقع، حتى اليوم الذي يطلع فيه عليهم الفجر وهم ميتين في الفراش. كان خوسيه أركاديو بيوينديا، في أول الأمر، يساعده في أعماله، متحمساً لصور الدغرتيب المستجدة، ونبوءات نوستراداموس. لكنه راح يتركه، شيئاً فشيئاً، لوحدته، لأن التواصل معه كان يزداد صعوبة. فقد كان يفقد البصر والسمع، وبدا أنه صار يخلط بين محدثيه وأشخاص عرفهم في أزمنة إنسانية

سحيقة، ويجيب على الأسئلة بخليط متشابك من اللغات. وكان يمشي متلمساً الهواء، بالرغم من أنه يتحرك بين الأشياء بانسيابية لا يمكن تفسيرها، كما لو أنه مزود بغريزة توجه تعتمد على الهواجس المباشرة. وفي أحد الأيام، نسي وضع أسنانه الاصطناعية، وكان معتاداً على تركها، ليلاً، في كأس ماء إلى جانب سريره، ولم يعد إلى وضعها في فمه منذ ذلك اليوم. وعندما قررت أورسولا توسيع البيت، أمرت ببناء غرفة خاصة له، مجاورة لمشغل أوريليانو، بعيداً عن الضجيج والجلبة المنزلية، وبنافذة يغمرها الضوء، ومكتبة رتبت هي نفسها فيها، الكتب التي أتلفها الغبار والعث، والأوراق المتيبسة المحشورة برموز غير مفهومة، وكأس الأسنان الاصطناعية الذي نمت فيه نباتات مائية صغيرة ذات أزهار صفراء دقيقة. وبدا أن المكان الجديد قد أعجب ميلكيادس، لأن أحداً لم يعد يراه حتى في غرفة الطعام. كان يذهب فقط إلى مشغل أوريليانو، حيث يقضي ساعات وساعات وهو يخربش أدبه الغامض، على رقاق أتى بها معه، تبدو كأنها مصنوعة من مادة جافة، تتشقق كرقائق الحلوى. وهناك كان يتناول أطعمته التي تحملها إليه فيسيتاثيون مرتين كل يوم، بالرغم من أنه فقد الشهية، في الفترة الأخيرة، ولم يعد يأكل سوى الخضار. وسرعان ما اكتسب مظهر الإهمال الخاص بالنباتيين. وغطت جلده طحالب طرية، شبيهة بتلك المزدهرة على صدارته الدهرية التي لم يخلعها قط، وصارت أنفاسه تطلق رائحة حيوان نائم. انتهى الأمر بأوريليانو إلى نسيانه، وهو مستغرق في كتابة أشعاره. ولكن خيل إليه، في إحدى المرات، أنه فهم شيئاً مما يقوله في منولوجاته الرتيبة، فأعاره انتباهه. والواقع أن الشي

الوحيد الذي استطاع استخلاصه من الثرثرة المتعثرة، هو المطرقة اللجوجة لعبارة اعتدال الفصول، اعتدال الفصول، اعتدال الفصول. واسم الكسندر فون همبولت. تقرب منه أركاديو قليلاً عندما بدأ بمساعدة أوريليانو في أعمال الصياغة. واستجاب ميلكيادس إلى جهود التواصل تلك بإطلاقه، أحياناً، جملاً بالقشتالية ضئيلة العلاقة بالواقع. ومع ذلك، فقد بدا في مساء أحد الأيام، كما لو أنه يشع بانفعال مفاجئ. بعد سنوات من ذلك، وأمام فصيلة الإعدام، سيتذكر أركاديو الصوت المرتعش الذي أسمعه به ميلكيادس عدة صفحات من كتاباته المغلقة، التي لم يفهم منها شيئاً بالطبع، غير أن قراءتها بصوت عال كانت تشبه ترتيل منشور بابوي. بعد ذلك، ابتسم للمرة الأولى، منذ زمن طويل، وقال بالقشتالية: «عندما أموت، احرقوا زئبقاً في حجرتي، ثلاثة أيام.» نقل أركاديو ذلك إلى خوسيه أركاديو بيوينديا، فحاول هذا الأخير الحصول من ميلكيادس على معلومات أكثر وضوحاً، لكنه لم يتوصل إلا إلى جواب واحد: «لقد بلغتُ الخلود.» وعندما بدأت رائحة أنفاس ميلكيادس تسوء، صار أركاديو يأخذه للاستحمام في النهر، صباح كل يوم خميس. وبدا عليه التحسن. كان يتعرى وينزل إلى الماء مع الشبان، وكان حس التوجه الخفي لديه، يتيح له تجنب الأمكنة العميقة والخطرة. وقد قال في إحدى المناسبات: «إننا من ماء». ومضى وقت طويل على تلك الحال، دون أن ينتبه أحد في البيت إلى وجوده، اللهم إلا في تلك الليلة التي بذل فيها جهداً مؤثراً، لإصلاح البيانولا، وعندما كان يذهب إلى النهر مع أركاديو، حاملاً تحت إبطه قرعة مجوفة وكرة صابون ملفوفتين بمنشفة. وقبل دعوته للذهاب إلى النهر، في أحد أيام

الخميس، سمعه أوريليانو يقول: «لقد متُّ بالحمى على كثبان شواطئ سينغافورة.» وفي ذلك اليوم، توغل في الماء، عبر سبيل خاطئ، ولم يجدوه حتى صباح اليوم التالي، على بعد عدة كيلومترات نزولاً، عالقاً عند منعطف في النهر، ونسر رخمة وحيد يقف فوق بطنه. وخلافاً لاعتراضات أورسولا الصاخبة، وبكائها عليه أكثر مما بكت أباها، رفض خوسيه أركاديو بيوينديا أن يدفنه. وقال: «إنه خالد، وهو من كشف النقاب عن معادلة الانبعاث». فأعاد الحياة إلى موقد المخبر المنسي، وراح يغلي قدراً من الزئبق إلى جوار الجثة التي أخذت تمتلئ بفقاعات زرقاء. وتجرأ دون أبولينار موسكوتي على تذكيره بأن عدم دفن الغريق يشكل خطراً على الصحة العامة. فكان ردّ خوسيه أركاديو بوينديا: «لا شيء من هذا، لأنه حي»، وواصل عملية التبخير الزئبقي لاثنتين وسبعين ساعة، حيث بدأت الجثة تتشقق في تفزرات شاحبة، ملأ صفيرها الخافت البيت بأبخرة نتنة. عندئذ فقط، سمح بدفنه، ولكن ليس كيفما اتفق، وإنما بالتكريم اللائق بأعظم مُحسِن إلى ماكوندو. فكانت أول جنازة، وأوسعها حشداً، تشهدها القرية. ولم يكد يتجاوزها، بعد قرن من ذلك، إلا الكرنفال الجنائزي للماما الكبيرة. دفنوه في وسط قطعة الأرض التي خصصوها لتكون مقبرة، تحت لوحة كُتب عليها الشيء الوحيد الذي عُرف عنه: **ميلكيادس**. أقاموا له ليالي العزاء التسع، وفي فوضى الحشد المجتمع في فناء البيت لشرب القهوة، ورواية الطرائف، ولعب الورق، وجدت آمارانتا فرصة لتعترف بحبها لبيترو كريسبي الذي تقدم رسمياً، قبل أسابيع قليلة، لخطبة ريبيكا، وكان يعمل على إقامة متجر آلات موسيقية وألعاب ذات

نوابض، في القطاع نفسه الذي كان يعيش فيه العرب، ممن كانوا يقايضون بعض الحلي الرخيصة بالببغاوات، والذي صار الناس يعرفونه باسم «شارع التوركو». غير أن الإيطالي الذي كان شعره الأجعد الملمع يثير في النساء حاجة إلى التأوه لا يمكن كبحها، عامل آمارانتا على أنها طفلة ذات نزوات، لا تستحق أخذها على محمل الجد. فقال لها:

- لدي أخ أصغر مني. سوف يأتي لمساعدتي في المتجر.

أحست آمارانتا بالإهانة، وقال لبيترو كريسبي بحقد شديد، إنها مستعدة لمنع زفاف أختها، ولو اقتضى ذلك سد الباب بجثتها. وقد تأثر الإيطالي بدراماتيكية ذلك التهديد، ولم يستطع مقاومة إغراء التعليق عليه مع ريبيكا. وكان هذا هو السبب في ترتيب سفر آمارانتا، المؤجل منذ وقت طويل بسبب مشاغل أورسولا، خلال أقل من أسبوع. لم تُبدِ آمارانتا أية مقاومة، لكنها عندما قبّلت ريبيكا قبلة الوداع، همست في أذنها:

- لا تبني الأوهام. سأجد طريقة لمنع زواجك، حتى لو أخذوني إلى نهاية العالم، ولو اضطررت إلى قتلك.

بغياب أورسولا، وبالحضور غير المرئي لميلكيادس الذي واصل طوافه المتكتم في الحجرات، بدا البيت هائلاً وفارغاً. تولت ريبيكا أمور النظام البيتي، بينما كانت الهندية تهتم بالفرن. وعند الغروب، حين يأتي بيترو كريسبي، تسبقه نفحة منعشة من عطر الخزامى، حاملاً على الدوام، لعبة كهدية؛ تستقبله خطيبته في الصالون الرئيسي، مبقية أبوابه ونوافذه مشرعة، لتبقى بمنجى من الظنون. وقد كان حذراً لا لزوم له، لأن الإيطالي أثبت أنه بالغ الوقار، حتى إنه لم يلمس يد المرأة التي ستكون زوجته بعد أقل من

سنة. وقد راحت زياراته تلك، تملأ البيت بلعب عجيبة. الراقصات ذوات النوابض، وعلب الموسيقى، والقردة الأكروباتية، والخيول الراكضة، والمهرجون قارعو الطبول، والحيوانات الآلية الجميلة والمدهشة التي كان بيترو كريسبي يأتي بها، بددت حزن خوسيه أركاديو بويندیا على موت ميلكيادس، وأعادته مجدداً إلى أزمنته القديمة كخيميائي. صار يعيش، عندئذ، في جنة حيوانات منزوعة الأحشاء، مفككة الآلات، يحاول الوصول بها إلى الكمال، بنظام حركة متواصل، يستند إلى مبادئ البندول. وكان أوريليانو، بدوره، قد أهمل المشغل، كي يعلّم الصغيرة ريميديوس القراءة والكتابة. في البدء، كانت الصغيرة تفضل ألعابها على هذا الرجل الذي يأتي كل مساء، والمذنب في جعلهم يبعدونها عن ألعابها، كي يُحمموها ويُلبسوها ويُجلسوها في الصالون لاستقبال الزائر. غير أن صبر أوريليانو ومثابرته توصلا إلى إغوائها، حتى إنها صارت تقضي ساعات طويلة وهي تدرس معنى الحروف، وترسم على دفتر، بأقلام ملونة، بيوتاً صغيرة مع أبقار في حظائرها، وشموساً مدورة ذات خطوط أشعة صفراء، تغيب وراء التلال.

ريبيكا وحدها كانت تشعر بالتعاسة من تهديد آمارانتا. فهي تعرف طبع أختها، وغطرسة روحها، وترعبها حدّة ضغينتها. فكانت تقضي ساعات بكاملها وهي تمص إصبعها، في الحمام، وتبذل جهداً إرادياً مضنياً، لتمنع نفسها من أكل التراب. وفي بحثها عن تهدئة لقلقها، استدعت بيلار تيرنيرا لتقرأ لها مستقبلها. وبعد سلسلة من العبارات التقليدية المبهمة، تنبأت لها بيلار تيرنيرا:

- لن تكوني سعيدة ما دام أبواك غير مدفونين.

اختلجت ريبيكا. ورأت نفسها، كما لو أنها تتذكر حلماً، وهي تدخل البيت، طفلة صغيرة جداً، ومعها صندوق وكرسي خشبي هزاز صغير، وكيس لم تعرف قط، ما الذي كان يحتويه. تذكرت سيداً أصلع، يرتدي بدلة من الكتان، وياقة قميصه محكمة الإغلاق بزر ذهبي، لا علاقة له بملك الكُبَّة. تذكرت امرأة شابة جداً، وباهرة الجمال، يداها دافئتان ومعطرتان، لا شيء فيهما يشبه يدي بنت الديناري الرثويتين، تضع لها زهوراً في شعرها، لتأخذها للتنزه، عصراً، في قرية شوارعها خضراء.

- لستُ أفهم - قالت.

وبدت بيلار تيرنيرا حائرة مضطربة:

- وأنا أيضاً، ولكن هذا ما يقوله الورق.

ظلت ريبيكا قلقة من هذا اللغز، حتى إنها أخبرت به خوسيه أركاديو بيونديا، فأنبها لأنها تولي اهتماماً لنبوءات ورق اللعب، ولكنه انهمك بصمت في مهمة تفتيش الخزائن والصناديق، وتحريك الأثاث، وتقليب الأسرة وخشب الأرضية، بحثاً عن كيس العظام. تذكَّر أنه لم يره منذ أيام إعادة بناء البيت. استدعى البنائين سراً، فكشف له أحدهم بأنه دفن الكيس في جدارٍ في إحدى غرف النوم، لأنه كان يعرقل عمله. وبعد عدة أيام من التنصت، بإلصاق الآذان بالجدران، سمعوا قرقعة الكلوك-كلوك العميقة. فنقبوا الجدار، وهناك كانت العظام سليمة في كيسها. وفي ذلك اليوم بالذات، دفنوا الكيس في قبر مرتجل بلا لوحة، إلى جانب قبر ميلكيادس، ورجع خوسيه أركاديو بيونديا إلى بيته، متحرراً من عبء أثقل، لبعض الوقت، على ضميره مثل ذكرى بروdنثيو أغيلار. ولدى مروره بالمطبخ، قبّل ريبيكا من جبينها.

وقال لها:

- انزعي الأفكار السيئة من رأسك. ستكونين سعيدة.

فتحت صداقة ريبيكا أمام بيلار تيرنيرا أبواب البيت التي أغلقتها أورسولا في وجهها، منذ ولادة أركاديو. فصارت تأتي في أي ساعة من ساعات النهار، بجلبة قطيع ماعز، وتُفرغ شحنة طاقتها المحمومة في أشد الأعمال مشقة. كانت تدخل أحياناً إلى المشغل، وتساعد أركاديو في تهيئة حساسية لوحات صور الدغرتيب، بفعالية ورقة جعلتا الأمر يختلط عليه. كانت تلك المرأة تشوشه. فبريق بشرتها، ورائحتها الدخانية، وجلجة ضحكتها في الحجرة المظلمة، تشتت انتباهه وتجعله يصطدم بالأشياء.

وفي إحدى المرات، كان أوريليانو هناك، مستغرقاً في أعمال الصياغة، فاستندت بيلار تيرنيرا إلى المنضدة معجبة بدأبه الصبور. وفجأة حدث ذلك. تأكد أوريليانو من أن أركاديو في الغرفة المظلمة، وقبل أن يرفع بصره ويلتقي بعيني بيلار تيرنيرا، كانت أفكارها مرئية بوضوح، كما لو أنها معروضة في وضح النهار. فقال أوريليانو:

- حسن. قولي ما لديكِ.

عضت بيلار تيرنيرا شفتيها بابتسامة حزينة، وقالت:

- أريد أن أقول لك إنك تنفع للحرب. فحيث توجه عينك، تصب الرصاص.

استراح أورليانو لتأكد النبوءة. وعاد إلى التركيز على عمله، وكأن شيئاً لم يحدث، واكتسب صوته ثبات طمأنينة وهو يقول:

- سأعترف به. وسوف يحمل اسمي.

توصل خوسيه أركاديو بوينديا، أخيراً، إلى ما يسعى إليه:

رَبَطَ راقصة ذات نابض بآلية الساعة، وظلت الدمية ترقص، دون توقف، على إيقاع موسيقاها، مدة ثلاثة أيام متواصلة. وقد استثار هذا الاكتشاف حماسته أكثر من أي واحد من مشاريعه الجنونية الأخرى. لم يعد يأكل. ولم يعد ينام. ولولا تيقظ أورسولا ورعايتها، لانساق في تخيلاته إلى حالة هذيان أبدي لا شفاء له منها. كان يقضي الليالي وهو يذرع الغرفة، مفكراً بصوت عال، وباحثاً عن طريقة لتطبيق مبادئ البندول على العربات التي تجرها جواميس، وعلى سكة المحراث، وعلى كل ما ينفع تحريكه الإنسان. أنهكته حمى الأرق، حتى إنه لم يستطع، في فجر أحد الأيام، التعرف على الشيخ ذي الرأس الأبيض، والإيماءات الملتبسة الذي دخل غرفته. لقد كان برودينثيو أغيلار. وعندما تعرف عليه أخيراً، مستغرباً من أن الموتى يشيخون أيضاً، أحس خوسيه أركاديو بوينديا بالحنين يجتاحه، وهتف: «برودينثيو! كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان البعيد!». بعد سنوات طويلة من الموت، كان شوق برودينثيو أغيلار إلى الأحياء زخماً، وحاجته إلى الرفقة ممضة، واقتراب الموت الآخر مرعباً، حتى انتهى به الأمر إلى محبة أسوأ أعدائه. وقد كان لديه متسع من الوقت للبحث عنه. سأل عنه موتى ريوهاتشا، والموتى القادمين من وادي أُوبار، ومن يأتون من منطقة المستنقعات، ولم يعطه أحد الخبر اليقين، لأن ماكوندو كانت قرية لا يعرفها الموتى، إلى أن جاء ميلكيادس، وأشار إلى موقعها بنقطة سوداء على خرائط الموت المبرقشة. وتبادل خوسيه أركاديو بوينديا الحديث مع برودينثيو أغيلار حتى الفجر. وبعد ساعات من ذلك، دخل وقد أنهكه السهر، إلى مشغل أوريليانو، وسأله: «في أي يوم نحن؟» وأجابه أوريليانو بأنه

الثلاثاء. فقال خوسيه أركاديو بوينديا: «هذا ما ظننته أنا أيضاً، ولكنني انتبهت فجأة إلى أننا لا نزال في يوم الاثنين، مثل البارحة. انظر السماء، انظر الجدران، انظر البيغونيا. اليوم هو الاثنين أيضاً.» لم يولِه أوريليانو المعتاد على نزواته، أي اهتمام. وفي اليوم التالي، يوم الأربعاء، عاد خوسيه أركاديو بوينديا إلى المشغل، وقال: «هذه كارثة. انظر الهواء، اسمع أزيز الشمس، إنه مثل أمس وأول أمس. فاليوم هو الاثنين أيضاً.» في تلك الليلة، وجده بييترو كريسبي في الردهة، يبكي بكاء الشيوخ الذي لا ظرافة فيه، كان يبكي برودنثيو أغيلار، وميلكيادس، وأبوي ريبيكا، وأباه وأمه، وكل من يمكنه تذكرهم ممن هم الآن وحيدون في الموت. أهدى إليه دباً ذا نابض يمشي على قائمتين فوق سلك، ولكنه لم يستطع إلهاءه عن هواجسه. سأله عما حل بالمشروع الذي عرضه عليه قبل أيام، عن إمكانية صنع آلة ببندول تتيح للإنسان أن يطير. فأجابه بأن ذلك مستحيل، لأن البندول قادر على رفع أي شيء في الفضاء، لكنه عاجز عن رفع نفسه. وفي يوم الخميس، عاد للظهور في المشغل، وعلى وجهه كآبة أرض خراب. وقال بما يشبه النحيب: «لقد فسدت آلة الزمن، وأورسولا وأمارنتا بعيدتان جداً» فأنبه أوريليانو كأنه طفل، وأبدى هو الانصياع. أمضى ست ساعات في تفحص الأشياء، محاولاً العثور على فرق عن مظهرها الذي كانت عليه في اليوم السابق، متلهفاً لأن يرى فيها تبدلاً يدل على مرور الزمن. بقي مفتوح العينين في سريره طوال الليل، يستدعي برودينثيو أغيلار، وميلكيادس، وكل الموتى، كي يأتوا لمشاطرته كربه. لكن أحداً لم يستجب. وفي يوم الجمعة، قبل أن يستيقظ أحد، عاد إلى رصد مظهر الطبيعة، إلى أن لم يعد لديه أدنى شك

في أن اليوم ما زال الاثنين. عندئذ أمسك بعارضة إغلاق أحد الأبواب، وبعنف وحشي من قوته الخارقة، حطم أجهزة الخيمياء، محولاً إياها إلى فتات، وفعل ذلك بحجرة التصوير ومشغل الصياغة، وكان يصرخ كمن تلبَّسه شيطان، بلغة متدفقة وعالية النبرة، ولكنها غير مفهومة على الإطلاق. وكان على وشك أن ينقض على بقية البيت، عندما طلب أوريليانو المساعدة من الجيران. وقد تطلبت السيطرة عليه قوة عشرة رجال، وأربعة عشر من أجل تقييده، وعشرين رجلاً لجره حتى شجرة الكستناء في الفناء، حيث أبقوه مربوطاً، يعوي بلغة غريبة، ويقذف زبداً أخضر من فمه. وعندما جاءت أورسولا وآمارانتا، كان لا يزال مقيداً من قدميه ويديه إلى جذع شجرة الكستناء، مبللاً بالمطر، وفي حالة من البراءة الكاملة. تحدثتا إليه، فنظر إليهما دون أن يتعرف عليهما، وقال لهما شيئاً غير مفهوم. فكّت أورسولا معصميه ورسغيه، وكان ضغط الحبال قد جرّحها، وأبقته مربوطاً من خصره فقط. وقد بنوا فوقه، فيما بعد، سقفاً من السعف لحمايته من الشمس والمطر.

تزوج أوريليانو بويندیا وريميديوس موسكوتي في يوم أحدٍ من شهر آذار، أمام مذبحٍ أمر الأب نيكانور رينا بإقامته في قاعة الاستقبال. وكان ذلك الحفل تتويجاً لأربعة أسابيع من المفاجآت في بيت آل موسكوتي، فقد بلغت الصغيرة ريميديوس سن البلوغ قبل أن تتجاوز عادات الطفولة. وبالرغم من أن أمها قد أخبرتها بما تحمله سن البلوغ من تغيرات، فقد اندفعت، في عصر يوم من شباط، وهي تطلق صرخات ذعر، إلى الصالون، حيث كانت أخواتها يتبادلن الحديث مع أوريليانو، وأرتهم سروالها الداخلي ملطخاً بمعجون لزج كأنه الشوكولاته. حُدِّد الزفاف بعد شهر. ولم يكد هذا الوقت يتسع لتعليمها كيف تغتسل وتلبس وحدها، وتفهم الشؤون الأولى للحياة الزوجية. وجعلوها تبول على قطع آجر ساخن، لتخليصها من عادة التبول في فراشها. وتكلفوا مشقة في إقناعها بعدم البوح بأسرار الحياة الزوجية، لأن ريميديوس كانت مذهولة، ومفتونة في الوقت نفسه بما كُشف لها، حتى إنها أرادت أن تتحدث إلى الجميع عن تفاصيل ليلة الزفاف. لقد كان جهداً مضنياً، ولكن الطفلة، عندما حان الموعد المحدد للحفلة، كانت لا تقل براعة في شؤون الحياة عن أي واحدة من أخواتها. اقتادها دون أبولينار موسكوتي من ذراعها عبر الشارع المزين بالأزهار والأكاليل، وسط دوي المفرقعات وأنغام عدة جوقات موسيقية.

وكانت هي تحيي بيدها، وتقدم الشكر مبتسمة لمن يتمنون لها، من النوافذ، حظاً سعيداً. أما أوريليانو الذي كان يرتدي بدلة سوداء، وينتعل الجزمة اللماعة نفسها، ذات الخطافات المعدنية، التي سينتعلها بعد سنوات قليلة أمام فصيلة الإعدام، فكان به شحوب كثيف، وكرة قاسية في حلقه، عندما تسلّم عروسه عند باب البيت، وقادها نحو المذبح. لقد تصرفت هي بكثير من التلقائية، بكثير من الرزانة، حتى إنها لم تفقد رصانتها، عندما أفلت الخاتم من يد أوريليانو، وهو يحاول وضعه بإصبعها. فوسط الدمدمة، وبداية اضطراب المدعوين، أبقت ذراعها مرفوعة بقفاز الدانتيلا الذي بلا أصابع، وإصبعها البنصر ممدود في حالة تأهب، إلى أن تمكن عريسها من وقف الخاتم بحذائه، كيلا يواصل تدحرجه حتى الباب، ورجع إلى المذبح بوجه تكسوه حمرة الخجل.

عانت أمها وأخواتها كثيراً، لخوفهن من أن ترتكب الصغيرة خطأ خلال الطقوس، حتى إنهن كن، هن أنفسهن، من ارتكبن وقاحة حملها ورفعها إليهن من أجل تقبيلها. منذ ذلك اليوم، تكشفت ميزات حس المسؤولية، والكياسة الطبيعية، وهدوء الأعصاب التي تمتعت بها ريميديوس، على الدوام، في مواجهة أشد الظروف صعوبة. وكانت هي نفسها، بمبادرتها الذاتية، من وضعت جانباً أفضل قطعة اقتطعتها من قالب حلوى الزفاف، وحملتها في طبق، مع شوكة، إلى خوسيه أركاديو بوينديا. كان العجوز الهائل الذي بدّلت الشمس والمطر لونه، مقيداً إلى جذع شجرة الكستناء، منزوياً على مقعد خشبي، تحت مظلة سعف النخيل. فابتسم لها ابتسامة امتنان مبهمة، وأكل الحلوى بأصابعه، مدمدماً بترتيلة غير مفهومة. الشخص الوحيد التعس، في ذلك

الاحتفال الصاخب الذي تواصل حتى فجر يوم الاثنين، كانت ريبيكا بويندیا. لأنها كانت حفلتها المحبطة. فبموافقة أورسولا، كان يتوجب الاحتفال بزفافها في الموعد نفسه، غير أن بيترو كريسبي تلقى يوم الجمعة رسالة تخبره بأن أمه توشك أن تموت. فتأجل الزواج. توجه بيترو كريسبي إلى عاصمة المقاطعة، بعد ساعة من تلقي الرسالة، وفي الطريق، التقى بأمه آتية، لتصل في الموعد الدقيق، ليلة السبت، وغنت في عرس أوريليانو الأغنية الحزينة التي أعدتها لزفاف ابنها. رجع بيترو كريسبي في منتصف ليل يوم الأحد ليكنس رماد الحفلة، بعد أن أمات من التعب، خمسة أحصنة في الطريق، في محاولة منه لأن يكون حاضراً في موعد زفافه. لم يُعرف قطّ من الذي كتب تلك الرسالة. وقد بكت آمارانتا بسخط، لكثرة ما ضيقت عليها أورسولا، وأقسمت على براءتها قبالة المذبح الذي لم يكن النجارون قد انتهوا من تفكيكه.

الأب نيكانور رينا - الذي جاء به أوبولينار موسكوتي من منطقة المستنقعات، كي يقيم طقوس الزفاف - كان عجوزاً صلَّب طبعه جحود رعيته. له بشرة كئيبة، وكأنه مجرد عظم، بطنه ناتئ ومكور، وله ملامح ملاك عجوز أقرب إلى البراءة منها إلى طيبة القلب. وكان ينوي العودة إلى أبرشيته بعد الانتهاء من طقوس الزواج، لكنه ذُعر من الجدب الروحي لأهالي ماكوندو الذين يزدهرون في الرذيلة، مثبَّتين إلى قانون السجية، دون أن يعمِّدوا أبناءهم، أو يقدسوا أيام الأعياد. فكر في أنه ليست هناك بقعة أرض بحاجة إلى بذرة الرب أكثر منها، وقرر البقاء أسبوعاً آخر ليُنَصِّر المختونين والوثنيين، ويُشَرِّع حالات مساكنة المحظيات،

ويمنح مسحة الغفران للمحتضرين. ولكن أحداً لم يولهِ اهتماماً. وكانوا يردون عليه بأنهم أمضوا سنوات طويلة دون كاهن، يتدبرون شؤون الروح مع الرب مباشرة، وأنهم فقدوا الإحساس بخبث الخطيئة المميتة. ولما أعياه ذلك الوعظ في الصحراء، قرر الأب نيكانور أن يبني معبداً، يكون الأكبر في العالم، فيه تماثيل قديسين بالحجم الطبيعي، وزجاج ملون على الجدران، حتى يجيء الناس من روما نفسها، ليوقروا الرب في أرض الكفر والضلال. وراح يجوب كل الأنحاء، طالباً الصدقات في طبق من النحاس. كانوا يعطونه الكثير، لكنه يطلب المزيد، لأنه لا بد أن يكون للمعبد ناقوس يجعل دوي قرعه الغرقى يطفون على السطح. ألح في التوسل حتى بُح صوته. وبدأت عظامه تمتلئ بالقرقعة. وذات سبت، حين لم يتمكن من جمع ولو ثمن الأبواب، أسلم نفسه لليأس. فارتجل مذبحاً في الساحة، وجاب القرية يوم الأحد، حاملاً جرساً، كما في أيام الأرق، داعياً إلى قداس في العراء. ذهب كثيرون بدافع الفضول، وآخرون بدافع الحنين. وذهب غيرهم كيلا ينظر الرب إلى احتقارهم وسيطه على أنه إهانة شخصية. وهكذا كان في الساحة، في الثامنة صباحاً، نصف أهل القرية، حيث رتل الأب نيكانور البشائر بصوت جرَّحه طول التوسل. وأخيراً، عندما بدأ الحاضرون بالتفرق، رفع ذراعيه للفت الانتباه، وقال:

- انتظروا لحظة. سنشهد الآن دليلاً دامغاً على قدرة الله غير المحدودة.

حمل إليه الصبي الذي ساعده في القداس، فنجاناً من الشوكولاته الكثيفة، يتصاعد منه البخار، فجرعه دون أن يأخذ

نفساً. وبعد ذلك مسح شفتيه بمنديل أخرجه من كمه، ومدّ ذراعيه، وأغمض عينيه. وعندئذ طفا الأب نيكانور مرتفعاً اثني عشر سنتيمتراً فوق سطح الأرض. كانت وسيلة مقنعة. وتنقل عدة أيام بين البيوت، مكرراً تجربة الاسترفاع باستخدام منشّط الشوكولاته، بينما مساعده الصبي يجمع كثيراً من النقود في كيس، مما أتاح له، خلال أقل من شهر، البدء ببناء المعبد. ولم يراود الشك أحد في المنشأ الإلهي لتلك التجربة، باستثناء خوسيه أركاديو بوينديا الذي تأمل دون تأثر، تزاحم الناس المجتمعين حول شجرة الكستناء، في صباح أحد الأيام، ليشهدوا التجلي مرة أخرى. اكتفى بالتمطي قليلاً في مقعده الصغير، وهز كتفيه عندما بدأ الأب نيكانور بالارتفاع عن الأرض، وارتفع معه الكرسي الذي يجلس عليه.

- *Hoc est simplicisimum* - قال خوسيه أركاديو بوينديا ذلك، وأضاف: - *homo iste statum quartum materiae invenit*[1].

رفع الأب نيكانور يده، فحطت قوائم الكرسي الأربع على الأرض في وقت واحد. وقال:

- *Nego. Factum hoc existentiam Dei probat sine dudio*[2].

وكان أن عُرف هكذا، أن رطانة خوسيه أركاديو بوينديا الشيطانية، هي اللاتينية. استغل الأب نيكانور فرصة كونه الشخص الوحيد الذي استطاع التواصل معه، ليحاول إدخال الإيمان إلى عقله المشوش. فصار يجلس عصر كل يوم إلى جانب

---

[1] باللاتينية في الأصل: الأمر بسيط جداً. هذا الرجل اكتشف الحالة الرابعة للمادة.

[2] باللاتينية: أُنكر ذلك. هذا العمل يُثبت، دون مجال للشك، وجود الرب.

شجرة الكستناء، ويعظ باللاتينية، لكن خوسيه أركاديو بوينديا ألح على عدم تقبل مداورات لفظية ولا تحولات شوكولاتية، وطالب بصورة ديغرتيب كدليل واحد وحيد على وجود الرب. فجاءه الأب نيكانور عندئذ بميداليات دينية وألواح حفر نافرة، وحتى باستنساخ لبساط القديسة فيرونيكا، لكن خوسيه أركاديو بوينديا رفضها جميعها لأنها أشياء مصنوعة حِرفياً بلا أي أساس علمي. كان شديد العناد إلى حدّ تخلى معه الأب نيكانور عن نيته في التبشير، وواصل زيارته مدفوعاً بالمشاعر الإنسانية. لكن خوسيه أركاديو بوينديا هو الذي أخذ زمام المبادرة عندئذ، وحاول زعزعة إيمان الخوري بحيل عقلانية. وفي إحدى المرات، جاء الأب نيكانور إلى شجرة الكستناء، حاملاً معه رقعة دامة وعلبة أحجار لعب، ليدعوه إلى اللعب، لكن خوسيه أركاديو بوينديا لم يوافق، لأنه لم يفهم قط، على حد قوله، معنى معركة بين خصمين متفقين مسبقاً على المبادئ. ولم يعد بمقدور الأب نيكانور العودة إلى لعب الدامة، لأنه لم ينظر إلى اللعبة بمثل هذه النظرة قط. وكان عجبه يزداد في كل مرة من نفاذ بصيرة خوسيه أركاديو بوينديا، فسأله كيف يمكن أن يبقوه مقيداً إلى شجرة.

فأجاب:

- *Hoc est* simplicisimum[1]. لأني مجنون.

منذ ذلك اليوم، وخوفاً منه على إيمانه، لم يعد الكاهن إلى زيارته، وكرس نفسه بالكامل لتسريع بناء المعبد. أحست ريبيكا بعودة الأمل. فقد صار مستقبلها مرتبطاً بالانتهاء من البناء، منذ كان الأب نيكانور، في يوم أحد، يتناول الغداء في البيت، وتحدث

---

(1) باللاتينية: هذا بسيط جداً. لأني مجنون.

إلى الأسرة الملتفة حول المائدة، عن الوقار والأبهة اللذين ستكون عليهما الطقوس الدينية بعد بناء المعبد. فقالت آمارانتا: «ستكون ريبيكا هي أوفر الجميع حظاً». ولأن ريبيكا لم تفهم ما الذي تعنيه بذلك، أوضحت لها آمارانتا بابتسامة بريئة:

- لأنك ستدشنين الكنيسة بزفافك.

حاولت ريبيكا أن تستبق أي تعليق. فعلى تلك الوتيرة في البناء، لن ينتهي العمل في تشييد المعبد قبل انقضاء عشر سنوات. ولكن الأب نيكانور لم يؤيد رأيها: فسخاء المؤمنين المتزايد يتيح التفكير في تقديرات أكثر تفاؤلاً. وحيال غضب ريبيكا الأصم الذي لم تستطع معه الانتهاء من تناول الغداء، احتفت أورسولا بفكرة آمارانتا، وساهمت بتبرع معتبر لتعجل أعمال البناء. وقدّر الأب نيكانور أنه يمكن للمعبد، بمساعدة أخرى مثل تلك، أن يكون جاهزاً خلال ثلاث سنوات. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد ريبيكا إلى التكلم مع أمارنتا، مقتنعة بأن مبادرتها لم تكن بالبراءة التي أتقنت إظهارها. «إنه أقل ما يمكنني عمله خطورة»، هذا ما قالته لها آمارانتا في المجادلة الحامية التي دارت بينهما تلك الليلة. «فهكذا لن أكون مضطرة إلى قتلك خلال السنوات الثلاث القادمة.» وقد تقبلت ريبيكا التحدي.

عندما علم بيترو كريسبي بالتأجيل الجديد، عانى من نوبة خيبة أمل، ولكن ريبيكا قدمت له دليلاً حاسماً على وفائها. قالت له: «سنهرب معاً عندما تقرر ذلك.» إلا أن بيترو كريسبي لم يكن رجل مغامرات. وكان يفتقر إلى مثل طبع خطيبته المندفع، ويعتبر احترام كلمته مثل رأسمال لا يمكنه تبديده. عندئذ لجأت ريبيكا إلى أساليب أكثر جرأة. صارت ريح غامضة تطفئ أضواء صالون

الاستقبال، وصارت أورسولا تفاجئ الخطيبين وهما يتبادلان القبلات في الظلام. فيقدم لها بيترو كريسبي تفسيرات بلهاء حول سوء نوعية مصابيح القطران الحديثة، بل ويساعد في تركيب نظام إنارة أكثر أماناً. ولكن مادة الوقود نفدت في مرة تالية، أو تعطلت الفتائل. وصارت أورسولا تجد ريبيكا جالسة على ركبتي خطيبها. وانتهى بها الأمر إلى عدم تقبل أية تفسيرات. فأوكلت إلى الهندية مسؤولية المخبز، وجلست على كرسي هزاز، تراقب زيارة الخطيبين، مصممة على ألا تسمح بخداعها بحيل كانت قديمة منذ أيام شبابها. وكانت ريبيكا تقول بسخط ساخر، وهي ترى أورسولا تتثاءب في سبات زيارات خطيبها: «مسكينة أمي، عندما تموت ستخرج مكفرة عن ذنوبها في هذا الكرسي الهزاز.» وبعد ثلاثة شهور من الغراميات المراقبة، ولضجره من بطء أعمال البناء التي يمر للاطلاع عليها كل يوم، قرر بيترو كريسبي أن يقدم للأب نيكانور المبلغ الذي ينقصه لإنهاء المعبد. لم تفقد آمارانتا هدوءها. وبينما هي تتبادل الحديث مع صديقاتها اللواتي يجئن عصر كل يوم للتطريز والحياكة في الردهة، كانت تحاول تدبير مكائد جديدة. ولكن خطأ في الحسابات، أفسد ما ظنت أنه أكثر المكائد فعالية: انتزاع كرات النفتالين التي وضعتها ريبيكا في ثوب زفافها، قبل أن تحفظه في الخزانة ذات الأدراج، في غرفة نومها. فعلت ذلك عندما كان قد بقي أقل من شهرين لإنهاء بناء المعبد. لكن ريبيكا المتلهفة، حيال اقتراب العرس، أرادت أن تجرب الثوب قبل الموعد الذي فرضته آمارانتا. وحين فتحت الخزانة، وفكت أولاً ورق التغليف، وبعد ذلك لفافة الكتان الحامية، وجدت قماش الثوب السندسي، وطرحة الدانتيلا، وحتى إكليل

أزهار البرتقال، وقد تحولت جميعها إلى فتات بفعل العثة. ومع أنها كانت متأكدة من أنها وضعت في الحزمة حفنتين من كرات النفتالين، فقد بدت الكارثة شديدة العرضية، إلى حد لم تتجرأ معه على اتهام آمارنتا. لم يكن قد بقي سوى أقل من شهر لزفافها، غير أن أمبارو موسكوتي وعدت بأن تخيط لها ثوباً جديداً خلال أسبوع. أحست آمارانتا بالإغماء في ظهيرة ذلك اليوم الماطر، عندما دخلت أمبارو إلى البيت مغطاة بزبد الدانتيلا، من أجل تجربة الثوب الأخيرة على ريبيكا. فقدت القدرة على الكلام، وانساب خيط من العرق الجليدي على مسيل عمودها الفقري. لقد أمضت شهوراً طويلة وهي ترتجف هلعاً، في انتظار تلك الساعة. لأنها إذا لم تتوصل إلى تصور عائق حاسم يحول دون زواج ريبيكا، وإذا ما أخفقت كل أساليب مخيلتها، فإنها واثقة من أنها ستمتلك الشجاعة، في اللحظة الأخيرة، لتدس لها السم. في عصر ذلك اليوم، وبينما ريبيكا تختنق من الحر في درع ثوب الأطلس الذي تُركّبه أمبارو موسكوتي على جسمها، مستخدمة آلاف الدبابيس وصبراً لا حدود له، أخطأت آمارانتا عدة مرات في غرزات التطريز، ووخزت إصبعها بالإبرة، ولكنها قررت ببرودة مخيفة، أن الموعد سيكون يوم الجمعة الأخير قبل الزفاف، وأن الوسيلة ستكون جرعة من اللاودانوم السام في القهوة.

لكن عائقاً كبيراً، لا يمكن تجاوزه بقدر ما هو غير متوقع، فرض تأجيلاً جديداً إلى أجل غير محدد. فقبل أسبوع من الموعد المحدد لحفلة الزفاف، استيقظت الصغيرة ريميديوس في منتصف الليل، مبلله بماء سميك دافئ كأنه الحساء، تفجر من أحشائها في تجشؤ ممزق، وماتت بعد أيام ثلاثة متسممة بدمها نفسه، مع

توأمين متشابكين في بطنها. عانت آمارانتا من أزمة ضمير. إذ كانت قد توسلت إلى الرب، بحرقة شديدة، أن يَحدث شيءٌ مخيف، لا تضطر معه إلى تسميم ريبيكا؛ فأحست لذلك بأنها مسؤولة عن موت ريميديوس. لم يكن هذا هو العائق الذي توسلت وقوعه. فقد كانت ريميديوس قد حملت معها إلى البيت نسمة من الفرح. كانت قد استقرت مع زوجها في غرفة قريبة من المشغل، زينتها بدمى وألعاب طفولتها حديثة العهد. وكانت حيويتها المرحة تفيض من جدران غرفتها الأربعة، وتجتاز كهبة ريح صحية، ردهة أزهار البيغونيا. كانت تصدح بالغناء منذ الفجر. وهي الوحيدة التي تجرأت على التوسط في نزاعات ريبيكا وآمارانتا. وقد تولت بنفسها المهمة الشاقة في العناية بخوسيه أركاديو بوينديا. فكانت تحمل له الأطعمة، وتساعده في قضاء حاجاته اليومية، وتغسله بالصابون والليفة، وتحافظ على نظافة شعره وذقنه من القمل والصئبان، وتعمل على إبقاء عريشة السعف على أحسن حال، فتقويها بقماش الخيم الذي لا ينفذ منه المطر، في أوقات العواصف. وقد تمكنت خلال شهورها الأخيرة من التواصل معه بعبارات لاتينية غير متقنة. وعندما ولد ابن أوريليانو وبيلار تيرنيرا، وحُمل إلى البيت، وعُمِّد في احتفال حميم، باسم أوريليانو خوسيه، صممت ريميديوس على اعتباره ابنها الأكبر. وقد فاجأت غريزتها الأمومية أورسولا. أما أوريليانو، من جانبه، فوجد فيها المسوغ الذي ينقصه للعيش. كان يعمل طول النهار في المشغل، وتأتيه ريميديوس عند الضحى بفنجان قهوة كبير دون سكر. وكانا يزوران معاً، كل ليلة، آل موسكوتي. فيلعب أوريليانو مع حميه أدوار دومينو لانهائية، بينما تتبادل ريميديوس الحديث مع

أخواتها، أو تبحث مع أمها في شؤون الكبار. وقد أدت علاقة النسب مع آل بويندبا إلى تعزيز سلطة دون أبولينار موسكوتي. وخلال زيارته المتكررة إلى عاصمة المقاطعة، توصل إلى جعل الحكومة تبني مدرسة، يتولى الإشراف عليها أركاديو الذي ورث عن جده حماسه التعليمي. وتمكن عن طريق الإقناع، من جعل معظم البيوت تطلى باللون الأزرق، بمناسبة عيد الاستقلال الوطني. وبناء على طلب الأب نيكانور، أمر بنقل حانوت كاتارينو إلى شارع منعزل، وإغلاق عدة أمكنة ممارسات مشينة كانت تزدهر في مركز القرية. وفي أحد الأيام، رجع من العاصمة ومعه ستة شرطيين مسلحين ببنادق، أوكل إليهم مسؤولية حفظ الأمن، دون أن يتذكر أحد الالتزام الأصلي بعدم السماح بوجود مسلحين في القرية. وكان أوريليانو يشعر بالرضا لكفاءة حميه. وكان رفاقه يقولون له: «ستصير مهماً مثله.» ولكن حياة الاستقرار التي أبرزت وجنتيه وركزت بريق عينيه، لم تزد في وزنه ولم تقلب اعتدال طبعه، وصلّبت في شفتيه، بالمقابل، الخط المستقيم للتأمل المتوحد والتصميم الحازم. لقد كانت عميقةً جداً المحبة التي تمكن هو وزوجته من استثارتها في أسرتيهما، إلى حدّ أن ريبيكا وآمارانتا توصلتا إلى هدنة بينهما، عندما أعلنت ريميديوس أنها تنتظر مولوداً، وانهمكتا في حياكة ثياب من صوف أزرق، إذا ما جاء الوليد ذكراً، ومن صوف وردي، إذا كان بنتاً. وقد كانت هي آخر شخص فكر فيه أركاديو، بعد سنوات قليلة من ذلك، أمام فصيلة الإعدام.

فرضت أورسولا حداداً بأبواب ونوافذ مغلقة، لا يدخل معه ولا يخرج أحد، إلا لشأن اضطراري لا مفر منه؛ وحظرت الكلام

بصوت عال لمدة سنة، ووضعت صورة ريميديوس في المكان الذي سهروا فيه على جثمانها، مع شريطة سوداء مخملية، ومصباح زيت يظل مشتعلاً إلى الأبد. وكانت الأجيال التالية التي لم تترك المصباح ينطفئ قط، تشعر بالحيرة أمام تلك الطفلة ذات التنورة المجعدة، والجزمة البيضاء، وشريطة الأورغنزة على رأسها، ولا تتوصل إلى المطابقة بينها وبين الصورة الأكاديمية المفترضة لجدة جدتهم. تولت آمارانتا مسؤولية تربية أوريليانو خوسيه. تبنته كابن سيكون عليه أن يقاسمها وحدتها، ويخفف عنها من لعنة اللاودانوم غير الإرادي الذي سكبته توسلاتها الخاطئة في قهوة ريميديوس. كان بيترو كريسبي يدخل على رؤوس أصابع قدميه عند الغروب، واضعاً شريطة سوداء على قبعته، ويقوم بزيارة صامتة لريبيكا تبدو كما لو أنها تنزف في ثوبها الأسود الذي يصل كماه حتى معصميها. وبدا أنه من الوقاحة التفكير، مجرد التفكير، بتحديد موعد جديد للزفاف، وتحولت الخطوبة إلى علاقة أبدية، إلى حب متعب لم يعد هناك من يعنى به، كما لو أن العاشقين اللذين كانا يعطلان، في أزمنة أخرى، المصابيح ليتبادلا قبلة، قد هُجرا لمشيئة الموت. وبفقدانها الوجهة، ووهن عزيمتها الكامل، عادت ريبيكا إلى أكل التراب.

وفجأة - بعد امتداد الحداد لزمن طويل، تجددت معه جلسات تطريز الغزات المتصالبة - دفع أحدهم باب البيت الخارجي، في الثانية بعد الظهر، في صمت الحر القاتل، اهتزت معه دعائم البيت بقوة من أساساتها، حتى إن آمارانتا وصديقاتها المطرزات في الردهة، وريبيكا التي كانت تمص إصبعها في غرفة النوم، وأورسولا في المطبخ، وأوريليانو في مشغله، وحتى خوسيه أركاديو

بوينديا تحت شجرة الكستناء المتوحدة، ظنوا جميعهم أن هزة أرضية تضعضع أركان البيت. كان القادم رجلاً ضخماً. يكاد الباب لا يتسع لكتفيه المربعين. وتتدلى ميدالية عذراء الريميديوس من عنقه الذي مثل عنق ثور بيسون، وكانت ذراعاه وصدره ممتلئة بالكامل بأوشام سراديبية، ويشدّ على معصمه الأيمن سوار «**أطفال على الصليب**» النحاسي. كان جلده مدبوغاً بملح الأنواء المتقلبة، وله شعر قصير منتصب كعُرف بغل، وفكان حديديان، ونظرة كئيبة. يضع حزاماً أسمك مرتين من حزام حصان، وينتعل جزمة ذات طماق ومهمازين، وحذوتين حديديتين في الكعبين. ومجرد حضوره يعطي الانطباع الراجف بحدوث هزة مزلزلة. اجتاز صالون الاستقبال وغرفة المعيشة، حاملاً في يده خرجاً شبه مهترئ، وظهر كأزعر في ردهة البيغونيا، حيث تجمدت آمارانتا وصديقاتها مشلولات، وإبرهن معلقة في الهواء. «مرحباً»، قال لهن بصوت متعب، وألقى الخرج على منضدة الشغل، واتجه دون توقف إلى عمق البيت. «مرحباً»، قال لريبيكا المرعوبة التي رأته يمر أمام باب غرفتها. «مرحباً»، قال لأوريليانو الذي كان متأهباً بحواسه الخمس عند منضدة الصياغة. لم يتوقف مع أحد. واتجه مباشرة إلى المطبخ، وهناك توقف أول مرة، في نهاية رحلة بدأت من الجانب الآخر للعالم. قال «مرحباً». وظلت أورسولا لجزء من الثانية مشدوهة وفاغرة الفم، نظرت إلى عينيه، وأطلقت صيحة، وقفزت متعلقة بعنقه وهي تصرخ وتبكي من الفرح. لقد كان خوسيه أركاديو. وقد رجع فقيراً مثلما رحل، إلى حدّ أنه كان على أورسولا أن تعطيه بيزوين اثنين كي يدفع أجر الحصان. كان يتكلم إسبانية مختلطة برطانة البحارة. سألوه أين

كان، فأجاب: «هنا». علق أرجوحة نومه في الغرفة التي خصصوها له، ونام ثلاثة أيام. وعندما استيقظ، وبعد أن تناول ست عشرة بيضة نيئة، خرج مباشرة إلى حانوت كاتارينو، حيث أثارت ضخامة جسده هلعاً فضولياً بين النساء. أمر بعزف الموسيقى وتقديم الخمر للجميع على حسابه. راهن على ثني أذرع خمسة رجال دفعة واحدة. «هذا مستحيل. لديه سوار أطفال على الصليب»، كانوا يقولون، عندما يقتنعون بأنهم لا يستطيعون تحريك ذراعه. لكن كاتارينو الذي لم يكن يؤمن بتمائم تمنح القوة، راهن باثني عشر بيزو على عدم قدرته على تحريك منضدة الكونتوار. فانتزعها خوسيه أركاديو من مكانها، ورفعها فوق رأسه، ووضعها في الشارع. فكان لا بد من أحد عشر رجلاً لإعادة الكونتوار إلى الداخل. وفي حمى هذه الحفلة، عرض عضو ذكورته الفريد على منضدة الكونتوار، وكان موشوماً بكاملة، بتشابك من الزرقة والحمرة، بكتابات متعددة اللغات. وسأل النساء اللواتي حاصرنه بشهوتهن، من منهن تدفع أكثر. فعرضت عليه من تملك أكثر الجميع، مبلغ عشرين بيزو. عندئذ اقترح عليهن ضرب قرعة، يشاركن فيها جميعهن، بعشرة بيزوات للرقم. كان سعراً فلكياً لأن أكثر النساء حظوة لا تكسب سوى ثمانية بيزوات في الليلة، ولكنهن وافقن جميعهن. كتبن أسماءهن على أربع عشرة قصاصة ورقية، ووضعنها في قبعة، وسحبت كل امرأة ورقة. وعندما لم يبق في القبعة سوى ورقتين، صار واضحاً من هما صاحبتيهما. فاقترح عليهما خوسيه أركاديو:

- لتدفع كل منكما خمسة بيزوات أخرى، فأكون لكما معاً.

كان يعيش على ذلك. دار حول العالم خمساً وستين مرة،

مسجلاً ضمن طاقم بحارة لا وطن لهم. المرأتان اللتان ضاجعتاه تلك الليلة، في حانوت كاتارينو، اقتادتاه عاريا إلى قاعة الرقص، لتريا أنه لا يوجد في جسده مليمتر واحد دون وشم، من قدام ومن خلف، ومن رقبته حتى أصابع قدميه. لم يستطع الاندماج في الأسرة. فكان ينام النهار كله، ويقضي الليل في حي التسامح، في مراهنات على القوة. وفي المناسبات القليلة التي تمكنت فيها أورسولا من جعله يجلس إلى المائدة، أبدى مظاهر لطف مشرق، لا سيما عندما كان يتحدث عن مغامراته في بلدان نائية. فقد غرقت سفينته، وظل يطفو، طوال أسبوعين، على غير هدى، في بحر اليابان، يتغذى على جسد رفيق له قضت عليه ضربة شمس، وكان للحمه المالح، والمعاد تمليحه، والمطهو تحت الشمس، مذاقاً حُبيبياً وحلواً. وفي ظهيرة يوم مشرق، في خليج البنغال، تغلبت سفينته على تنين بحر، ووجدوا في بطنه خوذة وزرد درع وأسلحة فارس صليبي. ورأى في البحر الكاريبي شبح سفينة القرصان فيكتور هوجس، وقد مزقت رياح الموت أشرعتها، ونخرت صراصير البحر صواريها، وفقدت إلى الأبد الوجهة إلى غوادالوبي. فكانت أوروسولا تبكي على المائدة، كما لو أنها تقرأ الرسائل التي لم تصلها قط، والتي يروي فيها خوسيه أركاديو مآثره ونكباته. وتقول منتحبة: «ولديك كل هذا البيت الفسيح هنا، يا بني. وكل هذا الفائض من الطعام الذي يرمى للخنازير!» ولكنها لم تكن تستطيع، في أعماقها، أن تتصور أن الصبي الذي أخذه الغجر معهم، هو هذا المارد الذي يلتهم نصف خنزير رضيع على الغداء، وتُذبل فسواته الأزهار. وكانت خواطر مماثلة تخطر لبقية الأسرة. فلم تكن آمارانتا قادرة على مواراة الاشمئزاز الذي تسببه

لها، على المائدة، تجشؤاته البهيمية. أما أركاديو الذي لم يعرف قط، سرّ حبه الأبوي له، فكان لا يكاد يجيب على أسئلته التي يوجهها إليه بنية واضحة في كسب حب ابنه. وحاول أوريليانو أن يستعيد الأزمنة التي كانا ينامان فيها في غرفة واحدة، وحاول أن يعيد ترميم تواطؤهما الطفولي، لكن خوسيه أركاديو كان قد نسي ذلك كله، لأن حياة البحر أتخمت ذاكرته بأشياء كثيرة يتذكرها. وكانت ريبيكا هي الوحيدة التي وقعت تحت تأثيره منذ الصدمة الأولى. ففي عصر اليوم الذي رأته يمر فيه أمام غرفتها، فكرت في أن بيترو كريسبي ليس سوى متأنق صعلوك بالمقارنة مع هذا الفحل الذي تُسمع أنفاسه البركانية في كل أنحاء البيت. فكانت تسعى إلى الاقتراب منه بأي ذريعة. وفي إحدى المرات، نظر خوسيه أركاديو إلى جسمها باهتمام وقح، وقال لها: «إنك امرأة ناضجة أيتها الأخت الصغيرة.» فقدت ريبيكا السيطرة على نفسها. وعادت إلى أكل التراب وكلس الجدران، بالشراهة التي كانت تفعل بها ذلك في أزمنة أخرى، ومصت إصبعها بجزع شديد أدى إلى ظهور ثؤلول في إبهامها. وتقيأت سائلاً أخضر فيه علقات ميتة. وقضت ليالي ساهرة وهي ترتعش من الحمى، وتصارع الهذيان، منتظرة اهتزاز أركان البيت لدى عودة خوسيه أركاديو عند الفجر. وفي عصر أحد الأيام، بينما الجميع ينامون القيلولة، لم تستطع الصمود أكثر، وذهبت إلى غرفته. وجدته بالسروال الداخلي، مستيقظاً، وممدداً في أرجوحة النوم التي علقها إلى دعامتين بحبال ربط السفن. أصابها عريّه المزخرف بذهول أحست معه بدافع يدفعها إلى التراجع. «المعذرة» قالت معتذرة، وأضافت: «لم أكن أعلم أنك هنا.» ولكنها أخفضت صوتها

كيلا توقظ أحداً. فقال لها: «تعالي هنا.» وانصاعت ريبيكا. وقفت بمحاذاة الأرجوحة، وهي تتعرق عرقاً جليدياً، وأحست بأمعائها تتشابك، بينما خوسيه أركاديو يداعب كاحليها بأطراف أصابعه، ثم يصعد بعد ذلك إلى ربلتي ساقيها، ثم فخذيها، مدمدماً: «آي! أيتها الأخت الصغيرة. آي! أيتها الأخت الصغيرة.» وكان عليها أن تبذل جهداً خارقاً كيلا تموت، عندما رفعتها قوة إعصارية من خصرها، وجردتها من ثيابها في ثلاث حركات خاطفة، مزقها كعصفور صغير. وقد توصلت إلى أن تحمد الله لأنها ولدت، قبل أن تفقد الوعي في لذة لا يمكن تصورها، من ذلك الألم الذي لا يطاق، خائضة في مستنقع الأرجوحة المدخن الذي امتص، كورق نشاف، انفجار دمها.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، تزوجا في موعد قداس الساعة الخامسة. كان خوسيه أركاديو قد ذهب في اليوم السابق إلى متجر بيترو كريسبي. وجده يعطي درساً على القيثارة، ولم يأخذه جانباً ليقول له: «سأتزوج من ريبيكا». شحب لون بيترو كريسبي، وناول القيثارة لأحد التلاميذ، وأعلن انتهاء الدرس. وعندما صارا وحيدين في القاعة المترعة بآلات موسيقية وألعاب ذات نوابض، قال بيترو كريسبي:

- إنها أختك.

فأجابه خوسيه أركاديو بوينديا:

- لا يهمني ذلك.

مسح بيترو كريسبي جبهته بمنديل مضمخ بالخزامى، وأوضح:

- هذا مخالف للطبيعة، والقانون يحظره.

لم يفقد خوسيه أركاديو الصبر بسبب حجج بيترو كريسبي،

وإنما بسبب شحوب لونه، وقال له:

- أشخ مرتين على الطبيعة. لقد جئت لأخبرك كيلا تزعج نفسك بالذهاب لسؤال ريبيكا عن أي شيء.

لكن فظاظة تصرفه انكسرت حين رأي الدموع تطل من عيني بيترو كريسبي. فقال له بلهجة أخرى:

- والآن، إذا كانت العائلة هي التي تعجبك، فلديك هناك آمارانتا.

كشف الأب نيكانور، في موعظة يوم الأحد، أن خوسيه أركاديو وريبيكا ليسا أخوين. ولم تغفر أورسولا أبداً ما اعتبرته قلة احترام لا تغتفر. وعند الرجوع من الكنيسة، حظرت على العروسين العودة إلى دخول البيت. وكان ذلك بالنسبة لها كما لو أنهما قد ماتا. وهكذا استأجرا بيتاً صغيراً قبالة المقبرة، واستقرا فيه دون أي أثاث آخر سوى أرجوحة خوسيه أركاديو. وفي ليلة الزفاف لسعت قدم ريبيكا عقربٌ اندست في خفها. تخدر لسانها، لكن ذلك لم يحل دون قضائهما شهر عسل فضائحي. وقد ذعر الجيران من الصيحات التي كانت توقظ الحي كله، حتى ثماني مرات كل ليلة، وثلاث مرات في فترة القيلولة، وابتهلوا ألا تُقلق تلك العاطفة الجامحة راحة الموتى.

كان أوريليانو هو الوحيد الذي اهتم بهما. فاشترى لهما بعض الأثاث، وزودهما بالنقود إلى أن استعاد خوسيه أركاديو إحساسه بالواقع، وبدأ يعمل في الأرض المشاع المحيطة بفناء البيت. أما آمارانتا، بالمقابل، فلم تتوصل قطّ، إلى تجاوز حقدها على ريبيكا، مع أن الحياة قدمت لها حلاً مرضياً لم تكن تحلم به. فبمبادرة من أورسولا التي لم تكن تعرف كيف تصلح ذلك العار، واصل بيترو

كريسبي تناول الغداء، كل ثلاثاء، في البيت؛ متعالياً على الإخفاق بوقار هادئ. واحتفظ بالشريطة السوداء على قبعته، كدليل على تقديره للأسرة، وكان يسعده إظهار حبه لأورسولا، بتقديمه إليها هدايا غريبة: سردين برتغالي، مربى الورد التركي، وقدم لها في إحدى المناسبات شالاً بديعاً من مانيلا. وكانت آمارانتا تحيطه برعاية حانية. فتحدس ما يروقه، وتنزع الخيطان الناسلة من معصمي قميصه، وطرزت الحروف الأولى من اسمه على دزينة مناديل، أهدتها إليه في عيد ميلاده. وفي أيام الثلاثاء، بعد الانتهاء من تناول الغداء، كان يشكّل رفقة مرحة لها، بينما هي تطرز في الردهة. لقد كانت تلك المرأة كشفاً بالنسبة إلى بيترو كريسبي الذي كان يعتبرها ويعاملها كطفلة على الدوام. ومع أن شخصيتها تفتقر إلى الظرافة، إلا أنها تتمتع بحساسية نادرة في فهم أمور الدنيا، وبرقة خفية. وذات ثلاثاء، عندما لم يعد هناك من يخامره الشك في أن الأمر سيحدث عاجلاً أو آجلاً، طلب منها بيترو كريسبي أن توافق على الزواج منه. لم تقطع عملها في التطريز. وانتظرت إلى أن تبددت سخونة الخفر من أذنيها، وطبعت صوتها بتفخيم نضوج رزين:

- بالطبع يا كريسبي. لكن بعد أن يعرف أحدنا الآخر جيداً. فليس من المستحسن تعجل الأمور.

غضبت أورسولا. فعلى الرغم من التقدير الذي تكنه لبيترو كريسبي، لم تستطع أن تقدر إذا ما كان قراره جيداً أم سيئاً، من الوجهة الأخلاقية، بعد خطوبته الطويلة والصاخبة مع ريبيكا. ولكنها انتهت إلى تقبل الأمر كواقع بلا تقويم، لأن أحداً لم يشاطرها شكوكها. وأربكها أوريليانو، وقد صار رجل البيت، برأيه

المُلغَز والحازم:

- ليس هذا وقت التفكير في الزيجات.

هذا الرأي الذي لم تفهمه أورسولا إلا بعد بضعة شهور، كان الرأي الوحيد الصريح الذي يمكن لأوريليانو التعبير عنه في تلك اللحظة، ليس في ما يتعلق بالزواج وحسب، وإنما في أي أمر آخر سوى الحرب. حتى إنه هو نفسه، وهو قبالة فصيلة الإعدام، لم يكن يدرك جيداً كيف توالت سلسلة المصادفات الخفيفة، إنما الحاسمة، التي أوصلته إلى هذه النقطة. لم يصبه موت ريميديوس بالهزة التي كان يخشاها. بل كان ما أصابه أقرب إلى شعور أصم بالغضب، تحلل تدريجياً إلى إحباط من العزلة والسلبية، مشابه لحاله في الزمن الذي كان مستسلماً فيه للعيش بلا امرأة. عاد للغرق في العمل، غير أنه حافظ على عادة لعب الدومينو مع حميه. وفي البيت الذي خيمت عليه أجواء الحداد، وطدت الأحاديث الليلية من عرى الصداقة بين الرجلين. فكان يقول لصهره: «تزوج ثانية يا أوريليانو. لدي ست بنات لتختار.» وفي إحدى المرات، عشية الانتخابات، عاد دون أبولينار موسكوتي من إحدى رحلاته الكثيرة، قلقاً من حالة البلاد السياسية. كان الليبراليون مصممين على الاندفاع نحو الحرب. ولأن معرفة أوريليانو بالفروق بين المحافظين والليبراليين كانت مشوشة في تلك الفترة، فقد راح حموه يلقنه دروساً منهجية. فكان يقول له إن الليبراليين ماسونيون؛ أناس من جبلة خبيثة، يدعون إلى شنق القسس، وإلى إقرار الزواج المدني والطلاق، والاعتراف للأبناء الطبيعيين بحقوق مساوية لحقوق الأبناء الشرعيين، وتمزيق البلاد بنظام فيديرالي ينتزع السلطات من السلطة العليا. أما

المحافظون، بالمقابل، الذين يستمدون السلطة من الرب مباشرة، فيدعون إلى حفظ النظام العام، والأخلاق الأسرية؛ وهم المدافعون عن ديانة المسيح، وعن مبدأ السلطة، وغير مستعدين للسماح بتجزئة البلاد إلى كيانات مستقلة ذاتياً. فكان أوريليانو، لمشاعر إنسانية، يتعاطف مع موقف الليبراليين في ما يتعلق بالأبناء الطبيعيين، ولكنه لم يكن يفهم، في كل الأحوال، كيف يمكن الوصول إلى حد خوض الحرب من أجل أشياء لا يمكن لمسها بالأيدي. وبدا له من المبالغة أن يطلب حموه، من أجل الانتخابات، إرسال ستة جنود مسلحين ببنادق، تحت إمرة رقيب، إلى قرية بلا ميول سياسية. لم يأتِ الجنود وحسب، وإنما راحوا يجوبون القرية بيتاً بيتاً، ويصادرون أسلحة الصيد، ومناجل المتشيتي، وحتى سكاكين المطابخ، قبل أن يوزعوا على الرجال الذين تجاوزوا الحادية والعشرين من أعمارهم، أوراقاً زرقاء تضم أسماء المرشحين المحافظين، وأوراقاً حمراء بأسماء مرشحي الليبراليين. وعشية الانتخابات، قرأ دون أبولينار موسكوتي نفسه بياناً بحظر بيع المشروبات الكحولية منذ منتصف ليل السبت، ولمدة ثمان وأربعين ساعة، وحظر اجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص، ما لم يكونوا من الأسرة نفسها. مرت الانتخابات دون حوادث. فمنذ الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد، وُضِع في الساحة صندوق الاقتراع الخشبي، يحرسه الجنود الستة. وجرى التصويت بحرية كاملة، مثلما تأكد لأوريليانو نفسه الذي ظل طوال اليوم تقريباً مع حميه، يسهر على ألا يصوت أحد أكثر من مرة واحدة. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر، أعلن قرع طبل في الساحة، نهاية جولة التصويت، وختم دون أبولينار موسكوتي صندوق الاقتراع

بلصاقة ورقية متصالبة، ومهرها بتوقيعه. وفي تلك الليلة، بينما هو يلعب الدومينو مع أوريليانو، أمر الرقيب بأن يمزق اللصاقة لحساب الأصوات. كان عدد الأوراق الزرقاء والحمراء متساوياً تقريباً، لكن الرقيب لم يُبقِ إلا عشر أوراق حمراء، واستكمل الفرق بأوراق زرقاء. وأعادوا بعد ذلك ختم الصندوق بلصاقة جديدة، وحملوه في اليوم التالي، مع أولى ساعات الصباح، إلى عاصمة المقاطعة. قال أوريليانو: «سوف يعلن الليبراليون الحرب». فقال دون أبولينار موسكوتي، دون أن يحوّل انتباهه عن أحجار الدومينو: «إذا كنت تقول هذا بسبب تبديل الأوراق، فلن يعلنوا الحرب. فقد تُركت بعض الأوراق الحمراء كي لا تكون هناك اعتراضات.» أدرك أوريليانو صعوبة وضع المعارضة، وقال: «لو كنت ليبرالياً لخضتُ الحرب من أجل مسألة الأوراق هذه.» فنظر إليه حموه من فوق إطار نظارته:

- آي، يا أوريليانو، لو كنتَ ليبرالياً لما شهدت تبديل الأوراق، حتى ولو كنت صهري.

والحقيقة أن ما أثار السخط في القرية، لم يكن نتائج الانتخابات، وإنما عدم إعادة الجنود للأسلحة المصادرة. تحدثت جماعة من النساء إلى أوريليانو، كي يتوصل مع حميه إلى استعادة سكاكين المطبخ. فأوضح له دون أبولينار موسكوتي، بتحفظ صارم، أن الجنود أخذوا الأسلحة المصادرة كدليل على أن الليبراليين يعدون العدة لشن الحرب. استثارت حفيظته صفاقة هذا التصريح. ولم يعلق بأي شيء؛ ولكنه ذات ليلة، بينما كان خيرينيلدو ماركيز وماغنيفيكو فيسبال يتحدثان مع أصدقاء آخرين عن مسألة السكاكين، سألاه إذا ما كان ليبرالياً أم محافظاً.

فلم يتردد أوريليانو:

- إذا كان لا بد أن أكون شيئاً، فسوف أكون ليبرالياً، لأن المحافظين جماعة من المحتالين.

وفي اليوم التالي، وبطلب من أصدقائه، ذهب لزيارة الدكتور أليريو نوغيرا كي يعالج ألماً مزعوماً في كبده. لم يكن يعرف ما هو المقصود بتلفيق تلك الأكذوبة. كان الدكتور أليريو نوغيرا قد جاء إلى ماكوندو قبل سنوات قليلة ومعه صيدلية كرات دواء بلا طعم، وشعار طبي لم يقنع أحداً: *كل مسمار يقلع مسماراً آخر*. لقد كان، في الحقيقة، مخادعاً. فوراء براءة مظهره كطبيب بلا شهرة، كان يخفي إرهابياً، يستر بصندل ذي رباط، يصل إلى منتصف ساقيه، القروح التي خلفتها على كاحليه خمس سنوات من أغلال السجن. فقد اعتقل في المغامرة الليبرالية الأولى، ثم تمكن من الهرب إلى كوراساو متخفياً بأكثر ثياب يمقتها في هذا العالم: مسوح كاهن. وبعد نفي طويل، مترع بصخب الأخبار الحماسية التي يحملها إلى كوراساو، منفيون من كل أنحاء الكاريبي، أبحر في سفينة شراعية لمهربين، وظهر في ريوهاتشا، ومعه قوارير كرات أدوية صغيرة، لم تكن سوى سكر مكرر؛ وشهادة من جامعة ليبزيج، زورها بنفسه. بكى من خيبة الأمل. فالحماس الفيدرالي الذي شبهه المنفيون ببرميل بارود على وشك الانفجار، كان قد تحلل إلى وهم انتخابي غامض. أصيب بمرارة الإحباط، وفي تلهفه إلى مكان آمن ينتظر فيه شيخوخته، التجأ الطبيب التجانسي المزيف إلى ماكوندو. وفي حجرة ضيقة مترعة بقوارير فارغة، استأجرها في أحد جوانب الساحة، عاش عدة سنوات على ما يكسبه من المرضى الذين فقدوا الأمل بعد أن جربوا كل شيء، وارتضوا العزاء

لأنفسهم ببعض أقراص السكر. وظلت غرائزه، كمحرض، كامنة طوال الوقت الذي كان فيه دون أبولينار موسكوتي مجرد سلطة تزيينية. فكان يقضي الوقت في التذكر، وفي الصراع مع الربو. وكان اقتراب موعد الانتخابات هو طرف الخيط الذي أتاح له الإمساك، من جديد، بطرف لفافة النشاط الهدام. أقام اتصالات مع شبان القرية الذين يفتقرون إلى التكوين السياسي، وانهمك في حملة تحريض سرية. والأوراق الحمراء الكثيرة التي وجدت في صندوق الاقتراع، وعزاها دون ابولينار موسكوتي إلى ميل الشباب إلى المستجدات، كانت جزءاً من خطته: أجبر أتباعه على التصويت كي يثبت لهم أن الانتخابات ليست سوى مهزلة. وقال لهم: «الوسيلة الوحيدة الفعالة هي العنف.» وكان معظم أصدقاء أوريليانو متحمسين لفكرة تصفية النظام المحافظ، لكن أياً منهم لم يجرؤ على دعوته إلى مخططاتهم، ليس لصلة القربى التي تربطه بالحاكم وحسب، وإنما بسبب طبعه المنعزل والمتهرب. وكان معروفاً كذلك أنه صوّت «أزرق»، بطلب من حميه. وقد كان إفصاحه عن مشاعره السياسية محض مصادفة، ومجرد ضربة فضول هي التي أدخلته في زوبعة زيارة الطبيب، لعلاج مرض غير مصاب به. وفي الحجرة الضيقة العابقة برائحة شباك العنكبوت المشبعة بالكافور، وجد نفسه أمام نوع من حرباء إيغوانا غبراء، تصفر رئتاها لدى التنفس. وقبل أن يطرح عليه الدكتور أي سؤال، اقتاده إلى النافذة، وفحص باطن جفنه السفلي. فقال أوريليانو، حسبما أخبروه: «ليس هنا»، وضغط على الكبد برؤوس أصابعه، وأضاف: «هنا أشعر بالألم الذي لا يتيح لي النوم». عندئذ أغلق الدكتور نوغيرا النافذة متذرعاً بحدة الشمس، وشرح له بعبارات

بسيطة، السبب في أن اغتيال المحافظين هو واجب وطني. وقد حمل أوريليانو، لعدة أيام، قارورة صغيرة في جيب قميصه. كان يُخرجها كل ساعتين، ويضع في راحة يده ثلاث كريات، ويلقي بها دفعة واحدة، في فمه ليذيبها ببطء على لسانه. سخر دون أبولينار موسكوتي من إيمانه بالطب التجانسي، لكن المشاركين في المؤامرة، تعرفوا فيه على واحد منهم. كان جميع أبناء الرواد المؤسسين تقريباً ضالعين في المؤامرة، مع أن أياً منهم لم يكن يعرف بالتحديد ما هو العمل الذي يدبرونه. ومع ذلك، في اليوم الذي كشف فيه الطبيب عن السرّ لأوريليانو، خرج هذا بجسده من المؤامرة. فعلى الرغم من أنه كان مؤمناً حينئذ بضرورة تصفية النظام المحافظ، إلا أن الخطة أرعبته. لقد كان الدكتور نوغيرا صوفياً في إيمانه بالاغتيالات الشخصية. وكانت خطته تُختزل في تنسيق سلسلة من الأعمال الفردية، تُجهز في ضربة بارعة، على المستوى الوطني، على موظفي النظام وأسرهم، وخاصة الأطفال، للقضاء على الاتجاه المحافظ من البذرة. وقد كان دون أبولينار موسكوتي وزوجته وبناته الست في القائمة طبعاً.

- أنت لست ليبرالياً ولا أي شيء آخر - قال له أوريليانو دون أي اضطراب - أنت سفاح وحسب.

فرد عليه الدكتور بهدوء مماثل:

- في هذه الحال، أعد لي القارورة. فأنت لم تعد بحاجة إليها.

ولم يعرف أوريليانو إلا بعد ستة شهور، أن الدكتور قد استبعده كرجل عمل، لأنه رأى فيه عاطفياً بلا مستقبل، وذا طبع سلبي، وميل حاسم إلى الوحدة. حاولوا محاصرته خوفاً من أن يشي

بالمؤامرة. فطمأنهم أوريليانو: لن يتفوه بأي كلمة، ولكنهم في الليلة التي سيذهبون فيها لقتل أسرة موسكوتي، سيجدونه هو نفسه يدافع عن الباب. وقد أظهر تصميماً راسخاً، تأجلت معه الخطة إلى أجل غير مسمى. وكان أن سألته أورسولا، في تلك الأيام، عن رأيه في زواج بيترو كريسبي من آمارانتا، وأجابها بأن الأزمنة ليست ملائمة للتفكير بذلك. كان يحمل، منذ أسبوع، تحت قميصه، مسدساً قديماً. وكان يراقب أصدقاءه. ويذهب عصر كل يوم لتناول القهوة مع خوسيه أركاديو وريبيكا اللذين بدأا بترتيب بيتهما. ويذهب منذ السابعة ليلعب الدومينو مع حميه. وفي موعد الغداء، يتبادل الحديث مع أركاديو الذي غدا فتى ضخماً، وكان يجده في كل مرة أشد حماسةً للحرب الوشيكة. وفي المدرسة، حيث يوجد لأركاديو تلاميذ أكبر منه سناً، مختلطين بأطفال بدؤوا التكلم لتوهم، كانت قد تأججت حمى الليبرالية. فكانوا يتحدثون عن إعدام الأب نيكانور، وعن تحويل الكنيسة إلى مدرسة، وعن إشاعة الحب الحر. حاول أوريليانو تهدئة اندفاعه. ونصحه بالتكتم والحذر؛ لكن أركاديو صم أذنيه عن عقلانيته الهادئة، وحسه الواقعي، ووبخه علناً لضعف طبعه. اعتصم أوريليانو بالصبر. وأخيراً، في أوائل كانون الأول، اندفعت أرسولا إلى المشغل مضطربة:

- لقد اندلعت الحرب.

كانت الحرب قد اندلعت، في الواقع، منذ ثلاثة شهور. وكان قانون الأحكام العرفية مفروضاً على البلاد. والوحيد الذي عرف بالأمر في حينه، هو دون أبولينار مسكوتي، لكنه لم يُطلع حتى زوجته على الخبر، بانتظار أن تأتي فصيلة الجيش التي ستحتل

القرية على حين غرة. لقد دخل الجنود، بلا ضجة، قبل الفجر، ومعهم مدفعان خفيفان تجرهما البغال، وجعلوا من المدرسة ثكنة لهم. فُرض حظر التجول من الساعة السادسة مساء. وجرت عملية تفتيش أشد فظاظة من السابقة، ومن بيت لبيت، وصادروا في هذه المرة حتى أدوات الفلاحة. وأخرجوا الدكتور نوغيرا من بيته جرجرة، وقيدوه إلى شجرة في الساحة، وأعدموه رمياً بالرصاص من دون أي محاكمة. حاول الأب نيكانور أن يؤثر على السلطات العسكرية، بأعجوبة ارتفاعه طافياً في الهواء، فشج جندي رأسه بضربة من عقب بندقيته. انطفأت الحماسة الليبرالية في رعب صامت. وواصل أوريليانو، بشحوب وتكتم، لعب الدومينو مع حميه. وأدرك أن دون أبولينار موسكوتي، على الرغم من لقبه الحالي كقائد مدني وعسكري للموقع، ليس إلا سلطة تزيينية. فالقرارات يتخذها نقيب من الجيش، يجمع من البيوت، كل صباح، ضريبة استثنائية من أجل حماية الأمن العام. وقد قام أربعة جنود تحت أمرته بانتزاع امرأة عضها كلب مسعور، من وسط أسرتها، وقتلوها ضرباً بأعقاب بنادقهم في الشارع. وفي يوم الأحد، بعد أسبوعين من الاحتلال، دخل أوريليانو إلى بيت خيرينيلدو ماركيز. وبزهده المعهود، طلب فنجاناً من القهوة بلا سكر. وعندما صارا وحدهما في المطبخ، طبع أوريليانو صوته بسلطة لم تُعرف عنه قط: «هيئ الشباب»، قال ذلك، ثم أضاف: «سوف نذهب إلى الحرب». لم يصدق خيرينيلدو ماركيز ما سمعه، وسأل:

- بأية أسلحة؟

- بأسلحتهم - أجاب أوريليانو.

وفي منتصف ليل الثلاثاء، في عملية جنونية، قام واحد وعشرون رجلاً، تقل أعمارهم عن الثلاثين، يقودهم أوريليانو بوينديا، مسلحين بسكاكين المائدة وحدائد مشحوذة، بأخذ الحامية على حين غرة، واستولوا على الأسلحة، وأعدموا في الفناء، النقيب والجنود الأربعة الذين قتلوا المرأة.

وفي الليلة نفسها، بينما كانت تُسمع طلقات فصيلة الإعدام، سُمي أركاديو قائداً مدنياً عسكرياً للموقع. ولم يكد يتح للثائرين المتزوجين متسع من الوقت لوداع زوجاتهم اللواتي تركوهن لمواردهن الخاصة. رحلوا عند الفجر، وسط هتافات الأهالي المتحررين من الرعب، لينضموا إلى قوات الجنرال الثوري فيكتوريو ميدينا الذي كان يمضي، حسب آخر الأخبار، باتجاه مانوري. وقبل المغادرة، أخرج أوريليانو دون أبولينار موسكوتي من خزانة، وقال له: «ستبقى هنا آمناً يا عم. فحاكم البلدة الجديد يضمن لك، بكلمة شرف، سلامتك الشخصية وسلامة أسرتك». وجد دون أبولينار موسكوتي صعوبة في التعرف على ذلك المتآمر ذي الجزمة الطويلة، والبندقية المائلة على ظهره، والذي لعب معه الدومينو حتى الساعة التاسعة ليلاً. فهتف:

- هذا تهور يا أوريليانو.

فقال أوريليانو:

- ليس هناك أي تهور. إنها الحرب. ولا تعد إلى مناداتي أوريليانو، فقد صرت العقيد أوريليانو بوينديا.

أثــار الكولونيــل أوريليــانو بوينديــا اثنتــين وثلاثــين انتفاضــة مسلحة، خسـرها جميعها. وكـان لديـه سـبعة عشـر ابنـاً ذكـراً، مـن سبع عشرة امرأة مختلفة، أبيدوا واحداً بعد الآخر فـي ليلة واحدة، قبل أن يكمل أكبرهم خمساً وثلاثين سنة من عمره. ونجا من أربع عشرة محاولة اغتيال، وثلاثة وسبعين كميناً، ومن فصيلة إعدام رمياً بالرصاص. وظل على قيد الحياة بعد جرعة استريكنين فـي قهوته، كانت تكفـي لقتل حصان. ورفض وسام الاستحقاق الذي منحه إياه رئيس الجمهورية. ورقي إلى مرتبة القائد العام للقوات الثورية، بسلطات قضائية وقيادية امتدت من أقصى حدود البلاد إلى أقصاها، وكان الرجل الذي ترهبه الحكومة أكثر من الجميع، لكنه لم يسمح قط، بـأن تُلتقط لـه صورة فوتوغرافية. رفض المعاش التقاعدي مدى الحياة بعد أن انتهت الحرب، وعاش حتى الشيخوخة من الأسماك الذهبية الصغيرة التي يصنعها فـي مشغلة في ماكوندو. ومع أنه قاتل دوماً على رأس رجاله، فإن الجرح الوحيد الذي أُصيب به، أحدثه هو نفسه، بعد توقيع استسلام نيرلانديا الذي وضع حداً لما يقرب من عشرين سنة من الحروب الأهلية. أطلق رصاصة على صدره، وخرجت الطلقة من ظهره دون أن تؤثر على أي جهاز حيوي. والشيء الوحيد الذي بقي من ذلك كله، هو شارع يحمل اسمه في ماكوندو. وهو ما لم يكن

ينتظره، مع ذلك، كما صرح قبل سنوات قليلة من موته بالشيخوخة، في فجر اليوم الذي مضى فيه مع رجاله الواحد والعشرين، للانضمام إلى قوات الجنرال فيكتوريو ميدينا.

وكان كل ما قاله لأركاديو قبل المغادرة:

- إننا نترك ماكوندو بعهدتك. نتركها في حالة جيدة، فابذل الجهد لكي نجدها في حالة أفضل عندما نعود.

وقد فسر أركاديو التوصية تفسيراً شخصياً. فابتدع لنفسه بزة عسكرية، بشرائط وكتفيات مارشال، استوحاها من رسوم أحد كتب ميلكيادس، وعلّق بحزامه سيف النقيب المعدوم، ذا الشَّرابات. ونصب المدفعين عند مدخل القرية، وألبس زياً عسكرياً لتلاميذه القدماء المتحمسين لنداءاته النارية، وأطلقهم للتسكع مسلحين في الشوارع، ليعطي الغرباء انطباعاً بالمنعة. وقد كانت حيلة ذات حدين، لأن الحكومة لم تتجرأ على مهاجمة الموقع خلال عشرة شهور، ولكنها حين فعلت ذلك، وجهت إليه قوة كبيرة، قضت على المقاومة خلال نصف ساعة. منذ اليوم الأول لولايته، كشف أركاديو عن ميله إلى إصدار البلاغات. فكان يقرأ حتى أربعة بلاغات في اليوم الواحد، ليأمر وينظم كل ما يخطر لذهنه. فرضَ الخدمة العسكرية الإجبارية ابتداء من سن الثامنة عشرة، وأعلن أن الحيوانات الشاردة في الشوارع، بعد الساعة السادسة مساء، هي ملكية عامة؛ وفرض على الرجال البالغين استخدام شرائط حمراء على أذرعهم. وحبس الأب نيكانور في بيت الخورانية، مع التهديد برميه بالرصاص إذا ما خرج منه. وحظر عليه إقامة القداديس أو قرع الأجراس، إلا احتفالاً بالانتصارات الليبرالية. وكيلا يخامر الشك أحداً في صرامة نواياه، أمر فصيلة إعدام بممارسة

التدريب في الساحة العامة، بإطلاق النار على فزاعة عصافير. لم يأخذ أحد ذلك، في أول الأمر، على محمل الجد. فهم ليسوا، في نهاية المطاف، سوى فتيان المدرسة، يلعبون لعبة محاكاة الكبار. ولكن حين دخل أركاديو، في مساء أحد الأيام، إلى حانوت كاتارينو، وحياه عازف الترومبيت في الجوقة، بلحن عسكري ساخر، استثار ضحك الزبائن، أمر أركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص، بتهمة عدم احترام السلطة. ومن احتجوا على ذلك، كبلهم بالأغلال من كواحلهم، وسجنهم على الخبز والماء، في حبس أقامه في إحدى غرف المدرسة. كانت أورسولا تصرخ به، كلما علمت بتصرف جديد من تصرفاته الجائرة: «أنت قاتل! عندما يعلم أوريليانو بما تفعله سيأمر برميك بالرصاص، وسأكون أنا أول من يفرح». ولكن ذلك كله لم يكن مجدياً. فقد واصل أركاديو زيادة الضغط، بصرامة لا مسوغ لها، حتى تحول إلى أقسى الحكام الذين عرفتهم ماكوندو على الإطلاق. وفي إحدى المناسبات، قال أبولينار موسكوتي: «عليكم أن تتحملوا الفرق الآن. فهذا هو الفردوس الليبرالي». علم أركاديو بذلك. فداهم البيت على رأس دورية، وحطم الأثاث، وجلد بنات أبولينار موسكوتي، وأخرجه من البيت جرجرة. وعندما اندفعت أورسولا إلى فناء الثكنة، بعد أن اجتازت القرية وهي تصرخ من الخجل والعار، وتهز بغضب سوطاً مغمساً بالقار، كان أركاديو يستعد لإصدار الأمر لفصيلة الإعدام بإطلاق النار. فصرخت أورسولا:

- تجرأ على ذلك يا ابن الزنا!.

وقبل أن يتمكن أركاديو من الإتيان بأي ردّ فعل، وجهت إليه أول ضربة بالسوط. «تجرأ أيها القاتل» صرخت به، وأضافت:

«اقتلني أنا أيضاً يا ابن أم السوء. فهكذا لن تكون لي عينان تبكيان عار أنني ربيت ظاهرة عجيبة مثلك». وبينما هي تضربه دون رحمة، لاحقته حتى أقصى الفناء، حيث تقوقع أركاديو على نفسه كحلزون. كان دون أبولينار موسكوتي فاقداً الوعي، مشدوداً إلى العمود الذي كانت عليه فزاعة العصافير الممزقة بطلقات التدريب. وتفرق فتيان فصيلة الإعدام، خوفاً من أن تنتهي أورسولا إلى صب جام غضبها عليهم. لكنها لم تكلف نفسها مجرد النظر إليهم. وتركت أركاديو ممرغاً بزيه العسكري، يتأوه من الألم والغضب، وفكّت قيود دون أبولينار موسكوتي لتأخذه إلى بيته. وقبل أن تغادر الثكنة، أطلقت سراح المعتقلين في الحبس.

منذ ذلك الحين، صارت هي من يأمر في القرية. فأعادت قداس يوم الأحد، وألغت استخدام شرائط الذراع الحمراء، وأوقفت العمل بكل المراسيم القاسية. لكنها على الرغم من صلابتها، ظلت تبكي تعاسة قدرها. أحست أنها وحيدة إلى حدّ بحثت معه عن الصحبة غير المجدية في زوجها المنسي تحت شجرة الكستناء. «انظر ما الذي صرنا إليه»، كانت تقول له، بينما أمطار حزيران تهدد بتقويض ظلة السعف. «انظر البيت خالياً، وأبناءنا مشتتين في الدنيا، ونحن وحدنا مرة أخرى، مثلما كنا في البداية». وكان خوسيه أركاديو بوينديا، الغارق في هوة اللاوعي، أصم عن حسراتها. كان في بداية جنونه يعلن بعبارات لاتينية ملحة عن حاجاته اليومية المستعجلة. وفي لحظات صحوه العابرة والمقفرة، عندما تأتيه آمارانتا بالطعام، يخبرها بأشد همومه إزعاجاً، ويستسلم بوداعة إلى محاجمها وكماداتها. لكنه في الفترة التي جاءت فيها أورسولا لتتحسر بجانبه، كان قد فقد كل صلة له

بـالواقع. كـانت تحممـه علـى مراحـل، وهـو جـالس علـى المقعـد الصغير، وتُطلعه فـي أثنـاء ذلـك، علـى أخبـار الأسـرة. «لقـد ذهـب أوريليانو إلى الحـرب، منـذ أكثر مـن أربعـة شـهور، ولـم نعـد نعـرف عنه شيئاً»، تقول له ذلـك، وهـي تفـرك ظـهره بليفـة مملـوءة برغـوة الصابون. «ورجع خوسيه أركاديو، وقـد صـار رجـلاً ضخمـاً، أطـول منك قامة، وجسده كله مطرز بالوشم، لكنه لم يعد إلا ليحمل العار إلـى بيتنـا.» وقـد ظنـت، مـع ذلـك، أنـها تلحـظ تبـدي الحـزن علـى زوجها مـن الأخبـار السـيئة. فقـررت عندئـذ أن تكـذب عليـه. «لا تصـدق مـا أقولـه لـك»، صـارت تقـول بينمـا هـي تلقـي رمـاداً علـى برازه، كـي تحملـه بـالرفش. «لقـد أرادت مشـيئة الـرب أن يـتزوج خوسـيه أركـاديو وريبيكـا. وهمـا سـعيدان جـداً الآن». وقـد توصلـت إلى أن تكون شديدة الإخلاص فـي الخـداع، حتـى انتهى بـها الأمـر إلى تعزية نفسها بأكاذيبها. فكانت تقول: «لقد صـار أركاديو رجـلاً جدياً، وشجاعاً جداً، وشاباً وسيماً بزيه العسكري وسـيفه.» كـانت كمن يتكلم إلى ميت، لأن خوسيه أركاديو بوينديـا كـان أبعـد مـن أن تصلـه أيـة همـوم. ولكنـها ألحـت. رأت أنـه شـديد الوداعـة، لا يـهتم بأي شيء، فقررت أن تفك قيوده. لم يتحرك عن مقعـده الصغير. وظل عرضة للشمس والمطر، وكأنه لم تكن هناك حاجة إلى تقييده بالحبال، لأن قوة أكبر من أي قيد مرئي، تبقيه مشـدوداً إلـى جـذع شجرة الكستناء. ومع اقتراب شهر آب، عندمـا بـدأ الشـتاء يصير أبدياً، استطاعت أورسـولا أن تنقـل إليـه خـبراً يبـدو حقيقيـاً. فقـد قالت له:

- تصـور. إن حسـن الطـالع مـا زال يلاحقنـا. آمارانتـا وإيطـالي البيانولا سيتزوجان.

وبالفعل، كانت صداقة آمارانتا وبيترو كريسبي قد تعمقت، تحيط بهما ثقة أورسولا التي لم تجد، في هذ المرة، ضرورة في مراقبة الزيارات. كانت خطوبة غسقية. فالإيطالي يجيء عند الغروب، وزهرة غاردينيا في عروة سترته، ويترجم لآمارانتا قصائد من بترارك. يظلان في الردهة العابقة برائحة الأوريغانو والورود. هو يقرأ وهي تحوك دانتيلا الصنارة، غير عابئين بمفاجآت الحرب وأخبارها السيئة، إلى أن يجبرهما البعوض على اللجوء إلى الصالون. كانت حساسية آمارانتا، ورقتها المتكتمة، إنما المطَوِّقة، قد راحت تنسج حول الخطيب شبكة عنكبوت غير مرئية، كان عليه أن يزيحها، مادياً، بأصابعه الشاحبة والخالية من الخواتم، كي يغادر البيت في الساعة الثامنة. كانا قد صنعا ألبوماً جميلاً من البطاقات البريدية التي يتلقاها بيترو كريسبي من إيطاليا. وكانت صور عشاق في حدائق متوحدة، ورسوم قلوب تخترقها السهام، وأشرطة مذهبة تحملها حمائم. «أنا أعرف هذه الحديقة في فلورنسا»، كان بيترو كريسبي يقول لها وهو يتصفح البطاقات البريدية. «يكفي أن يمد المرء يده حتى تحط الطيور عليها لتأكل.» وفي بعض الأحيان، أمام لوحة مائية لفينسيا، يتحول الحنين إلى عطر ورود فاتر، ورائحة وحل، وأصداف متعفنة في القنوات. فكانت آمارانتا تتنهد، تضحك، تحلم بوطن ثان رجاله ونساؤه رائعون، يتكلمون لغة أطفال، ومدنه قديمة لم يبق من عظمتها الغابرة سوى قطط بين الأنقاض. لقد وجد بيترو كريسبي الحب، بعد أن اجتاز المحيط باحثاً، وبعد أن اختلط عليه أمر مداعبات ريبيكا المحتدة، وظنها حباً. وحملت إليه السعادة معها الازدهار. فصار متجره يشغل عندئذ المسافة ما بين شارعين

تقريباً، وكان المتجر أشبه بدفيئة غرائب وعجائب، فيه نسخ مصغرة لبرج أجراس فلورانسا، يعلن تمام الساعة فيها لحن أجراس متوافقة، وعلب موسيقية من سورينتو. وعلب بودرة من الصين تعزف، عند رفع غطائها، ألحاناً من خمس نوتات؛ وكل آلات الموسيقى التي يمكن تخيلها، وكل دمى النوابض التي يمكن تصورها. كان أخوه الأصغر، برونو كريسبي، يتولى إدارة المتجر، لأنه لا يجد متسعاً لأكثر من الاهتمام بمدرسة الموسيقى. وبفضله تحول شارع الأتراك، بانفجار ترهاته المبهرة، إلى ملاذ نغمي لنسيان تعسف أركاديو وكابوس الحرب البعيد. وعندما قررت أورسولا استئناف قداديس الآحاد، أهدى بيترو كريسبي إلى الكنيسة أرغناً ألمانياً، ونظم فرقة كورال من الأطفال، وأعد قائمة مقطعات غريغورية، أضفت ملمحاً بديعاً على طقوس الأب نيكانور الصامتة. ولم يكن هناك من يخامره الشك في أنه سيجعل من آمارانتا زوجة سعيدة. ودون تسريع لمشاعرهما، ليتركا تدفق القلب الطبيعي يقتادهما، وصلا إلى نقطة لم يبق عليهما فيها إلا تحديد موعد الزفاف. ولن يجدا في مواجهتهما أية عوائق. فقد كانت أورسولا تتهم نفسها، في دخيلتها، بأنها قد لوت مصير ريبيكا بتأجيلها المتكرر لزواجها؛ ولم تكن مستعدة لمراكمة مزيد من تأنيب الضمير. وكانت صرامة الحداد على موت ريميديوس قد تراجعت إلى مكانة ثانوية، بسبب عذابات الحرب، وغياب أوريليانو، وقسوة أركاديو، وطرد خوسيه أركاديو وريبيكا. وحيال الزفاف الوشيك، ألمح بيترو كريسبي إلى أنه سيعتبر أوريليانو خوسيه الذي يكنّ له محبة شبه أبوية، ابنه البكر. كان كل شيء يشير إلى أن آمارانتا تمضي نحو سعادة دون منغصات. ولكنها على خلاف ريبيكا، لم

تكن تبدي أدنى قدر من التلهف. وبالصبر نفسه الذي تزين به الشراشف وتحوك الدانتيلا البديعة، وتطرز طواويس بالغرزة المتصالبة، انتظرت أن يعجز بيترو كريسبي عن تحمل تعجل قلبه. وقد حانت ساعتها مع أمطار تشرين الأول المشؤومة. انتزع بيترو كريسبي من حضنها سلة التطريز الصغيرة، وضغط على يدها بين يديه. وقال لها: «لم أعد قادراً على تحمل المزيد من هذا الانتظار. فلنتزوج الشهر القادم.» لم ترتجف آمارانتا للمس يديه الجليديتين. سحبت يدها كحيوان صغير متفلت، وعادت إلى عملها:

- لا تكن ساذجاً يا كريسبي. - قالت مبتسمة - لن أتزوج منك حتى ولو متُّ.

فقد بيترو كريسبي السيطرة على نفسه. وبكى دون حياء، وهو يكاد يكسر أصابعه من اليأس، ولكنه لم يتوصل إلى زعزعتها. «لا تضيع وقتك»، كان هذا هو كل ما قالته آمارانتا. وأضافت: «إذا كنت تحبني إلى هذا الحد حقاً، فلا تعد إلى دخول هذا البيت.» ظنت أورسولا أنها ستجن خجلاً. واستنفد بيترو كريسبي كل وسائل التوسل. ووصل إلى حدود لا تُصدَّق من التذلل. وبكى أمسية بطولها في حضن أورسولا التي كانت مستعدة لأن تبيع روحها مقابل مواساته. وشوهد في ليال ماطرة، يحوم حول البيت حاملاً مظلة من الحرير، يداعبه الأمل في أن يلمح نوراً ينبعث من غرفة آمارانتا. ولم يكن يلبس قط أفضل مما كان عليه في تلك الفترة. واكتسب رأسه المتيبس كرأس إمبراطور، ملمح عظمة غريب. أثقل بالإلحاح على صديقات آمارانتا اللواتي يذهبن للتطريز في الردهة، كي يحاولن إقناعها. أهمل أعماله. وصار

يقضي النهار في حجرة المتجر الخلفية، يكتب رسائل حب موجهة، يطلب إيصالها إلى آمارانتا مع أغشية بتلات أزهار وفراشات محنطة، فتعيدها إليه دون فتحها. وكان يعتكف ساعات وساعات ليعزف على قيثارته. وفي إحدى الليالي غنى. استيقظت ماكوندو في نوع من السبات، حولته إلى جو ملائكي ألحان قيثارة لا تستحق أن تكون من هذا العالم، وصوت لا يمكن تصور صوت آخر مثله على هذه الأرض، محمل بكل ذلك الحب. وعندئذ رأى بيترو كريسبي الأنوار تضاء في كل نوافذ القرية، باستثناء نافذة آمارانتا. وفي الثاني من تشرين الثاني، يوم جميع الموتى، فتح أخوه المتجر، ووجد كل المصابيح مضاءة، وكل العلب الموسيقية مفتوحة، وكل الساعات متوقفة على توقيت لانهائي، ووسط ذلك الكونشيرتو غير المعقول، وُجد بيترو كريسبي على منضدة حجرة المتجر الخلفية، وقد قُطعت أوردة رسغيه بسكين، وغُمست يداه في جفنة صمغ جاوي.

قررت أورسولا أن يتم السهر على جثمانه في البيت. ورفض الأب نيكانور إقامة طقوس دينية له ودفنه في مقبرة مسيحية. فواجهته أورسولا قائلة: «لقد كان هذا الرجل قديساً بطريقة لا يمكن لي ولك أن نفهمها. ولهذا سأدفنه بالرغم من مشيئتك إلى جانب قبر ميلكيادس.» وقد فعلت ذلك، بمساندة القرية كلها، في مأتم مهيب. لم تغادر آمارانتا مخدعها. سمعت من سريرها بكاء أورسولا، ووقع خطوات الجموع التي ملأت البيت ودمدماتها، وعويل النادبات، وتلا ذلك صمت عميق يعبق برائحة أزهار داستها الأقدام. وظلت لوقت طويل تشم، عند الغروب، رائحة عطر خزامى بيترو كريسبي، ولكنها امتلكت القوة على عدم الاستسلام

للهذيان. تخلت عنها أورسولا؛ حتى إنها لم ترفع عينيها لتشفق عليها، في مساء اليوم الذي دخلت فيه آمارانتا إلى المطبخ، ووضعت يدها في جمر الموقد، إلى أن تألمت إلى حد لم تعد تشعر معه بالألم، وإنما بنتانة لحمها المحروق. كان ذلك علاجاً حمارياً لتأنيب الضمير. وقد أمضت عدة أيام تجوب البيت، ويدها في إناء مليء بزلال البيض. وعندما شفيت الحروق، بدا كما لو أن زلال البيض قد أشفى قروح قلبها أيضاً. والأثر الخارجي الوحيد الذي خلفته فيها المأساة، هو ضماد الشاش الأسود الذي ربطت به يدها المحروقة، وستظل تحمله حتى موتها.

أبدى أركاديو بادرة كرم نادرة، حين أعلن، في بلاغٍ، الحداد الرسمي على موت بيترو كريسبي، وقد فسرت أورسولا ذلك على أنه عودة الخروف الضال. ولكنها أخطأت التقدير. لأنها لم تفقد أركاديو يوم ارتدى البزة العسكرية، وإنما منذ الأزل. كانت تظن أنها ربته كابن لها، مثلما ربت ريبيكا، دون امتيازات ولا تمييز. ومع ذلك، فقد كان أركاديو طفلاً متوحداً ومذعوراً خلال جائحة الأرق، ووسط حمى أورسولا النفعية، وهذيانات خوسيه أركاديو بوينديا، وتكتم أوريليانو، والعداء القاتل بين آمارانتا وريبيكا. علّمه أوريليانو القراءة والكتابة، وهو يفكر في أشياء أخرى، مثلما كان سيفعل شخص غريب ذلك. وكان يعطيه ثيابه عندما لا تعود صالحة إلا لرميها، كي تكيفها فيسيتاثيون على مقاسه. كان أركاديو يعاني من أحذيته الكبيرة على قدميه، ومن بناطيله المرقعة، ومن مؤخرته التي كعجيزة امرأة. ولم يستطع التواصل قطّ مع أحد مثل تواصله مع فيسيتاثيون وكاتاوري بلغتهما. وكان ميلكيادس هو الوحيد الذي اهتم به حقاً، فكان يُسمعه نصوصه غير المفهومة، ويقدم له

توجيهات حول فن التصوير. ولم يكن بإمكان أحد أن يتصور كم بكاه خفية، وبأي جهود يائسة حاول بعثه من موته، بدراسته لأوراقه دون طائل. لكن المدرسة، حيث صار موضع اهتمام واحترام، وبعد ذلك السلطة، ببلاغاتها القاطعة وزيها المجيد، حرراه من مرارة قديمة. وفي إحدى الليالي، تجرأ أحدهم في حانوت كاتارينو، على القول له: «أنت لا تستحق الكنية التي تحملها.» وعلى عكس ما كان ينتظره الجميع، لم يأمر أركاديو بإعدامه، بل قال:

- بكل فخر، أنا لست من آل بوينديا.

من كانوا يعرفون سرّ بنوته، ظنوا من جوابه أنه مطلع على السرّ أيضاً، ولكنه لم يعرف ذلك قط في الحقيقة. فبيلار تيرنيرا، أمه، التي جعلت دمه يفور في حجرة التصوير، كانت بالنسبة إليه هاجساً لا يقاوم، استحوذت على عقله، مثلما كانت أولاً بالنسبة إلى خوسيه أركاديو، ثم أوريليانو بعد ذلك. فعلى الرغم من أنها فقدت فتنتها وبريق ضحكتها، إلا أنه كان يبحث عنها ويجدها في رائحة الدخان التي تخلّفها وراءها. وقبل الحرب بقليل، تأخرت في ظهيرة أحد الأيام بالمجيء إلى المدرسة، لأخذ ابنها الصغير، وكان أركاديو ينتظرها في الغرفة التي اعتاد أن ينام القيلولة فيها، والتي حوّلها إلى سجن في ما بعد. وبينما كان الطفل يلعب في الباحة، انتظر هو في أرجوحة النوم، مرتجفاً من اللهفة، وعارفاً أن بيلار تيرنيرا سوف تمر من هناك. وجاءت. فأمسكها أركاديو من رسغها، وحاول أن يقلبها على الأرجوحة. قالت بيلار تيرنيرا مروعة: «لا أستطيع. لا أستطيع. لا يمكنك أن تتصور مدى رغبتي في إرضائك، ولكن الله شاهد على أنني لا أستطيع.» أمسكها

أركاديو من خصرها بقوته الرهيبة الموروثة، وأحس أن العالم ينمحي لدى لمس بشرتها. «لا تتظاهري بالقداسة»، قال لها، ثم أضاف:«الجميع يعرفون، في نهاية المطاف، أنك عاهرة.» تعالت بيلار على القرف الذي يوحي به قدرها البائس. ودمدمت:

- سينتبه الصغار للأمر. من الأفضل أن تُبقي الباب غير موصد هذه الليلة.

انتظرها أركاديو تلك الليلة وهو يرتجف من الحمى في أرجوحة النوم. انتظر دون أن يغفو، مصغياً إلى الجداجد الهائجة في فجر بلا نهاية، والموعد الدقيق للكروانات، وقناعته تزداد بأنها قد خدعته. وفجأة، عندما بدأت اللهفة بالتحول إلى غضب، فُتح الباب. بعد شهور قليلة من ذلك، وأمام فصيلة الإعدام، سيستعيد أركاديو وقع الخطى الضائعة في قاعة الدرس، والاصطدام بمقاعد الصف، وسيستعيد أخيراً، عري جسدٍ في ظلمة الحجرة، وخفق الهواء الذي يضخه قلب غير قلبه. مدّ يده ووجد يدا أخرى، في واحد من أصابعها خاتمان، على وشك أن تغرق في الظلام. أحس بتفرعات عروقها، ونبض محنتها، وأحس براحة اليد الرطبة، وبخط الحياة فيها مقطوعاً، بمخلب الموت، عند قاعدة الإبهام. عندئذ أدرك أنها ليست المرأة التي كان ينتظرها، لأنها لا تعبق برائحة الدخان، وإنما برائحة زيت شعر من الزهر، ولها ثديان منتفخان ينتهيان بحلمتي رجل، وفرج متحجر ومدور مثل ثمرة جوز، ورقة مشوشة بانعدام خبرة متأججة. كانت عذراء، ولها اسم غريب: صوفيا قديسة الرحمة. دفعت لها بيلار تيرنيرا خمسين بيزو، هي نصف مدخرات حياتها، كي تفعل ما تفعله. كان أركاديو قد رآها مرات عديدة من قبل، تلبي الطلبات في دكان

والديها، ولكنه لم يمعن النظر إليها قط، لأنها تمتلك ميزة الظهور كأنها غير موجودة بالكامل، إلا في اللحظة المناسبة. لكنها، منذ ذلك اليوم، صارت تتقوقع، مثل هرٍ، في دفء إبطه. فقد صارت تأتي إلى المدرسة ساعة القيلولة، بموافقة أبويها اللذين دفعت لهما بيلار تيرنيرا النصف الآخر من مدخراتها. وفيما بعد، عندما طردتهما القوات الحكومية من المدرسة، صارا يمارسان الحب، بين صفائح السمن وأكياس الذرة، في الحجرة الخلفية من الدكان. وفي الفترة التي عُيّن فيها أركاديو قائداً مدنياً وعسكرياً للقرية، أنجبا ابنة.

القريبان الوحيدان اللذان علما بالأمر، هما خوسيه أركاديو وريبيكا، وكان أركاديو يحافظ، آنذاك، على علاقات حميمة معهما، تستند إلى القرابة بقدر ما تستند إلى التواطؤ. كان خوسيه أركاديو قد استكان لنير الزواج. وكانت صلابة طبع ريبيكا، وشراهة بطنها، وطموحها العنيد، قد امتصت طاقة الزوج الخارقة، فتحول من كسول وزير نساء إلى حيوان شغل هائل. كان لهما بيت نظيف مرتب، تشرعه ريبيكا على مصراعيه عند الفجر، فتدخل ريح القبور من النوافذ، وتخرج من الأبواب المطلة على الفناء، مخلفة الجدران مبيضة، والأثاث مدبوغاً بملح بارود الموتى. وكان جوعها إلى التراب، وطقطقة عظام أبويها، ونفاد صبر دمها حيال سلبية بيترو كريسبي، قد آلت كلها إلى مستودع مهملات الذاكرة. كانت تقضي النهار وهي تطرز إلى جوار النافذة، غير أبهة بهموم الحرب، إلى أن تبدأ الأواني الخزفية بالاهتزاز في الصوان، فتنهض كي تسخن الطعام، قبل وقت طويل من ظهور كلاب الصيد الضامرة، وبعدها يظهر المارد ذو الطماق والمهماز،

ببندقيته ذات الفوهتين، حاملاً في بعض المرات، غزالاً على كتفه، وفي كل المرات تقريباً، سبحة من الأرانب أو البط البري. في مساء أحد الأيام، في بداية سلطته، ذهب أركاديو لزيارتهما بصورة مفاجئة. ولم يكونا قد رأياه منذ أن غادرا البيت، ولكنه أبدى نحوهما الكثير من المودة والألفة، فدعياه إلى مقاسمتهما الطعام.

لم يكشف أركاديو عن سبب زيارته إلا وهم يتناولون القهوة: كان قد تلقى شكوى ضد خوسيه أركاديو. يقال إنه بدأ بحراثة فناء بيته، ثم واصل الحراثة في الأرض المجاورة، مقوضاً الأسيجة، وهادماً الأكواخ بثيرانه، إلى أن استولى بالقوة على أفضل العقارات المجاورة. أما الفلاحون الذين لم يسلبهم أرضهم، لأنها لا تهمه، ففرض عليهم ضريبة يجبيها منهم كل سبت، ومعه كلاب الصيد والبندقية ذات الفوهتين. لم ينكر خوسية أركاديو ذلك. وكان يؤكد حقه بالزعم أن الأرضي المغتصبة هي التي وزعها خوسيه أركاديو بويندیا عند تأسيس القرية، ويعتقد أنه من الممكن إثبات أن أباه كان مجنوناً منذ ذلك الحين، لأنه تصرف بأملاك هي، في الحقيقة، للعائلة. لقد كانت حجة لا لزوم لها، لأن أركاديو لم يأته لإقرار العدالة. بل عرض، ببساطة، إنشاء مكتب لتسجيل الملكيات، كي يتمكن خوسيه أركاديو من إضفاء الشرعية على وثائق ملكية الأراضي المغتصبة، شريطة أن يترك للحكومة المحلية أمر جباية الضرائب. وقد اتفقا على ذلك. وبعد سنوات، عندما تفحص الكولونيل أوريليانو بويندیا وثائق الملكية، اكتشف أن كل الأراضي التي يحيط بها البصر، ابتداء من الرابية التي يقوم عليها فناء بيته، حتى الأفق، مسجلة باسم أخيه، بما في ذلك المقبرة،

واكتشف أن أركاديو لم يستولِ، خلال حكمه الذي استمر أحد عشر شهراً، على أموال الضرائب وحسب، وإنما كذلك على الأموال التي يتقاضاها من الأهالي لقاء الحق بدفن موتاهم في أراضي خوسيه أركاديو.

تأخرت أورسولا عدة شهور في معرفة ما كان قد صار معروفاً لدى الجميع، لأن الناس أخفوا الأمر عنها، كيلا يزيدوا في آلامها. ولكن الشكوك بدأت تساورها. فقد اعترفت لزوجها باعتزاز مصطنع، وهي تحاول أن تدس في فمه ملعقة من شراب القرع: «أركاديو يبني لنفسه بيتاً». ومع ذلك، فقد تنهدت بصورة لا إرادية، وأضافت: «لا أدري لماذا أشم رائحة كريهة من كل هذا». وعندما علمت، بعد ذلك، أن أركاديو لم ينته من بناء البيت وحسب، وإنما أوصى كذلك على أثاث فييني، تأكدت شكوكها بأنه يستولي على الأموال العامة. «أنت عار على كنيتنا»، هكذا صرخت في أحد أيام الآحاد، بعد الخروج من القداس، حين رأته في البيت الجديد، يلعب الورق مع ضباطه. لم يولها أركاديو أي اهتمام. وعندئذ فقط، علمت أورسولا أن له بنتاً عمرها ستة شهور، وأن صوفيا قديسة الرحمة التي يعيش معها دون زواج، حبلى مرة أخرى. قررت أن تكتب إلى الكولونيل أوريليانو بوينديا، حيثما كان، لتطلعه على الوضع. لكن الأحداث التي تسارعت في تلك الأيام، لم تحل دون تنفيذها ما عزمت عليه فقط، وإنما جعلتها تندم كذلك، لأنها فكرت بذلك. فالحرب التي كانت حتى ذلك الحين مجرد كلمة للدلالة على وضع غامض وبعيد، تجسدت في واقع مأساوي. ففي أواخر شباط، وصلت إلى ماكوندو امرأة عجوز ذات مظهر رمادي، تمتطي حماراً محملاً بالمكانس. كانت

تبدو مسالمة إلى حدّ أن دوريات الحراسة سمحت لها بالمرور دون أسئلة، كواحدة من الباعة الذين يأتون من قرى منطقة المستنقعات. ذهبت مباشرة إلى مقر القيادة. واستقبلها أركاديو في المكان الذي كان قاعة دروس في السابق، وتحول الآن إلى نوع من معسكرات المؤخرة، بأراجيح نوم مطوية ومعلقة بحلقات مثبتة في الجدران، وأمتعة مكومة في الأركان، وبنادق وغدارات، وحتى بواريد صيد مبعثرة على الأرض. اتخذت العجوز وضعية الاستعداد في تحية عسكرية قبل أن تفصح عن هويتها:

- أنا الكولونيل غريغوريو ستيفنسون.

كان يحمل أخباراً سيئة. فآخر بؤر المقاومة الليبرالية، على حدّ قوله، على وشك أن تباد. والكولونيل أوريليانو بوينديا الذي خلفه يقاتل متقهقراً في جهات ريوهاتشا، كلفه بمهمة التحدث إلى أركاديو. إن عليه أن يسلم الموقع دون مقاومة، وأن يشترط مقابل ذلك الحصول على كلمة شرف، باحترام حياة الليبراليين وممتلكاتهم. تفحص أركاديو، بنظرة مشفقة، ذلك الرسول الغريب الذي يمكن الخلط بينه وبين جدة هاربة، وقال:

- أنت تحمل رسالة خطية بالطبع.

فأجاب المبعوث:

- بالطبع لا. ومن السهل تفهم عدم حمل أي شيء يورطنا في مثل هذه الظروف.

وبينما هو يتكلم، أخرج من حمالة صدره سمكة ذهبية، وضعها على الطاولة، وقال: «أظن أن هذه تكفي». أدرك أركاديو أنها، بالفعل، واحدة من الأسماك التي يصنعها الكولونيل أوريليانو بوينديا. ولكن، يمكن أن يكون أحدهم قد اشتراها قبل الحرب، أو

سرقها، وليس لها بالتالي أي قيمة كتصريح مرور. وبلغ الأمر بالرسول حدّ البوح بسر عسكري، كي يثبت هويته. فكشف عن أنه ذاهب بمهمة إلى كوراساو، حيث يأمل بتجنيد منفيين من كل أنحاء الكاريبي، والحصول على أسلحة وأعتدة كافية للقيام بمحاولة إنزال بحري في أواخر السنة. ولثقة الكولونيل أوريليانو بوينديا بهذه الخطة، فإنه لا يؤيد تقديم تضحيات غير مجدية الآن. لكن أركاديو ظل على تصلبه. أمر بسجن الرسول، إلى أن يتم التحقق من هويته، وقرر الدفاع عن الموقع حتى الموت.

لم ينتظر لوقت طويل. فالأخبار عن إخفاق الليبراليين راحت تتأكد، وتصبح أكثر دقة كل يوم. وفي أواخر آذار، في فجر يوم هطلت فيه أمطار مبكرة، تحلل بصورة مفاجئة، الهدوء المتوتر الذي ساد في الأسابيع السابقة، بصوت بوق يائس، تلته قذيفة مدفع قوضت برج المعبد. والحقيقة أن مشيئة أركاديو بالمقاومة، كانت جنوناً. لم يكن لديه أكثر من خمسين رجلاً سيئي التسليح، وذخيرة لا تزيد عن عشرين طلقة لكل واحد منهم. لكن كان بينهم تلاميذه القدامى، ممن استثارت حماستهم الشعارات الرنانة، وكانوا مصممين على التضحية بجلودهم في سبيل قضية خاسرة. ووسط جلبة الأحذية العسكرية، والأوامر المتناقضة، وقذائف المدافع التي ترج الأرض، والرصاص الطائش، ودوي البوق الذي لا مغزى له، تمكن الكولونيل ستيفنسون المزعوم من التحدث إلى أركاديو: «جنبني عار الموت في السجن وأنا بأسمال المرأة هذه. فإذا كان لا بد من الموت، فلأمت وأنا أقاتل». أمر أركاديو بإعطائه سلاحاً وعشرين طلقة، وتركه مع خمسة رجال للدفاع عن الثكنة، بينما سيذهب هو وقيادة أركانه للوقوف على رأس المقاومة. ولكنه

لم يتمكن من الوصول إلى طريق منطقة المستنقعات. فقد كانت المتاريس قد تهاوت، وكان المدافعون يقاتلون مكشوفين في الشوارع، إلى أن نفدت منهم ذخيرة البنادق أولاً، ثم بمسدساتهم بعد ذلك، في مواجهة البنادق، وأخيراً بالالتحام جسداً ضد جسد. وحيال الهزيمة الوشيكة، اندفعت بعض النساء إلى الشارع، مسلحات بالعصي وسكاكين المطبخ. وفي تلك الفوضى، التقى أركاديو بآمارانتا التي خرجت للبحث عنه كمجنونة، وهي بقميص النوم، حاملة مسدسين قديمين كانا لخوسيه أركاديو بوينديا. أعطى بندقيته إلى ضابط فقد سلاحه في المعمعة، وانسل مع آمارانتا إلى شارع مجاور ليوصلها إلى البيت. كانت أورسولا تنتظر عند الباب، غير عابئة بالقذائف التي فتحت فجوة في واجهة البيت المجاور. كان المطر قد توقف، لكن الشوارع زلقة وطرية مثل صابون ذائب، وكان لا بد من التكهن في تقدير المسافات في الظلام. ترك أركاديو آمارانتا مع أورسولا، وحاول مواجهة جنديين أطلقا رشقة رصاص طائشة من الناصية. لكن المسدسين المحفوظين منذ سنوات طويلة في إحدى الخزائن، لم يعملا. حمت أورسولا أركاديو بجسدها، وحاولت سحبه إلى البيت، صارخة:

- تعال، بالله عليك. كفى جنوناً!

كان الجنديان يصوبان باتجاهها، وصاح أحدهما:

- اتركي هذا الرجل يا سيدتي، وإلا لن نكون مسؤولين.

دفع أركاديو أورسولا نحو البيت، واستسلم. وبعد قليل من ذلك، توقف إطلاق النار، وبدأ قرع النواقيس. لقد قُضي على المقاومة خلال أقل من نصف ساعة. لم ينجُ رجل واحد من رجال أركاديو من الهجوم، لكنهم قبل أن يموتوا، جعلوا ثلاثمئة جندي

يسبقونهم إلى الموت. كانت الثكنة هي المعقل الأخير. وقبل الهجوم عليها، أطلق الكولونيل المزعوم غريغوريو ستيفنسون سراح السجناء، وأمر رجاله بالخروج إلى القتال في الشارع. سرعة حركته الاستثنائية، والتصويب الدقيق الذي أطلق به العشرين رصاصة من عدة نوافذ، أعطت انطباعاً بأن الثكنة محروسة جيداً، فدمرها المهاجمون بقذائف المدافع. وقد ذهل النقيب الذي قاد العملية، لأن أنقاض المبنى كانت مقفرة، إلا من رجل واحد، ميت، وليس عليه سوى سروال، وبندقية فارغة من الذخيرة، تمسك بها ذراع انفصلت عن الجسد من أصلها. وكان على رأسه شعر امرأة كثيف، مثبت عند الرقبة بمشبك، وحول عنقه كتفية عليها سمكة ذهبية. وحين قلب النقيب الجثة بمقدمة جزمته كي يرى الوجه، سيطر عليه الارتباك، وصاح: «يا للبراز». فاقترب ضباط آخرون. وقال لهم النقيب:

- انظروا أين ظهر هذا الرجل. إنه غريغوريو ستيفنسون.

عند الفجر، بعد عرضه على مجلس حربي، تم إعدام أركاديو أمام جدار المقبرة. وخلال الساعتين الأخيرتين من حياته، لم يستطع أن يفهم سبب اختفاء الخوف الذي عذبه منذ طفولته. فقد استمع بلا مبالاة، وحتى دون اهتمام بإثبات شجاعته حديثة العهد، إلى لائحة الاتهامات الطويلة. كان يفكر بأورسولا التي لا بد أن تكون في تلك الساعة، تحت شجرة الكستناء، تتناول القهوة مع خوسيه أركاديو بوينديا. وكان يفكر بابنته ذات الثمانية شهور، وما زالت دون اسم، وبابنه الذي سيولد في آب. وكان يفكر بصوفيا قديسة الرحمة التي تركها في الليلة الفائتة، تملّح غزالاً من أجل غداء يوم السبت، وحنَّ إلى شعرها المتهدل على كتفيها،

وإلى رموشها التي تبدو اصطناعية. وكان يفكر بأناسه دون أي نزوع عاطفي، وفي جردة حساب صارمة مع الحياة، بدأ يدرك كم يحب، في الواقع، الأشخاص الذين كرههم أكثر من سواهم. بدأ رئيس المجلس الحربي خطابه النهائي، قبل أن ينتبه أركاديو إلى أن ساعتين قد انقضتا. وكان الرئيس يقول: «وحتى لو كانت التهم المثبتة ليست كافية، فإن التهور غير المسؤول والإجرامي الذي دفع به المتهم مرؤوسيه إلى موت لا جدوى منه، يكفي لأن يستحق العقوبة القصوى.» في المدرسة المهدمة، حيث أحس أول مرة بالأمان الذي توفره السلطة، وعلى بعد أمتار قليلة من الغرفة التي عرف فيها قلق الحب، تبين لأركاديو كم هي شكليات الموت مضحكة. الحقيقة أنه لم يكن يهتم بالموت، وإنما بالحياة. ولهذا فإن الإحساس الذي راوده عندما نطقوا بالحكم، لم يكن إحساساً بالخوف، وإنما بالحنين. ولم يتكلم إلى أن سألوه ما هي رغبته الأخيرة. فأجاب بصوت واضح الرنة:

- قولوا لزوجتي أن تطلق على الطفلة اسم اورسولا. - ثم صمت قليلاً، وقال مؤكداً:- أورسولا، مثل الجدة. قولوا لها أيضاً أن تدعو مولودها الجديد، إذا ولد ذكراً، خوسيه أركاديو، ولكن ليس تكريماً لعمه، وإنما لجده.

قبل أن يقتادوه إلى جدار الإعدام، حاول الأب نيكانور أن يقدم له المساعدة الروحية. فقال أركاديو: «ليس لدي ما أندم عليه». ووضع نفسه تحت تصرف فصيلة الإعدام، بعد أن شرب فنجاناً من القهوة الثقيلة. كان لقائد فصيلة الإعدام المختص بالإعدامات السريعة، اسم أكبر من أن يكون مصادفة: النقيب روكي كارنيثيرو (روكي السفاح). وفي الطريق إلى المقبرة، تحت المطر اللجوج، رأى

أركاديو أن يوم أربعاء مشرقاً يطل من الأفق. وراح الحنين ينقشع مع انقشاع الضباب، ليحل محله فضول هائل. وعندما طلبوا منه الوقوف وظهره إلى الجدار، رأى أركاديو، عندئذ فقط، ريبيكا بشعرها المبتل، وثوب مزركش بأزهار وردية، وهي تشرع نافذة بيتها على مصراعيها. بذل جهداً لجعلها تتعرف عليه. وبالفعل، تطلعت ريبيكا مصادفة باتجاه الجدار، ووقفت مشلولة من الذهول، ولم تكد تفعل أكثر من رفع يدها في إشارة وداع لأركاديو. ردّ عليها أركاديو بالطريقة نفسها. في هذه اللحظة، صُوبت إليه أفواه البنادق المدخنة، وسمع ترتيلات ميلكيادس المغناة، حرفاً حرفاً، وسمع وقع الخطى الضائعة لصوفيا قديسة الرحمة، وهي عذراء، في غرفة الدرس، وأحس في أنفه بصلابة الجليد نفسها التي لفتت انتباهه في منخري جثة ريميديوس، وتمكن من التفكير: «آه، كراخو! نسيت أن أقول لهم إن كان الوليد بنتاً، فليسموها ريميديوس.» وعندئذ، عاد إلى الإحساس بكل الخوف الذي عذبه طوال حياته، متجمعاً في ضربة مخلب ممزقة. أصدر النقيب الأمر بإطلاق النار. ووجد أركاديو الوقت ليدفع صدره، ويرفع رأسه، دون أن يدري من أين يتدفق السائل المتقد الذي يحرق فخذيه. صاح:

- قوادون! يحيا الحزب الليبرالي!

في شهر أيار انتهت الحرب. وقبل أسبوعين من إعلان الحكومة رسمياً، في بيان مدوٍ، عن تعهدها بعقوبات متساهلة لمدبري الثورة، وقع الكولونيل أوريليانو بوينديا في الأسر، عندما كان على وشك بلوغ الحدود الغربية، متنكراً بهيئة مشعوذ من السكان الأصليين. كان أربعة عشر رجلاً، من الواحد والعشرين الذين انطلقوا معه إلى الحرب، قد قُتلوا في ميدان المعركة، وأصيب ستة منهم بجراح، ولم يبق بصحبته سوى واحد منهم عند الهزيمة النهائية: العقيد خيرينيلدو ماركيز. وقد أذيع خبر اعتقاله، في ماكوندو، ببلاغ استثنائي. «إنه حي»، أخبرت أورسولا زوجها بذلك، وأضافت: «فلنتوسل إلى الرب أن يعامله أعداؤه برأفة.» وبعد ثلاثة أيام من البكاء، وبينما هي تخفق، عصراً، حلوى الحليب في المطبخ، سمعت بوضوح صوت ابنها قريباً جداً من أذنها. «إنه أوريليانو»، صاحت وهي تهرول باتجاه شجرة الكستناء، لتنقل الخبر إلى زوجها. «لا أدري كيف حدثت المعجزة. لكنه حي، وسنراه قريباً جداً.» واعتبرت ذلك واقعاً مؤكداً. أمرت بتنظيف أرضية البيت، وتبديل أماكن الأثاث. وبعد أسبوع من ذلك، انتشرت إشاعة لا يعرف أحد أصلها، ولا يمكن أن يكون لها سند في البلاغ الحكومي، أكدت النبوءة بصورة دراماتيكية. فقد حُكم على الكولونيل أوريليانو بوينديا بالموت، وسيجري تنفيذ الحكم في

ماكوندو، ليكون عبرة للأهالي. وفي يوم اثنين، الساعة العاشرة وعشرين دقيقة صباحاً، كانت آمارانتا تُلبس أوريليانو خوسيه ملابسه، عندما سمعت جلبة بعيدة، وصوت بوق، قبل ثانية واحدة من اندفاع أورسولا إلى الغرفة صارخة: «لقد جاؤوا به». كان الجنود يبذلون الجهد، بأعقاب البنادق، للسيطرة على الحشود المتدفقة. هرعت أورسولا وآمارانتا إلى ناصية الشارع، تشقان طريقهما بالمناكب وسط الزحام، وعندئذ رأيتاه. كان يبدو أشبه بشحاذ. ثيابه ممزقة، وشعر رأسه وذقنه مشعث. وكان حافياً. يمشي دون إحساس بالتراب المتوقد. وكانت يداه مقيدتين وراء ظهره بحبل، يثبته إلى رأس مطيته ضابطٌ على حصان. وإلى جانبه، بهيئة رثة أيضاً، كانوا يقتادون العقيد خيرينيلدو ماركيز. لم يكونا حزينين. بل كانا يبدوان أقرب إلى الذهول من الحشود التي تصرخ بالجنود، مطلقة كل أنواع السباب.

- بني! صاحت أورسولا في وسط الضجيج، ووجهت لطمة إلى الجندي الذي حاول وقفها.

جمح حصان الضابط. وعندئذ توقف العقيد أوريليانو بوينديا، مرتجفاً، وتفادى ذراعي أمه، مصوباً إلى عينيها نظرة قاسية:

- اذهبي إلى البيت يا أماه - قال - واطلبي إذناً من السلطات، وتعالي لرؤيتي في السجن.

ونظر إلى آمارانتا التي ظلت مترددة، على بعد خطوتين، وراء أورسولا. وابتسم لها وهو يسألها: «ماذا حدث ليدك؟». رفعت آمارانتا يدها ذات الضماد الأسود، وقالت: «إنه حرق»، وأبعدت أورسولا جانباً كي لا تصدمها الخيول. انطلقت القوة العسكرية. وأحاطت وحدة حرس خاصة بالسجينين، واقتادتهما خبباً إلى

الثكنة.

عند الغروب، زارت أورسولا الكولونيل أوريليانو بويندیا في السجن. كانت قد حاولت الحصول على إذن من خلال دون أبولينار موسكوتي، لكنه كان قد فقد كل سلطاته بوجود سلطة العسكريين المطلقة. وكان الأب نيكانور خائر القوى بسبب حمى كبدية. وكان أبوا العقيد خيرينيلدو ماركيز، وهو غير محكوم عليه بالإعدام، قد حاولا رؤيته، فطُردا بأعقاب البنادق. وحيال استحالة العثور على وسطاء، ولقناعتها بأن ابنها سوف يُعدم رمياً بالرصاص عند الفجر، وضعت أورسولا الأشياء التي أرادت حملها إليه في صرة، وذهبت وحدها إلى الثكنة.

- أنا أم الكولونيل أوريليانو بويندیا - أعلنت.

قطع عليها الحراس الطريق. فحذرتهم أورسولا: «سوف أدخل على كل حال. فإذا كانت لديكم أوامر بإطلاق النار، فلتبدؤوا فوراً.» أزاحت أحدهم من طريقها بدفعه جانباً، ودخلت إلى قاعة الدرس السابقة، حيث كانت جماعة من الجنود المتعرين، يشحمون أسلحتهم. كان هناك ضابط متورد الوجه، يرتدي زي الميدان، ويضع نظارة سميكة جداً، ويقوم بحركات احتفالية، أومأ مشيراً إلى الحراس بأن ينسحبوا.

- أنا أم العقيد أوريليانو بويندیا - كررت أورسولا.

فصحح لها الضابط بابتسامة لطيفة:

- تعنين أنك السيدة أم *السيد* أوريليانو بويندیا.

تعرفت أورسولا في طريقته المنتقاة في الكلام، على الإيقاع الفاتر لأهالي المرتفعات، الكاتشاكيين، فجارته:

- مثلما تريد يا *سيد*، على أن تسمح لي برؤيته.

كانت هناك أوامر عليا بعدم السماح بزيارة المحكوم عليهم بالإعدام، لكن الضابط تحمل مسؤولية السماح لها بمقابلة لخمس عشرة دقيقة. أرته أورسولا ما تحمله في الصرة: ثياب داخلية نظيفة، والجزمة التي انتعلها ابنها يوم زفافه، وحلوى الحليب التي احتفظت له بها منذ اليوم الذي هجست فيه بعودته. وجدت الكولونيل أوريليانو بويندیا في غرفة السجن، مستلقياً على سرير عسكري وهو يفتح ذراعيه، لأن إبطيه كانا ممتلئين بالدمامل. كانوا قد سمحوا له بحلاقة ذقنه. وكان شاربه الكثيف ذو الطرفين المعقوفين، يزيد في إبراز زوايا وجنتيه. وبدا لأورسولا أنه أكثر شحوباً مما كان عليه عند رحيله، وأطول قليلاً، وأشد توحداً من أي وقت مضى. كان على علم بأدق تفاصيل ما جرى في البيت: انتحار بيترو كريسبي، وتعسف أركاديو وإعدامه، وتبلد إحساس خوسيه أركاديو بويندیا تحت شجرة الكستناء. وكان يعرف أن آمارانتا قد كرست ترملها العذري لتربية أوريليانو خوسيه، وأن هذا الأخير بدأ يُظهر علائم النباهة، ويقرأ ويكتب، في الوقت الذي يتعلم فيه النطق والكلام. ومنذ اللحظة التي دخلت فيها إلى الحجرة، أحست أورسولا بأنها مأخوذة بنضوج ابنها، وبهالة السلطة التي تحيط به، وبريق التسلط الذي يشع من بشرته. وفوجئت بمدى اطلاعه. فقال مازحاً: «أنت تعرفين أنني متنبئ.» ثم أضاف بجد: «عندما جاؤوا بي، صباح اليوم، تولّد لدي انطباع بأنني قد عشت هذا كله من قبل.» والحقيقة أنه، بينما كانت الحشود تضج من حوله، ظل مستغرقاً في أفكاره، مذهولاً من الطريقة التي شاخت بها القرية خلال سنوات قليلة. كانت أوراق أشجار اللوز بالية. والبيوت المطلية باللون الأزرق، ثم بالأحمر،

والتي أعيد طلاؤها بالأزرق ثانية، قد انتهت إلى لون غير محدود.

- ما الذي كنت تنتظره؟ - تنهدت أورسولا، وأضافت:- إن الزمن يمضي.

- وهو كذلك - وافقها أوريليانو -، ولكن ليس إلى هذا الحد.

وهكذا، فإن المقابلة المنتظرة منذ وقت طويل، والتي أعدّ لها كل منهما الأسئلة، بل وتوقع الأجوبة عنها، تحولت إلى حديث يومي عادي.

عندما أعلن الحارس انتهاء المقابلة، سحب أوريليانو من تحت حصيرة الفراش، حزمة أوراق بللها العرق. كانت تلك هي أشعاره. الأشعار التي ألهمته إياها ريميديوس، وحملها معه حين رحل، وتلك التي كتبها في ما بعد، في أوقات الراحة العابرة في الحرب. قال لها: «عديني ألا يقرأها أحد. أشعلي الموقد بها هذه الليلة بالذات». ووعدته أورسولا بذلك، ونهضت لتقبله قبلة الوداع. وهمست:

- جئتك بمسدس.

تأكد الكولونيل أوريليانو بوينديا من أن الحارس غير مرئي. وردّ عليها بصوت خافت: «لن يفيدني في شيء. ولكن أعطيني إياه، فقد يفتشونك عند الخروج.» أخرجت أورسولا المسدس من صدارها، ودسه هو تحت حصيرة السرير العسكري. وأنهى بتفخيم هادئ: «والآن، لا تودعيني. لا تستعطفي أحداً، ولا تتذللي أمام أحد. تصرفي كما لو أنهم قد أعدموني منذ زمن بعيد.» عضت أورسولا على شفتيها كيلا تبكي. وقالت:

- ضع أحجاراً ساخنة على دماملك.

استدارت على عقبيها، وغادرت الغرفة. ظل الكولونيل

أوريليانو بوينديا واقفاً، ساهماً، إلى أن أُغلق الباب. فعاد عندئذ إلى الاستلقاء، فاتحاً ذراعيه على امتدادهما. منذ بداية مراهقته، عندما بدأ يعي قدرته على التنبؤ بالمستقبل، فكر في أن الموت سيعلن له عن مجيئه بعلامة محددة، ولكن تلك العلامة لم تأت. في إحدى المرات، دخلت امرأة باهرة الجمال إلى معسكره في توكورينكا، وطلبت من الحراس أن يسمحوا لها بمقابلته. تركوها تمرّ، لأنهم يعرفون تعصب بعض الأمهات في إرسال بناتهن إلى غرف نوم المحاربين البارزين، من أجل تحسين السلالة، على حدّ قولهن. كان الكولونيل أوريليانو بوينديا ينهي، في تلك الليلة، قصيدة عن الإنسان التائه تحت المطر، عندما دخلت الفتاة إلى الغرفة، فأدار لها ظهره ليضع الورقة في الدرج المقفل الذي يحفظ فيه أشعاره. وعندئذ أحس بالأمر. أمسك المسدس في الدرج، دون أن يلتفت، وقال:

- لا تطلقي النار، أرجوك.

وعندما استدار بمسدسه المهيأ، كانت الفتاة قد أنزلت مسدسها، ولم تعد تدري ما تفعل. لقد تمكن، بهذه الطريقة، من تجنب أربعة كمائن، من أحد عشر كميناً. ومع ذلك، فإن شخصاً لم يُلق القبض عليه قط، تسلل في إحدى الليالي إلى المعسكر الثوري فيماناوري، واغتال طعناً بخنجر، صديقه الحميم، العقيد ماغنيفيكو فيسبال الذي كان هو نفسه، قد تخلى له عن سريره، كي يتعرق من حمى ألمت به. ولم ينتبه هو نفسه إلى شيء، مع أنه كان ينام في أرجوحة نوم، على بعد أمتار قليلة، في الغرفة نفسها. لم تُجدِ الجهود التي بذلها لتنظيم نبوءاته بصورة منهجية. فقد كانت تجيئه فجأة، في ومضة صفاء خارقة، كيقين مطلق

وعابر، ولكنه لا يُدرَك. وكانت في بعض الأحيان طبيعية جداً، إلى حدّ لا ينتبه معه إلى أنها نبوءات، إلا بعد أن تتحقق. وفي أحيان أخرى تكون جازمة، ولكنها لا تتحقق. وكثيراً ما تكون مجرد ضربات تطير مبتذلة. ولكن، عندما حكموا عليه بالإعدام، وطلبوا منه أن يفصح عن رغبته الأخيرة، لم يجد أدنى صعوبة في تحديد النبوءة التي أوحت إليه بالجواب:

- أطلبُ أن يجري تنفيذ الحكم في ماكوندو.

استاء رئيس المحكمة، وقال له:

- لا تتذاكى يا بوينديا. إنها حيلة كي تكسب الوقت.

فقال الكولونيل:

- إذا لم تنفذوا طلبي، فهذا شأنكم. ولكنها رغبتي الأخيرة.

منذ ذلك الحين غادرته النبوءات. ويوم زارته أورسولا في السجن، توصل إلى نتيجة، بعد تفكير طويل، بأن الموت قد لا يعلن عن قدومه هذه المرة، لأنه غير مرتبط بالمصادفة، وإنما بإرادة جلاديه. أمضى الليل ساهراً، يعذبه ألم الدمامل. وقبل الفجر بقليل، سمع وقع خطوات في الردهة، فقال لنفسه: «هاهم قد جاؤوا»، وفكر، دون سبب، بخوسيه أركاديو بوينديا الذي كان، في تلك اللحظة، يفكر فيه أيضاً، تحت فجر شجرة الكستناء الكئيب. لم يشعر بخوف، ولا بحنين، وإنما بغضب أحشائي، حيال فكرة أن تلك الميتة المخادعة، لا تتيح له معرفة نهاية أشياء سيخلفها قبل أن تنتهي. فُتح الباب، ودخل الحارس حاملاً طاس قهوة. وفي اليوم التالي، في الساعة نفسها، كان لا يزال مثلما كان، حانقاً من ألم إبطيه، وحدث الشيء نفسه. وفي يوم الخميس، تقاسم حلوى الحليب مع الحراس، وارتدى ثيابه النظيفة التي صارت ضيقة

عليه، وانتعل الحذاء اللماع. وفي يوم الجمعة لم يكونوا قد أعدموه بعد.

والحقيقة أنهم ما كانوا يجرؤون على تنفيذ الحكم. فتمرد القرية جعل العسكريين يفكرون في أن إعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا ستكون له نتائج خطيرة، ليس في ماكوندو وحدها، وإنما في محيط منطقة المستنقعات بأسرها. وهكذا، استشاروا سلطات عاصمة المقاطعة بالأمر. وفي ليلة السبت، وبينما هم ينتظرون الردّ، ذهب النقيب روكي كارنيثيرو برفقة ضباط آخرين إلى حانوت كاتارينو. ولم تتجرأ إلا امرأة وحيدة، وبالضغط عليها بما يشبه التهديد، على أخذه إلى حجرتها. وقد اعترفت له: «إنهن لا يردن مضاجعة رجل يعرفن أنه سيموت. لا أحد يعرف كيف سيحدث ذلك، ولكن الجميع يقولون إن الضابط الذي سينفذ إعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا، وجنود فصيلة الإعدام كلهم، سيُقتلون واحداً بعد الآخر، دون مفر، عاجلاً أو آجلاً، حتى لو اختبؤوا في آخر الدنيا». ناقش النقيب روكي كارنيثيرو الأمر مع الضباط الآخرين، وناقشه هؤلاء مع رؤسائهم. وفي يوم الأحد، بالرغم من أن أحداً لم يكشف الأمر صراحة، وبالرغم من عدم وقوع أي حدث عسكري يعكر هدوء تلك الأيام المتوترة، كانت القرية بأسرها تعرف أن الضباط مستعدون لأن يتجنبوا، بكل أنواع الذرائع، تحملهم مسؤولية تنفيذ الحكم. وفي بريد يوم الاثنين، وصل الأمر الرسمي: يجب تنفيذ حكم الإعدام خلال أربع وعشرين ساعة. وفي تلك الليلة، وضع الضباط سبع قصاصات ورقية تحمل أسماءهم، في قبعة، وشاء قدر النقيب روكي كارنيثيرو القاسي أن تكون الورقة الرابحة من نصيبه. «ليس في

سوء طالعي ثغرة واحدة»، قال ذلك بمرارة عميقة، وأضاف: «ولدتُ ابن عاهرة، وسأموت ابن عاهرة.» في الساعة الخامسة، اختار عناصرَ فصيلة الإعدام بالقرعة، وصفَّ عناصرها في الباحة، وأيقظ المحكوم بجملة منذرة:

- هيا يا بويندیا. لقد حانت ساعتنا.

فردّ الكولونيل:

- الأمر هكذا إذاً. كنت أحلم بأن دماملي قد تفزرت.

كانت ريبيكا بويندیا تستيقظ في الثالثة فجراً، مذ علمت أن أوريليانو سيُعدم رمياً بالرصاص. وتظل في غرفة النوم المظلمة، ترصد من خلال النافذة المواربة، جدار المقبرة، بينما السرير الذي تجلس عليه يهتز من شخير خوسيه أركاديو. لقد انتظرت طوال الأسبوع، بالعناد المتكتم نفسه الذي كانت تنتظر به، في أزمنة أخرى، رسائل بيترو كريسبي. كان خوسيه أركاديو يقول لها: «لن يعدموه هنا. سيعدمونه في منتصف الليل، في الثكنة، كيلا يعرف أحد من هم الذين شكّلوا فصيلة الإعدام، وسوف يدفنونه هناك بالذات.» وواصلت ريبيكا الانتظار، وكانت تقول: «إنهم أغبياء إلى حدّ لن يتورعوا معه عن إعدامه هنا». وكانت واثقة من ذلك، لدرجة أنها تصورت مسبقاً الطريقة التي ستفتح بها الباب، كي تلوح له بيدها مودعة. وكان خوسيه أركاديو يلح: «لن يأتوا به عبر الشارع، برفقة ستة جنود مذعورين، وهم يعرفون أن الناس مستعدون لعمل أي شيء.» وغير مبالية بمنطق زوجها، واصلت ريبيكا المراقبة من النافذة. وكانت تقول له:

- سوف ترى كيف أنهم أغبياء.

ويوم الثلاثاء، في الساعة الخامسة صباحاً، كان خوسيه

أركاديو قد تناول القهوة، وأطلق الكلاب، عندما أغلقت ريبيكا النافذة، وتشبثت بحافة رأس السرير كيلا تسقط. وتنهدت قائلة: «لقد جاؤوا به. وكم هو جميل.» أطل خوسيه أركاديو من النافذة، ورآه مترجرجاً في ضياء الفجر، ببنطال كان له في شبابه. وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد وقف وظهره إلى الحائط، واضعاً يديه على خاصرتيه، لأن دمامل إبطيه الملتهبة تحول دون إنزاله ذراعيه. وكان يتمتم بصوت خافت: «كل معاناة أحدنا... كل تلك المعاناة، من أجل أن يأتي ستة مخنثين ليقتلوه دون أن يتمكن من عمل أي شيء»، وكان يردد ذلك بغضب شديد، يبدو أشبه بحمية الورع، فتأثر النقيب روكي كارنيثيرو، معتقداً أنه يصلي. وعندما صوبت فصيلة الإعدام بنادقها، كان الغضب قد تجسد في مادة لزجة ومرّة، خدرت لسانه وأجبرته على إغماض عينيه. عندئذ تلاشى بريق ألمنيوم الشروق، وعاد يرى نفسه طفلاً صغيراً، ببنطال قصير، ومنديل معقود حول عنقه، ورأى أباه في عصر يوم بديع، يقتاده إلى داخل الخيمة، ورأى الجليد. عندما سمع الصرخة، ظن أنها الأمر الأخير الصادر لفصيلة الإعدام. فتح عينيه بفضول مقشعر، منتظراً أن يجد نفسه في نهاية الطريق المتأجج الذي يخطه الرصاص، لكنه لم يرَ إلا النقيب روكي كارنيثيرو رافعاً ذراعيه، وخوسيه أركاديو يجتاز الشارع ببندقيته المرعبة والجاهزة لإطلاق النار.

- لا تطلق النار - قال النقيب لخوسيه أركاديو - إنك مبعوث من العناية الإلهية.

وهناك بدأت حرب أخرى. فقد ذهب النقيب روكي كارنيثيرو ورجاله الستة، مع الكولونيل أوريليانو بوينديا، كي يحرروا الجنرال

الثوري فيكتوريو ميدينا، المحكوم عليه بالموت في ريوهاتشا. وظنوا أنهم سيكسبون الوقت إذا ما اجتازوا سلسلة الجبال، عبر الطريق الذي سلكه خوسيه أركاديو بوينديا عند تأسيس ماكوندو، ولكنهم اقتنعوا، قبل انقضاء أسبوع، أن محاولتهم مستحيلة. فاضطروا إلى سلوك طريق القمم الجبلية الخطر، وليس معهم سوى ذخيرة فصيلة الإعدام. كانوا يخيمون قريباً من القرى، فيدخلها أحدهم متنكراً، في وضح النهار، وحاملاً في يده سمكة ذهبية صغيرة، فيقوم بالاتصال بالليبراليين الكامنين، فيخرجون في صباح اليوم التالي للصيد، ولا يعودون أبداً. وعندما أشرفوا على ريوهاتشا، من أحد منعرجات سلسلة الجبال، كان الجنرال فيكتوريو ميدينا قد أُعدم. فبادر رجال الكولونيل أوريليانو بوينديا إلى إعلانه قائداً للقوات الثورية على الساحل الكاريبي، برتبة جنرال. وقد وافق على تقبل المهمة، ولكنه رفض الترقية، وفرض على نفسه شرط عدم قبولها ما لم يقوضوا النظام المحافظ. وبعد انقضاء ثلاثة شهور، توصلوا إلى تسليح أكثر من ألف رجل، لكنهم أبيدوا. وتمكن المتبقون منهم على قيد الحياة من بلوغ الحدود الشرقية. والمرة التالية التي عُرفت فيها أخبارهم، كان إنزالهم في رأس فيلا، قادمين من أرخبيل الأنتيل، وصدور بيان حكومي جرى توزيعه برقياً، ونشره في كل أنحاء البلاد، في بلاغ مفعم بالبهجة، يعلن مقتل الكولونيل أوريليانو بوينديا. ولكن برقية أخرى، وُزعت بعد يومين، وزامنت سابقتها تقريباً، أعلنت اندلاع تمرد آخر في سهوب الجنوب. وهكذا بدأت أسطورة الكولونيل أوريليانو بوينديا المتواجد في كل مكان. أخبار متزامنة ومتناقضة تعلن عن انتصاره في بييّانويفا، وهزيمته في غواكامايال، والتهام الهنود له في

موتيلونيس، وموته في ضيعة من ضياع منطقة المستنقعات، وتمرده من جديد في أوروميتا. والقادة الليبراليون الذين كانوا يفاوضون، في تلك الأثناء، على المشاركة في البرلمان، اعتبروه مغامراً بلا تمثيل حزبي. وأنزلته الحكومة إلى مرتبة قاطع الطريق، وعرضت خمسة آلاف بيزو ثمناً لرأسه. وبعد ست عشرة هزيمة، خرج العقيد أوريليانو بويندا من منطقة غواخيرا، مع ألفين من السكان الأصليين جيدي التسليح؛ والحامية التي فوجئت بالهجوم وهي نائمة، غادرت ريوهاتشا. وهناك أقام مقر قيادته العامة، وأعلن الحرب الشاملة ضد النظام. وكان أول إشعار تلقاه من الحكومة، هو التهديد بإعدام العقيد خيرينيلدو ماركيز خلال ثمان وأربعين ساعة، إذا لم ينسحب مع قواته حتى الحدود الشرقية. وكان العقيد روكي كارنيشيرو الذي صار رئيس أركانه، هو من قدم إليه البرقية بإيماءة زكام، ولكن الكولونيل أوريليانو قرأها بسعادة غير متوقعة. وهتف قائلاً:

- يا للروعة!. لقد صار لدينا تلغراف في ماكوندو.

وكان جوابه على البرقية حاسماً. فهو يأمل، خلال ثلاثة شهور، بإقامة مركز قيادته العامة في ماكوندو. فإذا لم يجد، حينذاك، العقيد خيرينيلدو ماركيز هناك، فسوف يعدم، دون أية محاكمة، جميع الضباط الذين سيقعون أسرى لديه حتى ذلك الحين، بدءاً من الجنرالات. وسيُصدر أوامر لمرؤوسيه بأن يفعلوا الشيء نفسه، حتى انتهاء الحرب. وبعد ثلاثة شهور من ذلك، عندما دخل منتصراً إلى ماكوندو، كان أول عناق تلقاه على طريق منطقة المستنقعات، هو عناق العقيد خيرينيلدو ماركيز.

وجد البيت يغص بالأطفال. فقد أحضرت أورسولا إليه صوفيا

قديسة الرحمة وابنتها البكر، وتوأمين ولدا بعد خمسة شهور من إعدام أركاديو. وخلافاً لوصية المعدوم، عمَّدت الطفلة باسم ريميديوس، وتذرعت بالقول: «إنني واثقة من أن هذا هو ما أراد أركاديو قوله. لن ندعوها أورسولا، لأنها ستتعذب كثيراً بهذا الاسم.» وأسمت التوأمين: خوسيه أركاديو الثاني، وأوريليانو الثاني. وتولت آمارانتا مسؤولية تربية الجميع. وضعت مقاعد من الخشب في الصالة، وأقامت لهم حضانة أطفال، مع بعض أطفال الأسر المجاورة. وعندما رجع الكولونيل أوريليانو بويندیا، وسط دوي الألعاب النارية وقرع النواقيس، قدم له كورال أطفال تحية ترحيب في البيت. أما أوريليانو خوسيه، وكان طويل القامة مثل جده، ويرتدي بزة ضابط ثوري، فقدم له تحية عسكرية.

لم تكن الأخبار كلها طيبة. فبعد سنة من فرار الكولونيل أوريليانو بويندیا، انتقل خوسيه أركاديو وريبيكا للعيش في البيت الذي بناه أركاديو. لم يعلم أحد بتدخله لمنع عملية الإعدام. وفي البيت الجديد، القائم في أفضل ركن في الساحة، في ظل شجرة لوز تحظى بامتياز وجود ثلاثة أعشاش أبي الحناء فيها، له باب فسيح للزوار، وأربع نوافذ لدخول الضوء، أقاما منزلاً مضيافاً. وجددت صديقات ريبيكا القديمات، ومنهن أربع من الأخوات موسكوتي اللواتي بقين عازبات، جلسات التطريز التي انقطعت قبل سنوات، في ردهة أصص البيغونيا. وواصل خوسيه أركاديو الاستفادة من الأراضي التي اغتصبها، وقد اعترفت له الحكومة المحافظة بوثائق ملكيتها. وفي مساء كل يوم، كان يُرى عائداً على حصان، مع كلابه المتوحشة، وبندقيته ذات الفوهتين، وعنقود من الأرانب المعلقة على مطيته. وفي مساء يوم من أيلول، وبسبب

تهديد عاصفة قريبة، رجع إلى بيته أبكر من المعتاد. حيا ريبيكا في غرفة الطعام، وربط الكلاب في الفناء، وعلق الأرانب في المطبخ، كي يملحها في ما بعد، وذهب إلى غرفة النوم ليبدل ثيابه. وقد صرحت ريبيكا لاحقاً، بأنها ذهبت إلى الحمام، لدى دخول زوجها إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب على نفسها، ولم تنتبه إلى أي شيء. لقد كانت رواية يصعب تصديقها: إلا أنه لم تكن هناك رواية أخرى أقرب إلى المعقول، ولم يستطع أحد أن يتصور سبباً يدفع ريبيكا إلى قتل الرجل الذي أسعدها. وربما كان هذا هو السر الذي لم تتضح حقيقته في ماكوندو. فما إن أغلق خوسيه أركاديو باب غرفة النوم، حتى دوى صوت طلقة مسدس في البيت. وخرج خيط دم من تحت الباب، اجتاز الصالة، وخرج إلى الشارع، وواصل في مسار مستقيم على الأرصفة غير المتصلة، فنزل أدراجاً وصعد أطاريف، ومرّ عرضاً من شارع الأتراك، وانعطف عند ناصيةٍ إلى اليمين، وعند أخرى إلى اليسار، ثم دار في زاوية قائمة قبالة بيت آل بوينديا، ومر من تحت الباب المغلق، واجتاز غرفة الضيوف بمحاذاة الجدران، كيلا تتلوث السجاجيد، وواصل عبر الصالة الأخرى، مبتعداً في انحناءة واسعة، عن منضدة غرفة الطعام، وتقدم عبر ردهة البيغونيا، ومرَّ دون أن يُرى، تحت كرسي آمارانتا التي كانت تعطي أوريليانو خوسيه درساً في الحساب، ثم دخل مستودع الحبوب، وظهر في المطبخ، حيث كانت أورسولا تستعد لكسر ست وثلاثين بيضة من أجل الخبز.

- يا قديسة مريم الطاهرة! - صرخت أورسولا.

وتبعت خيط الدم في اتجاه معاكس، وفي بحثها عن أصله، اجتازت مستودع الحبوب، ومرّت من ردهة البيغونيا، حيث كان

أوريليانو خوسيه يغني: ثلاثة زائد ثلاثة تساوي ستة، ستة زائد ثلاثة تساوي تسعة، ثم اجتازت غرفة الطعام والصالتين، وواصلت في خط مستقيم عبر الشارع، ثم انحرفت إلى اليمين، وبعد ذلك إلى اليسار، حتى شارع الأتراك، دون أن تنتبه إلى أنها ما زالت تضع مريلة الفرن والخف البيتي، وخرجت إلى الساحة، واجتازت باب بيت لم تطأه من قبل قطٌّ، ودفعت باب غرفة النوم، وكادت تختنق برائحة البارود المحروق، ووجدت خوسيه أركاديو مطروحاً على بطنه على الأرض، فوق طماقه الذي كان قد خلعه للتو، ورأت طرف خيط الدم الذي توقف عن التدفق من أذنه اليمنى. لم يجدوا في جسمه أي جرح، ولم يتمكنوا من العثور على السلاح. كما لم يكن بالإمكان انتزاع رائحة البارود النفاذة من الجثة. غسلوها أولاً بالصابون والليفة ثلاث مرات، ثم فركوها بعد ذلك بالخل والملح، وبعدها بالرماد والليمون، وغطسوها أخيراً في برميل مملوء بمحلول صودا الغسيل، وتركوها فيه ست ساعات. وقد فركوها كثيراً، حتى بدأت نقوش الوشم تتحلل وتفقد لونها. وعندما فكروا في اللجوء إلى الوسيلة اليائسة، بتتبيلها بالفلفل والكمون وأوراق الغار، وتركها تغلي، يوماً كاملاً، على نار هادئة، كانت الجثة قد بدأت بالتفسخ، واضطروا إلى دفنها على عجل. حشروها بإحكام في تابوت خاص، طوله متران وثلاثون سنتمتراً، وعرضه متر وعشرة سنتمترات، مدعم من الداخل بصفائح حديدية، ومثبت ببراغي فولاذية كبيرة؛ ومع ذلك، كانت الرائحة تفوح في الشوارع التي مرت بها الجنازة. أما الأب نيكانور، وكان كبده متورماً ومتوتراً مثل طبل، فمنحه مباركته وهو في فراشه. وعلى الرغم من تعزيزهم القبر، في الشهور التالية، بجدران

متراكمة، وضعوا بينها رماداً كثيفاً، ونشارة خشب، وكلس حي، فقد ظلت المقبرة تعبق برائحة البارود لسنوات طويلة، إلى أن غطى مهندسو شركة الموز القبر بطبقة من الإسمنت المسلح. وفور إخراج الجثة من البيت، أغلقت ريبيكا أبواب بيتها، ودفنت نفسها حية، ملتفة بقشرة سميكة من الازدراء، لم تستطع أية محاولة أرضية أن تكسرها. خرجت إلى الشارع مرة واحدة فقط، بعد أن صارت عجوزاً، وبحذاء له لون الفضة العتيقة، وقبعة مزينة بأزهار دقيقة، في الفترة التي مرّ في القرية اليهودي التائه، وأثار حراً شديداً إلى حدّ صارت الطيور معه تكسر شبك النوافذ كي تموت في غرف النوم. والمرة الأخيرة التي رآها فيها الناس حية، كانت حين قتلت، بطلقة صائبة، لصاً حاول خلع باب بيتها. وباستثناء أرخينديا، خادمتها وكاتمة أسرارها، لم يعد أحد إلى الاتصال بها منذ ذلك الحين. وقد عُرف عنها في أحد الأوقات، أنها تكتب رسائل إلى الأسقف الذي تعتبره ابن عم لها، ولكن لم يُقل قطّ أنها تلقت أي جواب. ونسيتها القرية.

على الرغم من عودته المظفرة، لم يتحمس الكولونيل أوريليانو بوينديا للمظاهر. كانت القوات الحكومية تخلي المواقع دون مقاومة، فيثير ذلك في صفوف أنصار الليبراليين وهماً بالنصر، من غير الملائم أن يخيب أملهم؛ لكن الثوريين كانوا يعرفون الحقيقة، ولا سيما الكولونيل أوريليانو بوينديا. فمع أن خمسة آلاف رجل كانوا تحت أمرته آنذاك، وكان يسيطر على مقاطعتين ساحليتين، إلا أنه كان يشعر بأنه محاصر بالبحر، ومحشور في وضع سياسي بالغ التعقيد، حتى إنه عندما أمر بترميم برج الكنيسة الذي هدمته قذائف مدفعية الجيش، علّق الأب نيكانور

من فراش مرضه: «إنه الهذيان بعينه: فالمدافعون عن دين المسيح يهدمون المعبد، والماسونيون يأمرون بإصلاحه.» وفي بحثه عن مهرب للتنفيس، صار يقضي ساعات وساعات في مكتب التلغراف، يتداول الأمور برقياً مع قادة المواقع، وفي كل مرة يخرج بإحساس أشد رسوخاً، بأن الحرب قد وصلت إلى حالة من الركود. وعندما كانت تصل أخبار عن انتصارات جديدة لليبراليين، يجري الإعلان عنها ببلاغات متهللة، ولكنه كان يقيس، على الخرائط، مداها الحقيقي، ويدرك أن قواته آخذة بالتوغل في الأدغال، تدافع عن نفسها ضد الملاريا والبعوض، وتتقدم في اتجاه معاكس للواقع. «إننا نضيع الوقت»، كان يشكو أمام ضباطه، «وسنبقى نضيع الوقت ما دام قوادو الحزب يتسولون مقعداً في مجلس الشيوخ». في ليالي الأرق، وهو مستلق في أرجوحة نومه، المعلقة في الغرفة نفسها التي كان فيها وهو محكوم عليه بالإعدام، كان يستذكر صورة المحامين لابسي السواد، وهم يغادرون القصر الرئاسي في جليد الفجر، وياقات معاطفهم مرفوعة حتى الأذنين، يفركون أيديهم، ويتبادلون الوشوشات، ويلتجئون إلى كافيتريات الفجر الكئيبة، ليفكروا ويتأملوا في ما عناه الرئيس عندما قال نعم، وما عناه عندما قال لا، بل وليفترضوا ما كان يفكر فيه الرئيس عندما قال شيئاً مختلفاً تماماً. بينما هو قابع هنا، يهش البعوض، وسط جو تبلغ حرارته خمساً وثلاثين درجة، يشعر باقتراب الفجر المرهوب الذي سيضطر فيه إلى توجيه الأوامر لرجاله بأن يلقوا أنفسهم في البحر.

وفي ليلة قلق، كانت فيها بيلار تيرنيرا تغني في الفناء، مع

الجنود، طلب منها أن تقرأ له المستقبل في ورق اللعب. «حذار من فمك»، كان هذا هو ما استخلصته بيلار تيرنيرا، بعد أن بسطت الورق وجمعته ثلاث مرات. «لا أدري ما الذي يعنيه هذا، ولكن الإشارة صريحة: حذار من فمك». بعد يومين من ذلك، أعطى أحدهم للحاجب فنجان قهوة بلا سكر، وأعطاه هذا الحاجب إلى آخر، وهذا بدوره أعطاه إلى آخر، وانتقل الفنجان من يد إلى يد، حتى وصل إلى مكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا. لم يكن قد طلب قهوة، ولكن بما أن القهوة صارت أمامه، فقد تناولها الكولونيل. كانت فيها جرعة من جوز القيء تكفي لقتل حصان. عندما حملوه إلى بيته، كان جسمه متيبساً ومقوَّساً، وكان لسانه شبه مبتور بين أسنانه. جاهدت أورسولا لانتزاعه من الموت. فبعد أن نظفت معدته بالمقيئات، دثرته بأغطية دافئة، وقدمت له زلال البيض يومين متتاليين، إلى أن استعاد جسده المخرب حرارته الطبيعية. وفي اليوم الرابع، كان قد تجاوز الخطر. ورغماً عنه، بضغط من أورسولا والضباط، ظل في الفراش أسبوعاً. عندئذ فقط، عرف أنها لم تحرق أشعاره. وقد أوضحت أورسولا: «لم أشأ التسرع. ففي تلك الليلة، عندما هممت بإشعال الفرن، قلت لنفسي إنه من الأفضل الانتظار إلى أن يجيئوني بالجثة.» وفي ضبابية النقاهة، محاطاً بدمى ريميديوس المعفرة بالغبار، استذكر الكولونيل أوريليانو بوينديا، وهو يقرأ أشعاره، اللحظات الحاسمة من حياته. عاود الكتابة. وخلال ساعات طويلة، على هامش مفاجآت حرب بلا مستقبل، حسم في أشعار مقفاة، تجاربه على ضفة الموت. عندئذ صارت أفكاره في غاية الوضوح، حتى إنه استطاع تفحصها سوية ومقلوبة. وذات ليلة، سأل العقيد خيرينيلدو

ماركيز:

- قل لي يا صاحبي. لماذا تقاتل؟

فأجابه العقيد خيرينيلدو ماركيز:

- لأنه لا بد من ذلك يا صاحبي، من أجل الحزب الليبرالي العظيم.

وردّ عليه:

- محظوظ أنت، لأنك تعرف السبب. أما أنا، فلم أتبين إلا الآن، أنني أقاتل بدافع الزهو.

- هذا سيئ - قال العقيد خيرينيلدو ماركيز.

أمتع قلقه الكولونيل أوريليانو بويندیا، فقال له: «بالطبع. ولكن هذا أفضل على أي حال، من عدم معرفة الدافع إلى القتال.» ثم نظر إلى عينيه، وأضاف باسماً:

- أو القتال مثلك. في سبيل شيء لا يعني أي شيء لأحد.

لقد منعه زهوه من إجراء اتصالات مع الجماعات المسلحة في مناطق البلاد الداخلية، ما دام قادة الحزب لم يتراجعوا، علناً، عن تصريحهم بأنه قاطع طريق. وكان يعرف، مع ذلك، أنه ما إن يضع هذه الوساوس جانباً، حتى يتمكن من كسر حلقة الحرب المفرغة. لقد أتاحت له فترة النقاهة إعادة التفكير في الأمور. وعندئذ استطاع إقناع أورسولا بأن تعطيه بقية ميراثها المدفون، ومدخراتها الكبيرة؛ فعيّن العقيد خيرينيلدو ماركيز قائداً مدنياً وعسكرياً على ماكوندو، وذهب لإقامة اتصالات مع الجماعات المسلحة في الداخل.

لم يكن العقيد خيرينيلدو ماركيز هو أكثر رجال الكولونيل أوريليانو بويندیا ثقة وحسب، وإنما كانت أورسولا تستقبله كذلك،

كواحد من أفراد الأسرة. كان هشاً، خجولاً، ذا تربية حسنة طبيعية، ومع ذلك، كان أكثر كفاءة في الحرب منه في الحكم. وكان مستشاروه السياسيون يورطونه بسهولة في متاهات نظرية. لكنه تمكن من أن يفرض في ماكوندو جو السلام الريفي الذي يحلم الكولونيل أوريليانو بوينديا أن يموت فيه، عجوزاً يصنع أسماكاً ذهبية. ومع أنه كان يعيش في بيت أبويه، فقد كان يتناول الغداء عند أورسولا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. وقد علّم أوريليانو خوسيه استعمال الأسلحة النارية، وقدم له تدريباً عسكرياً مبكراً، وأخذه للعيش في الثكنة، بموافقة أورسولا، كي يصبح رجلاً. قبل ذلك بسنوات طويلة، وكان لا يزال طفلاً تقريباً، صرح خيرينيلدو ماركيز بحبه لآمارانتا. وكانت هي آنذاك غارقة بأوهام حبها، من جانب واحد، لبيترو كريسبي، فضحكت منه. انتظر خيرينيلدو ماركيز. وفي إحدى المرات، أرسل إلى آمارانتا قصاصة، من السجن، يرجوها فيها أن تطرز له الحروف الأولى من اسم أبيه على دزينة مناديل من قماش قطني رقيق. وأرسل لها النقود. بعد أسبوع من ذلك، حملت إليه آمارانتا، إلى السجن، دزينة المناديل المطرزة، ومعها النقود، وبقيا يتبادلان الحديث عن الماضي بضع ساعات. وقال لها خيرينيلدو ماركيز لدى الوداع: «عندما أخرج من هنا سأتزوجك». ضحكت أمارنتا، ولكنها واصلت التفكير فيه بينما هي تعلّم الأطفال القراءة، وتمنت لو أنها تستطيع أن تستعيد من أجله هواها الشبابي ببيترو كريسبي. وفي أيام السبت، وهو يوم الزيارة للسجناء، كانت تذهب إلى بيت أبوي خيرينيلدو ماركيز، وترافقهما إلى السجن. وفي أحد أيام السبت تلك، فوجئت أورسولا برؤيتها في المطبخ، تنتظر خروج أقراص

البسكويت من الفرن، لتختار أفضلها وتلفها في فوطة طرزتها لهذه المناسبة. فقالت لها:

- تزوجي منه. من الصعب العثور على رجل آخر مثل هذا.

تصنعت آمارانتا ردّ فعل منزعج، وردّت:

- لستُ بحاجة لأن أتصيد الرجال. وأنا أخذ هذا البسكويت لخيرينيلدو بدافع الشفقة، لأنهم سيعدمونه عاجلاً أم آجلاً.

قالت ذلك دون تفكير، ولكن الحكومة أعلنت في تلك الفترة تهديدها بإعدام العقيد خيريليندو ماركيز، ما لم تسلم القوات المتمردة مدينة ريوهاتشا. مُنعت الزيارات. وحبست آمارانتا نفسها لتبكي، يثقل عليها شعور بالذنب شبيه بذاك الذي عذبها عند موت ريميديوس، وكما لو أن كلماتها العابرة هي المسؤولة، للمرة الثانية، عن تلك الميتة. واستها أمها. وأكدت لها أن الكولونيل أوريليانو بوينديا سيفعل شيئاً لمنع إعدامه، ووعدتها بأن تتولى هي نفسها اجتذاب خيريليندو ماركيز، عندما تنتهي الحرب. ونفذت وعدها قبل الموعد المتوقع. عندما عاد خيرينيلدو ماركيز إلى البيت، متولياً منصبه الجديد كقائد مدني وعسكري، استقبلته كابن لها، وتفتق ذهنها عن توددات لطيفة كي تستبقيه، وتضرعت بكل ما في قلبها من حماسة، أن يتذكر نيته بالزواج من آمارانتا. ويبدو أن تضرعاتها قد أصابت الهدف. ففي أيام مجيء العقيد خيرينيلدو ماركيز لتناول الغداء في البيت، كان يبقى طوال بعد الظهر في ردهة البيغونيا، يلعب لعبة الدومينو الصينية مع آمارانتا. وكانت أورسولا تحمل إليهما القهوة بالحليب، والبسكويت، وتتولى الاهتمام بالأطفال كي لا يزعجونهما. والحقيقة أن آمارانتا كانت تبذل الجهد لتشعل في قلبها رماد عواطف فتوتها المنسية.

وبلهفة بلغت حدوداً لا تطاق، صارت تنتظر أيام مجيئه لتناول الغداء، وأمسيات لعب الدومينو الصيني، والوقت الذي يمضي طائراً وهي برفقة ذلك المحارب ذي الاسم النوستالجي، والذي ترتعش أصابعه رعشة غير مرئية، عندما يحرك أحجار الدومينو. لكنها يوم أكد العقيد خيريليندو ماركيز على رغبته في الزواج منها، صدته قائلة:

- لن أتزوج من أحد، وخاصة منك أنت. فأنت تحب أوريليانو إلى درجة أنك تريد الزوج مني، لأنك لا تستطيع الزواج منه.

كان العقيد خيرونيليدو ماركيز رجلاً صبوراً. فقال لها: «سأواصل الإلحاح. وعاجلاً أو آجلاً سأقنعك.» وواصل زيارة البيت. فكانت آمارانتا التي تحبس نفسها في غرفتها، تعض بكاء خفياً، وتدس أصابعها في أذنيها كيلا تسمع صوت الطامح بالزواج منها، وهو يروي لأورسولا آخر أخبار الحرب، ومع أنها كانت تموت لهفة لرؤيته، فقد كانت لديها القوة لكبح نفسها عن الخروج للقائه.

كان يتوفر للكولونيل أوريليانو بوينديا آنذاك، الوقت الكافي لإرسال تقرير مفصل إلى ماكوندو كل أسبوعين. لكنه كتب لأورسولا مرة واحدة فقط، بعد ثمانية شهور من رحيله. وقد حمل مبعوث خاص، إلى البيت، مغلفاً مختوماً بالشمع، وكانت فيه ورقة مكتوبة بخط الكولونيل المنمق: ***اعتنوا جيداً بأبي لأنه سوف يموت.*** أصاب الذعر أورسولا: «إذا كان أوريليانو يقول ذلك، فإن أوريليانو يعرف ما يقول». وطلبت المساعدة لحمل خوسيه أركاديو بوينديا إلى غرفته. لم يكن ثقيلاً مثلما كان على الدوام وحسب، وإنما أكسبته إقامته الطويلة تحت شجرة الكستناء كذلك، القدرة على

زيادة وزنه إرادياً، إلى حدّ لم يستطع معه سبعة رجال أن يحملوه، واضطروا إلى سحبه جراً إلى السرير. لقد عبق هواء الغرفة برائحة فطور طرية، وأزهار عود، وبأجواء عتيقة ومركزة، منذ بدأ يتنفسه العجوز العملاق، المدبوغ بالشمس والمطر. في اليوم التالي، لم يجدوه في سريره صباحاً. وبعد البحث عنه في كل الغرف، وجدته أورسولا تحت شجرة الكستناء من جديد. عندئذ ربطوه إلى السرير. ومع أن قوته كانت لا تزال على حالها، إلا أن خوسيه أركاديو بوينديا لم يكن في ظروف تسمح له بالصراع. فكل شيء صار عنده سيان. وإذا كان قد رجع إلى شجرة الكستناء، فإن ذلك لم يكن بإرادته، وإنما بحكم عادة من عادات الجسد. كانت أورسولا تعنى به، تقدم له الطعام، وتحمل إليه أخبار أوريليانو. والحقيقة أن الشخص الوحيد الذي كان بوسعه إقامة اتصال معه، ومنذ زمن بعيد، هو برودينثيو أغيلار. فبرودينثيو أغيلار الذي كان قد تحول إلى ما يشبه الرميم، بفعل عمق فناء الموت، كان يأتي مرتين كل يوم، ليتبادل الحديث معه. كانا يتحدثان عن الديوك. ويتعاهدان على إقامة مربى ديكة رائعة، ليس للاستمتاع بتحقيق انتصارات، لم يعودا بحاجة إليها، وإنما ليجدا ما يتسليان به في ضجر أيام آحاد الموت. كان برودينثيو أغيلار هو من ينظفه، ومن يطعمه، ويحمل إليه أخباراً رائعة عن شخص مجهول، يدعى أوريليانو، وهو كولونيل في الحرب. وعندما يكون خوسيه أركاديو بوينديا وحيداً، يسلي نفسه بحلم الحجرات اللانهائية. يحلم بأنه ينهض من السرير، يفتح الباب، وينتقل إلى حجرة مماثلة، فيها السرير نفسه ذي المسند الحديدي المشغول، والكرسي الهزاز نفسه، ولوحة السيدة عذراء الشفاء، على الجدار نفسه، في صدر

الحجرة. ثم ينتقل من هذه الحجرة إلى حجرة أخرى مماثلة تماماً، ثم إلى أخرى مماثلة، إلى أن يلمس بروديِنثيو أغيلار كتفه. عندئذ يعود من غرفة إلى أخرى، مستيقظاً القهقرى، ذارعاً الطريق المعكوس، ويجد بروديِنثيو أغيلار في غرفة الواقع. لكنه في ذات ليلة، بعد أسبوعين من حمله إلى السرير، لمس بروديِنثيو أغيلار كتفه في غرفة متوسطة، فظل فيها إلى الأبد، معتقداً أنها غرفة الواقع. وفي صباح اليوم التالي، كانت أورسولا تحمل إليه الفطور، عندما رأت رجلاً يتقدم من الردهة. كان قصيراً وممتلئاً، يرتدي بدلة من الجوخ الأسود، ويعتمر قبعة سوداء أيضاً، وكبيرة، غاطسة حتى عينيه الصامتتين. وفكرت أورسولا: «رباه، أكاد أقسم أنه ميلكيادس». ولكنه كان كاتاوري، شقيق فيسيتاثيون الذي هجر البيت هارباً من جائحة الأرق، ولم يُعرف عنه أي خبر منذ ذلك الحين. سألته فيسيتاثيون عن سبب عودته، فأجابها بلغته الوقورة:

- جئت لحضور دفن الملك.

عندئذ دخلوا إلى حجرة خوسيه أركاديو بوينديا، هزوه بكل قواهم، صرخوا في أذنه، وضعوا مرآة قبالة فتحتي أنفه، ولكنهم لم يستطيعوا إيقاظه. وبعد قليل، بينما كان النجار يأخذ قياساته لصنع النعش، رأوا من خلال النافذة هطول رذاذ أزهار صفراء صغيرة. تواصل هطولها على القرية طوال الليل، في عاصفة صامتة، فغطت الأسطح، وسدّت الأبواب، وخنقت البهائم النائمة في العراء. لقد سقطت من السماء أزهار كثيرة، فطلع الصباح على الشوارع وهي مغطاة بفراش كثيف منها، فاضطر الناس إلى إزالتها بالرفوش والمجارف من أجل أن تمر الجنازة.

كانت آمارانتا جالسة على الكرسي الهزاز، وفي حضنها التطريز الذي توقفت عن شغله، تتأمل أوريليانو خوسيه، بذقنه المطلية برغوة الصابون، وهو يشحذ موسى الحلاقة على السير الجلدي، كي يحلق ذقنه أول مرة. تسبب في جعل بثور حب الشباب تنزف، وجرح شفته العليا وهو يحاول ضبط شارب زغبي أشقر. وقد ظل وجهه، في نهاية الأمر، مثلما كان من قبل؛ غير أن العملية المجهدة، خلّفت لدى آمارانتا انطباعاً بأنها بدأت تشيخ في تلك اللحظة. وقالت:

- إنك تشبه أوريليانو عندما كان في سنك. لقد صرت رجلاً.

كان قد صار كذلك منذ زمن طويل، منذ يوم بعيد، ظنت فيه آمارانتا أنه ما زال طفلاً، وواصلت التعري معه في الحمام، مثلما كانت تفعل دوماً، ومثلما اعتادت أن تفعل مذ سلمتها إياه بيلار تيرنيرا كي تتولى تربيته. في المرة الأولى التي رآها فيها، كان ما شدّ انتباهه هو الانخفاض العميق بين ثدييها. وكان بريئاً آنذاك، إلى حد سألها معه عما حدث لها، فتظاهرت آمارانتا بأنها تجرف صدرها برؤوس أصابعها، وأجابت: «لقد انتزعوا مني شرائح وشرائح.» وبعد زمن من ذلك، عندما أبلت من انتحار بيترو كريسبي، وعادت للاستحمام مع أوريليانو خوسيه، لم يعد

يدقق في انهدام صدرها، وإنما أحس برعشة لم يعرفها قبلاً، حيال مرأى النهدين البديعين بحلمتيهما البنفسجيتين. واصل تفحصها، مكتشفاً معجزة تقاطيعها الحميمة، شبراً فشبراً، وأحس بجلده يقشعر في أثناء التأمل، مثلما يقشعر جلدها لدى ملامسة الماء. لقد اعتاد منذ طفولته المبكرة، على مغادرة أرجوحة نومه، ليطلع عليه الصباح وهو في فراش آمارانتا. وكانت لملامستها فضيلة تبديد خوفه من الظلام. ولكنه منذ اليوم الذي وعى فيه عريّها، لم يعد الخوف من الظلام هو ما يدفعه ليندس تحت كلّتها، وإنما اللهفة إلى الإحساس بأنفاس آمارانتا الفاترة عند الفجر. وفي الصباح الباكر من أحد الأيام، في الفترة التي رفضت فيها عرض العقيد خيرينيلدو ماركيز للزواج منها، استيقظ أوريليانو خوسيه، بإحساس من يختنق. أحس بأصابع آمارانتا مثل ديدان ساخنة وجزعة، تبحث عن بطنه. بدّل وضعه وهو يتصنع النوم، ليتيح لها تخطي كل العقبات. وعندئذ أحس باليد، مجردة من الضماد الأسود، تبحث مثل رخوية عمياء بين طحالب لهفته. ومع أنهما تظاهرا بجهل ما يعرفانه كلاهما، وما يعرف كل منهما أن الآخر يعرفه، فقد ظلا منذ تلك الليلة، معطلين في تواطؤ لا يُخرق. لم يعد بمقدور أوريليانو خوسيه أن يجد إلى النوم سبيلاً، ما دام لم يسمع فالس منتصف الليل من ساعة الصالون، ولم تعد الآنسة الناضجة التي بدأت بشرتها تكتئب، تجد لحظة راحة واحدة، إلا بعد أن تشعر، تحت كلّتها، بتسلل ذلك المسرنم الذي ربته دون أن يخطر لها أنه سيكون مهدئاً لوحدتها. وعندئذ لم يعودا ينامان معاً، عاريين، يتبادلان المداعبات المنهكة وحسب، بل

صار يطارد أحدهما الآخر في أركان البيت، ويحبسا نفسيهما في غرف النوم، في أي ساعة من ساعات اليوم، في حالة هيجان دائمة لا تهدأ. وكادت تفاجئهما أورسولا ذات مساء، عندما دخلت إلى مستودع الحبوب، وكانا قد بدأا تبادل القبلات، فسألت أوريليانو خوسيه ببراءة: «هل تحب عمتك كثيراً؟» أجابها نعم. فقالت أورسولا: «أحسنت»، وراحت تكيل مقادير الدقيق لصنع الخبز، ثم رجعت إلى المطبخ. تلك الحادثة أخرجت آمارانتا من هذيانها. فقد أدركت أنها تمادت كثيراً، وأنها لا تلعب لعبة تبادل القبلات مع طفل، وإنما هي تنزلق متخبطة في هوى خريفي خطر وبلا مستقبل، فقطعت الأمر بصورة حاسمة. وانتهى أوريليانو خوسيه إلى تقبل الأمر الواقع، وكان قد أنهى مرحلة تدريبه العسكري، فصار ينام في الثكنة. وكان يذهب في أيام السبت، مع الجنود، إلى حانوت كاتارينو. فيعزى نفسه في وحدته الوعرة، وبلوغه المبكر، مع نساء يعبقن بروائح أزهار ميتة، يحوّلهن بجهود تخيل مضنية في الظلام، إلى صور مثالية على شاكلة آمارانتا.

بعد قليل من ذلك، بدؤوا يتلقون أخباراً متناقضة عن الحرب. فبينما الحكومة نفسها تقرّ بتقدم الثورة، كانت تتوفر للضباط في ماكوندو معلومات سرية، عن قرب التوصل إلى صلح متفاوض عليه. وفي أوائل شهر نيسان، حضر مبعوث خاص إلى العقيد خيرينيلدو ماركيز. وأكد له أن قادة الحزب قد اتصلوا، فعلاً، بقادة الثورة في المناطق الداخلية، وأنهم على وشك إبرام الهدنة، مقابل تعيين ثلاثة وزراء ليبراليين، وتمثيلهم كأقلية في البرلمان، والعفو

العام عن الثوار الذين سينزعون أسلحتهم. وحمل المبعوث تعليمات بالغة السرية من الكولونيل أوريليانو بوينديا الذي لم يكن موافقاً على بنود الهدنة: على العقيد خيرينيلدو ماركيز أن يختار خمسة من أفضل رجاله، ويستعد لمغادرة البلاد معهم. نُفذ الأمر بسرية صارمة. وقبل أسبوع من إعلان الاتفاق، ووسط عاصفة من الإشاعات المتناقضة، وصل الكولونيل أوريليانو بوينديا إلى ماكوندو، بصورة سرية، بعد منتصف الليل، مع عشرة من ضباطه الموثوقين، بينهم العقيد روكي كارنيثيرو. فسرّحوا الحامية، ودفنوا الأسلحة، وأتلفوا الأرشيف. وعند الفجر، كانوا قد غادروا القرية، ومعهم العقيد خيرينيلدو ماركيز وضباطه الخمسة. كانت عملية بالغة السرعة والسرية، حتى إن أورسولا لم تعلم بها إلا في اللحظة الأخيرة، عندما طرق أحدهم نافذة غرفة نومها، وهمس: «إذا كنتِ تريدين رؤية الكولونيل أوريليانو بوينديا، فاخرجي الآن إلى الباب.» قفزت أورسولا من السرير، وخرجت إلى الباب بملابس النوم، وتمكنت بصعوبة من لمح كوكبة الفرسان الذين يغادرون القرية، وسط زربعة غبار بكماء. ولم تعلم، إلا في اليوم التالي، أن أوريليانو خوسيه قد رحل مع أبيه.

بعد عشرة أيام من صدور البيان المشترك عن الحكومة والمعارضة، معلناً انتهاء الحرب، وردت أخبار عن انتفاضة الكولونيل أوريليانو بوينديا المسلحة الأولى، في منطقة الحدود الغربية. وقد تشتت شمل قواته القليلة وسيئة التسليح، خلال أقل من أسبوع. ولكن، في سياق تلك السنة، بينما الليبراليون والمحافظون يحاولون إقناع البلاد بالمصالحة، قام بسبع محاولات تمرد أخرى. وفي إحدى الليالي، قصف ريوهاتشا بالمدفعية من

سفينة شراعية، فأخرجت الحامية أبرز أربعة عشر ليبرالياً في المدينة من فراشهم، وأعدمتهم في عملية انتقامية. واحتل لأكثر من خمسة عشر يوماً، مركز جمارك على الحدود، ووجه إلى الأمة، من هناك، نداء لخوض الحرب الشاملة. وضلت إحدى حملاته الطريق، طوال ثلاثين يوماً، في الأدغال، في محاولة طائشة لاجتياز أكثر من ألف وخمسمئة كيلومتر من الأراضي البكر، من أجل إعلان الحرب في ضواحي العاصمة. وفي إحدى المناسبات، وصل إلى مسافة تقل عشرين كيلومتراً عن ماكوندو، ولكن الدوريات الحكومية أجبرته على التراجع والتوغل في الجبال، قريباً جداً من المنطقة المسحورة، حيث عثر أبوه، قبل سنوات طويلة، على هيكل سفينة شراعية إسبانية.

في تلك الفترة توفيت فيسيتاثيون. وقد شاءت أن تموت ميتة طبيعية، بعد أن تخلت عن عرشٍ لخوفها من الأرق. وتمثلت مشيئتها الأخيرة في نبش الأرض تحت سريرها، وإخراج أجرها الذي وفرته على امتداد أكثر من عشرين سنة، وإرساله إلى الكولونيل أوريليانو بوينديا، كي يواصل الحرب. لكن أورسولا لم تكلف نفسها عناء إخراج تلك النقود، لأن الإشاعات في تلك الأيام، كانت تقول إن الكولونيل أوريليانو بوينديا، قد قتل أثناء إنزال بالقرب من عاصمة المقاطعة. واعتُبر البلاغ الرسمي - وهو الرابع خلال أقل من سنتين - صحيحاً طوال ما يقارب الستة شهور، لأن شيئاً لم يعد يُعرف عنه. وفجأة، عندما كانت أورسولا وآمارانتا قد فرضتا حداداً آخر أُضيف إلى الحدادات السابقة، وصل خبر غريب. كان الكولونيل أوريليانو بوينديا حياً، لكنه تخلى ظاهرياً عن معاداة حكومة بلاده، وقد انضم إلى التيار الاتحادي

الظافر في جمهوريات أخرى من منطقة الكاريبي. وكان يظهر بأسماء مختلفة، وكل مرة في أماكن أبعد عن موطنه. وكان لا بد بعد ذلك من معرفة أن الفكرة التي تؤجج حماسته هي توحيد القوى الاتحادية في أمريكا الوسطى، لكنس الحكومات المحافظة، ابتداء من ألاسكا حتى باتاغونيا. والخبر الأول الذي تلقته أورسولا منه، بعد سنوات عديدة من رحيله، هو رسالة مجعدة وممحوة الحروف، جاءت متنقلة من يد إلى يد، من سانتياغو دي كوبا. فهتفت أورسولا حين قرأتها:

- لقد فقدناه إلى الأبد. وعلى هذا الطريق، سيقضي عيد الميلاد في نهاية العالم.

الشخص الذي قالت له ذلك، وهو أول من أطلعته على الرسالة، كان الجنرال المحافظ خوسيه راكيل مونكادا، عمدة ماكوندو منذ انتهاء الحرب. وقد علق الجنرال مونكادا: «من المؤسف أن أوريليانو هذا ليس محافظاً.» كان معجباً به حقاً. ومثل كثير من المحافظين المدنيين، كان خوسيه راكيل مونكادا قد شارك في الحرب دفاعاً عن حزبه. ووصل إلى رتبة جنرال في ميدان المعركة، على الرغم من افتقاره إلى الميول العسكرية. بل إنه، مثل كثيرين من محازبيه، كان مناهضاً للنزعة العسكرية. يعتبر رجال السلاح كسالى بلا مبادئ، ومدبري مكائد، وطامحين بالسلطة، ومتخصصين في مواجهة المدنيين من أجل زيادة الفوضى. كان ذكياً، لطيفاً، متورداً، ورجلاً محباً للقمة الطيبة، ومتعصباً لمصارعات الديوك. وكان في إحدى الفترات أشد خصوم الكولونيل أوريليانو بوينديا رهبة. تمكن من فرض سلطته على العسكريين المحترفين في قطاع واسع من المنطقة الساحلية. وذات

مرة، وجد نفسه مضطراً، لأسباب استراتيجية، إلى إخلاء أحد المواقع لتحتله قوات الكولونيل أوريليانو بوينديا، فترك له رسالتين. يدعوه في إحداهما، وهي طويلة جداً، إلى خوض حملة مشتركة من أجل أنسنة الحرب. والرسالة الثانية موجهة إلى زوجته، وكانت تعيش في مناطق سيطرة الليبراليين، وقد ترك الرسالة مع رجاء إيصالها إلى المرسلة إليها. ومنذ ذلك الحين، وحتى في أشد مراحل الحرب دموية، كان القائدان يعقدان هدنات من أجل تبادل الأسرى. كانت وقفات عن القتال لها شيء من الجو الاحتفالي، يستغلها الجنرال مونكادا كي يعلّم الكولونيل أوريليانو بوينديا لعب الشطرنج. صارا صديقين حميمين. بل إنهما توصلا إلى التفكير في إمكانية تنسيق جهود العناصر الشعبية في كلا الحزبين، للتخلص من هيمنة العسكريين والسياسيين المحترفين، وإقامة نظام إنساني، بالاستفادة من أفضل ما في العقيدتين السياسيتين. وعندما انتهت الحرب، راح الكولونيل أوريليانو بوينديا يزوغ متوارياً في شعاب الثورة الدائمة، وجرى تعيين الجنرال مونكادا عمدة على ماكوندو. فارتدى بدلته المدنية، واستبدل العسكريين برجال شرطة غير مسلحين، وفرض احترام قانون العفو، وساعد أسر بعض الليبراليين المقتولين في الحرب. وتوصل إلى ترقية ماكوندو إلى بلدية، وكان بالتالي أول محافظ لها، وخلق جواً من الثقة، حتى شاع التفكير في الحرب على أنها كابوس سخيف من الماضي. وجرى استبدال الأب نيكانور، المستنزف في الحميات الكبدية، بالأب كورونيل، والذي يلقبونه *الشبل*، وهو من قدماء محاربي الحرب الفيدرالية الأولى. أما برونو كريسبي الذي تزوج من أمبارو موسكوتي، ولم يكن متجره للألعاب والآلات الموسيقية

يتوقف عن الازدهار، فقد بنى مسرحاً، ضمنته الفرق الإسبانية في برامج جولاتها. كان قاعة واسعة مكشوفة، بمقاعد خشبية طويلة، وستارة من المخمل تزينها أقنعة إغريقية، وثلاثة شبابيك تذاكر لها شكل رؤوس الأسود، ومن أشداقها المفتوحة، تباع تذاكر الدخول. وفي تلك الفترة أيضاً، جرى ترميم مبنى المدرسة. وقد تولى إدارتها دون ميلتشور إيسكالونا، وهو معلم عجوز أُرسل من منطقة المستنقعات. كان يفرض على التلاميذ غير المجتهدين المشي، على ركبهم، في الباحة المغطاة بملح البارود، ويجبر من يتلفظون بكلمات نابية على أكل الفلفل الحار، بموافقة آبائهم. وكان أوريليانو الثاني وخوسيه أركاديو الثاني، توأمي صوفيا قديسة الرحمة العنيدين، هما أول من جلسا في قاعة الدرس ومعهما لوحاهما وطباشيرهما وكأساهما الألومنيوم اللذان حفر عليهما اسماهما. وكانت ريميديوس، وارثة جمال أمها النقي، قد بدأت تُعرف باسم ريميديوس الجميلة. وبالرغم من الزمن، ومن حالات الحداد المتوالية، ومن الأحزان المتراكمة، كانت أورسولا تقاوم الشيخوخة. وبمساعدة صوفيا قديسة الرحمة، أعطت دفعة جديدة لصناعة حلوياتها، ولم تستعد، خلال سنوات قليلة، الثروة التي بددها ابنها في الحرب وحسب، وإنما أعادت كذلك ملء القرعات المدفونة في غرفة نومها، بالذهب الخالص. وقد اعتادت القول: «لن يفتقد بيت المجانين هذا المال، مادام الله يمدّ في عمري». وقد كانت الأمور على هذه الحال، عندما هرب أوريليانو خوسيه من صفوف القوات الفيديرالية في نيكاراغوا، والتحق ببحارة سفينة ألمانية، وظهر في مطبخ البيت، ضخماً مثل حصان، أسمر وغزير الشعر مثل هندي، حاملاً تصميمه السري على

الزواج من آمارانتا.

عندما رأته آمارانتا يدخل البيت، وقبل أن يقول شيئاً، عرفت على الفور سبب عودته. وعلى المائدة، لم يكن أحدهما يتجرأ على النظر مواجهة إلى الآخر. لكن، بعد أسبوعين من عودته، وبحضور أورسولا، صوب نظره إلى عيني آمارانتا، وقال لها: «لقد كنت أفكر فيك طوال الوقت». كانت آمارانتا تهرب منه. وتتجنب اللقاءات المفاجئة. وتحاول عدم الابتعاد عن ريميديوس الجميلة. وقد أغضبها الحياء الذي ذهَّب خديها، يوم سألها ابن أخيها، إلى متى تظن أنها ستُبقي الضماد الأسود يغطي يدها، لأنها فسرت السؤال على أنه تلميح إلى بكارتها. منذ مجيئه، صارت توصد غرفة نومها بالمزلاج، ولكنها سمعت لليال كثيرة شخيره الهادئ في الغرفة المجاورة، فأهملت ذلك الاحتياط. وفي فجر أحد الأيام، بعد شهرين تقريباً من عودته، أحست به يدخل غرفتها. وعندئذ، بدل أن تهرب، وبدل أن تصرخ، مثلما كانت قد فكرت مسبقاً، أسلمت نفسها للامتلاء بشعور ناعم بالراحة. أحست به ينسلّ تحت الكلّة، مثلما كان يفعل وهو طفل، ومثلما كان يفعل منذ الأزل، ولم تستطع كبح العرق الجليدي واصطكاك أسنانها، عندما أدركت أنه عار تماماً. «انصرف»، تمتمت مختنقة بالفضول. «انصرف، وإلا سأبدأ بالصراخ». لكن أوريليانو كان يعرف عندئذ ما يتوجب عليه عمله، لأنه لم يعد طفلاً خائفاً من الظلام، وإنما حيوان معسكرات. منذ تلك الليلة، تجددت دون طائل، تلك المعارك الصماء التي تستمر حتى الصباح. كانت آمارانتا تتمتم مستنفدة: «إنني عمتك. وأنا بمقام أمك تقريباً، ليس في السن وحسب، وإنما لأن الشيء الوحيد لم أستطع تقديمه إليك هو الرضاعة». كان أوريليانو يهرب

في الصباح، ويعود في فجر اليوم التالي، ويكون في كل مرة أكثر تهيجاً، لتأكده من أنها لم تضع المزلاج. ولم يكن قد توقف عن اشتهائها لحظة واحدة. كان يجدها في غرف النوم في القرى المهزومة، خاصة في أشدها بؤساً، ويراها مجسدة في رائحة الدم المتيبس على ضمادات الجرحى، وفي الخوف الدائم من خطر الموت، في كل وقت وفي كل مكان. كان قد هرب منها محاولاً تصفية ذكراها، ليس في البعد وحده، وإنما في ضراوة طائشة، اعتبرها رفاقه في السلاح تهوراً. ولكن كلما ازداد تمرغ صورته في وحول الحرب، كانت الحرب تزداد شبهاً بآمارانتا. هكذا كابد المنفى، باحثاً عن طريقة لإماتتها بموته، إلى أن سمع أحدهم يروي القصة القديمة عن الرجل الذي تزوج من عمة له، هي في الوقت نفسه ابنة عمه، فكان ابنه جداً لنفسه. فسأل مذهولاً:

- هل يمكن للمرء أن يتزوج من عمته؟

فأجابه أحد الجنود:

- ليس ممكناً وحسب، بل إننا نخوض هذه الحرب ضد الخوارنة، كي يستطيع أحدنا الزواج من أمه نفسها.

بعد خمسة عشر يوماً من ذلك، فر من الجيش. وجد آمارانتا ذاوية أكثر مما هي عليه في الذاكرة، وأشد كآبة وحياء، وتنعطف في الواقع، في آخر منعطفات النضوج؛ ولكنها أشد اندفاعاً، في ظلمة غرفة النوم، مما كانت عليه على الإطلاق. وأشد تحدياً من أي وقت آخر في عدوانية مقاومتها. كانت تقول له، وهي محاصرة بكلاب صيده: «أنت وحش. ليس صحيحاً أنه يمكن عمل هذا مع عمة مسكينة، إلا بالحصول على موافقة خاصة من البابا». فيعدها أوريليانو خوسيه بأن يذهب إلى روما، ويعدها بأن يجتاز

أوروبا زاحفاً على ركبتيه، وأن يقبل خف الحبر الأعظم، لمجرد أن تُنزل هي جسورها المعلقة.

فتفند آمارانتا أقواله:

- الأمر لا يقف عند هذا وحسب. فالأبناء يولدون كذلك بأذناب خنازير.

وكان أوريليانو خوسيه يصم أذنيه عن كل أنواع الحجج. ويتوسل قائلاً:

- حتى لو ولدوا مثل الحيوان المدرع.

وفي فجر أحد الأيام، تغلب عليه ألم فحولته المكبوتة الذي لا يطاق، وذهب إلى حانوت كاتارينو. وعندئذ هدّأت بطنه، لبعض الوقت، امرأة متهدلة الثديين، حانية، ورخيصة. حاول أن يطبق على آمارانتا علاج الاستخفاف والازدراء. فكان يراها في الردهة، تخيط على آلة خياطة يدوية، تعلمت استخدامها بمهارة باهرة، فلا يوجه إليها الكلام. أحست آمارانتا بالتحرر من عبء ثقيل، ولم تدر هي نفسها حينئذ، سبب عودتها إلى التفكير بالعقيد خيريليندو ماركيز، ولا سبب استذكارها، بحنين، أمسيات لعب الدومينو الصيني معه، بل ولا سبب اشتهائها له كرجل لمخدعها. لم يتخيل أوريليانو خوسيه مدى خسائره، في الليلة التي فقد فيها قدرته على تحمل مهزلة التظاهر بعدم المبالاة، ورجع إلى غرفة آمارانتا. فقد صدته بتصميم حازم، لا هوادة فيه، وأوصدت مزلاج غرفتها إلى الأبد.

بعد شهور قليلة من عودة أوريليانو خوسيه، حضرت إلى البيت امرأة مفعمة بالحيوية، معطرة بالياسمين، ومعها طفل عمره حوالي خمس سنوات. أكدت أنه ابن الكولونيل أوريليانو بويندیا،

وأنها جاءت به كي تعمده أورسولا. لم يخامر الشك أحد بنسب ذلك الطفل الذي ما زال بلا اسم: كان شبيهاً بالكولونيل في الزمن الذي أخذوه فيه ليتعرف على الجليد. وروت المرأة أنه ولد بعينين مفتوحتين، ينظر إلى الناس بتمعن شخص بالغ، وأنها تخاف من طريقته في تثبيت نظره على الأشياء، دون أن يرف له جفن. فقالت أورسولا: «إنه مثله تماماً. والشيء الوحيد الذي ينقصه، هو أن يقلب الكراسي بمجرد النظر إليها». عمدوه باسم أوريليانو، وبكنية أمه، لأن القانون لا يسمح بأن يحمل كنية أبيه، ما لم يعترف به أبوه نفسه. وكان الجنرال مونكادا هو عرابه. ومع أن آمارانتا ألحت على إبقائه عندها لتتولى تربيته، إلا أن أمه رفضت ذلك.

كانت أورسولا تجهل آنذاك عادة إرسال العذراوات إلى غرف نوم المحاربين، مثلما تُقدم الدجاجات للديوك الأصيلة، ولكنها عرفت ذلك في سياق تلك السنة: تسعة أبناء آخرين للكولونيل أوريليانو بوينديا، جيء بهم إلى البيت لتعميدهم. أكبرهم، أسمر غريب الهيئة، له عينان خضراوان، وليس فيه شيء من ملامح أسرة الأب، وكان قد تجاوز العاشرة من عمره. جيء بأطفال من كل الأعمار، ومن كل الألوان، ولكنهم جميعهم ذكور، وكلهم ذوو مظهر من العزلة لا يسمح بالشك في رابطة القرابة. اثنان منهم فقط كانا مختلفين عن المجموع. أحدهما يبدو أكبر من عمره بكثير، حطم المزهريات وعدداً من أواني المائدة، وبدا كما لو أن ليديه خاصية تحطيم كل ما تلمسانه. والآخر أشقر، له عينان زرقاوان مائلتان إلى الخضرة كعيني أمه، تُرك شعره الأجعد يطول كشعر أنثى. دخل إلى البيت بقدر كبير من الألفة، كما لو أنه تربى

فيه، واتجه مباشرة إلى صندوق في غرفة أورسولا، وقال مطالباً: «أريد الراقصة ذات النابض.» ذُعرت أورسولا. فتحت الصندوق وبحثت بين أشياء زمن ميلكيادس القديمة والمعفرة، ووجدت الراقصة ذات النابض التي جاء بها بيترو كريسبي إلى البيت ذات يوم، ملفوفة بزوج من الجوارب، والتي لم يعد هناك من يتذكرها. وخلال أقل من اثنتي عشرة سنة، عمّدوا باسم أوريليانو، وكنية الأمهات، كل الأبناء الذين زرعهم الكولونيل على طول ميادين الحرب وعرضها: كانوا سبعة عشر. في البدء، كانت أورسولا تملأ جيوبهم بالنقود، وتحاول آمارانتا الإبقاء عليهم معها. ولكنهما انتهتا إلى الاكتفاء بتقديم هدية لهم، وبأن تكونا عرابتيهم. وكانت أورسولا تقول، وهي تسجل في دفتر، اسم وعنوان الأمهات، ومكان وتاريخ ولادة الأطفال: «إننا نقوم بواجب تعميدهم. ولا بد أن أوريليانو يعرف حسابه جيداً، وسيكون هو من يتخذ القرارات عندما يعود.» وخلال تناول الغداء يوماً، تحدثت مع الجنرال مونكادا عن ذلك التناسل المحيِّر، وأعربت عن رغبتها في عودة الكولونيل أوريليانو بويندي يوماً، ليجمع أبناءه كلهم في البيت. فقال لها الجنرال مونكادا بغموض:

- لا تقلقي يا صديقتي. سيأتي بأسرع مما تتصورين.

ما كان الجنرال مونكادا يعرفه، ولم يشأ الكشف عنه على مائدة الغداء، هو أن الكولونيل أوريليانو بويندي، كان في طريقه للوقوف على رأس أطول الثورات التي قادها حتى ذلك الحين أمداً، وأشدها راديكالية ودموية.

عادت الأمور تتوتر بالقدر نفسه الذي كانت عليه في الشهور التي سبقت الحرب الأولى. وجرى وقف عروض مصارعات

الديوك التي كان يشرف عليها العمدة نفسه. وكان النقيب أكيليس ريكاردو، قائد الحامية، هو من يمسك، علمياً، بزمام السلطة البلدية. وكان الليبراليون يشيرون إليه كشخص استفزازي. وكانت أورسولا تقول لأوريليانو خوسيه: «سيحدث شيء رهيب. لا تخرج إلى الشارع بعد السادسة مساء». ولكنها كانت توسلات بلا جدوى. فأوريليانو خوسيه، مثلما كان أركاديو في زمن آخر، تخلى عن الانتماء إليها. فكان كما لو أن العودة إلى البيت، وإمكانية العيش دون إزعاج النفس في الحاجات اليومية الملحة، قد أيقظت فيه ميول الشهوة والإهمال التي كانت لعمه خوسيه أركاديو. وانطفأ ولهه بآمارانتا دون أن يخلّف جراحاً. كان يمضي منساقاً لأهوائه بعض الشيء، يلعب البلياردو، ويتحمل وحدته بمعاشرة نساء عابرات، ويسطو على ما يجده من نقود، في مخابئ نسيتها أورسولا. فكانت تقول متحسرة: «جميعهم سواء. يكونون في البدء جيدي التربية، مطيعين وجديين، يبدون عاجزين عن قتل ذبابة، ولكنهم ما إن يظهر الشعر في ذقونهم، حتى يرموا بأنفسهم إلى الضياع». وعلى خلاف أركاديو الذي لم يعرف أصله الحقيقي قطّ، عرف هو أنه ابن بيلار تيرنيرا التي علقت له أرجوحة، كي ينام القيلولة في بيتها. لقد كانا، إضافة إلى أنهما أم وابنها، شريكين في العزلة نفسها. كانت بيلار تيرنيرا قد فقدت أثر أي أمل. اكتسبت ضحكتها وقع نغمات أرغن، وأذعن ثدياها لكسل المداعبات المحتملة، وسقط بطنها وفخذاها ضحية قدرها المحتوم كامرأة متداولة، لكن قلبها كان يشيخ بلا مرارة. سمينة، سليطة، بزهو قوادة منكوبة، تخلت عن أوهام ورق اللعب العقيمة، ووجدت ملاذ عزاء لها في غراميات الآخرين. ففي البيت الذي ينام فيه

أوريليانو خوسيه قيلولته، كانت فتيات الجوار يلتقين عشاقهن العابرين. كن يقلن لها ببساطة، بعد أن يصبحن في الداخل: «هل تعيرينني غرفتك يا بيلار؟» فتجيب بيلار: «طبعاً». وإذا كان هناك أحد حاضراً، توضح له:

- أشعر بالسعادة حين أعرف أن الناس سعداء في سريري.

لم تكن تتقاضى أجراً قط، ولم ترفض قط تقديم الجميل، مثلما لم ترفض تقديمه إلى ما لا يحصى من الرجال الذين ظلوا يسعون إليها، حتى في غسق نضوجها، دون أن يقدموا لها مالاً ولا حباً، وإنما المتعة وحدها في بعض الأحيان. وقد ضاعت بناتها الخمس، وارثات بذرتها المتأججة، في دروب الحياة الوعرة، منذ مراهقتهن. أما ابناها الذكران اللذان تولت تربيتهما بنفسها، فقد مات أحدهما وهو يقاتل ضمن قوات الكولونيل أوريليانو بوينديا، وجرح الآخر وألقي القبض عليه وهو في الرابعة عشرة، بينما كان يحاول سرقة قفص دجاج في إحدى قرى منطقة المستنقعات. وبطريقة ما، كان أوريليانو خوسيه هو الرجل الطويل الأسمر الذي أنبأها عنه ملك «الكبة»، طوال نصف قرن، والذي وصل، مثل كل من يأتي بهم ورق اللعب، إلى قلبها عندما كان قد وسم بعلامة الموت. وقد رأت هي ذلك في الورق، وقالت له:

- لا تخرج الليلة. ابق للنوم هنا، فكارميليتا مونتييل تعبت من التوسل إليّ كي أُدخلها إلى غرفتك.

لم يلحظ أوريليانو خوسيه مغزى الرجاء العميق الذي تضمنه ذلك العرض:

- قولي لها أن تنتظرني عند منتصف الليل.

ذهب إلى المسرح، حيث كانت فرقة إسبانية تقدم مسرحية

«*خنجر الثعلب*»، وهي في الواقع مسرحية ثورييّا[1]، وقد استبدل عنوانها بأمر من النقيب أكيليس ريكاردو، لأن الليبراليين كانوا يطلقون تسمية «*القوط*» على المحافظين. ولم ينتبه أوريليانو خوسيه، إلا وهو يُسلّم تذكرة الدخول عند الباب، إلى أن النقيب أكيليس ريكاردو، وجنديين مسلحين ببندقيتين، يقومون بتفتيش الجمهور، فحذره أوريليانو خوسيه: «حذار أيها النقيب. لم يولد بعد الرجل الذي يمد يده إليّ». حاول النقيب أن يفتشه بالقوة، غير أن أوريليانو خوسيه الذي لم يكن مسلحاً، اندفع راكضاً. ورفض الجنديان الانصياع للأمر بإطلاق النار، وأوضح أحدهما: «إنه من آل بوينديا». ولكن النقيب الذي أعماه الغضب، انتزع منه البندقية، ووقف في منتصف الشارع مصوباً السلاح، وتمكن من القول صارخاً:

- قوادون. عساه يكون الكولونيل أوريليانو بوينديا.

كانت كارميليتا مونتييل، وهي عذراء في العشرين، قد انتهت لتوها من الاستحمام بماء زهر البرتقال، وكانت تنثر أوراق إكليل الجبل على فراش بيلار تيرنيرا، عندما دوى صوت العيار الناري. كان مقدر لأوريليانو خوسيه أن يعرف معها السعادة التي أنكرتها عليه آمارانتا، وأن تنجب له سبعة أبناء، وأن يموت بالشيخوخة بين ذراعيها، لكن رصاصة البندقية التي دخلت في ظهره، ومزقت صدره، كانت منساقة بتفسير خاطئ لورق اللعب. أما النقيب

---

[1] خوسيه ثورييّا José Zorrilla: شاعر ومسرحي إسباني (١٨١٧-١٨٩٣)، وعمله المسرحي المشار إليه هنا «*خنجر القوطي*»، مستوحى من قصة شعبية تقليدية، من القرون الوسطى، بطلها ملك القوط، دون رودريغو (لذريق، في المصادر العربية).

أكيليس ريكاردو الذي كان مقدراً له، في الحقيقة، أن يموت تلك الليلة، فقد مات فعلاً، قبل أربع ساعات من موت أوريليانو خوسيه. فما أن دوى صوت الرصاصة، حتى هوى صريعاً برصاصتين انطلقتا في وقت واحد، لم يُعرف مصدرهما قط، وقد رافقتهما صرخة جماعية هزت الليل:

- عاش الحزب الليبرالي! عاش الكولونيل أوريليانو بوينديا!

في الساعة الثانية عشرة، عندما أنهى أوريليانو خوسيه نزف دمه كاملاً، ووجدت كارميليتا مونتييل أوراق لعب مستقبلها بيضاء ممحوة، كان أكثر من أربعمائة رجل قد مروا أمام المسرح، وأفرغوا مسدساتهم في جثة النقيب أكيليس ريكاردو المهجورة. فكان لا بد من استقدام دورية كاملة لتنقل الجسد المثقل إلى عربة، والذي تفتت مثل خبز مبلول.

وفي معارضة لصفاقة الجيش النظامي، عبأ الجنرال راكيل مونكادا مراكز نفوذه السياسي، وعاد إلى ارتداء الزي العسكري، وتولى القيادة المدنية والعسكرية في ماكوندو. ومع ذلك، لم يكن ينتظر أن يتمكن موقفه المصالح من الحيلولة دون وقوع ما لا بد منه. كانت أخبار شهر أيلول متناقضة. فبينما الحكومة تعلن سيطرتها على كامل البلاد، كان الليبراليون يتلقون معلومات سرية عن انتفاضات مسلحة في الداخل. ولم يعترف النظام بحالة الحرب إلى أن أعلن بلاغ عن أن مجلساً حربياً حاكم الكولونيل أوريليانو بوينديا غيابياً، وحكم عليه بالإعدام. وصدر الأمر بأن تقوم أول حامية تلقي القبض عليه، بتنفيذ الحكم. «هذا يعني أنه رجع»، قالت أورسولا ذلك فرحة للجنرال مونكادا. ولكنه كان يجهل ذلك.

والحقيقة أن الكولونيل أوريليانو بوينديا، كان في البلاد منذ أكثر من شهر. وقد سبقته إشاعات متناقضة، تفترض في الوقت نفسه، وجوده في أماكن متباعدة جداً، ولم يصدق الجنرال مونكادا خبر عودته، إلا بعد الإعلان الرسمي عن استيلائه على مقاطعتين في المنطقة الساحلية. فقال لأورسولا وهو يريها البرقية: «تهاني أيتها الصديقة. عما قريب سترينه هنا». عندئذ أحست أورسولا بالقلق للمرة الأولى. فسألته: «وما الذي ستفعله أنت أيها الصديق؟». كان الجنرال مونكادا قد وجه هذا السؤال لنفسه مرات عديدة. فأجاب:

- الشيء نفسه الذي يفعله هو أيتها الصديقة. سأقوم بواجبي.

في الأول من تشرين الأول، عند الفجر، شنّ الكولونيل أوريليانو بوينديا، ومعه ألف رجل، هجوماً على ماكوندو. وتلقت الحامية الأمر بالدفاع حتى النهاية. وعند الظهر، بينما الجنرال مونكادا يتناول الغداء مع أورسولا، سُمع في كل أرجاء القرية دوي قذيفة مدفع للثوار، حطمت واجهة مبنى الخزينة البلدية. فتنهد الجنرال مونكادا قائلاً: «أنهم مسلحون جيداً مثلنا؛ ولكنهم يقاتلون فوق ذلك برغبة تفوق رغبتنا». وفي الساعة الثانية بعد الظهر، وبينما الأرض تهتز بقذائف مدفعية الجانبين، ودّع أورسولا وهو موقن بأنه يخوض معركة خاسرة.

- أرجو الله ألا تري اليوم أوريليانو في البيت. -قال لها - وإذا حصل ذلك، فعانقيه عني، لأنني لا أتوقع أن أراه إلى الأبد.

أُلقي القبض عليه في تلك الليلة، حين كان يحاول الهرب من ماكوندو، بعد أن كتب رسالة مطولة إلى الكولونيل أوريليانو

بويندیا، يُذكّره فيها بنواياهما المشتركة لأنسنة الحرب، ويتمنى له انتصاراً نهائياً على فساد العسكريين وطموحات سياسيي الحزبيين كليهما. وفي اليوم التالي، تناول الكولونيل أوريليانو بويندیا الغداء معه في بيت أورسولا، حيث ظل محتجزاً إلى أن قرر مجلس حربي ثوري مصيره. كان اجتماعاً عائلياً. ولكن، بينما الخصمان يتناسيان الحرب، ليستعيدا ذكريات من الماضي، راود أورسولا إحساس مكدر بأن ابنها دخيل. لقد أحست بذلك مذ رأته يدخل بحماية جهاز عسكري صاخب، قلب غرف البيت رأساً على عقب، ليقتنع بعدم وجود أي خطر. ولم يوافق الكولونيل أوريليانو بويندیا على ذلك وحسب، بل أصدر أوامر حاسمة الصرامة، ولم يسمح لأحد، بمن في ذلك أورسولا، بالاقتراب منه مسافة تقل عن ثلاثة أمتار، قبل أن ينهي أفراد الحراسة توزيع الحراس حول البيت. كان يرتدي بدلة من الخام العادي، دون أي نوع من الرتب أو الإشارات، وينتعل جزمة عالية بمهمازين، ملطخة بالوحل والدم الجاف. ويحمل في حزامه مسدساً في قراب مفتوح، ويده المستندة طوال الوقت إلى عقب المسدس، تكشف التوتر المتيقظ والحازم نفسه الذي في نظرته. وكان رأسه الذي فيه الآن توغلا صلع جانبيين، يبدو كأنه قد شوي على نار هادئة. ووجهه المدبوغ بملح الكاريبي، اكتسب صلابة معدنية. كان محصناً ضد الشيخوخة الوشيكة، بحيوية لها علاقتها ببرودة أعماقه. وكان أطول قامة مما كان عليه عند رحيله، وأشد شحوباً وبروز عظام، وتبدو عليه أول أعراض مقاومة الحنين. «رباه!»، قالت أورسولا مذعورة، وأضافت: «إنه يبدو الآن رجلاً قادراً على فعل أي شيء». وكان كذلك. فالشال الأزتيكي الذي حمله لأمارنتا، والذكريات التي

استرجعها أثناء تناول الغداء، والنوادر المسلية التي رواها، لم تكن إلا مجرد جذوات باهتة من مزاجه في أزمنة أخرى. وما أن تم تنفيذ أمره بدفن القتلى في قبر جماعي، حتى كلف العقيد روكي كارنيثيرو بمهمة التعجيل بالمحاكمات الحربية، وانهمك هو في المهمة الشاقة، لفرض إصلاحات جذرية، لا تدع حجراً على حجر من بناء النظام المحافظ المنهار. كان يقول لمعاونيه «يجب أن نسبق سياسيي الحزب. وعندما يفتحون عيونهم على الحقيقة، يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع». وقد قرر آنذاك مراجعة وثائق ملكية الأراضي، إلى ما قبل مئة سنة، واكتشف تجاوزات أخيه خوسيه أركاديو التي أضفيت عليها الشرعية. فألغى السجلات بجرة قلم. وفي لفتة لياقة أخيرة، أهمل شؤونه لساعة من الوقت، زار خلالها ريبيكا ليُطلعها على قراراته.

كانت الأرملة المتوحدة، في عتمة البيت، طيفاً من الماضي. وهي التي كانت، في أحد الأوقات، أمينة على غرامياته المقموعة، والتي أنقذ عنادها حياته. وجدها ملتفة بالسواد حتى معصميها، وقلبها متحول إلى رماد، ولا تكاد تدري بأخبار الحرب. راود الكولونيل أوريليانو بوينديا الإحساس بأن بريق فوسفورية عظامها ينفذ من جلدها، وأنها تتحرك في جو من الأضواء الكاذبة، وسط هواء راكد، حيث ما زالت تنبعث رائحة بارود خفية. بدأ بنصحها بأن تخفف من صرامة حدادها، وأن تهوي البيت، وأن تغفر للعالم موت خوسيه أركاديو. لكن ريبيكا كانت بمنأى عن كل أنواع الزهو. فبعد أن بحثت عنه، دون جدوى، في مذاق التراب، وفي رسائل بيترو كريسبي المعطرة، وفي سرير زوجها العاصف، وجدت السلام في ذلك البيت، حيث تجسدت الذكريات بقوة استحضارها

المتواصلة، وصارت الذكريات تمر ككائنات بشرية في الغرف الموصدة. وبينما ريبيكا ممددة في كرسيها الهزاز، تنظر إلى الكولونيل أوريليانو بوينديا، كما لو أنه هو من يبدو طيفاً من الماضي، لم تتأثر حين أخبرها بأن الأراضي التي اغتصبها خوسيه أركاديو ستُعاد إلى أصحابها الشرعيين.

- فليكن ما تشاء يا أوريليانو. - تنهدت، ثم أضافت:- لقد كنت أعتقد، على الدوام، بأنك ناكر للجميل، وها أنتذا تثبت ذلك الآن.

أُنجزت مراجعة وثائق الملكية في الوقت نفسه الذي جرت فيه المحاكمات السريعة برئاسة العقيد خيرينيلدو ماركيز، وقضت بإعدام كل ضباط الجيش النظامي الذين أسرهم الثوريون. وكان آخر مجلس حربي هو الذي حاكم الجنرال خوسيه راكيل مونكادا. تدخلت أورسولا، وقالت للكولونيل أوريليانو بوينديا: «إنه أفضل حاكم عرفناه في ماكوندو. ولست مضطرة لأن أقول لك شيئاً عن طيبة قلبه، وعن حبه لنا، لأنك خير من يعرف ذلك». صوب الكولونيل أوريليانو بوينديا نظر تأنيب إليها، وأجاب:

- لا يمكنني أن أدعي لنفسي سلطة إدارة العدالة. وإذا كان لديك ما تقولينه، فقوليه أمام المجلس الحربي.

لم تفعل أورسولا ذلك وحسب، بل أخذت للشهادة معها، كل أمهات الضباط الثوريين المقيمات في ماكوندو. وتوالت رائدات تأسيس القرية، وبينهن عدد ممن شاركن في اجتياز سلسلة الجبال الرهيب، على الإشادة بفضائل الجنرال مونكادا. وكانت أورسولا آخر المتكلمات. وقد تمكنت بوقارها المُفجع، ووزن اسمها، وقوة إقناع شهادتها، من بلبلة توازن العدالة للحظة. قالت لأعضاء

المحكمة: «لقد أخذتم هذه اللعبة المرعبة على محمل الجد، وقد أحسنتم صنعاً بذلك، لأنكم تقومون بواجبكم. لكن لا تنسوا أننا سنبقى أمهاتكم، مادام الله يمنحنا حياة. وأننا نملك الحق، مهما بلغت ثوريتكم، بأن نُنزل بناطيلكم، ونضربكم على مؤخراتكم لدى أول إساءة للاحترام.» انسحبت هيئة المحكمة للتداول، بينما آخر كلماتها مازالت تدوي في أجواء المدرسة المتحولة إلى ثكنة. وعند منتصف الليل، صدر الحكم بإعدام الجنرال خوسيه راكيل مونكادا. وبالرغم من توبيخ أورسولا العنيف، رفض الكولونيل أوريليانو بويندیا تخفيف الحكم. وقبل الفجر بقليل، ذهب لزيارة المحكوم في غرفة السجن.

- تذكر يا صاحبي أنني لست من يعدمك، وإنما الثورة.

لم يتكلف الجنرال مونكادا مجرد النهوض عن السرير العسكري حين رآه يدخل. وأجاب:

- فلتذهب إلى البراز يا صاحبي.

منذ عودته، وحتى هذه اللحظة، لم يكن الكولونيل أوريليانو بويندیا قد أتاح لنفسه فرصة رؤيته بقلبه. وقد ذُهل لمدى هرمه، وارتعاش يديه، والإذعان شبه الروتيني الذي ينتظر به الموت. عندئذ أحس باحتقار عميق لنفسه، أخطأ في الظن أنه بداية شفقة.

- أنت تعرف خيراً مني - قال - أن المجالس الحربية ليست سوى مهزلة، وأنه عليك في الحقيقة، أن تدفع ثمن جرائم آخرين، لأننا مصممون هذه المرة على كسب الحرب بأي ثمن. ولو أنك مكاني، أما كنت ستفعل الشيء نفسه؟

استوى الجنرال مونكادا جالساً، ليمسح بطرف قميصه النظارة التي إطارها من قوقعة سلحفاة كاري. وقال: «ربما. لكن ما يقلقني ليس إعدامي، لأن هذه الميتة، في آخر المطاف، هي الميتة الطبيعية لمن هم مثلنا». ووضع النظارة على السرير، ثم انتزع الساعة ذات السلسلة، وأضاف: «ما يقلقني هو أنك لشدة كراهيتك للعسكريين، وطول مقارعتك لهم، وكثرة تفكيرك بهم، انتهيت إلى أن تكون مثلهم. وليس هناك في الحياة مثل أعلى أكثر جدارة بالاحتقار». انتزع خاتم الزواج، وميدالية عليها رسم عذراء لوس ريميديوس، ووضعهما بجانب النظارة والساعة. وأنهى قائلاً:

- إذا واصلت بهذه الطريقة، فلن تصير أشد الديكتاتوريين طغياناً ودموية في تاريخنا وحسب، وإنما سيصل بك الأمر إلى إعدام أورسولا كي تهدئ ضميرك.

ظل الكولونيل أوريليانو بويندیا جامداً دون تأثر. وسلّم إليه الجنرال مونكادا عندئذ النظارة، والميدالية، والساعة والخاتم، وبدّل نبرة صوته:

- لكني لم أطلب منك المجيء كي أعنفك. أريد أن أتوسل منك الجميل بإرسال هذه الأشياء إلى زوجتي».

وضعها الكولونيل أوريليانو بويندیا في جيوبه:

- أما زالت في ماناوري؟

- مازالت في ماناوري - أكد الجنرال مونكادا - في البيت نفسه، وراء الكنيسة، حيث أرسلت تلك الرسالة.

فقال الكولونيل أوريليانو بويندیا:

- سأوصلها إليها بطيب خاطر يا خوسيه راكيل.

عندما خرج إلى هواء الزرقة الضبابية، تبلل وجهه، كما في فجر يوم آخر من الماضي. وعندئذ فقط، أدرك لماذا قرر أن يُنفذ الحكم في الباحة، وليس عند جدار المقبرة. كانت فصيلة الإعدام تصطف متأهبة قبالة الباب، فقدمت له تشريفات رئيس الدولة. وأصدر الأمر:

- صار بإمكانكم إحضاره.

كان العقيد خيرينيلدو ماركيز هو أول من أدرك خواء الحرب. فبحكم منصبه كقائد مدني وعسكري لماكوندو، كان يُجري مرتين كل الأسبوع، محادثات تلغرافية مع الكولونيل أوريليانو بويندبا. في البدء، كانت تلك المحادثات تحدد مسار حرب من لحم وعظم، أُطرها محددة تماماً، مما يتيح، في أي لحظة، معرفة الوضع الذي وصلت إليه، والتنبؤ بتوجهاتها التالية. وبالرغم من أن الكولونيل أوريليانو بويندبا لم يسمح لنفسه قط، بالانجرار إلى حدّ المناجاة الحميمة، حتى مع أقرب الأصدقاء إليه، إلا أنه كان يحتفظ آنذاك بلهجة حميمة، تتيح التعرف على صوته في الطرف الآخر من الخط. وكان يطيل، في أحيان كثيرة، تلك المحادثات أكثر من الحد المتوقع، ويسمح لها بالتطرق إلى تعليقات ذات طبيعة عائلية. ومع ذلك، ومع اشتداد الحرب واتساعها، راحت صورته تنمحي، شيئاً فشيئاً، في عالم من اللاواقع. فكانت نقاط صوته وشحطاته[1] تصير، في كل مرة، أكثر بعداً والتباساً، تتحد وتتركب لتشكل كلمات راحت تفقد، تدريجياً، كل معانيها. وكان العقيد خيرينيلدو ماركيز يكتفي عندئذ بالاستماع، يثقل عليه

[1] لا بد من تنبيه القارئ هنا إلى أن المحادثات التلغرافية المشار إليها لا ينتقل فيها صوت المتحدثين مباشرة، رغم أن السياق يوحي بذلك، وإنما الذي ينتقل هو رموز مورس التي تعتمد النقطة والشحطة لتتشكل منها الكلمات.

إحساس بأنه في اتصال تلغرافي مع شخص مجهول من عالم آخر. فكان ينهي الحديث على المبرقة:

- مفهوم يا أوريليانو. وليحيا الحزب الليبرالي!

انتهى به الأمر إلى فقدان كل صلة بالحرب. فما كان نشاطاً واقعياً، وشغفاً شبابياً لا يُقاوم، في زمن آخر، تحول بالنسبة إليه، إلى مرجعية نائية: إلى خواء. كان ملجؤه الوحيد هو مشغل خياطة أمارانتا. يذهب لزيارتها كل مساء. وكان يروقه تأمل يديها وهي تجعد طيات الموسلين على الماكينة ذات ذراع التدوير التي تديرها ريميديوس الجميلة. يُمضيان ساعات طويلة دون كلام، مكتفيين بالرفقة المتبادلة. ولكن، بينما أمارانتا تشعر بالسعادة في أعماقها، لإبقائها على نار إخلاصه متأججة، كان هو يجهل ما هي أسرار ذلك القلب الذي لا سبيل إلى فك رموزه. عندما عُرف نبأ عودته، اختنقت أمارانتا باللهفة. لكنها حين رأته يدخل البيت، مختلطاً بحراس الكولونيل أوريليانو بوينديا الصاخبين، مخشوشناً بقسوة المنفى، وهرماً بتقدم السن والنسيان، متسخاً بالعرق والغبار، يعبق برائحة قطيع، قبيحاً، يده اليسرى معلقة بحمالة إلى رقبته، أحست بالتراخي والوهن من خيبة الأمل، وفكرت: «رباه، ليس هذا هو من أنتظره». مع ذلك، عاد في اليوم التالي إلى البيت، حليقاً ونظيفاً، وقد عطر شاربه بماء الخزامى، ودون حمّالة الذراع الدامية. وكان يحمل إليها كتاب صلوات غلافه مرصع بالصدف.

- يا لغرابة الرجال! - قالت ذلك لأنها لم تجد شيئاً آخر تقوله، وأضافت:- يقضون العمر في القتال ضد الكهنة، ثم يقدمون كتب الصلوات هدية.

منذ ذلك الحين، وحتى في أشد أيام الحرب خطورة، صار يزورها كل مساء. وفي أحيان كثيرة، عندما لا تكون ريميديوس الجميلة موجودة، يقوم هو بتدوير عجلة آلة الخياطة. كانت آمارانتا تشعر بالارتباك حيال دأب، ووفاء، وخضوع ذلك الرجل ذي السلطات الواسعة، والذي ينزع، مع ذلك، أسلحته في الصالون، كي يدخل أعزل إلى غرفة الخياطة. ولكنه أعاد التأكيد لها على حبه طوال أربع سنوات، وكانت تجد دوماً طريقة لصده دون أن تجرحه، لأنها وإن لم تتوصل إلى أن تحبه، فإنها لم تعد قادرة على العيش من دونه. أما ريميديوس الجميلة، وكانت تبدو غير مدركة لأي شيء، ويظنونها متخلفة ذهنياً، فلم تكن متبلدة الشعور تجاه كل ذلك الإخلاص، وتدخلت لمصلحة العقيد خيرينيلدو ماركيز. اكتشفت آمارانتا فجأة أن تلك الطفلة التي ربتها، والتي لم تكد تبلغ سن المراهقة، قد صارت أجمل مخلوقة عرفتها ماكوندو. وأحست في قلبها بتولد الحقد الذي أحست به، في زمن آخر، تجاه ريبيكا، فتضرعت إلى لله ألا يجرجرها إلى حد تمني الموت لها، وأقصتها عن غرفة الخياطة. وكان أن بدأ العقيد خيرينيلدو ماركيز، يشعر بالاشمئزاز من الحرب، في تلك الفترة. فاستعان بكل احتياطيه من القدرة على الإقناع، وبحنانه الهائل المكبوح، وباستعداده للتخلي، من أجل آمارانتا، عن مجد كلفه التضحية بأفضل سنوات حياته. لكنه لم يتمكن من إقناعها. وفي عصر يوم من شهر آب، حبست آمارانتا نفسها في غرفتها، مثقلة بعبء عنادها الذي لا يطاق، لتبكي وحدتها حتى الموت، بعد أن أعطت جوابها الحاسم للمتودد العنيد:

- فلينس كل منا الآخر إلى الأبد - قالت له - فقد كبرنا كثيراً

على هذه الأشياء.

ذهب العقيد خيرينيلدو ماركيز، عصر ذلك اليوم، لإجراء اتصال تلغرافي مع الكولونيل أوريليانو بوينديا. وقد كانت محادثة روتينية، إذ لم يكن ثمة سبيل لفتح أية ثغرة في الحرب الراكدة. ولدى الانتهاء، تأمل العقيد خيرينيلدو ماركيز الشوارع المقفرة، والمياه المتبلورة على أشجار اللوز، ووجد نفسه ضائعاً في العزلة، فقال بحزن على جهاز الإرسال:

- إنها تُمطر في ماكوندو يا أوريليانو.

تلا ذلك صمت طويل على الخط. وفجأة اهتزت الأجهزة بالرموز التي أرسلها، دون رحمة، الكولونيل أوريليانو بوينديا. وكانت الرموز تقول:

- لا تكن نذلاً يا خيرينيلدو. من الطبيعي أن يهطل المطر في آب.

كان قد مضى عليهما وقت طويل لم يلتقيا فيه، مما حيّر العقيد خيرينيلدو ماركيز من عدوانية ذلك الجواب. ومع ذلك، فقد انقلبت حيرته إلى ذهول، بعد شهرين من ذلك، عندما رجع الكولونيل أوريليانو بوينديا إلى ماكوندو. حتى إن أورسولا نفسها فوجئت بمدى تبدله. لقد جاء بلا صخب، وبلا حراس، ملتفاً ببطانية على الرغم من الحر، ومعه ثلاث عشيقات أسكنهن في بيت واحد، حيث كان يقضي معظم الوقت مستلقياً في أرجوحة. ولا يكاد يفعل شيئاً سوى قراءة الرد على البرقيات التي تحمل أخبار العمليات الروتينية. وفي إحدى المناسبات، طلب منه العقيد خيرينيلدو ماركيز التعليمات من أجل إخلاء موقع حدودي يهدد بالتحول إلى نزاع دولي، فأمره قائلاً:

-لا تزعجني بالصغائر. أستشر في ذلك العناية الإلهية.

ربما كانت تلك أكثر فترات الحرب حرجاً. فالإقطاعيون الليبراليون الذين دعموا الثورة في البدء، عقدوا تحالفات سرية مع الإقطاعيين المحافظين، للحيلولة دون إعادة النظر بصكوك الملكية. أما السياسيون الذين يزيدون أرباحهم من الحرب وهم في المنفى، فرفضوا علناً قرارات الكولونيل أوريليانو المتشددة؛ ولكنه لم يبدِ أي اهتمام بهذا الاستنكار. ولم يعد يقرأ أشعاره، وكانت تشكل خمسة مجلدات، ظلت منسية في قعر الصندوق. وفي الليل، أو في ساعة القيلولة، كان يدعو إلى أرجوحته واحدة من نسائه، فينال منها لذة بدائية، ثم ينام نوماً حجرياً لا يعكره أدنى مؤشر على القلق. كان هو وحده، في ذلك الحين، من يعلم أن قلبه المرتبك، محكوم عليه بالتردد إلى الأبد. لقد كان، في البدء، ثملاً بأمجاد العودة، والانتصارات غير المعقولة، وكان قد أطل على هوة العظمة. وكان يسعده أن يبقي إلى يمينه دوق مارلبورو، معلمه الكبير في فنون الحرب، والذي كان لباسه من الفراء ومخالب النمر يبعث مشاعر الاحترام في الكبار، والفزع في الأطفال. وكان أن قرر آنذاك عدم السماح لأي كائن بشري، بمن في ذلك أورسولا، الاقتراب منه أقل من ثلاثة أمتار. وفي وسط دائرة الطباشير التي كان أعوانه يرسمونها في أي مكان يصله، ولا يمكن لأحد سواه دخولها، كان يقرر مصير العالم بأوامر مقتضبة لا تقبل الاستئناف.

في المرة الأولى التي ذهب فيها إلى ماناوري، بعد إعدام الجنرال مونكادا، سارع إلى تنفيذ الرغبة الأخيرة لضحيته، وتلقت الأرملة النظارة والميدالية والساعة والخاتم، لكنها لم تسمح له

بتخطي باب بيتها.

- لا تدخل أيها الكولونيل. - قالت له - أنت آمر في حربك، ولكنني أنا الآمرة في بيتي.

لم يُبدِ الكولونيل أوريليانو بوينديا أي إمارة من إمارات الحقد، لكن روحه لم تعرف السكينة إلا بعد أن نهب حراسه الشخصيون بيت الأرملة وحولوه إلى رماد. وكان العقيد خيرينيلدو ماركيز يقول له آنذاك: «انتبه إلى قلبك يا أوريليانو. إنك تتعفن حياً». وفي تلك الفترة، دعا قادة الثوار الرئيسيين إلى اجتماع عام ثان. فوجد بينهم من كل شيء: مثاليين، وطموحين، ومغامرين، وحاقدين اجتماعياً، وحتى مجرمين عاديين. بل كان بينهم كذلك موظف سابق من المحافظين، لجأ إلى الثورة هرباً من محاكمة بتهمة اختلاس الأرصدة. كثيرون منهم لم يكونوا يعرفون لماذا يقاتلون. ووسط ذلك الحشد المتنوع، ممن أوشك اختلافهم في وجهات النظر أن يُحدث انفجاراً داخلياً، تميز شخص قيادي غامض: الجنرال تيوفيلو بارغاس. كان هندياً خالصاً، خشن الطباع، أمياً، مزوداً بمكر صامت، وإيمان بعودة المسيح يبعث في رجاله تعصباً جنونياً. لقد عقد الكولونيل أوريليانو بوينديا الاجتماع بهدف توحيد قيادة الثورة في مواجهة مناورات السياسيين. وقد تجاوز الجنرال تيوفيلو بارغاس مقاصده، فأفسد في بضع ساعات تحالف أفضل القادة تأهيلاً، واستولى على القيادة المركزية. عندئذ قال الكولونيل أرويليانو بوينديا لضباطه: «إنه وحش ضار لا بد من الحذر منه. هذا الرجل أخطر علينا من وزير الحربية». فرفع نقيب شاب، تميز دوماً بخجله، إصبعه السبابة بحذر، واقترح:

- الأمر بسيط جداً أيها الكولونيل. لا بد لنا من قتله.

لم يتأثر الكولونيل أوريليانو بويندیا من برودة الاقتراح، وإنما من الطريقة في استباق تفكيره بالذات بجزء من الثانية. وقال:

- لا تنتظروا مني أن أُصدر هذا الأمر.

لم يصدره فعلاً. ولكن، بعد خمسة عشر يوماً، جرى تمزيق الجنرال تيوفيلو بارغاس إرباً بالفؤوس في كمين، وتولى الكولونيل أوريليانو بويندیا القيادة المركزية. وفي الليلة نفسها التي اعترف فيها قادة الثورة جميعاً بسلطته، هب من النوم مرتعداً، وصرخ طالباً بطانية. كان برد داخلي يحز عظامه، ويعذبه حتى في أوج سطوع الشمس، وقد حرمه من النوم جيداً عدة شهور، إلى أن تحول الأرق إلى عادة لديه. بدأت نشوة السلطة تتفسخ إلى هبّات قلق وغم. بحث عن علاج للبرد، وأمر بإعدام الضابط الشاب الذي اقترح اغتيال الجنرال تيوفيلو بارغاس. صارت أوامره تنفذ قبل أن تصدر، بل قبل أن يتصورها هو نفسه، وتصل دوماً أبعد كثيراً مما يمكن له هو نفسه أن يجرؤ على إيصالها. وفي تيه عزلة سلطته الواسعة، بدأ يفقد الاتجاه. كان يشعر بالضيق من الناس الذين يهتفون له في القرى المهزومة، ويبدون له أنهم الناس أنفسهم الذين يهتفون للعدو. وفي كل مكان يحل فيه، يجد فتية يافعين ينظرون إليه بعينيه، ويتكلمون بصوته، ويحيونه بالحذر نفسه الذي يحييهم به، ويقولون إنهم أبناؤه. أحس أنه موزع، مكرر. وأكثر وحدة من أي وقت آخر. توصل إلى القناعة بأن ضباطه أنفسهم يكذبون عليه. واختصم مع دوق مارلبورو. وصار من عادته القول حينذاك: «خير الأصدقاء هو الصديق الميت.» تعب من شكوكه، ومن الحلقة المفرغة لتلك الحرب الأبدية التي

تجده دائماً في المكان نفسه، ولكنه أكثر شيخوخة في كل مرة، أكثر تلفاً، وأكثر جهلاً بلماذا، وكيف، وإلى متى. وهناك دائماً أحد ما خارج دائرة الطباشير. أحد بحاجة إلى مال، أو لديه ابن مصاب بالسعال الديكي، أو يريد أن ينام إلى الأبد لأنه لم يعد يطيق، في فمه، طعم براز الحرب، ولكنه يتأهب محيياً، مع ذلك، بآخر ما تبقى لديه من طاقة، كي يقول: «كل شيء طبيعي، سيدي الكولونيل». والطبيعي تحديداً هو أكثر الأمور رعباً في تلك الحرب غير المتناهية، لأنه يعني: لا يحدث أي شيء. كان وحيداً، تخلت عنه النبوءات، يهرب من البرد الذي سيرافقه حتى موته، فيبحث عن ملجأ أخير في ماكوندو، على حرارة أقدم ذكرياته. لقد بلغ حداً خطراً من الاسترخاء، حتى إنه عندما أخبروه بمجيء لجنة من الحزب، مخولة بمناقشة المفترق الذي وصلت إليه الحرب، استدار في أرجوحته، دون أن يستيقظ تماماً. وقال:

- خذوهم إلى حيث العاهرات.

كانوا ستة محامين يرتدون سترات طويلة وقبعات التشريفات، ويتحملون بصبر قاس حدّة شمس تشرين الثاني. استضافتهم أورسولا في البيت. فكانوا يقضون معظم النهار في غرفة النوم، في اجتماعات سرية مغلقة، وعند الغروب، يطلبون حرساً وفريقاً من عازفي الأكورديونات، ويستأجرون وحدهم حانوت كاتارينو. وأمر الكولونيل أوريليانو بوينديا: «لا تزعجوهم. فأنا أعرف، في نهاية المطاف، ما الذي يريدونه». وفي أوائل كانون الأول، جرى اللقاء الذي انتُظر طويلاً، وكان كثيرون يتوقعون أنه سيكون جدلاً بلا نهاية، ولكنه انتهى في أقل من ساعة.

في صالة الاستقبال الحارة، إلى جانب شبح البيانولا المغطى

بملاءة بيضاء، لم يجلس الكولونيل أوريليانو بويندبا، هذه المرة، ضمن دائرة الطباشير التي رسمها معاونوه. شغل مقعداً بين مستشاريه السياسيين، واستمع بصمت، وهو متدثر ببطانيته صوفية، إلى مقترحات المبعوثين المقتضبة. كانوا يطلبون، في المقام الأول، التخلي عن التدقيق في وثائق ملكية الأراضي، من أجل استعادة تأييد الإقطاعيين الليبراليين. وفي المقام الثاني، التخلي عن النضال ضد النفوذ الكهنوتي، من أجل الحصول على دعم الشعب الكاثوليكي. ويطلبون أخيراً، التخلي عن تطلعات المساواة في الحقوق بين الأبناء الطبيعيين والشرعيين، للحفاظ على التماسك الأسري.

ابتسم الكولونيل أوريليانو بويندبا عندما انتهت القراءة:

- هذا يعني أننا نناضل من أجل السلطة فقط.

فأجاب أحد المندوبين:

- إنها إصلاحات تكتيكية. فالأمر الجوهري الآن، هو توسيع القاعدة الشعبية للحرب. وبعد ذلك سنرى.

وسارع أحد مستشاري الكولونيل أوريليانو بويندبا السياسيين إلى التدخل:

- الأمر ينطوي على تناقض. إذا كانت هذه الإصلاحات جيدة، فهذا يعني أن النظام المحافظ جيد. وإذا كنا سنتوصل، بفضلها، إلى توسيع القاعدة الشعبية للحرب، مثلما تقولون، فهذا يعني أن لدى النظام قاعدة شعبية واسعة. ويعني بالتالي، أننا ناضلنا ما يقرب من عشرين عاماً ضد مشاعر الأمة.

وكان سيواصل كلامه، لكن الكولونيل أوريليانو بويندبا قاطعه بإيماءة، وقال: «لا تضيع وقتك يا دكتور. المهم أننا لم نعد نناضل،

منذ هذه اللحظة، إلا من أجل السلطة. ودون أن يتوقف عن الابتسام، تناول الأوراق التي قدمها إليه المندوبون، واستعد للتوقيع وهو يخلص إلى القول:

- ما دامت الأمور على هذه الحال، فليس لدينا أي مانع للقبول.

تبادل رجاله النظرات مذهولين. وقال العقيد خيرينيلدو ماركيز برقة:

- اعذرني أيها الكولونيل. ولكن هذا خيانة.

أوقف الكولونيل أوريليانو بوينديا، في الهواء، الريشة المغموسة في الحبر، وصب عليه كل ثقل سلطته، وقال آمراً:

- سلمني سلاحك.

نهض العقيد خيرينيلدو ماركيز، ووضع أسلحته على المنضدة.

- قدم نفسك في الثكنة - أمره الكولونيل أوريليانو بوينديا، وأضاف:- ستوضع تحت تصرف المحاكم الثورية.

ثم وقَّع القرار، وسلَّم الأوراق للمندوبين قائلاً لهم:

- أيها السادة، إليكم أوراقكم. وهنيئاً لكم.

بعد يومين من ذلك، حُكم على العقيد خيرينيلدو ماركيز بالموت، بتهمة الخيانة العظمى. ولم يتأثر الكولونيل أوريليانو بوينديا، المتهالك في أرجوحة نومه، بالتوسلات المطالبة بالرحمة. وعشية تنفيذ الحكم، ودون انصياع لأوامره بعدم إزعاجه، زارته أورسولا في غرفته. كانت مسربلة بالسواد الكامل، يحيط بها وقار نادر، وقد ظلت واقفة خلال الدقائق الثلاث التي دامتها المقابلة. قالت بهدوء: «أعرف أنك ستعدم خيريليندو رمياً بالرصاص، ولا يمكنني عمل شيء لمنع ذلك. ولكني أنبهك إلى أمر: أقسم لك

بعظام أبي وأمي، وبذكرى خوسيه أركاديو بويندي، وأقسم لك أمام الله، إني سأُخرجك أينما اختبأت، فور رؤيتي الجثة، وسأقتلك بيدي هاتين.» وقبل أن تغادر الغرفة، ودون أن تنتظر أي جواب، أنهت كلامها بالقول:

- وهذا ما كنت فعلته لو أنك ولدت بذنب خنزير.

في تلك الليلة الطويلة، وبينما العقيد خيرينيلدو ماركيز يستذكر أمسياته الميتة في حجرة خياطة آمارانتا، حكّ الكولونيل أوريليانو بويندي قشرة وحدته القاسية، لساعات طويلة، في محاولة لكسرها. كانت لحظات سعادته الوحيدة، منذ ذلك المساء البعيد الذي أخذه فيه أبوه ليتعرف إلى الجليد، هي تلك التي أمضاها في مشغل الصياغة، حيث كان الوقت ينقضي وهو يركّب الأسماك الذهبية الصغيرة. لقد وجد نفسه مضطراً إلى إشعال نيران اثنتين وثلاثين حرباً، واضطر إلى خرق كل عهوده مع الموت والتمرغ كخنزير في مزبلة المجد، كي يكتشف، بتأخير يقارب الأربعين عاماً، امتيازات البساطة.

عند الفجر، وكان محطماً من السهر المعذِب، ظهر في غرفة السجن قبل ساعة من موعد تنفيذ حكم الإعدام. قال للعقيد خيرينيلدو ماركيز: «انتهت المهزلة يا صاحبي. فلنرحل من هنا، قبل أن يرميك البعوض بالرصاص.» لم يستطع العقيد خيرينيلدو ماركيز كبح الازدراء الذي يوحي به ذلك الموقف إليه، وأجاب:

- لا يا أوريليانو. أفضل الموت على رؤيتك متحولاً إلى غدار.

فقال الكولونيل أوريليانو بويندي:

- لن تراني كذلك. انتعل حذاءك وساعدني في إنهاء حرب البراز هذه.

حين قال ذلك، لم يكن يتصور أن بدء حرب هو أسهل بكثير من إنهائها. فقد احتاج إلى سنة من الصرامة الدامية، كي يجبر الحكومة على اقتراح شروط صلح مواتية للثوار، وإلى سنة أخرى كي يقنع أنصاره بملاءمة القبول بها. ووصل إلى حدود من القسوة لا يمكن تصورها، ليخمد تمردات ضباطه الذين رفضوا المتاجرة بالانتصار، وانتهى به الأمر إلى الاستعانة بقوات معادية لإخضاعهم.

لم يكن محارباً قطّ، مثلما كان آنذاك. فيقينه بأنه يحارب، أخيراً، في سبيل حريته بالذات، وليس في سبيل مثل عليا مجردة، أو في سبيل شعارات يمكن للسياسيين أن يقلبوها على هذا الوجه أو ذاك، حسب الظروف، بث فيه حماسة متأججة. وكان العقيد خيرنيليدو ماركيز الذي قاتل من أجل الهزيمة، بالقناعة الراسخة والإخلاص الكبير نفسيهما اللذين قاتل بهما، من قبل، من أجل النصر، يلومه على تهوره غير المجدي. فكان يجيبه مبتسماً: «لا تقلق. فالموت أصعب مما يظنه أحدنا». وكان ذلك صحيحاً في حاله. فيقينه بأن ميعاد موته مقدر، أحاطه بحصانة غامضة، بخلود إلى أجل ثابت، جعله لا يتأثر بمجازفات الحرب وأخطارها، وأتاح له أخيراً، الفوز بهزيمة أصعب بكثير، وأشد دموية وأعلى كلفة من الانتصار.

خلال ما يقارب عشرين سنة من الحرب، رجع العقيد أوريليانو بويندیا، مرات كثيرة، إلى البيت؛ لكن حالة الاستعجال التي كان يصل بها دائماً، والجهاز العسكري الذي يرافقه في كل مكان، وهالة الأسطورة التي تشع من حضوره، وتؤثر حتى في أورسولا نفسها، حولته في النهاية إلى غريب. وفي المرة الأخيرة التي جاء

فيها إلى ماكوندو، واتخذ بيتاً لخليلاته الثلاث، لم يزر بيته إلا مرتين أو ثلاث مرات، عندما أتيح له الوقت لتلبية دعوة لتناول الطعام. كانت ريميديوس الجميلة، والتوأمان اللذان ولدا خلال الحرب، لا يكادون يعرفونه. ولم تكن آمارانتا قادرة على مطابقة صورة الأخ الذي أمضى مراهقته في صنع الأسماك الذهبية الصغيرة، وصورة المحارب الأسطوري الذي فرض مسافة ثلاثة أمتار، تفصل بينه وبين بقية البشرية. ولكن عندما عُرف اقتراب موعد الهدنة، وظنوا أنه سيعود مرة أخرى متحولاً إلى كائن بشري، ومستعاداً أخيراً إلى قلب ذويه، راحت المحبة الأسرية الهاجعة طويلاً، بالانبعاث بقوة أكبر من أي وقت آخر. وقالت أورسولا:

- أخيراً، سيكون لدينا رجل في البيت من جديد.

كانت آمارانتا أول من خامرتها الظنون بأنهم فقدوه إلى الأبد. فقبل أسبوع من الهدنة، عندما دخل البيت دون حرس، يتقدمه حاجبان حافيان، وضعا في الردهة سرج البغلة، وصندوق أشعاره، الحصيلة الوحيدة المتبقية من أمتعته الإمبراطورية القديمة، رأته يمر أمام غرفة الخياطة، فنادته. بدا على الكولونيل أوريليانو بويندیا أنه يجد صعوبة في التعرف إليها.

- أنا آمارانتا - قالت له بمزاج طيب، سعيدة برجوعه، وأرته يدها في الضماد الأسود، قائلة:- انظر.

ابتسم لها الكولونيل أوريليانو بويندیا الابتسامة نفسها التي أبداها حين رآها بالضماد أول مرة، في ذلك الصباح البعيد الذي رجع فيه إلى ماكوندو محكوماً عليه بالإعدام، وقال:

- يا للهول. كيف يمضي الزمن!

كان على الجيش النظامي أن يحمي البيت. فقد تعرض للمضايقة، والبصاق، والاتهام بأنه أعاد إشعال الحرب لمجرد بيعها بثمن أكبر. كان يرتجف من الحمى والبرد، وقد ملأت الدمامل إبطيه من جديد. قبل ستة أشهر من ذلك، عندما سمعت أورسولا الأحاديث عن الهدنة، فتحت غرفة العرس ونظفتها، وأحرقت المرّ في أركانها، معتقدة أنه سيرجع مستعداً لأن يشيخ بهدوء بين دمى ريميديوس المتعفنة. ولكنه في الواقع، كان قد دفع للحياة في السنتين الأخيرتين، حصصها النهائية، بما فيها حصة الشيخوخة. وعندما مرّ أمام مشغل الصياغة الذي هيأته أورسولا بعناية خاصة، لم يلحظ أن المفاتيح كانت في القفل. لم يلمح آثار الخراب الصغيرة والمؤثرة التي أحدثها الزمن في البيت، والتي يمكن لها أن تبدو كارثة، بعد طول الغياب، لأي رجل يحتفظ بذكرياته حية. لم تؤلمه البقع التي تقشر الكلس عنها في الجدران، ولا شِباك العنكبوت المتسخة في الأركان، ولا غبار البيغونيا، ولا خطوط النمل الأبيض في خشب عوارض السقف، ولا الطحالب في مفصلات الأبواب، ولا أي شرك من الشراك المخادعة التي ينصبها له الحنين. جلس في الردهة، ملتفاً بالبطانية، ودون أن يخلع جزمته، كما لو أنه لا ينتظر إلا ريثما ينقطع المطر. وظل طوال المساء ينظر إلى هطول المطر على البيغونيا. عندئذ أدركت أورسولا أنها لن تحتفظ به طويلاً في البيت. وفكرت: «إذا لم تكن الحرب، فلا بد أن يكون الموت هو الذي سيأخذه». وكانت فرضية شديدة الوضوح، وبالغة الإقناع، إلى حد اعتقدت معه أنها نبوءة.

تلك الليلة، وأثناء العشاء، فَتَّ من يُعتقد أنه أوريليانو الثاني الخبز بيده اليمنى، وأكل الحساء باليسرى. أما أخوه التوأم، من

يُعتقد أنه خوسيه أركاديو الثاني، ففتت الخبز باليد اليسرى، وأكل الحساء باليمنى. وقد بلغت دقة تناسق حركاتهما حداً لا يبدوان معه أخوين يجلس أحدهما قبالة الآخر، وإنما لعبة مرايا. هذا المشهد الذي وضع التوأمان تصورهما له، منذ وعيهما للتشابه بينهما، كرراه تكريماً للقادم الجديد. لكن الكولونيل أوريليانو بوينديا لم ينتبه إليه. كان يبدو غير مهتم بأي شيء، حتى إنه لم ينتبه إلى ريميديوس الجميلة التي مرّت عارية باتجاه غرفتها. وكانت أورسولا هي الوحيدة التي تجرأت على تعكير شرود ذهنه. فقالت له في منتصف العشاء:

- إذا كنت سترحل مرة أخرى، حاول على الأقل، أن تتذكر كيف كانت هذه الليلة.

عندئذ انتبه الكولونيل أوريليانو بوينديا، دون دهشة، إلى أن أورسولا هي الكائن البشري الوحيد الذي توصل إلى التغلغل إلى أعماق بؤسه، وتجرأ للمرة الأولى منذ سنوات عديدة، على النظر مباشرة إلى وجهها. كانت بشرتها مشققة، وأسنانها منخورة، وشعرها ذابلاً وبلا لون، ونظرتها ذاهلة. قارنها بأقدم ذكرى لديه منها، في ذلك المساء الذي أتته نبوءة بأن قِدراً تغلي، ستسقط عن المائدة، ورآها تقع مفتتة على الفور. واكتشف فجأة الخدوش، والآثار، والجراح، والقروح، والندوب التي خلّفها فيها أكثر من نصف قرن من الحياة اليومية، وتبين أن كل تلك الأضرار لا تبعث فيه أي إحساس بالشفقة. وبذل عندئذ جهداً أخيراً، ليبحث في قلبه عن الموضع الذي تعفنت فيه العواطف، فلم يستطع العثور عليه. لقد كان يراوده في أزمنة أخرى، على الأقل، إحساس غامض بالخجل عندما يكتشف رائحة أورسولا، فجأة، في جلده؛

وقد أحس، في أكثر من مناسبة، بأفكاره تتداخل مع أفكارها. لكن ذلك كله قوضته الحرب. وحتى ريميديوس نفسها، زوجته، لم تكن في تلك اللحظة إلا صورة غائمة لمخلوقة كان يمكن لها أن تكون ابنته. والنساء اللواتي لا حصر لهن، ممن عرفهن في صحراء الحب، ونثرن بذوره على امتداد الساحل، لم يتركن أي أثر في مشاعره. معظمهن كنّ يدخلن الغرفة في الظلام، ويغادرن قبل الفجر، فيكاد لا يبقى منهن في اليوم التالي، سوى قليل من الضجر في الذاكرة الجسدية. العاطفة الوحيدة التي صمدت في مواجهة الزمن والحرب، هي التي أحس بها نحو أخيه خوسيه أركاديو، عندما كانا طفلين، ولم تكن تستند إلى الحب، وإنما إلى التواطؤ.

- أعذريني - قال معتذراً حيال طلب أورسولا -. فقد قضت هذه الحرب على كل شيء.

انهمك في الأيام التالية في تدمير كل آثر لمروره في الدنيا. بسّط محتويات مشغل الصياغة إلى أن لم يُبقِ فيه إلا الأشياء غير الشخصية، وأهدى ملابسه إلى الحاجبين، ودفن أسلحته في الفناء، بحس الندم نفسه الذي دفن به أبوه الرمح الذي تسبب في موت برودينثيو أغيلار. ولم يحتفظ إلا بمسدس فيه رصاصة واحدة. لم تتدخل أورسولا. والمرة الوحيدة التي ثنته عن أفعاله، هي عندما كان على وشك تحطيم صورة ريميديوس المحفوظة في الصالون، ينيرها مصباح أبدي. وقد قالت له: «هذه الصورة لم تعد ملكاً لك منذ زمن طويل. إنها أثر من آثار الأسرة.» وعشية الهدنة، حين لم يبق في البيت شيء واحد يتيح تذكره، حمل الصندوق الذي يضم أشعاره إلى حجرة صنع الخبز، في اللحظة

التي كانت صوفيا قديسة الرحمة تستعد لإشعال الفرن.

- أشعليه بهذه - قال لها وهو يقدم إليها أول رزمة من الأوراق المصفرة:- سيكون اشتعاله أفضل، لأنها أشياء قديمة جداً.

أحست صوفيا قديسة الرحمة، الصموت، المتنازلة، والتي لا تعارض حتى أبنائها، بأن ما ستفعله عمل ممنوع. فقالت:

- إنها أوراق مهمة.

- لا شيء من هذا - قال الكولونيل - إنها أشياء يكتبها المرء لنفسه.

- احرقها أنت بنفسك إذاً، أيها الكولونيل.

لم يفعل ذلك وحسب، وإنما حطم الصندوق بفأس صغيرة، وألقى بقطع خشبه إلى النار. قبل ساعات من ذلك، جاءت بيلار تيرنيرا لزيارته. كانت قد مضت سنوات طويلة دون أن يراها، فذهل الكولونيل أوريليانو بوينديا لمدى هرمها وبدانتها، ومدى ما فقدته من روعة ضحكتها، ولكنه ذهل أيضاً للتعمق الذي أحرزته في قراءة ورق اللعب. قالت له: «حذار من فمك». وتساءل إذا لم يكن قولها هذا، في المرة السابقة، وهو في أوج المجد، رؤيا مسبقة ومذهلة لقدره. وبعد قليل، عندما انتهى طبيبه من استئصال دماملِه، سأله هو دون أن يبدي اهتماماً خاصاً، عن الموضع الدقيق للقلب. ففحصه الطبيب بالسماعة، ورسم له بعد ذلك دائرة على صدره، بقطعة قطن مبللة باليود.

أشرق يوم ثلاثاء الهدنة دافئاً وماطراً. ظهر الكولونيل أوريليانو بوينديا في المطبخ قبل الساعة الخامسة، وتناول قهوته المعهودة بلا سكر. قالت له أورسولا: «في يوم مثل هذا اليوم جئتَ إلى الدنيا. وقد ذعر الجميع من عينيك المفتوحتين.» لم يولها اهتماماً،

لأنه كان منصرفاً إلى استعدادات الجيش، وعزف الأبواق، والأصوات الآمرة التي تعكر الفجر. ومع أنه كان لا بد لتلك الأصوات من أن تبدو له أليفة، بعد كل السنين في الحرب، إلا أنه أحس، هذه المرة، بالخور في ركبتيه، وبالقشعريرة في جلده، بالشعور نفسه الذي أحس به في شبابه، أمام امرأة عارية. وفكر باضطراب، وقد وقع أخيراً في أحد أفخاخ الحنين، بأنه لو تزوج من تلك المرأة، لكان رجلاً بلا حرب ولا أمجاد، لكان حرفياً بلا اسم، حيواناً سعيداً. هذه الرعشة المتأخرة، غير الواردة في توقعاته، مرمرت فطوره. وفي الساعة السادسة صباحاً، عندما جاء العقيد خيرينيلدو ماركيز بحثاً عنه، برفقة جماعة من الضباط الثوار، وجده أكثر صمتاً من أي وقت مضى، أكثر عزلة واستغراقاً في أفكاره. حاولت أورسولا أن تلقي على كتفيه بطانية جديدة، قائلة له: «ما الذي ستظنه الحكومة. سيظنون أنك استسلمت لأنك لم تعد تملك ما يكفي لشراء بطانية». لكنه لم يقبل البطانية. وعند الباب، بينما هو يرى تواصل هطول المطر، سمح بأن توضع على رأسه قبعة من اللبد كانت لخوسيه أركاديو بوينديا.

عندئذ قالت له أورسولا:

- أوريليانو، عدني، إذا ما واجهت هناك ساعة شؤمك، أن تفكر بأمك.

ابتسم لها ابتسامة نائية، ورفع يده فاتحاً كل أصابعها. ودون أن يقول كلمة واحدة، غادر البيت، وواجه الصيحات، والتنديد، والسباب الذي سيرافقه حتى مخرج القرية. ووضعت أورسولا العارضة في الباب، مصممة على عدم انتزاعها طوال ما تبقى من

حياتها. وفكرت: «سنتعفن هنا في الداخل. سنتحول إلى رماد في هذا البيت الذي بلا رجال، لكننا لن نمنح هذه القرية البائسة متعة رؤيتنا نبكي». وأمضت الصباح كله في البحث عن ذكرى من ابنها، في أشد الأركان سرية، لكنها لم تعثر على شيء.

أقيم الاحتفال على بعد عشرين كيلومتراً من ماكوندو، في ظل شجرة ثيبو عملاقة، ستقام حولها في ما بعد، قرية نيرلانديا. وقام على خدمة مندوبي الحكومة والأحزاب، ولجنة الثوار التي سلمت الأسلحة، فريق صاخب من راهبات مستجدات، يرتدين مسوحاً بيضاء، تجعلهن يبدون كأنهن سرب حمائم مذعور من المطر. ووصل الكولونيل أوريليانو بويندیا على بغلة ملطخة بالوحل. ذقته غير حليقة. يعذبه ألم الدمامل أكثر مما يعذبه إخفاق أحلامه الذريع. فقد وصل إلى نهاية أي أمل، إلى ما وراء المجد والحنين إلى المجد. ووفقاً لما اشترطه هو نفسه، لم تكن هناك موسيقى، ولا ألعاب نارية، ولا نواقيس ابتهاج، ولا هتافات، ولا أي مظهر آخر يمكن له أن يُفسد الطابع المُحزن للهدنة. والمصور المتجول الذي التقط له الصورة الوحيدة التي كان بالإمكان الاحتفاظ بها، أُجبر على إتلاف الصفائح السلبية قبل تظهيرها.

لم يدم الاحتفال أكثر مما هو لازم لختم التواقيع. فحول منضدة خشنة، وضعت وسط خيمة سيرك مُرَقَّعة، حيث جلس المندوبون، كان هناك آخر الضباط المحافظين على ولائهم للكولونيل أوريليانو بويندیا. وقبل أخذ التواقيع، حاول الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية أن يقرأ، بصوت عال، محضر الاستسلام، لكن العقيد أوريليانو بويندیا عارضه قائلاً: «لا حاجة لإضاعة الوقت في الشكليات»، واستعد للتوقيع على الأوراق دون

قراءتها. فكسر أحد ضباطه عندئذ، الصمت المنوِّم في الخيمة، وقال:

- أيها الكولونيل، قدم لنا جميلاً بألا تكون أول الموقعين.

استجاب له الكولونيل أوريليانو بويندبا. وبعد أن دارت الوثيقة دورة كاملة حول المنضدة، وسط صمت بالغ الصفاء، يمكن معه فك رموز التواقيع من خربشة الريشة على الورق، كان المكان الأول لا يزال أبيض. استعد الكولونيل أوريليانو بويندبا لملء ذلك الفراغ.

- أيها الكولونيل - قال عندئذ ضابط آخر من ضباطه:- ما زال لديك الوقت لتظل على ما يرام.

ودون أن يرتبك، وقّع الكولونيل أوريليانو بويندبا النسخة الأولى. ولم يكن قد انتهى من توقيع النسخة الأخيرة، عندما ظهر في مدخل الخيمة عقيد ثائر، يمسك عنان بغلة محمّلة بصندوقين. وبالرغم من شبابه الغض، كان له مظهر جاف، وملامح الصبر والجلد. إنه خازن الثورة في منطقة ماكوندو. وقد قام برحلة شاقة لستة أيام، وهو يجر البغلة المشرفة على الموت جوعاً، كي يصل في الوقت المناسب إلى موقع الهدنة. وبأناة مثيرة للحنق، أنزل الصندوقين، وفتحهما، وراح يضع على المنضدة، واحدة فواحدة، اثنتين وستين سبيكة ذهبية. لم يكن هناك من يتذكر وجود هذه الثروة. ففي فوضى السنة الأخيرة، عندما تمزقت القيادة المركزية، وانحدرت الثورة إلى خصومات دامية بين أمراء الحرب، صار من المستحيل تحديد أية مسؤولية. وذهب الثورة، المصهور في سبائك، والذي غطي بعد ذلك بطبقة من الطين المشوي، ظل بعيداً عن أي رقابة. أمر الكولوينل أوريليانو بويندبا بضم الاثنتين والستين سبيكة ذهبية إلى محضر

الاستسلام، وأنهى الحفل دون أن يسمح بإلقاء خطابات. ظل الشاب النحيل أمامه، ينظر إلى عينيه، بعينيه الصافيتين اللتين بلون عسل السكر.

- هل هناك شيء آخر؟ - سأله الكولونيل أوريليانو بوينديا.

فضغط العقيد الشاب أسنانه، وقال:

- إيصال الاستلام.

قدمه إليه الكولونيل أوريليانو بوينديا بخط يده. ثم تناول بعد ذلك كأس ليمون وقطعة بسكويت مما كانت تقدمه الراهبات المستجدات، وانسحب إلى خيمة عسكرية أُعدت لاستخدامه إذا ما أراد أن يستريح. وهناك، خلع قميصه، وجلس على حافة السرير العسكري، وفي الساعة الثالثة والربع بعد الظهر، أطلق رصاصة مسدس في دائرة اليود التي رسمها طبيبه الخاص على صدره. في تلك اللحظة نفسها، في ماكوندو، رفعت أورسولا غطاء قدر الحليب على الموقد، مستغربة تأخرها الطويل عن الغليان، فوجدتها ممتلئة بالدود. صاحت:

- لقد قتلوا آوريليانو!

نظرت إلى الفناء، منصاعة لإحدى عادات عزلتها، فرأت عندئذ خوسيه أركاديو بوينديا مبللاً، حزيناً بالمطر، وأكثر هرماً مما كان عليه يوم مماته. فأكدت أورسولا بتحديد أكبر: «قتلوه غيلة بخيانة، لم يُحسن إليه أحد بإغماض عينيه.» وعند الغروب، رأت من خلال الدموع، الدوائر البرتقالية السريعة والمشعة تجتاز السماء مثل نيازك، فظنت أنها إشارة موت. وكانت لا تزال تحت شجرة الكستناء، تنتحب على ركبتي زوجها، عندما حملوا الكولونيل أوريليانو بوينديا ملفوفاً بالبطانية المتيبسة بالدم الجاف،

وعيناه مفتوحتان من الغضب.

كان بمنجى من الخطر. فقد اتخذت الطلقة مساراً بالغ الدقة، حتى إن الطبيب أدخل فتيلاً مبللاً باليود من صدره، وأخرجه من ظهره، وقال له راضياً: «إنه عملي البارع. فتلك هي النقطة الوحيدة التي يمكن أن تمر منها رصاصة دون أن تلحق الضرر بأي مركز حيوي.» رأى الكولونيل أوريليانو بوينديا نفسه محاطاً بالراهبات المستجدات المشفقات، وهن يرتلن مزامير يائسة لراحة نفسه الأبدية، فأحس عندئذ بالندم لأنه لم يطلق الرصاصة في حلقة، مثلما كان مصمماً، ولم يمنعه من ذلك إلا رغبته في السخرية من نبوءة بيلار تيرنيرا.

وقال للطبيب:

- لو أني ما زلت أمتلك السلطة، لأمرت بإعدامك دون شكليات محاكمة. لا لأنك أنقذت حياتي، وإنما لأنك جعلتني أبدو مضحكاً.

إخفاق موته أعاد له، خلال ساعات قليلة، المكانة التي فقدها. والناس أنفسهم الذين اخترعوا أكذوبة أنه باع الحرب بمسكن جدرانه من آجر ذهبي، اعتبروا محاولة انتحاره فعل شرف، وأعلنوه شهيداً. وفي ما بعد، عندما رفض وسام الاستحقاق الذي منحه إياه رئيس الجمهورية، حضر الجميع، بمن في ذلك ألد خصومه، إلى حجرته، طالبين منه أن يرفض شروط الهدنة، ويعلن حرباً جديدة. امتلأ البيت بهدايا التعويض عن الإساءات. وفي تأثر متأخر بالدعم الجماعي الذي تلقاه من رفاقه في السلاح، لم يستبعد الكولونيل أوريليانو بوينديا، إمكانية الاستجابة لرغبتهم. بل على العكس، فقد بدا في أحد الأوقات متحمساً جداً لفكرة شن حرب جديدة، حتى إن العقيد خيرينيلدو ماركيز، فكر في أنه

ينتظر فقط الذريعة لإعلانها. وقد توفرت له الذريعة، فعلاً، عندما رفض رئيس الجمهورية صرف المعاشات للمحاربين، ليبراليين أو محافظين، ما لم تجر دراسة كل ملف من قبل لجنة خاصة، ووفق قانون المخصصات الذي أقره الكونغرس. فزمجر الكولونيل أوريليانو بوينديا: «هذا خرق للاتفاق. ولسوف يموتون من الشيخوخة وهم ينتظرون البريد.» وغادر للمرة الأولى، الكرسي الهزاز الذي اشترته أورسولا ليمضي عليه نقاهته، وبينما هو يروح ويجيء في الغرفة، أملى رسالة حازمة موجهة لرئيس الجمهورية. في تلك البرقية، التي لم تُنشر قط، يندد بأول خرق لمعاهدة نيرلانديا، ويهدد بإعلان الحرب حتى الموت، إذا لم تحل مسألة مخصصات التقاعد خلال خمسة عشر يوماً. كان موقفه عادلاً إلى حد يسمح، أيضاً، بتوقع انضمام قدامى المحاربين المحافظين إليه. ولكن ردّ الحكومة الوحيد تمثل في تعزيز الحراسة العسكرية الموضوعة على باب بيته، بحجة حمايته، ومنع كل أنواع الزيارت عنه. واتخذت إجراءات مماثلة، في كل أنحاء البلاد، تجاه قادة آخرين خاضعين للمراقبة. وقد كانت عملية مناسبة جداً، وفعالة، وحاسمة؛ فبعد شهرين من الهدنة، وعند شفاء الكولونيل أوريليانو بوينديا، كان أشد دعاته تصميماً ميتين أو منفيين، أو مستوعبين إلى الأبد في وظائف الإدارة العامة.

غادر الكولونيل أوريليانو بوينديا غرفته في كانون الأول، وكانت نظرة واحدة منه إلى الردهة، كافية لأن يقلع عن التفكير في الحرب. وبحيوية تبدو مستحيلة في مثل سنها، أعادت أورسولا تجديد شباب البيت. «الآن سيرون من أنا»، قالت ذلك عندما علمت أن ابنها سيعيش، وأضافت: «لن يكون هناك بيت

أفضل، ولا مفتوحاً للجميع أكثر من بيت المجانين هذا.» أمرت بغسله وطلائه، وبدّلت الأثاث، وأصلحت الحديقة، زرعت فيها زهوراً جديدة، وشرعت الأبواب والنوافذ كي يدخل ضياء الصيف المبهر حتى غرف النوم. وأعلنت نهاية حالات الحداد المتراكمة، واستبدلت هي نفسها الثياب القديمة الصارمة، بثياب شبابية. وعادت موسيقى البيانولا تملأ البيت بالمرح. ولدى سماعها، تذكرت آمارانتا بيترو كريسبي، وغاردينياه الغسقية، ورائحته العابقة بعطر الخزامى، فأزهر في أعماق قلبها الذاوي، حقد نظيف، مطهر بمصفاة الزمن. وفي عصر أحد الأيام، بينما كانت أورسولا ترتب الصالون، طلبت المساعدة من الجنود الذين يحرسون البيت، فسمح لهم قائد الحراسة الشاب بذلك. وشيئاً فشيئاً، راحت أورسولا تكلفهم بمهمات جديدة. وصارت تدعوهم لتناول الطعام، وتهدي إليهم ثياباً وأحذية، وتعلمهم القراءة الكتابة. وعندما ألغت الحكومة الحراسة، بقي أحد الجنود يعيش في البيت، وظل في خدمتها لسنوات طويلة. وفي يوم رأس السنة الجديدة، مجنوناً بصد ريميديوس الجميلة له، طلع الصباح على قائد الحرس الشاب، ميتاً من الحب، تحت نافذتها.

بعد سنوات، وبينما هو على فراش الاحتضار، سيتذكر أوريليانو الثاني تلك الأمسية الماطرة من حزيران، حين دخل غرفة النوم، ليرى ابنه الأول. وبالرغم من أن الوليد كان هزيلاً وبكّاء، وبلا أي ملمح من ملامح آل بوينديا، إلا أنه لم يضطر إلى التفكير مرتين في الاسم الذي يطلقه عليه:

- سيُدعى خوسيه أركاديو.

وقد وافقته فرناندا دل كاربيو، المرأة الجميلة التي كان قد تزوجها في العام السابق. أما أورسولا، بالمقابل، فلم تستطع مواراة إحساس غامض بالقلق. ففي تاريخ العائلة الطويل، أتاح لها تكرار الأسماء اللجوج، استخلاص نتائج بدت لها قاطعة. فبينما كان من يدعون أوريليانو منغلقين على أنفسهم، ولكنهم ثاقبو الفكر، كان من يدعون خوسيه أركاديو نزقين وجسورين، ولكنهم موسومون بسمة مأساوية. والحالتان الوحيدتان اللتان يستحيل تصنيفهما، هما خوسيه أركاديو الثاني وأوريليانو الثاني. فقد كانا، في طفولتهما، متشابهين ومشاكسين إلى حد لا تستطيع معه أمهما، صوفيا قديسة الرحمة، أن تميز بينهما. وفي يوم تعميدهما، وضعت آمارانتا في معصم كل منهما، سواراً عليه اسمه، وألبستهما ثياباً من لونين مختلفين، تحمل الحروف الأولى من اسميهما. ولكنهما عندما بدأا الذهاب إلى المدرسة، اختارا تبادل

السوارين والثياب، واستخدام اسميهما بصورة متقاطعة. ففقد المعلم ميلتشور إسكوبار صوابه، وهو المعتاد على التعرف إلى خوسيه أركاديو الثاني من قميصه الأخضر، عندما اكتشف أن هذا يضع سوار أوريليانو الثاني، وأن الآخر يقول، مع ذلك، إنه يدعى أوريليانو الثاني، بالرغم من أنه يرتدي القميص الأبيض، ويضع السوار الموسوم باسم خوسيه أركاديو الثاني. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يعرف على وجه اليقين من هو كل منهما. وحتى عندما كبرا، وأوجدت الحياة اختلافات بينهما، ظلت أورسولا تتساءل، عما إذا لم يكونا هما نفسيهما قد ارتكبا خطأ، في إحدى لحظات لعبهما المتشابك، وظلا متبدلين إلى الأبد. وقد بقيا حتى بداية مراهقتهما آلتين متزامنتين. يستيقظان في الوقت نفسه، ويشعران بالرغبة في الذهاب إلى الحمام في اللحظة نفسها، ويعانيان من الاضطرابات الصحية نفسها، بل إنهما يحلمان بالأشياء نفسها. وفي البيت، حيث كان يسود الاعتقاد بأنهما ينسقان أفعالهما بدافع الرغبة المجردة في خلق البلبلة، لم ينتبه أحد إلى الحقيقة، حتى اليوم الذي قدمت فيه صوفيا قديسة الرحمة، كأساً من الليمونادة إلى أحدهما، ولم يكد يتذوقه، حتى قال الآخر إنه بلا سكر. وكانت صوفيا قديسة الرحمة قد نسيت، فعلاً، إضافة السكر إلى الليمونادة، وروت ما جرى لأورسولا. فلم تفاجأ، وقالت لها: «إنهم جميعهم هكذا، مجانين منذ الولادة.» وانتهى الزمن إلى بلبلة كل الأمور. فمن احتفظ في لعبة الخلط تلك، باسم أوريليانو الثاني، صار ضخماً مثل جده، ومن احتفظ باسم خوسيه أركاديو الثاني صار نحيلاً مثل الكولونيل. والشيء الوحيد الذي بقي مشتركاً بينهما، هو سمة التوحد العائلية. وربما كان ذلك التقاطع

في هيئتيهما، واسميهما، وطباعهما، هو الذي جعل أورسولا ترتاب بأنهما قد اختلطا منذ الطفولة.

الاختلاف الحاسم بينهما تكشف في أوج الحرب، عندما طلب خوسيه أركاديو الثاني من العقيد خيرينيلدو ماركيز أن يأخذه لمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام رمياً بالرصاص. وقد لُبيت رغبته، على الرغم من معارضة أورسولا. أما أوريليانو الثاني، بالمقابل، فكان يرتعش لمجرد التفكير في حضور تنفيذ حكم بالإعدام. كان يفضل البقاء في البيت. وفي سن الثانية عشرة، سأل أورسولا عما يوجد في الحجرة المقفلة. فأجابته: «أوراق. إنها كتب مليكيادس، والأشياء الغريبة التي كتبها في سنواته الأخيرة». وبدلاً من أن يطمئنه الجواب، ضاعف من فضوله. وقد ألح كثيراً، ووعد بتلهف شديد بألا يفسد تلك الأشياء، إلى أن أعطته أورسولا المفاتيح. لم يكن أحد قد دخل الغرفة منذ أن أخرجوا منها جثة ميلكيادس، وأقفلوا الباب بالقفل الذي التحمت أجزاؤه بالصدأ. ولكن، عندما فتح أوريليانو الثاني النوافذ، دخل ضوء أليف بدا كما لو أنه معتاد على إنارة الغرفة كل يوم. لم يكن هناك أدنى أثر للغبار أو شباك العنكبوت، بل كان كل شيء مكنوساً ونظيفاً، أفضل كنساً ونظافة مما كانت عليه الغرفة يوم الدفن. ولم يكن الحبر قد جف في الدَّواة، ولم يؤثر الصدأ على بريق المعادن، ولم تخمد جمرات الموقد الذي بخَّر فيه خوسيه أركاديو بوينديا الزئبق. وعلى الرفوف، كانت الكتب المجلّدة بمادة متيبسة وشاحبة، كأنها جلد بشري مدبوغ، وكانت المخطوطات سليمة على حالها. وعلى الرغم من سنوات الإغلاق الطويلة، كان هواء الغرفة يبدو أنقى مما هو عليه في بقية البيت. كل شيء كان نظيفاً، حتى إن

أورسولا لم تجد ما تفعله، عندما دخلت الغرفة، بعد بضعة أسابيع، ومعها دلو ماء ومكنسة، كي تغسل الأرضية. كان أوريليانو الثاني مستغرقاً في قراءة كتاب. ومع أنه كان بلا غلاف، ولا يظهر عنوانه في أي مكان، إلا أن الطفل كان مستمتعاً بقصة امرأة تجلس إلى المائدة، ولا تأكل إلا حبات رز تلتقطها بالدبابيس؛ وقصة الصياد الذي طلب من جاره أن يعيره قطعة رصاص لشبكته، وكافأه بعد ذلك بسمكة، وجد ماسة في بطنها؛ وقصة المصباح الذي يلبي الرغبات، والسجاجيد التي تطير. فسأل أورسولا وهو ذاهل، عما إذا كان كل ذلك حقيقياً، فردت عليه بنعم، وبأن الغجر كانوا يأتون إلى ماكوندو، منذ سنوات طويلة، حاملين معهم مصابيح سحرية وبُسطاً طائرة. وتنهدت:

- وما جرى هو أن العالم أخذ بالضياع شيئاً فشيئاً، ولم تعد هذه الأشياء تأتي.

عندما أنهى قراءة الكتاب، وكانت قصص كثيرة فيه غير كاملة، لأن صفحاته ناقصة، انكب أوريليانو الثاني على مهمة فك رموز المخطوطات. كان ذلك مستحيلاً. فقد بدت الحروف كأنها ملابس منشورة لتجف على سلك، وأشبه بالكتابة الموسيقية منها بالكتابة الأدبية. وفي ظهيرة يوم قائظ، بينما هو يتفحص المخطوطات، أحس أنه ليس وحيداً في الغرفة. فقبالة انعكاسات ضوء النافذة، كان ميلكيادس يجلس ويداه على ركبتيه. لم يكن عمره يزيد على الأربعين سنة. ويرتدي الصدرية القديمة نفسها، والقبعة ذات جناحي الغراب، ويسيل على صدغيه الشاحبين شحم الشعر الذائب من الحر، مثلما رآه أوريليانو وخوسيه أركاديو وهما طفلان. تعرف إليه أوريليانو الثاني على الفور، لأن تلك الذكرى

الموروثة انتقلت من جيل إلى جيل، ووصلت إليه من ذاكرة جده.

- سلاماً - قال أوريليانو الثاني.

- سلاماً يا فتى - قال مليكيادس.

ومنذ ذلك الحين، وطوال سنوات عديدة، صارا يلتقيان عصر كل يوم تقريباً. كان ميلكيادس يحدثه عن العالم، ويحاول أن يلقنه حكمته القديمة، لكنه رفض أن يترجم المخطوطات، موضحاً له: «يجب ألا يعرف أحد معناها قبل أن تنقضي مئة سنة». وقد أخفى أوريليانو الثاني، إلى الأبد، سرّ تلك اللقاءات. وفي إحدى المرات، أحس بأن عالمه الخاص ينهار، لأن أورسولا دخلت في اللحظة التي كان فيها ملكيادس في الغرفة. ولكنها لم تره.

- مع من تتكلم؟ - سألته.

فقال أوريليانو الثاني:

- لا أحد.

قالت أورسولا:

- هكذا كان جد أبيك. كان يكلم نفسه.

وفي أثناء ذلك، كان خوسيه أركاديو الثاني قد أرضى حلمه برؤية تنفيذ حكم بالإعدام. وسيتذكر طوال ما تبقى من حياته، الوميض الشاحب للطلقات الست المتزامنة، وصدى الدوي الذي رددته الجبال، وابتسامة المعدوم الحزينة وعينيه الحائرتين، وبقاءه منتصباً بينما قميصه يتضرج بالدم، وبقاءه مبتسماً، حتى بعد أن فكوا الأربطة التي تشده إلى العمود، ووضعوه في صندوق مملوء بالكلس. ففكر هو: «إنه لا يزال حياً. سيدفنونه وهو حي». ولقد تأثر كثيراً، حتى إنه كره، منذ ذلك الحين كل الممارسات العسكرية والحرب، ليس بسبب أحكام الإعدام، وإنما بسبب العادة المرعبة

في دفن المعدومين أحياء. ولم يدر أحد، عندئذ، في أي وقت بدأ يقرع النواقيس في برج الكنيسة، ويساعد الأب أنطونيو إيزابيل في القداس، خلفاً للـ «*الكاتشورو*»، ولا متى بدأ بتربية ديوك الصراع في فناء بيت الخورانية. وعندما علم العقيد خيرينيلدو ماركيز بذلك، أنبه بقسوة لأنه يتعلم أعمالاً يمقتها الليبراليون. فأجابه هو: «المسألة هي أنني خرجت محافظاً على ما يبدو». وكان مؤمناً بذلك، وكأنه قرار من القدر. ولكن جوابه أثار استنكار العقيد خيرينيلدو ماركيز الذي أخبر أرسولا بذلك.

- هذا أفضل - أعربت عن موافقتها، وأضافت:- عساه يصبح خورياً، كي يدخل الرب، أخيراً، هذا البيت.

وسرعان ما عُلم أن الأب أنطونيو إيزابيل يهيئه من أجل المناولة الأولى للقربان. كان يعلمه أصول الدين بينما هو يحلق الريش عن زور الديكة. ويوضح له بأمثلة بسيطة، بينما هما يضعان الدجاجات الحاضة في أعشاشها، كيف خطر للرب، في يوم الخلق الثاني، أن تتشكل الصيصان داخل البيضة. منذ ذلك الحين بدأت تظهر على الكاهن أول أعراض خرف الشيخوخة الذي دفعه، بعد سنوات من ذلك، إلى التصريح بأن ربما يكون الشيطان قد انتصر في تمرده على الرب، وأنه هو من يجلس على العرش السماوي، دون أن يكشف عن هويته الحقيقية، كي يوقع بالأبرياء. ومقتدياً بجرأة معلمه، توصل خوسيه أركاديو الثاني، خلال شهور قليلة، لأن يكون ضليعاً في المضاعفات اللاهوتية، من أجل تشويش الشيطان، قدر براعته في خدع وحيل مصارعات الديوك. صنعت له آمارانتا بدلة من الكتان مع ياقة وربطة عنق، واشترت له حذاء أبيض، وحفرت اسمه بحروف مذهبة على

شـريط الشـمعة. وقبـل ليلتـين مـن المناولـة الأولـى، اعتكـف الأب أنطونيـو إيزابيـل معـه فـي حجـرة المقدسـات ليتلقـى اعترافـه، بمساعدة معجم مفهرس للخطايا. كانت قائمـة الخطايـا طويلـة جداً، حتى إن النعاس غلب الكاهن العجوز، المعتاد على النوم في السادسـة، فنـام فـي مقعـده قبـل أن ينتـهي. وقـد كـان ذلـك الاستجواب كشفاً، بالنسبة إلى خوسيه أركاديو الثاني. لم يفاجئه أن يسأله الأب إذا ما كان قد مارس أفعال فحش مع امرأة، وأجاب بكل نزاهة أن لا. ولكنه ارتبك حين سأله إذا ما كان قد فعلها مع الحيوانات. وفي أول يوم جمعة من أيار، شارك في تناول القربان، وهو معذب بالفضول. وفيما بعد وجه السؤال إلى بيترونيو، خادم الكنيسة المريض الذي يعيش في البرج، ويقال إنه يتغـذى على الخفافيش. وقـد أجابـه بيـترونيو: «هنـاك مسـيحيون فاسـدون يمارسون هذه الأشياء مع الأُتُن». وواصل خوسيه أركاديو الثاني إظهار فضول كبير، وطلب توضيحات كثيرة، مما أفقد بيترونيو صبره، فاعترف قائلاً:

- أنا أذهب في أيام الثلاثاء ليلاً. فإذا عاهدتني بأن لا تخبر أحداً، أخذك معي الثلاثاء القادم.

وفعلاً، نزل بيترونيو من البرج، في الثلاثاء التالي، ومعه مقعد خشبي صغير، لا يعلم أحد حتى ذلك الحين ماذا يفيده. وأخذ معه خوسيه أركاديو الثاني إلى بستان قريب. أولـع الفتى بتلك المغامرات الليلية، فانقضى وقت طويل قبل أن يُشاهد في حانوت كاتارينو. وقد صار رجل ديوك. «خذ هذه الحيوانات إلى مكان آخر»، أمرته أورسولا، حين رأته يدخل أول مرة ومعه ديوكه الفاخرة، وتابعت: «لقد جلبت الديكة ما يكفي من المرارة على هذا

البيت، لتأتي أنت الآن حاملاً المزيد منها». وأخذ خوسيه أركاديو الثاني الديوك دون جدال، ولكنه واصل تربيتها عند جدته بيلار تيرنيرا التي وضعت تحت تصرفه كل ما يحتاج إليه، مقابل استبقائه في بيتها. وسرعان ما أظهر، في حلبة صراع الديكة، كل المعارف التي لقنه إياها الأب أنطونيو إيزابيل، فلم يجنِ من المال ما يكفي لإغناء حيواناته وحسب، وإنما لإشباع ملذاته كرجل. وكانت أورسولا، في تلك الفترة، تقارنه بأخيه، ولا تستطيع أن تفهم كيف أمكن للتوأمين اللذين كانا يبدوان شخصاً واحداً في طفولتهما، أن ينتهيا إلى مثل هذا القدر من الاختلاف. ولكن حيرتها لم تدم طويلاً، لأن أوريليانو الثاني ما لبث أن بدأ الميل إلى الكسل والتهتك. فطوال اعتكافه في حجرة ميلكياس، كان رجلاً غارقاً في تأملاته، مثلما كان الكولونيل أوريليانو بوينديا في شبابه. لكن مصادفة أخرجته من تأملاته، قبل قليل من توقيع معاهدة نيرلانديا، ووضعته في مواجهته واقع العالم. فقد حيته بألفة، امرأة فتية، تبيع أرقاماً لقُرعة على أكورديون. ولم يفاجأ أوريليانو الثاني بذلك، فكثيراً ما يخلط الناس بينه وبين أخيه. ولكنه لم يوضح ذلك الخطأ، حتى عندما حاولت الفتاة أن تلين قلبه بالبكاء، وانتهى بها الأمر إلى أخذه إلى غرفتها. وقد أحبته منذ لقائهما الأول ذاك، إلى حد أنها مارست الغش في قرعة اليانصيب كي يكسب هو الأكورديون. وبعد أسبوعين، اكتشف أوريليانو الثاني أن المرأة تعاشره وتعاشر أخاه بالتناوب، معتقدة أنهما الرجل نفسه، وبدلاً من أن يوضح الوضع، رتب الأمر من أجل إطالته. لم يعد إلى غرفة ميلكيادس. وصار يقضي الأمسيات في الفناء، يتعلم العزف السماعي على الأكورديون، بالرغم من

اعتراضات أورسولا، وكانت قد منعت الموسيقى في البيت بسبب توالي حالات الحداد، فضلاً عن ازدرائها للأكورديون، باعتباره آلة المتشردين، ورثة فرانثيسكو الرجل. ومع ذلك، توصل أوريليانو الثاني إلى أن يكون عازف أكورديون ماهراً، وبقي كذلك إلى ما بعد زواجه، وإنجابه أبناء، وكان من أكثر الرجال احتراماً في ماكوندو.

وخلال شهرين تقريباً، ظل يقاسم أخاه تلك المرأة. كان يراقبه، ويفسد خططه، وعندما يكون متأكداً من أن خوسيه أركاديو الثاني لن يذهب تلك الليلة إلى العشيقة المشتركة، يذهب هو لينام معها. وفي صباح أحد الأيام، اكتشف أنه مريض. وبعد يومين من ذلك، وجد أخاه متشبثاً بإحدى دعائم الحمام، وهو ينضح عرقاً، ويبكي ذارفاً الدموع، عندئذ فهم كل شيء. واعترف له أخوه بأن المرأة نبذته، لأنه نقل إليها ما تدعوه هي أحد أمراض الحياة الخبيثة. وأخبره كذلك كيف تحاول بيلار تيرنيرا معالجته. وأخضع أوريليانو الثاني نفسه، خفية، للغسل الحارق بالبرمنغنات المؤلمة والسوائل المدرة للبول، وشفي كل منهما على حدة، بعد شهور ثلاثة من آلام مكتومة. لم يعد خوسيه أركاديو الثاني لرؤية المرأة. أما أوريليانو الثاني فحصل على مغفرتها، وبقي معها حتى مماته.

كانت تدعى بيترا كوتيس. وقد جاءت إلى ماكوندو في أوج الحرب، مع زوج عابر يعيش على ألعاب اليانصيب، وعندما مات الرجل، واصلت هي تجارته. كانت خلاسية نظيفة وشابة، لها عينان صفراوان ولوزيتان، تضفيان على وجهها ضراوة فهدة، ولكنها تتمتع بطيبة القلب، وباستعداد فطري عظيم للحب. حين انتبهت أورسولا إلى أن خوسيه أركاديو الثاني يربي الديوك،

وأوريليانو الثاني يعزف على الأكورديون في حفلات الصخب مع خليلته، اعتقدت أنها جنت من التشوش. بدا لها ذلك كما لو أن كل رذائل العائلة قد تركزت فيهما، بلا أي فضيلة من فضائلها. عندئذ قررت عدم إطلاق اسم خوسيه أركاديو أو أوريليانو على أحد. ومع ذلك، عندما ولد أول ابن لأوريليانو الثاني، لم تجرؤ على معارضته:

- إنني موافقة - قالت أورسولا - ولكن لدي شرط: أن أتولى أنا تربيته.

ومع أنها كانت قد ناهزت المئة سنة، وعلى وشك فقدان بصرها بسبب الماء الأزرق، فقد حافظت على سلامة حيويتها الجسدية، وكمال طبعها، وتوازن ذهنها. ولم يكن هناك من هو أفضل منها لتربية الرجل الفاضل الذي سيرمم سمعة العائلة، رجل لم يسمع قط حديثاً عن الحرب، وعن ديكة القتال، ونساء الحياة الخبيثة، والمشاريع الهذيانية، هذه الكوارث الأربع التي أدت، حسب رأي أورسولا، إلى انحدار سلالتها. وتعهدت بوقار: «هذا سيكون كاهناً، وإذا أمدني الله بالحياة، فسوف يكون بابا». ضحك الجميع لدى سماعها، لا في الغرفة وحدها، وإنما في البيت كله، حيث كان يجتمع أصدقاء أوريليانو الثاني الصاخبون. والحرب التي كانت قد أودعت في مستودع الذكريات السيئة، استُحضرت آنياً بدوي سدادات الشمبانيا. وقال أوريليانو الثاني وهو يرفع نخباً:

- في صحة البابا.

وشرب المدعوون النخب في كورال. وبعد ذلك عزف صاحب البيت على الأكورديون، وأُطلقت ألعاب نارية، وقُرعت طبول

الابتهاج في القرية. وعند الفجر، ذبح المدعوون المبللون بالشمبانيا ست بقرات، ووضعوها في الشارع، تحت تصرف الجموع. لم يستهجن ذلك أحد. فمنذ أن تولى أوريليانو الثاني مسؤولية البيت، صارت تلك الحفلات شيئاً عادياً، وإن لم يكن هناك مسوغ أكثر أهمية من ولادة بابا. وكان أوريليانو قد تمكن، خلال سنوات قليلة، ودون جهد، وإنما بضربات الحظ وحدها، من جمع واحدة من أكبر الثروات في منطقة المستنقعات، بفضل تكاثر حيواناته غير الطبيعي. كانت أفراسه تلد ثلاثة توائم، ودجاجاته تبيض مرتين في اليوم، وخنازيره تسمن بلا كابح، دون أن يتمكن أحد من تفسير تلك الخصوبة العشوائية، إلا بأنها ضرب من فنون السحر.

وكانت أورسولا تقول لابن حفيدها الطائش: «اقتصد الآن. فحسن الطالع هذا لن يدوم مدة الحياة». لكن أوريليانو الثاني لم يكن يعيرها اهتماماً. وكلما كان يفتح المزيد من زجاجات الشمبانيا كي يُسكر أصدقاءه، كان جنون ولادات بهائمه يتزايد، وكانت قناعته تزداد بأن نجمه الطيب لا علاقة له بسلوكه، وإنما بتأثير خليلته بيترا كوتيس، وأن لحبها فضيلة قلب نظام الطبيعة. وكان مقتنعاً بأن هذا هو سبب ثروته، إلى حد أنه لم يُبعد بيترا كوتيس قط عن بهائمه، وحتى عندما تزوج، وأنجب أبناء، واصل العيش معها بموافقة زوجته فرناندا. كان أوريليانو الثاني متين البنية، ضخماً كأجداده، ولكنه مفعم بالبهجة، وبلطف لا يُقاوم، افتقر أجداده إليه، يكاد لا يجد الوقت للعناية بمواشيه. فكان يكتفي بحمل بيترا كوتيس إلى حظائره، وأخذها في جولة على الحصان في أراضيه، حتى يصاب كل حيوان موسوم بحديدته بجائحة التكاثر التي لا شفاء منها.

ومثل كل الأشياء الطيبة التي جرت له في حياته الطويلة، كان أصل تلك الثروة الجامحة هو المصادفة. فحتى نهاية الحرب، ظلت بيترا كوتيس تعيش على نتاج اليانصيب، وكان أوريليانو الثاني يتدبر أموره، بين حين وآخر، بالسطو على مدخرات أورسولا. كانا يشكلان ثنائياً مستهتراً، لا هم لهما إلا المضاجعة في كل ليلة، بما في ذلك الأيام المحرمة، والتمرغ في السرير حتى الصباح. فكانت أورسولا تصرخ بابن حفيدها عندما تراه يدخل البيت مثل منوم: «هذه المرأة هي ضياعك. لقد أفقدتك عقلك، حتى إنني سأراك في أحد هذه الأيام تتلوى بتشنجات القولون، وقد اندس ضفدع في بطنك.» أما خوسيه أركاديو الثاني الذي تأخر طويلاً في اكتشاف حلول أخيه محله، فلم يستطع فهم عاطفة أخيه. فهو يتذكر بيترا كوتيس كامرأة عادية، بل أقرب إلى الكسل في الفراش، وتفتقر تماماً إلى المواهب في الحب. ولكن أوريليانو الثاني الذي صمَّ أذنيه عن صراخ أورسولا وسخريات أخيه، لم يكن يفكر، آنذاك، إلا في العثور على مهنة، تتيح له الإنفاق على بيت لفيرناندا، ليموت معها، فوقها، تحتها، في ليلة هياج محمومة.

عندما أعاد الكولونيل أوريليانو بويندبا فتح مشغله، وقد أغوته أخيراً مفاتن هدوء الشيخوخة، فكر أوريليانو الثاني في أنه سيحقق تجارة رابحة إذا ما انصرف إلى صناعة الأسماك الذهبية. ولكن كان يرى لساعات طويلة، في الغرفة الصغيرة الحارة، كيف كانت رقائق المعدن القاسية، التي يشتغلها الكولونيل بما لا يمكن تصوره من صبرٍ من خاب أمله، تتحول إلى حراشف مذهبة. بدت له المهنة شاقة، وكانت ذكرى بيترا كوتيس ملحة وممعنة في التمادي، مما دفعه إلى مغادرة المشغل بعد ثلاثة

أسابيع. وكانت تلك هي الفترة التي خطرت فيها لبيترا كوتيس فكرة سحب يانصيب على الأرانب. فكانت الأرانب تتكاثر وتكبر بسرعة لا يكاد يتوفر الوقت معها لبيع أرقام اليانصيب. في البدء، لم يلحظ أوريليانو الثاني نسب التكاثر المثيرة. لكنه في إحدى الليالي، عندما لم يعد هناك في القرية من هو راغب في سماع شيء عن يانصيب الأرانب، سمع عطاساً وراء جدار الفناء. فقالت له بيترا كوتبس: «لا تخف. إنها الأرانب». ولم يستطيعا النوم، بسبب حركة الحيوانات. وعند الفجر، فتح أوريليانو الثاني الباب، ورأى الفناء مرصوفاً بأرانب زرقاء في وهج الفجر. ولم تستطع بيترا كوتيس، وهي تموت من الضحك، منع نفسها من ممزاحته، فقالت:

- إنها الأرانب التي ولدت هذه الليلة وحدها.

- يا للهول - صاح هو - لماذا لا تجربين مع الأبقار؟

وبعد بضعة أيام، في محاولة لتوسيع فناء بيتها، استبدلت بيترا كوتيس الأرانب ببقرة، فولدت بعد شهرين ثلاثة عجول. هكذا بدأت الأمور. وبين عشية وضحاها، صار أوريليانو الثاني مالك أراض وماشية، يكاد لا يجد متسعاً من الوقت لتوسيع الإسطبلات والزرائب المزدحمة. لقد كان ازدهاراً هذيانياً، يسبب له هو نفسه الضحك، ولا يستطيع إلا اتخاذ مواقف مستهجنة للتعبير عن طيب مزاجه. فيصيح: «ابتعدي من طريقي أيتها الأبقار، فالحياة قصيرة». وكانت أورسولا تتساءل عن المشاكل التي ورط نفسه فيها، وإذا ما كان يسرق، وإذا لم يكن الأمر قد انتهى به إلى التحول إلى لص ماشية، وكلما رأته يفتح زجاجات الشمبانيا، لمجرد المتعة في صبّ رغوتها على رأسه، تؤنبه على

تبذيره صارخة. لقد أزعجته كثيراً، حتى إن أوريليانو الثاني استيقظ ذات يوم بمزاج رائق، وجاء حاملاً صندوق نقود، وعلبة نشاء إلصاق وفرشاة، وبينما هو يغني، بصوت صادح، أغنيات فرانثيسكو الرجل القديمة، غطى جدران البيت من الداخل والخارج، ومن أعلى إلى أسفل، بأوراق نقد من فئة البيزو. فاكتسب البيت القديم، المطلي بالأبيض منذ الزمن الذي جلبوا فيه البيانولا، المظهر الخاطئ لمسجد. ووسط صخب الأسرة، واستنكار أورسولا، وابتهاج أهل القرية الذين ازدحم بهم الشارع، ليشهدوا تمجيد التبذير، أنهى أوريليانو الثاني إلصاق الأوراق النقدية من الواجهة حتى المطبخ، بما في ذلك الحمامات وغرف النوم. ثم ألقى ما تبقى من أوراق النقد في الفناء، وقال أخيراً:

- والآن. أرجو ألا يعود أحد في هذا البيت إلى التحدث معي عن المال.

وهكذا كان. فقد أمرت أورسولا بنزع الأوراق النقدية الملتصقة بقطع كلس كبيرة كأنها أقراص عجة، وأعادت طلاء البيت بالأبيض. وقالت متضرعة: «رباه، أعدنا فقراء مثلما كنا حين أسسنا هذه القرية، حتى لا تحاسبنا في الحياة الآخرة على هذا التبذير.» لكن الاستجابة لتضرعاتها جاءت في اتجاه معاكس. فأحد العمال الذين كانوا ينتزعون أوراق النقد، اصطدم وهو ساه، بتمثال ضخم من الجبس للقديس يوسف، تركه أحدهم في البيت، في آخر سني الحرب. فتهشم التمثال الأجوف إلى فتات على الأرض. كان ممتلئاً بعملات ذهبية. ولم يكن هناك من يتذكر من الذي جاء بذلك القديس ذي الحجم الطبيعي. وقد أوضحت آمارانتا: «أحضره ثلاثة رجال. طلبوا مني أن نحتفظ لهم به ريثما

يتوقف المطر. فقلتُ لهم أن يضعوه هناك، في الركن، حيث لا يتعثر به أحد. وقد وضعوه هناك بحرص شديد، وظل هناك منذ ذلك الحين، لأنهم لم يرجعوا قط بحثاً عنه.» وكانت أورسولا، في الأزمنة الأخيرة، قد وضعت عليه شموعاً، وركعت أمامه، دون أن يخامرها الشك في أنها، بدلاً من القديس، إنما تعبد ما يقارب مئتي كيلو غرام من الذهب. فزاد في غمها، هذا التأكيد المتأخر على وثنيتها غير المقصودة. بصقت على كومة القطع الذهبية الهائلة، وعبّأتها في ثلاثة أكياس من قماش الخيم، ودفنتها في مكان سري، بانتظار عودة المجهولين الثلاثة، عاجلاً أو آجلاً، للمطالبة بها. بعد زمن طويل من ذلك، في سنوات شيخوختها الصعبة، اعتادت أورسولا على التدخل في محادثات المسافرين الكثيرين، ممن كانوا يمرون بالبيت آنذاك، وتسألهم إذا ما كانوا قد تركوا هناك تمثالاً من الجبس للقديس يوسف، بانتظار انقطاع المطر.

هذه الأمور التي تدهش أورسولا كثيراً، كانت عادية في ذلك الزمان. وكانت ماكوندو تغرق في ازدهار إعجازي. فبيوت الطين والقصب التي بناها المؤسسون، استُبدلت بأبنية من الآجر، ذات نوافذ خشبية، وأرضيات إسمنتية، تجعل حر الساعة الثانية بعد الظهر الخانق، أكثر احتمالاً. ولم يبق من قرية خوسيه أركاديو بوينديا القديمة، آنذاك، سوى أشجار اللوز المغفرة، والمكرسة لمقاومة ظروف أشد قسوة، والنهر ذي المياه الصافية الذي طُحنت أحجاره الخرافية بكسارات خوسيه أركاديو الثاني المجنونة، عندما انهمك في تنظيف مجرى النهر، ليقيم خدمة ملاحة نهرية. كان حلماً هذيانياً، يكاد لا يقارن إلا بأحلام جده الأول، لأن سرير

النهر الصخري، وعثرات التيار الكثيرة، تحول دون حركة الملاحة من ماكوندو حتى البحر. لكن خوسيه أركاديو الثاني، في نوبة جسارة غير متوقعة، أصر على مشروعه. لم يكن قد أبدى، حتى ذلك الحين، أي دليل على سعة الخيال. وباستثناء مغامرته المبكرة مع بيترا كوتيس، لم يعرف امرأة أخرى قط. كانت أورسولا تعتبره النموذج الأكثر خمولاً على امتداد تاريخ العائلة، فهو عاجز عن البروز ولو كمحرض لديكة الصراع، وعندما روى له الكولونيل أوريليانو بويندیا، قصة السفينة الشراعية الإسبانية الجانحة على بعد اثني عشر كيلومتراً عن البحر، والتي رأى هو نفسه خاصرتها المتفحمة خلال الحرب. كانت القصة التي بدت لأناس كثيرين خيالية، خلال وقت طويل، كشفاً ملهماً بالنسبة لخوسيه أركاديو الثاني. باع ديوكه لأفضل مزايد عليها، وجند رجالاً، واشترى أدوات، وانهمك في مشروع تكسير الصخور الضخم، وشق قنوات، وإزالة العقبات، وحتى تسوية الشلالات. فكانت أورسولا تصرخ: «أعرف هذا الذي يفعله عن ظهر قلب. كما لو أن الزمان يلف في دائرة، عائداً إلى البداية.» وعندما قدّر أن النهر بات صالحاً للملاحة، قدم خوسيه أركاديو الثاني لأخيه عرضاً مفصلاً لخططه، فأعطاه أخوه المال الذي يحتاجه لمشروعه. اختفى لوقت طويل. وقيل إن مشروعه لشراء سفينة لم يكن إلا حيلة للهرب بمال أخيه، عندما انتشر الخبر عن اقتراب سفينة غريبة من القرية. تقاطر إلى ضفة النهر أهالي ماكوندو الذين ما عادوا يتذكرون مشاريع خوسيه أركاديو بويندیا الضخمة، ورأوا بعيون مذهولة وغير مصدقة، وصول أول، وآخر، سفينة رست في القرية. لم تكن سوى طوف من جذوع أشجار، يجرها بحبال

غليظة، عشرون رجلاً يمشون على الضفة. وفي مقدمتها، بنظرة يملؤها بريق الرضا، كان خوسيه أركاديو الثاني يوجه المناورة المجهدة. وجاءت معه جماعة من السيدات البديعات، يحتمين من الشمس الحارقة بمظلات بهية، ويضعن على أكتافهن مناديل حريرية فاخرة، وأصبغة ملونة على وجوههن، وأزهاراً طبيعية على شعورهن، وحيات ذهبية على أذرعهن، وأحجاراً ماسية على أسنانهن. كان طوف الجذوع ذاك، هو المركب الوحيد الذي استطاع خوسيه أركاديو الثاني الوصول به إلى ماكوندو، ولرحلة واحدة فقط، لكنه لم يعترف قط بإخفاق مشروعه، وإنما اعتبر مأثرته تلك انتصاراً لإرادته. قدم جردة حساب مفصلة لأخيه، ولم يلبث أن عاد للغرق في روتين الديوك. والشيء الوحيد الذي تبقى من تلك المبادرة الفاشلة، هي نفحة التجديد التي جلبتها السيدات الفرنسيات، فقد بدّلن بفنونهن العظيمة، أساليب الحب التقليدية، وأودى حسن معشرهن بحانوت كاتارينو العتيق، وحولن الشارع إلى بازار فوانيس يابانية، وأرغنات حنين هنغارية. وكن هن منشطات الكرنفال الدامي الذي أغرق ماكوندو في الهذيان، وكانت نتيجته الوحيدة الدائمة هي منح أوريليانو الثاني فرصة الوصول إلى فرناندا دل كاربيو.

أُعلنت ريميديوس الجميلة ملكة. وأورسولا التي كانت ترتجف حيال جمال حفيدتها المثير للقلق، لم تستطع الحيلولة دون اختيارها. كانت قد توصلت، حتى ذلك الحين، إلى عدم خروجها إلى الشارع، اللهم إلا للذهاب إلى القداس بصحبة آمارانتا، ولكنها كانت تجبرها على تغطية وجهها بخمار أسود. فكان أقل الرجال تديناً، ممن يتنكرون بثياب الخوارنة من أجل ترتيل صلوات

تجديف في حانوت كاتارينو، يذهبون إلى الكنيسة، وهدفهم الوحيد أن يروا، ولو للحظة واحدة، وجه ريميديوس الجميلة التي تدور الأحاديث، بحماسة مؤثرة، في منطقة المستنقعات بأسرها، عن جمالها الأسطوري. وقد مضى زمن طويل قبل أن يتمكنوا من رؤيتها، وكان من الأفضل لهم لو أن الفرصة لم تأت قط، لأن معظمهم لم يعد يجد سبيلاً إلى طمأنينة النوم. والرجل الذي جعل ذلك ممكناً، وهو غريب، فقد السكينة إلى الأبد، وضاع في وحول الدناءة والبؤس، وتمزق بعد سنوات من ذلك، تحت قطار ليليّ، عندما استسلم للنوم على السكة الحديد. منذ اليوم الذي شوهد فيه في الكنيسة، ببدلة خضراء من المخمل، وصدار مطرز، لم يخامر الشك أحداً في أنه آت من بعيد جداً، ربما من مدينة نائية من الخارج، تجتذبه روعة سحر ريميديوس الجميلة. كان شديد الوسامة، بالغ الأناقة والثقة بالنفس، يتصرف بمهابة مستحقة، حتى إن بيترو كريسبي، يبدو خديجاً إذا ما قورن به. وقد تهامست نساء كثيرات، وهن يبتسمن بغيظ، أنه من يستحق الخمار حقاً. لم يصاحب أحداً في ماكوندو. وكان يظهر في صباح يوم الأحد، مثل أمير حكايات، على صهوة جواد ركابه من الفضة، ولبوسه من مخمل. ويغادر القرية بعد القداس.

وقد بلغت سلطة حضوره، مذ شوهد أول مرة في الكنيسة، حداً دفع الجميع إلى الإقرار بأنه قد بدأت بينه وبين ريميديوس الجميلة، مبارزة صامتة ومتوترة، وحلف سري، وتحد لا رادَّ له، يمكن له ألا يكلل بالحب فقط، وإنما بالموت أيضاً. وفي يوم الأحد السادس، ظهر السيد وفي يده وردة صفراء. استمع للقداس واقفاً، مثلما يفعل دائماً، وفي النهاية، اعترض طريق ريميديوس

الجميلة، وقدم لها الوردة الوحيدة. فتناولتها بحركة طبيعية، كما لو أنها كانت مستعدة لذلك التكريم، وكشفت عندئذ عن وجهها للحظة، وقدمت له الشكر بابتسامة. كان هذا هو كل ما فعلته. ولكنها كانت لحظة سرمدية، ليس للسيد وحده، وإنما لكل الرجال الذين نالوا امتياز سوء الحظ برؤية وجهها.

منذ ذلك اليوم صار السيد يأتي بالجوقة الموسيقية إلى جوار نافذة ريميديوس الجميلة، ويستبقيها حتى الفجر أحياناً. وكان أوريليانو الثاني هو الوحيد الذي أحس تجاهه بشفقة قلبية، وحاول ثنيه عن تلك المثابرة. فقال له في إحدى الليالي: «لا تُضع مزيداً من الوقت. فنساء هذا البيت أسوأ من البغلات.» وعرض عليه صداقته، ودعاه للاستحمام بالشمبانيا، وحاول أن يُفهمه أن لإناث أسرته أحشاء من حجر. ولكنه لم يستطع التأثير على إصراره. وأثارت ليالي الموسيقى الطويلة حفيظة الكولونيل أوريليانو بوينديا، فهدد بأن يشفيه من علته برصاص المسدس. ولكن شيئاً من ذلك لم يثنه عن عزمه، اللهم إلا حالة خمود الهمة المزرية التي صار إليها. ففد تحول من رجل وسيم لا تشوبه شائبة، إلى منحط ورث الثياب. وشاع عنه أنه تخلى عن سلطة وثروة في موطنه البعيد، مع أن أحداً لم يعرف، في الحقيقة، شيئاً عن أصله. وتحول إلى رجل مماحكات، يخوض المشاجرات في الحانة، ويطلع عليه الصباح وهو يتمرغ في برازه، في حانوت كاتارينو. وأشد ما في مأساته حزناً، أن ريميديوس الجميلة لم تلتفت إليه، حتى عندما كان يحضر إلى الكنيسة بملابس أمير. لقد تلقت الوردة الصفراء دون أدنى قدر من الخبث، بل فعلت ذلك معجبة بغرابة اللفتة، ورفعت طرحتها كي ترى وجهه بصورة أفضل، وليس

لتُظهر وجهها.

الواقع أن ريميديوس الجميلة لم تكن كائناً من هذا العالم. فقد كان على أمها صوفيا قديسة الرحمة، أن تحممها وتُلبسها ثيابها إلى ما بعد تقدمها في البلوغ؛ وحتى بعد أن صارت تعتمد على نفسها، كان لا بد من مراقبتها، كيلا ترسم حيوانات صغيرة على الجدران، بعصا مغموسة ببرازها. وقد بلغت العشرين من عمرها دون أن تتعلم القراءة والكتابة، أو استخدام أدوات الطعام على المائدة. وكانت تتجول عارية في البيت، لأن طبعها يقاوم أي نوع من التقاليد. وعندما صارحها قائد الحرس الشاب بحبه، صدته ببساطة، لأن خفته فاجأتها. وقد قالت لآمارانتا: «لاحظي كم هو بسيط. يقول إنه يموت بسببي، وكأنني مغص معوي.» وعندما وجدوه ميتاً بالفعل، إلى جوار نافذتها، أكدت ريميديوس الجميلة انطباعها السابق، وعلقت قائلة:

- ها أنتم ترون. لقد كان بسيطاً بالكامل.

كان يبدو كما لو أن رؤيا نافذة، تتيح لها رؤية حقيقة الأشياء في ما وراء أي نوع من الشكليات. وكان هذا، على الأقل، هو رأي الكولونيل أوريليانو بوينديا الذي لم تكن ريميديوس الجميلة، في رأيه، متخلفة ذهنياً بأي حال، مثلما كان يعتقد الآخرون، وإنما عكس ذلك تماماً. وقد اعتاد القول عنها: «كأنها عائدة من عشرين سنة من الحروب.» أما أورسولا من جهتها، فكانت تحمد الرب لأنه كافأ العائلة، بمنحها مخلوقة استثنائية النقاء. ولكنها كانت تشعر، في الوقت نفسه، بالقلق من جمالها، لأنه يبدو لها فضيلة نقيصة، وفخ شيطاني في مركز البراءة. ومن أجل ذلك قررت أن تُبعدها عن العالم، وتحميها من كل إغراء أرضي، دون أن تدري أن

ريميديوس الجميلة، كانت بمنجى من أي عدوى، منذ تشكلها في بطن أمها. ولم تخطر لذهنها قط، فكرة أن يختاروها ملكة جمال، في كرنفال شيطاني. ولكن أوريليانو الثاني المولع بنزوة التنكر كنمر، جاء بالأب أنطونيو إيزابيل إلى البيت، كي يقنع أورسولا بأن الكرنفال ليس حفلة وثنية، مثلما تقول، بل تقليد كاثوليكي. وعندما اقتنعت أخيراً، وإن على مضض، أعطت موافقتها على التتويج.

وخلال ساعات قليلة، تجاوز حدود منطقة المستنقعات، الخبر بأن ريميديوس بوينديا ستكون ملكة المهرجان، ووصل أرضاً نائية، يجهلون فيها شهرة جمالها الواسعة، وأيقظ مخاوف من لا يزالون يعتبرون كنيتها رمزاً للثورة. وقد كانت مخاوف لا مسوغ لها. لأنه إذا كان هناك مسالم في ذلك الحين، فإنه الكولونيل أوريليانو بوينديا الهرم والمتحرر من الأوهام، والذي راح يفقد، شيئاً فشيئاً، كل صلة له بواقع البلاد. كان معتكفاً في مشغله، وعلاقته الوحيدة مع بقية العالم هي تجارة الأسماك الذهبية. وكان أحد الجنود القدامى ممن تولوا حراسة البيت في أيام السلام الأولى، يذهب لبيعها في قرى المستنقعات، ويرجع محملاً بقطع العملة والأخبار. فيقول إن الحكومة المحافظة، بدعم من الليبراليين، تقوم بإصلاح التقويم، بحيث يبقى كل رئيس مئة عام في السلطة. أو أنه تم، أخيراً، توقيع اتفاقية التفاهم مع الكرسي الرسولي، وأن كردينالاً حضر من روما، بتاج من الماس وعرش من الذهب الخالص، وأن وزراء الليبراليين سمحوا بأن تلتقط لهم الصور، وهم يجثون على ركبهم لتقبيل خاتمه. وأن مغنية الكورال الأولى، في فرقة إسبانية، مرت من العاصمة، اختُطفت من حجرتها في الكواليس، على يد جماعة من الملثمين، وأنها في يوم الأحد التالي، رقصت عارية في

البيت الصيفي لرئيس الجمهورية. فكان الكولونيل يقول له: «لا تحدثني في السياسة. فقضيتنا هي بيع الأسماك.» والإشاعة العامة بأنه لا يريد معرفة شيء عن أوضاع البلاد، لأنه يغتني في مشغله، استثارت ضحك أورسولا عندما بلغت مسمعها. فبحسها العمليّ الرهيب، لم تكن قادرة على فهم تجارة الكولونيل، فهو يبدل أسماكه بعملات ذهبية، ثم يحول العملات الذهبية إلى أسماك، وهكذا دواليك، بحيث يكثر عمله كلما كثرت مبيعاته، من أجل ملء حلقة مفرغة تبعث على الغيظ. والحقيقة أن ما كان يهمه ليس التجارة، وإنما العمل. فهو يحتاج إلى كثير من التركيز لتثبيت الحراشف، وإلى الدقة لترصيع موضع العيون بأحجار صغيرة من الياقوت الأحمر، وتصفيح الخياشيم، وتركيب الزعانف، فلا يبقى لديه فراغ واحد يملؤه بخيبات آمال الحرب. كان مستغرقاً في الانتباه الذي تتطلبه دقة حرفته اليدوية، حتى شاخ خلال سنوات قليلة، أكثر مما شاخ خلال سنوات الحرب كلها. وحنت وضعية الجلوس عموده الفقري، واستنفدت دقة العمل بصره، غير أن التركيز المتواصل كافأه بطمأنينة الروح. والمرة الأخيرة التي اهتم فيها بشأن له علاقة بالحرب، هي عندما طلبت جماعة محاربين قدماء، من كلا الحزبين، دعمه من أجل المصادقة على التقاعد مدى الحياة، الذي تعد به الحكومة دائماً، ويبدو دائماً كما لو أنه على وشك الصدور. وقد قال لهم: «انسوا ذلك. فأنتم ترون أنني رفضتُ معاشي التقاعدي، كي أتجنب عذاب انتظاره حتى الموت.»

في البداية، كان العقيد خيرينيلدو ماركيز، يأتي لزيارته عند الغروب، فيجلسان معاً عند الباب المؤدي إلى الشارع، ليستذكرا الماضي. ولكن آمارانتا لم تستطع تحمل الذكريات التي يوقظها

فيها ذلك الرجل المتعب، الذي يسبقه صلعه في الانحدار إلى هوة شيخوخة مبكرة، فراحت تعذبه بمناكدات جائرة، إلى أن انقطع عن المجيء، إلا في مناسبات خاصة؛ ثم اختفى نهائياً في آخر الأمر، حين أقعده الشلل. ولم يكد الكولونيل أوريليانو بوينديا، الصموت، قليل الكلام، وغير العابئ بنفحة الحيوية الجديدة التي تهز البيت، يدرك أن سر الشيخوخة الطيبة ليس إلا التحالف النزيه مع الوحدة. كان يستيقظ في الساعة الخامسة، بعد نوم خفيف، فيتناول في المطبخ فنجان قهوته المرة الدائم، ثم يعتكف طوال النهار في المشغل. وفي الساعة الرابعة مساء، يمر من الردهة، وهو يجر وراءه مقعداً بلا مسند ظهر، دون أن ينتبه إلى حريق حمرة شجيرات الورد، ولا إلى بريق تلك الساعة، ولا إلى صلف آمارانتا التي يصدر عن اكتئابها دوي قِدر مسموع تماماً عند الغروب. ثم يجلس عند الباب المؤدي إلى الشارع، ما دام البعوض يتيح له ذلك. وقد تجرأ أحدهم يوماً على تعكير وحدته، فسأله وهو يمر به:

- كيف حالك أيها الكولونيل؟

- هانذا - أجابه - أنتظر مرور جنازتي.

وهكذا، فإن القلق الذي سببته عودة كنيته إلى التداول العام، بمناسبة تتويج ريميديوس الجميلة ملكة، كان بلا أساس واقعي. ومع ذلك، فإن كثيرين لم يروا الأمر على هذا النحو. وبطيب نية لا يمكن للقرية أن تتخيل معه المأساة التي تتهددها، ملأ أهلوها الساحةَ العامة بانفجار سعادة صاخب. وبلغ الكرنفال أقصى ذرى الجنون، وحقق أوريليانو الثاني، أخيراً، حلمه في التنكر بهيئة نمر. وكان يمضي سعيداً بين الجموع الصاخبة، وقد بح صوته من كثرة

الصراخ، عندما ظهر من طريق منطقة المستنقعات، موكب حشود متنكرة، يحملون على محفة مذهبة، أجمل امرأة يمكن للمخيلة أن تتصورها. وللحظة، خلع أهالي ماكوندو المسالمين أقنعتهم، ليروا بصورة أفضل تلك المخلوقة الباهرة المكللة بتاج من الزمرد، وعليها عباءة من فرو القاقم، وتبدو كأنها تتمتع بسلطة عاهلة شرعية، وليس مجرد ملكة من الخرز والبرق الملون والورق المموج. ولم يعدم بين الجمهور من هو بعيد النظر ليرى أنه عمل استفزازي. لكن أوريليانو الثاني تجاوز التردد فوراً، وأعتبر القادمين الجدد ضيوف شرف، وبحكمة سليمانية، أجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على المنصة نفسها. شارك الغرباء المتنكرين بزي البدو في الاحتفال الهذياني، حتى منتصف الليل، بل إنهم أغنوه كذلك بمعارفهم في صناعة الأسهم النارية، ومهاراتهم البهلوانية التي ذكّرت الناس بالغجر. وفجأة، في ذروة الاحتفال، خرق أحدهم التوازن الحساس صارخاً:

- عاش الحزب الليبرالي. عاش الكولونيل أوريليانو بويندبا.

أطفأ دوي رصاص البنادق الطائش الألعاب النارية، وطغت صرخات الهلع على أنغام الموسيقى، وقضى الرعب على البهجة. بعد سنوات طويلة من ذلك، كان التأكيد لا يزال سائداً، بأن الحرس الملكي المرافق للعاهلة الدخيلة، كان مؤلفاً من فصيلة من الجيش النظامي، وأنهم كانوا يخبئون بنادق رسمية تحت عباءاتهم البدوية. رفضت الحكومة التهمة في بيان استثنائي، ووعدت بإجراء تحقيق حاسم في الواقعة الدامية. ولكن الحقيقة لم تتضح قط، وسادت إلى الأبد الرواية القائلة بأن الحرس الملكي، ودون أي نوع من الاستفزاز، اتخذ مواقع قتالية، بإشارة من قائده، وأطلق

النار بلا رحمة على الحشود. وعندما عاد الهدوء يخيم، لم يكن قد بقي في القرية شخص واحد من البدو المزيفين. وظل مطروحاً في الساحة، بين قتلى وجرحى، تسعة مهرجين، وأربع حمامات، وسبعة عشر ملك من ملوك ورق لعب، وشيطان واحد، وثلاثة موسيقيين، ووجيهان من فرنسا، وثلاثة إمبراطورات يابانيات. وفي فوضى الهلع، تمكن خوسيه أركاديو الثاني من إنقاذ ريميديوس الجميلة. وحمل أوريليانو الثاني إلى البيت، بين ذراعيه، الملكة الدخيلة، وقد تمزق ثوبها وتلطخت بالدم عباءتها التي من فرو القاقم. كان اسمها فرناندا دل كاربيو. وكانوا قد اختاروها كأجمل امرأة من بين أجمل خمسة آلاف امرأة في البلاد، وجاؤوا بها إلى ماكوندو، بوعد تنصيبها ملكة على مدغشقر. اهتمت أورسولا بها كما لو أنها ابنتها. وبدلاً أن تشك القرية ببراءتها، أشفقت على سذاجتها. بعد ستة أشهر من المذبحة، وحين شفي الجرحى، وذبلت آخر الأزهار على القبر الجماعي. ذهب أوريليانو الثاني للبحث عنها في المدينة البعيدة، حيث تعيش مع أبيها، وتزوج منها في ماكوندو، في حفلة زفاف صاخبة دامت عشرين يوماً.

كان الزواج على وشك الانهيار، بعد شهرين، لأن أوريليانو الثاني، في محاولة منه لاسترضاء بيترا كوتيس، التقط لها صورة وهي ترتدي زي ملكة مدغشقر. وعندما علمت فرناندا بذلك، أعادت حزم صناديقها كعروس حديثة الزواج، وغادرت ماكوندو دون وداع. أدركها أوريليانو الثاني في الطريق إلى منطقة المستنقعات. وبعد توسلات كثيرة، ووعد بإصلاح الضرر، تمكن من إعادتها إلى البيت، وهَجَرَ خليلته.

لم تُبدِ بيترا كوتيس، المدركة لقوتها، أي نوع من القلق. فهي التي جعلت منه رجلاً. لقد أخرجته، وهو لا يزال طفلاً، من حجرة ميلكيادس، وكان رأسه ممتلئاً بأفكار خيالية، ليس لها أي علاقة بالواقع، ومنحته موقعاً في الدنيا. كانت الطبيعة قد جعلت منه منطوياً ومتهرباً، ميالاً إلى التأمل المتوحد، فقولبته هي في شخصيته النقيضة، الحيوية، الصريحة، المنفتحة، وبثت فيه بهجة العيش ومتعة اللهو والتبذير، حتى حولته، باطناً وظاهراً، إلى الرجل الذي حلمت به لنفسها منذ المراهقة. لكنه تزوج، مثلما يتزوج الأبناء عاجلاً أو آجلاً. ولم يجرؤ على إطلاعها على الخبر. واتخذ موقفاً شديد الصبيانية في مواجهة الوضع، فصار يتصنع الضغائن الزائفة، والغضبات المتخيلة، بحثاً عن طريقة تكون فيها بيترا كوتيس هي من تبدأ القطيعة. وعندما وجه إليها أوريليانو

الثاني، ذات يوم، تأنيباً جائراً، تفادت هي الفخ، ووضعت الأمور في نصابها بالقول:

- كل ما هنالك هو أنك تريد الزواج من الملكة.

أحس أوريليانو الثاني بالخجل، فتصنع الغضب، وادعى أنها لا تفهمه، وتهينه، وانقطع عن زيارتها. لم تفقد بيترا كوتيس، لحظة واحدة، سيطرتها العظيمة، كلبوة في حالة راحة. لقد سمعت موسيقى حفلة الزفاف، وألعابها النارية، وصخب الاحتفال العام الجنوني، كما لو أن ذلك كله لا يعدو أن يكون شقاوة جديدة أخرى من شقاوات أوريليانو الثاني. ومن أشفقوا عليها لسوء طالعها، طمأنتهم بالابتسام والقول لهم: «لا تقلقوا. فقد خُلقت الملكات لخدمتي.» وعندما حملت إليها إحدى الجارات شموعاً لتشعلها عند صورة الحبيب الضائع، قالت لها بثقة مُلَغَزة:

- الشمعة الوحيد القادرة على إعادته، مشتعلة على الدوام.

ومثلما توقعت، رجع أوريليانو الثاني إلى بيتها فور انقضاء شهر العسل. جاء إليها مع أصدقائه المعهودين، ومصورٍ جوّال، والثوب وعباءة فراء القاقم الملطخة بالدم التي ارتدتها فرناندا في الكرنفال. وعلى حرارة الحفلة التي أشعلها تلك الليلة، ألبس بيترا كوتيس الثياب الملكية، وتوجها ملكة مطلقة ومدى الحياة على مدغشقر، ووزع نسخاً من الصورة على أصدقائه. لم تندمج هي في اللعبة وحسب، بل أشفقت كذلك عليه بعمق، مفكرة في أنه كان خائفاً جداً بكل تأكيد، عندما تخيل تلك الطريقة الغريبة لمصالحتها. وفي الساعة السابعة ليلاً، وهي لا تزال بملابس الملكة، استقبلته في الفراش. لم يكن قد مضى على زواجه شهران، ولكنها أدركت على الفور أن الأمور لا تسير على ما يرام

في فراشه الزوجي، واستمتعت بتذوق متعة الانتقام الناجز اللذيذة. ومع ذلك، لم يجرؤ، بعد يومين، على الرجوع إليها، بل أرسل وسيطاً لترتيب شروط الانفصال، فأدركت عندئذ أنها ستحتاج إلى صبر أكبر مما قدرته، لأنه بدا مستعداً للتضحية، في سبيل المظاهر. ولكنها لم تتأثر حينئذ أيضاً. وعادت لتهوين الأمور بخضوع أكد المعتقدات الشائعة بأنها امرأة بائسة. والذكرى الوحيدة التي احتفظت بها من أوريليانو الثاني، هي جزمة من جلد لماع، كان يرغب، مثلما قال هو نفسه، في أن ينتعلها في نعشه. حفظت الجزمة، ملفوفة بخرق قماشية في قاع صندوق، وهيأت نفسها لترعى انتظاراً بلا يأس.

- لا بد له أن يأتي، عاجلاً أو آجلاً - قالت -، ولو من أجل أن ينتعل هذه الجزمة وحسب.

لم تنتظر طويلاً مثلما توقعت. والحقيقة أن أوريليانو الثاني أدرك، منذ ليلة الزفاف، أنه سيعود إلى بيت بيترا كوتيس قبل وقت طويل من اضطراره إلى انتعال الجزمة اللماعة. كانت زوجته فرناندا امرأة ضائعة بالنسبة للعالم. فقد ولدت وترعرعت على بعد ألف كيلومتر من البحر، في مدينة كئيبة، ما زالت تفرقع على أزقتها الحجرية، في ليالي الرعب، عربات نواب الملك. واثنان وثلاثون برج أجراس تُقرع للميت في السادسة مساء. أما البيت النبيل المبلط بأحجار قبور، فلم تُعرف الشمس فيه قطّ. ومات الهواء بين أشجار السرو في فنائه، وفي ستائر وسجاجيد غرف النوم الشاحبة، وفي أروقة القناطر التي تنز ماء في حديقة الناردين. لم تعرف فرناندا، حتى سن البلوغ، خبراً آخر عن العالم سوى تمارين البيانو التي يمارسها أحدهم في بيت مجاور، أتاح

لها لسنوات وسنوات حرية عدم نوم القيلولة. فكانت تقبع في حجرة أمها المريضة، الخضراء والصفراء تحت نور زجاج النوافذ الملون والمعفر، تستمع إلى تدرجات السلم الموسيقي المنهجية، اللجوجة، المثبطة، وتفكر في أن هذه الموسيقى تصدح في العالم، بينما هي تُستنفد في تضفير أكاليل سعف جنائزية. وكانت أمها تحدثها، وهي تتعرق حمى الساعة الخامسة، عن بهاء الماضي. وفي إحدى الليالي، حين كانت لا تزال طفلة، رأت فرناندا امرأة باهرة الجمال، ترتدي البياض، وتجتاز الحديقة إلى المصلى. وكان أكثر ما أقلقها في تلك الرؤيا العابرة، إحساسها بأنها تشبهها تماماً، كما لو أنها قد رأت نفسها مستبقة عشرين سنة. «إنها أم جدتك، الملكة»، قالت لها أمها في توقف عن السعال، وأضافت: «لقد ماتت بهواء خبيث أصابها وهي تقطف قضيب ناردين». بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما بدأت تشعر أنها تشبه جدة أمها، خامر الشك فرناندا في صحة رؤيا طفولتها، لكن أمها أنبتها لعدم إيمانها. وقالت لها:

- إننا أثرياء وواسعو النفوذ بصورة هائلة. وذات يوم ستكونين ملكة.

صدقت هي ذلك، مع أنها لم تكن تجلس إلى المائدة الطويلة، ذات الشراشف الكتانية، وأدوات المائدة الفضية، إلا لتتناول فنجاناً من الشوكولاته مع الماء والخبز المُحلى. وظلت حتى يوم زفافها، تحلم بمملكة أسطورية، بالرغم من أن أباها، دون فرناندو، اضطر إلى رهن البيت من أجل شراء جهاز عرسها. لم تكن أحلامها تلك سذاجة ولا جنون عظمة. فهكذا ربوها. وهي تتذكر، مذ وعت على الدنيا، أنها تقضي حاجتها في مبولة من الذهب، عليها شعار

الأسرة. وقد خرجت من البيت، أول مرة، وهي في الثانية عشرة من عمرها، في عربة تجرها خيول، اجتازت بها شارعين فقط، لتوصلها إلى الدير. وفوجئت زميلاتها في الدروس، لأنهم يبعدونها عنهن، على كرسي ذي مسند عال جداً، ولأنها تكاد لا تختلط بهن في الفسحة بين الدروس. وكانت الراهبات يفسرن ذلك: «إنها مختلفة. سوف تصير ملكة.» وصدّقت زميلاتها الأمر، لأنها كانت آنذاك أكثر الآنسات جمالاً، وأكثرهن تمييزاً وتكتماً على الإطلاق. بعد انقضاء ثماني سنوات، وكانت قد تعلمت نظم الشعر باللاتينية، والعزف على الكلافيكورديو، وتبادل الحديث حول التصقّر مع الرجال، وحول الدفاع عن المعتقدات الدينية مع الأساقفة، وتتداول في أمور الدولة مع الحكام الأجانب، وفي شؤون الرب مع البابا، رجعت إلى بيت أبويها، لتضفر أكاليل سعف جنائزية. وجدت البيت منهوباً. لم يبق فيه إلا الأثاث الضروري، والشمعدانات وأدوات المائدة الفضية، لأن الأدوات المنزلية الأخرى قد بيعت، واحداً بعد الآخر، لتغطية نفقات تعليمها. وكانت أمها قد قضت بحمى الساعة الخامسة. وكان أبوها، دون فرناندو، ذو الملابس السوداء، والياقة الملساء، وسلسلة الساعة الذهبية التي تعترض صدره، يقدم لها في أيام الاثنين، قطعة عملة فضية للنفقات المنزلية، وتأخذ معها الأكاليل الجنائزية المنجزة في الأسبوع السابق. كان أبوها يمضي الشطر الأكبر من اليوم معتكفاً في مكتبه. وعندما يخرج إلى الشارع، في مناسبات قليلة، يعود قبل السادسة، ليرافقها في صلاة التسابيح. لم تُقم قط صداقات حميمة مع أحد. لم تسمع أي حديث قطّ عن الحروب التي تُدمي البلاد. ولم تتخلف قط عن سماع تمرينات البيانو في الساعة

الثالثة عصراً. بل إنها بدأت تفقد الوهم في أن تصير ملكة، عندما طُرقت مقرعة البوابة الخارجية طرقتين سريعتين، وفتحت الباب لعسكري وجيه، ذي حركات احتفالية، في خده ندبة جرح، وعلى صدره ميدالية ذهبية. انفرد بأبيها في المكتب. وبعد ساعتين، جاء أبوها بحثاً عنها في حجرة الخياطة. وقال له: «أعدي أمتعتك، فعليك القيام برحلة طويلة». هكذا أخذوها إلى ماكوندو. وفي يوم واحد، بضربة مخلب قاسية، ألقت الحياة على كاهلها كل ثقل واقع أخفاه عنها أبواها طوال سنين. ولدى عودتها إلى البيت، اعتكفت للبكاء في غرفتها، غير عابئة بتوسلات دون فرناندو وتفسيراته، في محاولة لمحو حروق تلك السخرية التي لم يُسمع بمثلها. عاهدت نفسها على عدم مغادرة غرفة نومها حتى الموت، عندما جاء أوريليانو الثاني بحثاً عنها. وقد كانت ضربة حظ غير مخطط لها مسبقاً، لأنها في ذهول السخط، وفي غضبها من العار، كذبت عليه كيلا يعرف أبداً حقيقة شخصيتها. والآثار الوحيدة التي توفرت لأوريليانو الثاني، حين خرج للبحث عنها، هي لهجة أهالي المرتفعات التي لا يمكن الخطأ فيها، ومهنتها كمضفرة أكاليل سعف جنائزية. بحث عنها دون هوادة. بالجرأة المتهورة التي اجتاز بها خوسيه أركاديو بوينديا سلسلة الجبال كي يؤسس ماكوندو، وبالغرور الأعمى الذي شن به أوريليانو بوينديا حروبه العقيمة، وبعناد أورسولا الأرعن الذي ضمنت به استمرار السلالة، هكذا بحث أوريليانو الثاني عن فرناندا، دون لحظة واحدة من الراحة. عندما سأل أين يباع سعف جنائزي، أخذوه من بيت إلى بيت، ليختار أفضلها. وعندما سأل أين هي أجمل امرأة وُجدت على الأرض، اقتادته كل الأمهات إلى

بناتهن. تاه في شعاب الضباب، لأزمنة مرصودة للنسيان، عبر متاهات خيبة الأمل. اجتاز قفراً أصفر، حيث الصدى يُرجع الأفكار، وتستثير الحنين سرابات منذرة. وبعد انقضاء أسابيع عقيمة، وصل إلى مدينة مجهولة، حيث النواقيس كلها تُقرع للموت. ومع أنه لم ير هذه المدينة من قبل قط، ولم يسبق لأحد أن وصفها له، فقد تعرف، في الحال، على الجدران المتآكلة بملح العظام، وعلى الشرفات الخشبية الهرمة التي مزقتها الفطور، وعلى قطعة الكرتون شبه الممحوة من المطر، المعلقة على البوابة، وعليها أشد الإعلانات كآبة في العالم: *نبيع سعفاً جنائزياً*. ومنذ تلك اللحظة، حتى الصباح الجليدي الذي غادرت فيه فرناندا البيت، برعاية رئيسة الراهبات، لم يكد يتاح الوقت للراهبات كي يُخطن جهاز العروس، ويحشرن، في ستة صناديق، الشمعدانات وأدوات المائدة الفضية، والمبولة الذهبية، وما لا فائدة منه، ولا حصر له من بقايا كارثة عائلية، تأخرت قرنين من الزمان قبل أن تكتمل. رفض دون فرناندو الدعوة لمرافقتها. ووعد بالذهاب فيما بعد، عندما ينتهي من تصفية التزاماته. ومنذ اللحظة التي بارك فيها ابنته، عاد إلى الاعتكاف في مكتبه، ليكتب الرسائل الموشاة بزخارف حدادية، وبشعار الأسرة، والتي ستكون أول اتصال إنساني بين فرناندا وأبيها مدى الحياة. وقد كان ذلك اليوم، بالنسبة لها، هو التاريخ الحقيقي لميلادها. أما بالنسبة لأوريليانو الثاني، فكان، في الوقت نفسه تقريباً، بداية السعادة ونهايتها.

كانت فرناندا تحمل معها مفكرة تقويم بديعة، لها مفاتيح صغيرة مذهبة، أشار فيها مرشدها الروحي، بحبر بنفسجي، إلى الأيام التي يتوجب عليها فيها الانقطاع عن الجماع. وباستبعاد

الأسبوع المقدس، وأيام الآحاد، وأيام الصوم، والجمعة الأولى من كل شهر، وأيام الخلوات، والقرابين، وموانع الدورة الشهرية، اختُزل تقويمها السنوي المُجدي إلى اثنين وأربعين يوماً، مبعثرة في متاهة من الصلبان البنفسجية. ولأن أوريليانو الثاني كان مقتنعاً بأن الزمان كفيل بهدم ذلك السياج العدائي، فقد أطال حفل الزفاف أكثر بكثير من الموعد المتوقع. ولشدة إنهاكها من كثرة إرسال زجاجات البراندي والشمبانيا الفارغة إلى الزبالة، كيلا يمتلئ البيت بها، ولاستغرابها من أن العروسين ينامان في مواعيد مختلفة، وفي حجرتين منفصلتين، بينما يتواصل إطلاق الألعاب النارية، وعزف الموسيقى، ونحر المواشي، تذكرت أورسولا تجربتها الشخصية، وتساءلت عما إذا لم تكن فرناندا كذلك، تضع حزام عفة، سيستثير سخرية القرية عاجلاً أو آجلاً، ويؤدي إلى وقوع مأساة. لكن فرناندا اعترفت لها ببساطة، بأنها ستترك أسبوعين يمران، قبل أن تسمح بأول اتصال مع زوجها. وقد فتحت، بالفعل، باب غرفة نومها، عند انتهاء المهلة، بإذعان للتضحية كالذي يمكن أن تنصاع له ضحية تكفير، ورأى أوريليانو الثاني عندئذ أجمل امرأة على الأرض، بعينيها المجيدتين كعيني حيوان مذعور، وشعرها الطويل الذي له لون النحاس منشوراً على الوسادة. كان مبهوراً بتلك الرؤيا، إلى حد أنه تأخر هنيهة في الانتباه إلى أن فرناندا قد ارتدت قميص نوم أبيض، طويلاً حتى كاحليها، وبكمّين حتى المعصمين، مع فتحة واسعة ومدورة، ضبطت استدارة حاشيتها بدقة عن مستوى البطن. فلم يستطع أوريليانو الثاني كبح انفجار ضحكة مدوية.

- هذا أفحش ما رأيته في حياتي - صاح، بقهقهة دوت في

أرجاء البيت كلها، وأضاف:- لقد تزوجتُ واحدة من راهبات الإحسان.

بعد شهر من ذلك، ودون أن يكون قد أفلح في جعل زوجته تخلع عنها قميص النوم، ذهب لالتقاط صورة بيترا كوتيس بملابس الملكة. وفي ما بعد، عندما تمكن من إرجاع فرناندا إلى البيت، رضخت هي لضغوطه في حمّى المصالحة، ولكنها لم تستطع منحه الراحة التي حلم بها عندما ذهب للبحث عنها في مدينة الاثنين وثلاثين برج أجراس. لم يجد أوريليانو الثاني لديها غير إحساس عميق بالأسى. وفي إحدى الليالي، قبل قليل من ميلاد ابنهما الأول، لاحظت فرناندا أن زوجها قد عاد سراً إلى فراش بيترا كوتيس.

- هذا صحيح - اعترف هو. وأوضح بنبرة استسلام موهن:- كان علي عمل ذلك كي تستمر الحيوانات في التكاثر.

وقد احتاج لبعض الوقت كي يقنعها بتلك الذريعة الغريبة؛ ولكنه عندما توصل إلى ذلك أخيراً، من خلال أدلة بدت غير قابلة للدحض، كان الوعد الوحيد الذي فرضته فرناندا عليه، هو ألا يسمح للموت بأن يفاجئه في فراش خليلته. وهكذا واصل ثلاثتهم العيش، دون عراقيل. فكان أوريليانو الثاني دقيقاً وحانياً مع كلتيهما، وبيترا كوتيس مختالة بالمصالحة، وفرناندا متظاهرة بجهل الحقيقة.

لكن الاتفاق لم يتوصل، مع ذلك، إلى ضم فرناندا إلى العائلة. وعبثاً ألحت عليها أورسولا لتلقي جانباً منديل الرقبة الصوفي الذي تنهض وهي تضعه، كلما مارست الحب، وكان موضع تهامس الجيران. ولم تستطع إقناعها باستعمال الحمام، أو المرحاض

الليلي، وبيع مبولتها الذهبية للكولونيل أوريليانو بوينديا، كي يحولها إلى أسماك صغيرة. وقد أحست آمارانتا بالضيق من طريقتها الفاسدة في الكلام، ومن عادتها في استخدام عبارات ملطفة لتمييز كل شيء. فصارت تتكلم أمامها برطانة مبتدعة، فتقول:

- هذيزي منزي اللواتزي يقرفنزي حتازيزي منزي برازْزي هنزي.

وفي أحد الأيام، ولضيقها من السخرية، أرادت فرناندا أن تعرف ما تقوله آمارانتا، فلم تستخدم هذه رطانتها للرد عليها:

- أقول إنك واحدة ممن يخلطن بين طيزهن وأيام الصيام.

منذ ذلك اليوم لم تعودا إلى تبادل الكلام. وعندما تضطرهما الظروف، تبعثان بملاحظات، أو تقولان الأشياء بصورة غير مباشرة. وعلى الرغم من عداء الأسرة الواضح، لم تتخل فرناندا عن إرادتها في فرض تقاليد أسلافها. فقضت على عادة الأكل في المطبخ، أو تناول كل شخص الطعام لدى إحساسه بالجوع، وفرضت وجوب عمل ذلك في مواعيد دقيقة، وعلى مائدة غرفة الطعام الكبيرة التي وضعت عليها شراشف من الكتان، والشمعدانات وأدوات المائدة الفضية. وقار ذلك السلوك الذي طالما اعتبرته أورسولا من أكثر أمور الحياة اليومية بساطة، ولّد جواً من التشدد، كان أول من تمرد عليه خوسيه أركاديو الثاني الصموت. ولكن تلك العادة فرضت نفسها، ومثلها عادة صلاة السبحة قبل تناول العشاء، مما جلب انتباه الجيران، وسرعان ما انتشرت الإشاعة عن أن آل بوينديا لا يجلسون إلى المائدة مثل غيرهم من البشر الفانين، وإنما حوّلوا تناول الطعام إلى قداس

أكبر. وحتى الخرافات التي تتطير منها أورسولا، وهي وليدة الإلهام الآني لا التقاليد، دخلت في نزاع مع تلك التي ورثتها فرناندا عن أبويها، وكانت خرافات محددة بدقة، ومصنفة لكل مناسبة. وطوال تمتع أورسولا بالسيطرة الكاملة على قواها، تواصل العمل ببعض العادات القديمة، واستمر تأثير بعض هواجسها القلبية على الحياة الأسرية؛ ولكنها حين فقدت البصر، وركنتها وطأة السنين في إحدى زوايا البيت، اكتملت دائرة التصلب التي بدأتها فرناندا منذ وصولها، وانتهى بها الأمر إلى الانغلاق الكامل، ولم يعد أحد سواها يقرر مصير الأسرة. فتجارة الحلويات وحيوانات السكاكر الصغيرة التي أبقت عليها صوفيا قديسة الرحمة، عملاً بمشيئة أورسولا، اعتبرتها فرناندا عملاً مشيناً، ولم تتأخر في تصفيتها. وأُغلقت في موعد القيلولة، أبواب البيت التي كانت تظل مشرعة، منذ الفجر حتى موعد النوم، بحجة أن الشمس تسخن غرف النوم؛ ثم أُغلقت أخيراً بصورة دائمة. واستُبدلت باقة الريحان وقطعة الخبز المعلقتين فوق الباب، منذ أزمنة التأسيس، بمشكاة لقلب يسوع. وقد تنبه الكولونيل أوريليانو بوينديا لتلك التغييرات، واستشف عواقبها. فاحتج: «إننا نتحول إلى أكابر. وسينتهي بنا الأمر على هذه الحال، إلى القتال مرة أخرى، ضد النظام المحافظ، ولكن لكي ننصب ملكاً مكانه، هذه المرة.» توخت فرناندا، بلباقتها، عدم الصدام معه. وكانت تنزعج في دخيلتها من طبعه المستقل، ومقاومته لكل أشكال التشدد الاجتماعي. وكانت تغيظها فناجين قهوته في الساعة الخامسة، وفوضى مشغله، وبطانيته المهترئة، وعادته في الجلوس على الباب المؤدي إلى الشارع عند الغروب. ولكنها اضطرت إلى السماح ببقاء

تلك القطعة المفلتة في آلية الأسرية، لأنها كانت على يقين من أن الكولونيل العجوز هو حيوان هدأته السنون وخيبة الآمال، ويمكن له في نوبة تمرد شيخوخية أن يزعزع ركائز البيت. وعندما قرر زوجها أن يطلق على ابنهما الأول اسم جدّ أبيه، لم تجرؤ على المعارضة، لأنه لم يكن قد مضى على مجيئها إلا سنة واحدة. ولكنها، عندما ولدت ابنتهما الأولى، أعلنت دون تحفظ قرارها بتسميتها ريناتا، مثل أمها. وكانت أورسولا قد قررت تسميتها ريميديوس. وبعد جدل متوتر، قام فيه أوريليانو الثاني بدور الوسيط الضاحك، عمدوها باسم ريناتا ريميديوس. لكن فرناندا ظلت تناديها ريناتا وحسب، بينما كانت عائلة زوجها، والقرية بأسرها ينادونها ميمي، تصغيراً لريميديوس.

لم تكن فرناندا تتحدث عن أهلها، في البدء. ولكنها راحت، مع مرور الزمن، ترسم صورة مثالية لأبيها. فكانت تتحدث عنه على المائدة، باعتباره كائناً استثنائياً تخلى عن كل أشكال الغرور، وأنه آخذ بالتحول إلى قديس. أذهل أوريليانو الثاني هذا التعظيم المفاجئ لحميه، فلم يستطع مقاومة إغواء التفوه بسخريات صغيرة، في غياب زوجته. وحذا بقية أفراد الأسرة حذوه. حتى إن أورسولا نفسها، الغيورة بتطرف على حفظ الوئام العائلي، والتي تتألم في سرها من المشاحنات المنزلية، سمحت لنفسها أن تقول يوماً إن المستقبل البابوي لحفيد حفيدها الصغير مضمون، لأنه على حدّ قولها: «حفيد قديس، وأمه ملكة وأبوه لص ماشية». وبالرغم من ذلك التواطؤ الضاحك، فقد اعتاد الطفلان على التفكير في جدهم ككائن خرافي، يكتب لهما أشعاراً ورعة في رسائله، ويرسل إليهما، في كل عيد ميلاد، صندوق هدايا لا يكاد

يتسع باب البيت لإدخاله. وكانت تلك، في الواقع، هي بقايا الميراث الإقطاعي. وقد أقيم بها، في غرفة الطفلين، مذبح عليه تماثيل قديسين بالحجم الطبيعي، عيونهم الزجاجية تطبعهم بمظهر حياة مثير للقلق، وثيابهم الصوفية المطرزة فنياً، أفضل من أي ثياب لبسها أحد من أهالي ماكوندو على الإطلاق. وشيئاً فشيئاً، راحت الأبهة الجنائزية لبيت السادة القديم والجليدي، تنتقل إلى بيت آل بويندیا المغمور بالضوء. فعلق أوريليانو الثاني في إحدى المناسبات: «ها قد أرسلوا إلينا المقبرة العائلية كلها. ولم يبق إلا أشجار الصفصاف ولوحات المدافن». ومع أنه لم يأت في تلك الصناديق قطّ، ما ينفع الطفلين في اللعب، إلا أنهما كانا يمضيان العام وهما ينتظران شهر كانون الأول، لأن الهدايا القديمة وغير المتوقعة، كانت تشكل، في نهاية المطاف، حدثاً في البيت. وفي عيد الميلاد العاشر، بينما كان خوسيه أركاديو الصغير يستعد للسفر إلى المدرسة الإكليريكية، وصل صندوق الجد الضخم، في موعد أبكر من السنوات السابقة، وكان مسمراً جيداً، ومحمياً من الماء بالقار، وموجهاً ببطاقة العنوان المعهودة، المكتوبة بحروف قوطية، إلى السيدة السامية دونيا فرناندا دل كاريبو دي بويندیا. وبينما هي تقرأ الرسالة في غرفتها، سارع الطفلان إلى فتح الصندوق. وبمساعدة أوريليانو الثاني، كالعادة، نزعوا أختام القار، واقتلعوا مسامير الغطاء، وأخرجوا نشارة الحماية، فوجدوا في الداخل صندوقاً طويلاً من الرصاص، مغلقاً ببراغٍ من النحاس. نزع أوريليانو البراغي الثمانية، أمام تلهف الطفلين، ولم يكد يتاح له الوقت لإطلاق صرخة، وإبعادهما جانباً، عندما رفع صفيحة الغطاء الرصاصي، ورأى دون فرناندو مرتدياً السواد،

وعلى صدره صليب، وقد تفرز جلده بتجشؤات نتنة، وهو ينضج على نار هادئة في سائل رغوي ذي فقاعات لآلئ حية.

بعد قليل من ولادة الطفلة، أُعلن اليوبيل غير المتوقع للكولونيل أوريليانو بويندبا، بأمر من الحكومة، للاحتفال بذكرى معاهدة نيرلانديا. لقد كان قراراً لا ينسجم مع السياسة الرسمية، مما دفع الكولونيل إلى معارضته بشدة، ورفض التكريم قائلاً: «إنها المرة الأولى التي أسمع فيها بكلمة يوبيل. ولكن أياً يكن معناها، لا يمكن لها أن تكون إلا خدعة». امتلأ مشغل الصياغة الضيق بالمبعوثين. وعاد المحامون ذوو البدلات القاتمة الذين حاموا، في أزمنة أخرى، مثل الغربان حول الكولونيل، وقد صاروا الآن أكبر سناً بكثير، وأشد وقاراً. وعندما رآهم يظهرون، مثلما جاؤوا في زمن آخر لعرقلة الحرب، لم يستطع تحمل صفاقة مديحهم. أمرهم بأن يتركوه بسلام، وأصر على أنه ليس شخصية بارزة في الأمة، مثلما يقولون، وإنما مجرد حِرفي بلا ذكريات، حلمه الوحيد أن يموت من التعب، في نسيان وبؤس أسماكه الذهبية. وكان أكثر ما أثار حفيظته، الخبر عن أن رئيس الجمهورية نفسه، يفكر في حضور الاحتفال في ماكوندو، لتقليده وسام الاستحقاق. فأرسل إليه العقيد أوريليانو بويندبا يقول، كلمة كلمة، إنه ينتظر بلهفة حقيقية هذه المناسبة المتأخرة، إنما المستحقة، لكي يطلق عليه رصاصة، ليس ثمناً لاستبداد نظامه ومخالفته لمسار التاريخ، وإنما لأنه يهين رجلاً عجوزاً لم يُلحق الأذى بأحد. ولقد بلغت الحدة التي تلفظ بها بتهديده حداً ألغى معه رئيس الجمهورية رحلته في آخر لحظة، وأرسل إليه الوسام مع ممثل شخصي له. وغادر العقيد خيرينيلدو ماركيز فراش شلله، بعد محاصرته بضغوط من

كل الأنواع، كي يقنع رفيق سلاحه القديم بقبول الوسام. وعندما رأى هذا الأخير ظهور الكرسي الهزاز، يحمله أربعة رجال، ورأى صديقه الذي شاطره انتصاراته ونكباته منذ الشباب، جالساً فيه بين وسائد كبيرة، لم يخامره الشك لحظة واحدة في أنه يقوم بذلك المجهود الشاق، كي يعرب له عن تضامنه معه. ولكنه حين عرف الهدف الحقيقي من الزيارة، طرده من المشغل، قائلاً له:

- إنني أتوصل متأخراً إلى القناعة بأنني لو تركتهم يعدمونك، لكنت أسديت إليك جميلاً عظيماً.

وهكذا أقيم احتفال اليوبيل دون حضور أي فرد من الأسرة. وتصادف توافقه مع أسبوع الكرنفال، ولكن أحداً لم يستطع أن ينتزع من رأس الكولونيل أوريليانو بوينديا الفكرة العنيدة بأن ذلك التوافق كان ملحوظاً من جانب الحكومة، من أجل التشديد على قسوة السخرية منه. وسمع من عزلة مشغله، الموسيقى العسكرية، ودوي المدفعية المهيب، وقرع نواقيس الشكر، وبعض عبارات الخطابات التي أُلقيت قبالة بيته، عندما عمدوا الشارع باسمه. وتضمخت عيناه بالدمع من السخط، من العجز الحانق، وأحس لأول مرة منذ الهزيمة، بالألم لعدم امتلاكه جسارة الشباب، كي يشن حرباً دامية تمحو آخر آثار النظام المحافظ. ولم تكن أصداء حفل التكريم قد تلاشت بعد، عندما طرقت أورسولا باب المشغل، فقال:

- لا تزعجوني. إنني مشغول.

- افتح - ألحت أورسولا بصوت عادي، وأضافت:- ليس لهذا علاقة بالاحتفال.

عندئذ أزاح الكولونيل أوريليانو بوينديا عارضة الإغلاق، ورأى

عند الباب سبعة عشر رجلاً من مختلف الهيئات، وكل الأنماط والألوان، ولكنهم جميعهم بمزاج توحدٍ يكفي للتعرف على هويتهم في أي مكان من الأرض. كانوا أبناءه. ودون اتفاق مسبق فيما بينهم، ودون أن يعرف بعضهم بعضاً، جاؤوا من أقصى أركان الساحل، وقد اجتذبتهم ضجة اليوبيل. جميعهم كانوا يحملون، باعتزاز، اسم أوريليانو مع كنية أم كل واحد منهم. وعلى امتداد ثلاثة أيام نزلوا خلالها في البيت، وكانوا مصدر رضا أورسولا، واستنكار فرناندا، أحدثوا في البيت أضرار حرب. وبحثت آمارانتا، بين أوراق قديمة، عن السجل الذي دونت فيه أورسولا أسماءهم جميعاً، وتواريخ ميلادهم وتعميدهم، وأضافت في الفراغ، بجانب اسم كل واحد منهم، عنوانه الحالي. كانت تلك القائمة تتيح تقديم موجز لعشرين سنة من الحرب. وكان بالإمكان من خلالها رسم مخطط لدروب الكولونيل الليلية، منذ فجر اليوم الذي خرج فيه من ماكوندو، على رأس واحد وعشرين رجلاً، نحو ثورة خيالية، حتى عودته آخر مرة، متدثراً بالبطانية المقددة بالدم الجاف. لم يفوت أوريليانو الثاني فرصة الاحتفال بأبناء عمه في حفلة شمبانيا وأكورديونات صاخبة. فُسرت على أنها تصفية حساب متأخرة مع الكرنفال المحبط بسبب اليوبيل. حطموا نصف أواني البيت الخزفية، وأتلفوا شجيرات الورد وهم يطاردون ثوراً كي يكبحوه ويسيطروا عليه، وقتلوا الدجاج بالرصاص، وأجبروا آمارانتا على رقص فالسات بيترو كريسبي الحزينة، وتمكنوا من جعل ريميديوس الجميلة تلبس بنطال رجال، لتتسلق عموداً مدهوناً بالصابون، كي تحصل على جائزة في قمته؛ وأفلتوا في غرفة الطعام خنزيراً مطلياً بالدهن، أوقع فرناندا أرضاً. لكنّ

أحداً لم يأسف لتلك الأضرار، لأن البيت اهتز بزلزال صحي. والكولونيل أوريليانو بونديا الذي استقبلهم، في أول الأمر، بارتياب، بل وشكك في صحة بنوة بعضهم، استمتع بجنونهم. وقبل أن يغادروا، أهدى إلى كل واحد منهم سمكة ذهبية. وحتى الانطوائي خوسيه أركاديو الثاني، رتب لهم أمسية مصارعات ديكة، أوشكت أن تنتهي بمأساة، لأن عدداً من الأوريليانيات كانوا ضليعين في التحكيم في خلافات صراع الديكة، واكتشفوا من النظرة الأولى، حيل الأب أنطونيو إيزابيل. وقد رأى أوريليانو الثاني آفاق القصف واللهو غير المحدودة التي يوفرها هؤلاء الأقرباء الصاخبون. فصمم على أن يبقيهم جميعهم للعمل معه. وكان أوريليانو الحزين هو الوحيد الذي قبل ذلك العرض، وهو خلاسي ضخم، له اندفاع جده وروحه المحبة للاكتشاف. وكان قد جرب البحث عن الثروة في نصف العالم، ولا فرق لديه في البقاء في أي مكان. أما الآخرون، وعلى الرغم من أنهم لا يزالون عازبين، فكانوا يعتبرون مصيرهم مقرراً. فجميعهم كانوا حرفيين مهرة، رجال بيوت، أناس سلام. وفي يوم أربعاء الرماد، قبل أن يعودوا للانتشار متفرقين على امتداد الساحل، تمكنت آمارانتا من جعلهم يرتدون ثياب الأحد، ليرافقوها إلى الكنيسة. ومن أجل المرح والتسلية، أكثر مما هو بدافع الإيمان، سمحوا باقتيادهم حتى منضدة القربان، حيث رسم الأب أنطونيو إيزابيل على جباههم صليب الرماد. وعندما حاول أصغرهم، بعد عودتهم إلى البيت، أن ينظف جبهته، تبين له أن العلامة لا تزول، وكذلك كانت علامات أخوته. جربوا بالماء والصابون، بالتراب والليفة، وجربوا أخيراً بحجر الخُفَّان ومحلول الصودا، ولم يستطيعوا محو الصليب. أما

آمارانتا والآخرون الذين شاركوا في القداس، فأزالوه بلا صعوبة. «لن يخطئ أحد في التعرف عليكم منذ الآن»، قالت لهم أورسولا ذلك عند الوداع. غادروا بصخب، تتقدمهم جوقة موسيقيين ودوي أسهم نارية. وخلفوا في القرية الانطباع بأنه صار لسلالة بوينديا بذور تضمن استمرارها لقرون طويلة. أما أوريليانو الحزين، بصليب الرماد على جبهته، فقد أنشأ على مشارف القرية، مصنع الجليد الذي حلم به خوسيه أركاديو بوينديا في هذياناته كمخترع.

بعد شهور من مجيئه، وبعد أن صار معروفاً ومحبوباً، راح أوريليانو الحزين يبحث عن بيت ليأتي بأمه وأخته العازبة (وهي ليست ابنة الكولونيل). وأبدى اهتمامه بالبيت الكبير الخرب الذي يبدو مهجوراً في زاوية الساحة. سأل عن صاحبه. فقال له أحدهم إنه ليس لأحد، وكانت تعيش هناك في زمن آخر، أرملة متوحدة، تتغذى على التراب وكلس الجدران، ولم تُر في سنواتها الأخيرة، إلا مرتين في الشارع، وكانت تضع قبعة مزينة بزهور اصطناعية دقيقة، وتنتعل حذاء بلون فضي قديم، وكان ذلك حين اجتازت الساحة إلى مكتب البريد، كي تبعث رسائل إلى الأسقف. وقالوا له إن رفيقتها الوحيدة كانت خادمة قاسية، تقتل كلاباً وقططاً وأي حيوان يدخل البيت، وتلقي بجثثها على قارعة الطريق، كي تزعج القرية بنتانة رائحتها، وإنه قد مضى زمن طويل منذ أن قددت الشمسُ الجلدَ المفرغ لآخر حيوان، وإن الجميع يعتبرون أن صاحبة البيت وخادمتها قد ماتتا قبل انتهاء الحروب، وإذا كان البيت لا يزال منتصباً، فليس ذلك إلا لأن السنين الأخيرة لم تعرف شتاء قاسياً أو رياحاً عاتية. كانت المفصلات متآكلة من

الصدأ، والأبواب لا تكاد تستند إلا على أكوام شباك العناكب، والنوافذ ملتحمة بفعل الرطوبة، والأرضية مشققة بالأعشاب والأزهار البرية، وقد عششت في الشقوق السحالي وكل أنواع الدويبات، وبدا كما لو أن ذلك كله، يؤكد الرواية الشائعة بأنه لم يعش هناك كائن بشري منذ نحو نصف قرن على الأقل. ولم يكن اندفاع أوريليانو الحزين بحاجة إلى كل تلك الأدلة، كي يبادر إلى التصرف. دفع بكتفه الباب الرئيسي، فتهاوى الهيكل الخشبي المنخورة دون جلبة، في انهيار مكتوم من الغبار وتراب أعشاش النمل. ظل أوريليانو الحزين عند العتبة، منتظراً انقشاع الغمامة، وعندئذ رأى في وسط الصالة، المرأة الضامرة، التي ما زالت ترتدي ثياب القرن الماضي، مع قليل من الشعر الأصفر على جمجمتها الجرداء، وبعينين واسعتين، لا تزالان جميلتين، وقد انطفأت فيهما آخر نجوم الأمل، وبشرة الوجه مشققة من قُحولة الوحدة. ارتعش أوريليانو الحزين لهذه الرؤيا التي من عالم آخر، ولم يكد ينتبه إلى أن المرأة تصوب إليه مسدساً عسكرياً قديماً.

- المعذرة، قال متلعثماً.

وظلت هي جامدة، وسط الصالة التي تغص بركام من الأمتعة العتيقة، تتفحص شبراً فشبراً، المارد ذا الكتفين العريضين، ووشم رماد على جبهته. ومن خلال غمامة الغبار، رأته في ضباب زمن آخر، ببندقية صيد بطلقتين معلقة على ظهره، وعنقود من الأرانب البرية في يده. فهتفت بصوت خافت:

- حباً بالرب. ليس من العدل أن تأتوني الآن بهذه الذكرى!

- أريد أن أستأجر البيت - قال لها أوريليانو الحزين.

رفعت المرأة عندئذ المسدس، وصوبت بيد ثابتة إلى صليب

الرماد، وهيأت الزناد بتصميم حازم، وأمرته:
- أنصرف.

في تلك الليلة، أثناء العشاء، روى أوريليانو الحزين الحادثة للعائلة، فبكت أورسولا من الذهول، وهتفت وهي تضغط رأسها بيديها: «أيها الرب المقدس. أنها لا تزال على قيد الحياة!». كان الزمن، والحرب، وما لا يحصى من الكوارث اليومية، قد أنستها ريبيكا. والوحيدة التي لم تنس لحظة واحدة أنها ما زالت على قيد الحياة، تتعفن في حساء يرقاتها، هي آمارانتا القاسية والهرمة. كانت تفكر فيها في الصباح، حين يوقظها جليد القلب في الفراش المتوحد، وتفكر فيها عندما تفرك بالصابون ثدييها الذاويين وبطنها الشاحب، وعندما تلبس تنوراتها التحتانية البيضاء وصدارات الشيخوخة، وعندما تبدل عن يدها ضماد التكفير الرهيب الأسود. دوما، وفي كل وقت، نائمة أو مستيقظة، في أقصى لحظات السمو وأدنى لحظات الخسة، كانت آمارانتا تفكر بريبيكا، لأن الوحدة نخبت ذكرياتها، ورمّدت لحظات قمامة الحنين المعرقِلة التي راكمتها الحياة في قلبها، ونقّت، وضخمت، وأبّدت الذكريات الأخرى، الأكثر مرارة. ومنها علمت ريميديوس الجميلة بوجود ريبيكا. فكلما مرّتا أمام البيت الخرب، كانت تروي لها حادثة بغيضة، أو حكاية خرافية مخزية، محاولة بهذه الطريقة جعل ابنة أخيها تشاطرها ضغينتها المضنية، ومواصلتها بالتالي، إلى ما بعد موتها؛ ولكنها لم تحقق مرادها، لأن ريميديوس كانت بمنجى من كل أنواع المشاعر العاطفية، ولا سيما مشاعر الآخرين. أما أورسولا من جهتها، والتي عانت من سيرورة معاكسة لما عرفته آمارانتا، فكانت تستحضر ريبيكا في تذكر نظيف من الدنس،

تتذكر صورة الطفلة المحزنة التي جيء بها إلى البيت حاملة كيس عظام أبويها، وتسامت على فعلة ريبيكا التي جعلتها غير جديرة بالانتماء إلى شجرة العائلة. وقرر أوريليانو الثاني أنه لا بد من إحضارها إلى البيت وحمايتها، ولكن نيته الطيبة أُحبطت بتشدد ريبيكا العنيد، فقد احتاجت إلى سنوات طويلة من المعاناة والبؤس، كي تقتحم امتيازات العزلة، ولم تكن مستعدة للتنازل عنها لقاء شيخوخة تعكرها مشاعر الشفقة الزائفة.

في شهر شباط، عندما رجع أبناء العقيد أوريليانو بوينديا الستة عشر، وهم لا يزالون موسومين بصليب الرماد، حدثهم أوريليانو الحزين عن ريبيكا، في حمى حفلة صاخبة. وفي نصف يوم، رمموا مظهر بيتها. بدّلوا الأبواب والنوافذ، ودهنوا الواجهة بألوان زاهية، ودَعَّموا الجدران، وصبوا إسمنتاً جديداً في الأرضية، ولكنهم لم يحصلوا على إذن بمواصلة الإصلاحات في الداخل. بل إن ريبيكا لم تطل من الباب. تركتهم يكملون ذلك الترميم الأرعن، ثم أجرت حساباً للتكاليف، وأرسلت إليهم مع أرخينيدا، الخادمة العجوز التي ما زالت ترافقها، حفنة قطع نقدية مسحوبة من التداول منذ الحرب الأخيرة، وتظن ريبيكا أنها لا تزال صالحة. عندئذ عُرف إلى أي حد لا يمكن تصوره، بلغ انعزالها عن العالم، وتبين أنه من المستحيل انتزاعها من عزلتها العنيدة، ما دام فيها نفس من الحياة.

في زيارة أبناء العقيد أوريليانو بوينديا الثانية إلى ماكوندو، بقي واحد آخر منهم، هو أوريليانو ثنتينو، للعمل مع أوريليانو الحزين. كان واحداً من أوائل من وصلوا إلى البيت للتعميد. وكانت أورسولا وآمارانتا تتذكرانه جيداً، لأنه حطم، في ساعات قليلة،

كل ما وصل إلى يديه من الأشياء القابلة للكسر. وكان الزمن قد خفف من اندفاع نموه الأولي، فصار رجلاً متوسط طول القامة، موسوماً بندوب الجدري؛ ولكن قدرته المذهلة على التحطيم اليدوي لا تزال على حالها. فقد كسر الكثير من الأطباق، حتى دون أن يلمسها، فاختارت فرناندا أن تشتري له أدوات مائدة وصحوناً من القصدير، قبل أن يجهز لها على آخر قطع أواني الخزف الثمينة؛ إلا أن الأطباق المعدنية ما لبثت أن تقشرت واعوجت بعد وقت قصير. ولكن، في مقابل تلك القدرة التي لا شفاء منها، والتي تثير الحنق، حتى فيه هو نفسه، كان يتمتع بحميمية تبعث على الثقة فوراً، وقدرة عظيمة على العمل. فقد زاد، خلال وقت قصير، إنتاج الجليد حتى تجاوز حاجة السوق المحلية، فكان على أوريليانو الحزين أن يفكر في توسيع تجارته إلى قرى أخرى في منطقة المستنقعات. وكان أن فكر حينئذ بالخطوة الحاسمة، ليس لتحديث صناعته وحسب، وإنما لربط البلدة ببقية العالم أيضاً. فقال:

- لا بد لنا من جلب السكة الحديد.

كانت تلك هي أول مرة تُسمع فيها الكلمة في ماكوندو. وأمام الرسم الذي خطه أوريليانو الحزين على المنضدة، وهو رسم ينحدر مباشرة من المخططات التي وضح فيها خوسية أركاديو بوينديا مشروعه للحرب الشمسية، تأكد انطباع أورسولا بأن الزمن يلف في حركة دائرية. ولكن أوريليانو الحزين، خلافاً لجده، لم يكن يفقد الشهية أو الرغبة في النوم، ولا يزعج أحداً بنوبات تعكر المزاج، وإنما يتصور أشد المشروعات بعداً عن المعقول، على أنها احتمالات آنية، ويُجري حسابات عقلانية للتكاليف ومدة الإنجاز،

ويقوم بتنفيذها دون فواصل من الحنق والغيظ. وإذا كان هناك، في أوريليانو الثاني، شيء من الجد الأول، وافتقار إلى شيء من الكولونيل أوريليانو بويندیا، فهو عدم تأثره المطلق بالسخرية، ولهذا سارع إلى تقديم المال من أجل المجيء بسكة الحديد، بالطيش نفسه الذي أنفق به المال على شركة أخيه الرعناء للملاحة النهرية. راجع أوريليانو الحزين مفكرة التقويم، وغادر يوم الأربعاء التالي، كي يعود بعد انتهاء الأمطار. ولم يعد يُعرف أي خبر عنه. تدفق نشاط أوريليانو ثنتينو لوفرة إنتاج المصنع، وبدأ يجرب تصنيع ثلج بعصير الفاكهة، بدل الماء. فتوصل، دون أي دراية ودون قصد، إلى المبادئ الأساسية لاختراع المثلجات، مفكراً بهذه الطريقة في تنويع إنتاج المعمل الذي صار يفترض أنه ملك له، لأنه لا وجود لأخبار عن عودة أخيه، بعد أن انتهى موسم الأمطار، وانقضى صيف كامل دون أي خبر عنه. ومع ذلك، في أوائل الشتاء التالي، اجتازت الشارع الرئيسي امرأة كانت تغسل الثياب في النهر، في أشد الساعات قيظاً، وأطلقت الصراخ بانفعال مثير للهلع.

- إنه آت - وتمكنت من التوضيح:- شيء مرعب مثل مطبخ يجر قرية.

في تلك اللحظة، اهتزت البلدة بصفير مخيف الأصداء، وبأنفاس لاهثة هائلة. وكانت قد شوهدت خلال الأسابيع السابقة، فرق العمال التي مدت خطوطاً حديدية نائمة، فلم يولهم أحد أي اهتمام، لأنهم ظنوا أنها حيلة جديدة من حيل الغجر الذين يعودون بهرج ومرج مزاميرهم وخشخاشاتهم القديمة التي فقدت سمعتها، ليعلنوا من يدري عن أي عقار لعين اخترعه صانعو أشربة عباقرة

مقدسيون. ولكنهم عندما استعادوا وعيهم من الذهول الذي أحدثه الصفير واللهاث، اندفع الأهالي جميعهم إلى الشارع، ورأوا أوريليانو الحزين يلّوح بيده محيياً من القاطرة، ورأوا بانبهار القطار المزين بالورود، وهو يصل أول مرة، متأخراً ثمانية شهور عن موعده. إنه القطار الأصفر البريء الذي سيحمل إلى ماكوندو الكثير من الشك واليقين، والكثير من الآمال والخيبات، والكثير من التحولات، والمصائب، والحنين.

مبهورين بكثرة الاختراعات وروعتها العجيبة، لم يعد أهالي ماكوندو يعرفون من أين يبدؤون بالاندهاش. كانوا يسهرون حتى وقت متأخر، يتأملون المصابيح الكهربائية الشاحبة، يغذيها مولد الكهرباء الذي جاء به أوريليانو الحزين، في رحلة القطار الثانية، وقد تكلفوا جهداً للاعتياد على توم-توم دويه اللجوج. وأثارت حفيظتهم الصور الحية التي صار التاجر المزدهر برونو كريسبي يعرضها في المسرح الذي لشبابيك تذاكره هيئة فم أسد، لأن شخصاً مات ودفن في أحد الأفلام، وذرفوا دموع التأثر لمعاناته، فعاد للظهور حياً، بهيئة رجل عربي، في الفيلم التالي. والجمهور الذي كان يدفع سنتيمين اثنين، كي يشاطر شخصيات الفيلم نكباتها، لم يستطع تحمل تلك السخرية غير المسبوقة، فحطم المقاعد. وبإلحاح من دون برونو كريسبي، أوضح العمدة، في بلاغ، أن السينما ما هي إلا آلة وهم، لا تستحق تدفق عواطف الجمهور. وحيال هذا التوضيح المخيب للآمال، قدّر كثيرون أنهم كانوا ضحية خدعة غجر كبيرة وجديدة، واختاروا الامتناع عن الذهاب إلى السينما، باعتبار أن لديهم ما يكفي من الأحزان، ولا حاجة بهم لأن يبكوا نكبات متصنعة لكائنات وهمية. وشيء مشابه حدث مع فونوغرافات الأسطوانات التي جاءت بها السيدات الفرنسيات، لاستبدالها بآلات الأرغن القديمة، وألحقت ضرراً بالغاً، لبعض

الوقت، بمصالح جوقة الموسيقيين. في البداية، ضاعف الفضول من أعداد زبائن الشارع المحظور، بل شاع أن سيدات محترمات، كن يتنكرن كرجال من الرعاع، كي يرين بدعة الفونوغراف عن قرب. ولكن لكثرة ما رآه الناس، وعن قرب شديد، سرعان ما توصلوا في النتيجة إلى أنه ليس طاحونة سحر، مثلما ظن الجميع، ومثلما زعمت السيدات الفرنسيات، بل هو خدعة آلية، لا يمكن مقارنتها بشيء بالغ التأثير، وشديد الإنسانية، ومفعم بالحقيقة اليومية مثل جوقة موسيقيين. وكانت خيبة أمل كبيرة، بعد أن انتشرت الفونوغرافات إلى حد صار هناك واحد منها في كل بيت، ولم تعد تعتبر وسيلة تسلية للكبار وحسب، وإنما كشيء جيد يلهو بفكه الأطفال. أما عندما أتيحت الفرصة، بالمقابل، لتأكد أحد أهل القرية من الحقيقة السافرة للهاتف المركّب في محطة القطار، وكان يُعتبر قبل ذلك، بسبب ذراع التدوير، محاكاة للفونوغراف، أصاب الذهول حتى أبعد الناس عن التصديق. كان كما لو أن الرب قد قرر اختبار قدرة أهالي ماكوندو على الدهشة، وإبقاءهم في تذبذب دائم بين البهجة والخيبة، وبين الشك والتجلي، إلى حد لم يعد هناك من هو قادر أن يعلم علم اليقين، أين هي حدود الواقع. كان اختلاطاً عشوائياً متشابكاً من الحقائق والسرابات، بعث اختلاجات نفاد صبر في شبح خوسيه أركاديو بوينديا، تحت شجرة الكستناء، واضطره إلى المشي عبر البيت، حتى في وضح النهار. ومنذ تدشين سكة القطار رسمياً، وبدء مجيئه بانتظام، كل يوم أربعاء، في الساعة الحادية عشرة، وتشييد المحطة البدائية من الأخشاب، وفيها منضدة، وهاتف، وكوة لبيع التذاكر، صار يُشاهد في شوارع ماكوندو رجال ونساء، يتظاهرون

فـي سـلوكهم بأنـهم أنـاس عـاديون، ولكنـهم يبـدون، فــي الحقيقـة، أناس سيرك. ففـي قرية أخذت عِبراً متصاعدة من الغجر، لم يكن ثمة مستقبل لائق لبهلوانات التجارة الجوالة أولئك، ممن يعرضون، بالطلاقة نفسها، قِدراً صَفَّـارة أو نظـام حيـاة يؤمـن خـلاص الـروح فـي اليوم السابع؛ ولكنهم كانوا يجنون، مع ذلك، أرباحاً رائعة، ممن يدفعهم الضجر إلى التظاهر بالاقتنـاع، أو مـن الغـافلين الدائمـين. وبـين أولئـك البـهلوانات الجوالـين، ببنطـال ركـوب خيـل وطمـاق، وبقبعـة مـن الفلـين، ونظـارة ذات إطـار معدنــي، وبعينـين يـاقوتيتين صفراوين، وهيئة ديك صراع فاخر، وصل إلـى مـاكوندو فـي أحد أيام الأربعاء الكثيرة تلك، المستر هربرت السمين والباسـم، وتنـاول الغداء فـي البيت.

لم يميزه أحد على المائدة قبل أن يـأكل قـرط الموز الأول. كـان أوريليانو الثاني قد التقـى بـه مصادفة، بينمـا هـو يحتـج، بإسـبانية ينطقـها بجـهد، لأنـه لا وجـود لغرفــة شـاغرة فــي فنــدق جـاكوب. ومثلما يفعل أوريليانو الثاني فـي أحيـان كثيرة، مـع غربـاء كثيرين، أخذه إلى البيت. كان يعمل فـي تجارة المنـاطيد المقيـدة، وقـد جـال بتجارته تلك على نصف العـالم، محققـاً أرباحـاً ممتـازة. ولكنـه لـم ينجح فـي رفع أحد من مـاكوندو إلـى الفضـاء، لأنـهم اعتـبروا هـذا الاخـتراع تراجعـاً، بعـد أن كـانوا قـد رأوا وجربـوا بســاط الريــح الغجري. ولهذا كان الرجل ينوي الرحيل فـي القطار التالـي. عندما حملوا إلى المائدة قرط الموز المرقط الذي يُعلقونه عـادة فـي غرفـة الطعـام خـلال تنـاول الغـداء، انـتزع الثمـرة الأولـى دون كثـير مـن الحماسـة. ولكنـه واصـل الأكـل بينمـا هـو يتكلـم، متذوقـاً، ماضغـاً، يفعل ذلك بذهول العالِم أكثر مما يفعله بتلذذ محب الأكل. وحين

انتهى القرط الأول، رجاهم أن يأتوه بآخر. وعندئذ أخرج من علبة أدواته التي يحملها معه دائماً، جراباً صغيراً فيه أجهزة بصرية. وباهتمام تاجر ماس شكاك، فحص الموزة بدقة، مقطعاً إياها إلى أجزاء بسكين صغيرة خاصة، ووازناً القطع بميزان صيدلي، وحاسباً قطرها بمقياس صانع أسلحة. ثم أخرج من العلبة، بعد ذلك، مجموعة أدوات قاس بها درجة الحرارة، ونسبة الرطوبة في الجو، وكثافة الضوء. لقد كانت طقوساً مذهلة، لم يستطع أحد خلالها أن يأكل مطمئناً، بانتظار أن يُصدر المستر هربرت، أخيراً، حكمة الكاشف. ولكنه لم يقل شيئاً يوضح نواياه.

وفي الأيام التالية، شوهد وهو يحمل شبكة وسلة صغيرتين، ويصطاد الفراش في محيط القرية. وفي يوم الأربعاء، وصل فريق مهندسين، وخبراء زراعيين، ومائيين، وطبوغرفيين، ومساحين، راحوا يستطلعون، طوال أسابيع، الأماكن نفسها التي اصطاد فيها المستر هربرت الفراش. وفي ما بعد، جاء السيد جاك براون، في عربة ملحقة، رُبطت بمؤخرة القطار الأصفر، وكانت مُلَبَّسة، بالكامل، بصفائح فضية، وفيها أرائك من المخمل الأسقفي، وسقفها من زجاج أزرق. وجاء في العربة الخاصة أيضاً، متحلقين حول السيد براون، المحامون الوقورون ذوو البدلات السوداء الذين لحقوا، في أزمنة أخرى، بالكولونيل أوريليانو بويندبا، من مكان إلى آخر، فدفع ذلك الناس إلى الظن بأن المهندسين الزراعيين، والمائيين، والطبوغرافيين والمسّاحين، وكذلك مستر هربرت، بمناطيده المقيدة وفراشاته الملونة، والسيد براون بضريحه الفاخر المتنقل، وكلابه الألمانية الضارية، لهم جميعهم علاقة بالحرب. ولم يكن هناك، مع ذلك، متسع من الوقت للتفكير

مطولاً في الأمر، لأن أهل ماكوندو الشكاكين ما كادوا يتساءلون عن أية لعنات تحدث، حتى كانت القرية قد تحولت إلى معسكر بيوت خشبية، سقوفها من التوتياء، يقطنها غرباء يتوافدون من نصف أنحاء العالم في القطار، ليس على المقاعد وأرضية العربات وحدها، وإنما على سطوحها أيضاً. أما الغرينغيون الذين جاؤوا، في ما بعد، بزوجاتهم الناعسات بفساتين الموسلين وقبعات الشف، فبنوا قرية منفصلة، على الجانب الآخر لسكة القطار، شوارعها محفوفة بأشجار النخيل، ولبيوتها نوافذ مزودة بشِباك معدنية، وعلى شرفاتها مناضد بيضاء صغيرة، ومراوح ذات أذرع معلقة في الأسقف المستعارة، ومروج فسيحة زرقاء فيها طواويس وطيور سمن. وكان ذلك المكان مسيجاً بشبك معدني، مثل قفص دجاج هائل مكهرب، تطلع عليه أصباح الصيف الندية مسوداً بطيور السنونو المحترقة. ولم يكن هناك بعد، من يدري ما الذي يبحثون عنه، أو إذا ما كانوا حقاً مجرد محسنين إلى البشر. كانوا قد تسببوا في اضطراب عظيم، أكثر تشويشاً مما كان يسببه الغجر القدماء، ولكنهم أقل ارتحالاً وتفاهماً. وكانوا مزودين بوسائل تحقق ما كان يعتبر في عهود أخرى من اختصاص العناية الإلهية. فقد عدّلوا نظام المطر، وعجّلوا دورات مواسم الحصاد، وحملوا النهر من مجراه المعهود منذ الأزل، ووضعوه مع أحجاره البيضاء وتياره الجليدي في الطرف الآخر من البلدة، وراء المقبرة. وكان أن أقاموا، في هذه المناسبة بالذات، حصناً من الإسمنت المسلح فوق ضريح خوسيه أركاديو الكامد، كيلا تتلوث المياه برائحة البارود المنبعثة من الجثة. ومن أجل الغرباء القادمين بلا حب، حوّلوا شارع السيدات الفرنسيات الحانيات، إلى قرية أكبر من الأخرى. وفي

يوم أربعاء مجيد، جاؤوا بقطار محمل بمومسات غير معقولات، إناث بابليات بارعات بأساليب عريقة في القدم، ومزودات بكل أنواع المراهم والأجهزة لاستثارة العاجزين، وتنشيط الخجولين، وإشباع نهم النهمين، وتحفيز المتواضعين، وتقويم غير السويين، وإصلاح المتوحدين. أما شارع الأتراك المغتني بمخازن مضيئة لبضائع من وراء البحار، حلت محل دكاكين الألوان الصارخة القديمة، فصار يغص في ليالي السبت بحشود مغامرين، يتزاحمون بين موائد القمار وألعاب الحظ، ومنصات ألعاب الرماية على أهداف، والزقاق الذي يقرؤون فيه المستقبل ويفسرون الأحلام، وموائد المقالي والمشروبات التي يطلع عليها صباح الأحد وقد انقلبت على الأرض، بين أجساد، هي أحياناً أجساد سكارى سعداء، وفي الغالب أجساد فضوليين صرعى رصاص الشجار أو لكماته أو سكاكينه أو زجاجاته. لقد كان غزواً صاخباً وغير متوقع، حتى إنه كان من المستحيل، في الأزمنة الأولى، المشي في الشارع، بسبب الأثاث والصناديق التي تسد الطريق، وأعمال النجارة في بيوت من يبنون بيوتهم، في أية بقعة خالية، دون استئذان أحد، وفضيحة أزواج من الرجال والنساء، يعلقون أراجيحهم بين أشجار اللوز، ويمارسون الحب تحت كلّة، في وضح النهار، وعلى مرأى من الجميع. كان الركن الوحيد الهادئ هو الذي أقامه زنوج من جزر الأنتيل، في شارع هامشي، بيوته من الخشب، ترتفع على دعائم خشبية، وعلى عتباتها يجلسون عند الغروب، مغنين أناشيد حزينة، برطانة البابيامينتو[1] المبهمة. تبدلات كثيرة

---

[1] البابيامينتو papiamento: لهجة من اللغة القشتالية المحكية في بعض جزر الأنتيل الصغرى، وخاصة في جزيرة كيراساو.

حدثت خلال وقت قصير، حتى إن أهالي ماكوندو القدماء، وبعد ثمانية شهور من زيارة المستر هربرت، صاروا ينهضون باكراً ليتعرفوا على قريتهم. وقد اعتاد الكولونيل أوريليانو بوينديا القول آنذاك:

- انظروا البلاء الذي جلبناه لأنفسنا، لمجرد أننا دعونا أمريكياً ليأكل الموز.

أما أوريليانو الثاني، فكانت تغمره السعادة لرؤية سيل الغرباء الجارف. وسرعان ما امتلأ البيت بضيوف غير معروفين، من عتاة المعربدين العالميين، فكان لا بد من إضافة غرف للنوم في الفناء، وتوسيع قاعة الطعام، واستبدال المائدة القديمة بأخرى تتسع لستة عشر شخصاً، وتجديد أواني المائدة وأدوات الطعام، وعلى الرغم من ذلك كله، كان لا بد من تنظيم ورديات لتناول الغداء. ولم تجد فرناندا بداً من ابتلاع وساوسها، وتقديم خدمة، تليق بالملوك، إلى ضيوف من أحط المستويات، يلوثون بوحل أحذيتهم الردهة، ويبولون في الحديقة، ويفرشون حصائرهم في أي مكان ليناموا القيلولة، ويتكلمون دون اهتمام بحساسية السيدات، أو بتكلف السادة. واستنكرت آمارانتا غزو أولئك الرعاع، إلى حدّ عادت معه إلى تناول طعامها في المطبخ، كما في الزمن القديم. ولأن الكولونيل أوريليانو بوينديا كان موقناً من أن معظم من يدخلون لتحيته في المشغل، لا يفعلون ذلك محبة واحتراماً، وإنما بدافع الفضول في التعرف على أثر تاريخي، على مستحاثة متحفية، فقد اختار أن يغلق على نفسه الباب بالرتاج، ولم يعد يُرى إلا في مناسبات قليلة جداً، جالساً عند باب البيت الخارجي. أما أورسولا، بالمقابل، حتى في الأزمنة التي صارت تجرّ فيها قدميها

جراً، وتمشي متلمسة الجدران، فكانت تشعر بفرح صبياني حين يقترب موعد وصول القطار. «لا بد من طهي اللحم والسمك»، كانت تأمر الطاهيات الأربع، فينهمكن في العمل ليكون كل شيء جاهزاً، تحت إشراف صارم من صوفيا قديسة الرحمة. وتلح أورسولا: «يجب طهو كل شيء، فلا أحد يدري ما الذي يرغب الغرباء في تناوله». كان القطار يصل في أشد ساعات الحر. وعند الغداء، يعم البيت صخب سوق، ويندفع الضيوف المتعرقون، حتى دون أن يعرفوا من هو مضيفهم، متزاحمين لاحتلال أفضل الأماكن على المائدة، بينما الطاهيات يصطدمن بعضهن ببعض، وهن يحملن قدور الحساء الكبيرة، وأواني مرق اللحم، وجفنات البقول، وصواني الرز، ويوزعن بالمغارف براميل الليمونادة. كانت الفوضى تصل إلى حد تشعر معه فرناندا بالغيظ من فكرة أن كثيرين منهم يأكلون مرتين، وقد أوشكت في أكثر من مناسبة على التفريج عن نفسها بإطلاق شتائم بذيئة، لأن أحد الضيوف، غير المدركين للوضع، يسألها عن حسابه. كان قد مضى أكثر من عام على زيارة المستر هربرت، والشيء الوحيد الذي عُرف، هو أن الغرينغيين يفكرون في زراعة الموز في المنطقة المسحورة التي اجتازها خوسيه أركاديو بوينديا ورجاله بحثاً عن الطريق إلى الاختراعات العظيمة. وقد جاء اثنان آخران من أبناء الكولونيل أوريليانو بوينديا، بصليب الرماد على جبهتيهما، جاءا منقادين بذلك الاندفاع البركاني، وبررا قرارهما بالمجيء، بجملة توضح أسباب مجيء الجميع. قالا:

- جئنا لأن الناس جميعهم يأتون.

ريميديوس الجميلة هي الوحيدة التي ظلت محصنة من جائحة

الموز. فقد ركدت في مرحلة مراهقة رائعة، نائية بنفسها أكثر فأكثر عن الشكليات، لا دراية لها بالخبث وعدم الثقة، سعيدة في عالم حقائق بسيطة خاص بها. لا تدري لماذا تعقّد النساء حياتهن بارتداء الصدارات والتنانير، حتى إنها خاطت لنفسها جلباباً من القنب، تُدخله ببساطة من رأسها لينسدل على جسدها، وحلّت بذلك، دون إجراءات أخرى، مشكلة اللباس، دون أن يحرمها ذلك من الإحساس بأنها عارية، لأن العري، حسب فهمها للأمور، هو الطريقة الوحيدة المحترمة للتنقل في البيت. وقد ضايقوها كثيراً كي تقص شعرها المطري الذي صار يصل حتى ربلتي ساقيها، وأن تربطه في ضفيرة مثبته على مؤخرة رأسها بالمشابك، وجدائل مربوطة بشرائط حمراء. فما كان منها، ببساطة، إلا أن حلقت شعرها كاملاً، وصنعت منه باروكات لتماثيل القديسين. وكان أكثر ما يثير الذهول في غريزتها التبسيطية، هو أنها كلما ازدادت ضيق ذرع بالموضة، بحثاً عن الراحة، وكلما تمادت في تجاوز التقاليد، في انصياع لعفويتها، كان جمالها المقلق يصبح أكثر بعداً عن المعقول، وسلوكها أكثر إثارة للرجال. وعندما جاء أبناء الكولونيل أوريليانو بوينديا، أول مرة، إلى ماكوندو، تذكرت أورسولا أنهم يحملون في عروقهم الدم نفسه الذي يجري في عروق حفيدة ابنها. فأصابتها القشعريرة من رعب منسي، وحذرتها قائلة: «افتحي عينيك جيداً. فمع أي واحد منهم، يأتي أبناؤك بأذناب خنازير.» ولكن ريميديوس لم تول التحذير أي اهتمام، حتى إنها لبست ملابس الرجال، وتمرغت على الرمل كي تتسلق عمود الجائزة المطلي بالصابون، وكانت على وشك أن تتسبب بمأساة بين أبناء عمها السبعة عشر، الذين فقدوا صوابهم حيال

مشهدها الذي لا يُحتمل. ولهذا لم يعد أحد منهم ينام في البيت عندما يزورون القرية. والأربعة الذين ظلوا هناك، كانوا يعيشون، بترتيب من أورسولا، في غرف مستأجرة. ومع ذلك، فإن ريميديوس الجميلة كانت ستموت ضحكاً لو أنها علمت بتلك الاحتياطات. فحتى اللحظة الأخيرة من وجودها على الأرض، كانت تجهل أن قدرها المحتوم، كأنثى مهيجة، هو كارثة يومية. فكلما ظهرت في قاعة الطعام، مخالفة بذلك أوامر أورسولا، تسببت في ذعر حانق بين الغرباء. لقد كان واضحاً أنها تمضي عارية تماماً تحت ردائها الخشن، ولم يكن هناك من هو قادر على فهم أن رأسها الحليق، وبديع الكمال، ليس تحدياً؛ وأن الجرأة التي تكشف بها عن فخذيها، إنما هي للتخلص من الحر، وأن اللذة التي تمص بها أصابعها، بعد أن تأكل بيديها، ليست استثارة إجرامية مقصودة. وما لم يعرفه أي من أفراد العائلة قط، هو أن الغرباء أدركوا سريعاً، أن ريميديوس الجميلة تُطلق رائحةً تشوش الذهن؛ نفثة عذاب، تظل عابقة في الجو بعد عدة ساعات من مرورها. وقد أكد رجال خبراء في اضطرابات الحب، ومجربون في العالم كله، أنهم لم يعانوا قط جزعاً شبيهاً بذاك الذي تُحدثه رائحة ريميديوس الجميلة الطبيعية. فسواء في ردهة أزهار البيغونيا، أم في صالون الاستقبال، أم في أي مكان من البيت، كان بالإمكان تحديد المكان الذي كانت فيه بالضبط، والوقت الذي انقضى منذ أن غادرته. لقد كان أثرها محدداً، لا يمكن الخطأ فيه، ولا يمكن لأحد من أهل البيت أن يميزه، لأنه كان قد اختلط، منذ زمن بعيد، بالروائح اليومية المعهودة؛ لكن الغرباء يتعرفون إليه فوراً. ولهذا كانوا هم وحدهم من يدركون أن قائد الحرس الشاب قد مات

حباً، وأن سيداً قادماً من بلاد أخرى، قد أسلم نفسه لليأس. وغير واعية لأجواء القلق التي تتحرك فيها، والبلاء العميق الذي يسببه مرورها، كانت ريميديوس تعامل الرجال دون أدنى خبث، وتجهز على عقولهم بملاطفاتها البريئة. وعندما نجحت أورسولا في أن تفرض عليها تناول طعامها في المطبخ، مع آمارانتا، كيلا يراها الغرباء، أحست هي براحة أكبر، لأنها صارت بذلك في منجى من أي نظام. والحقيقة أنه كان سيان لديها تناول الطعام في أي مكان، ودون مواعيد محددة، وإنما في استجابة لشهيتها. فقد كانت تستيقظ لتناول الغداء في الساعة الثالثة فجراً، وتنام طوال النهار، وتقضي عدة شهور وهي تعيش في توقيت مضطرب. إلى أن تأتي حادثة مفاجئة، لتعيدها إلى النظام. وعندما تكون الأمور على أحسن حال، تنهض في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتبقى معتكفة في الحمام، وهي عارية، لوقت قد يستمر ساعتين كاملتين، تقتل العقارب، ريثما تزيح عن نفسها خمول نعاسها الثقيل والطويل. وتبدأ بعد ذلك بسكب ماء الحوض على جسمها، بإناء من ثمرة قرع مجوفة. كانت عملية بالغة الطول، وبالغة الدقة، وبالغة الغنى بالمواقف الطقوسية، حتى إنه يمكن لمن لا يعرفها جيداً أن يظن أنها مستسلمة لعبادة جسدها الجدير بالعبادة. ولكن ذلك كله لم يكن، بالنسبة إليها، سوى طقس توحد خال من أية حسية، وأنه ببساطة، مجرد وسيلة لإضاعة الوقت ريثما تشعر بالجوع.

وذات يوم، عندما بدأت بالاستحمام، انتزع أحد الغرباء قرميدة من السقف، ووقف منقطع الأنفاس أمام مشهد عريها الرهيب. ورأت هي العينين المذهولتين من خلال القرميد المنزوع، ولم يكن

ردّ فعلها إحساساً بالخجل، وإنما بالذعر. فقد هتفت:

- حذار. سوف تسقط.

- أريد رؤيتك وحسب - تمتم الغريب.

- آه، لا بأس - قالت هي - ولكن كن حذراً، فهذا القرميد مهترئ.

كانت على وجه الغريب ملامح ذهول مؤلم، وبدا كما لو أنه يجاهد دوافعه البدائية خفية، كيلا يتلاشى ذلك السراب. وظنت ريميديوس الجميلة أنه يعاني من خوف أن يتكسر القرميد، فاستحمت أسرع من عادتها، كيلا يظل الرجل في خطر. وبينما هي تسكب ماء من الحوض على جسدها، قالت له إن بقاء السقف على هذه الحال مشكلة، وإنها تعتقد أن فرشة أوراق الشجر المتعفنة من المطر، هي التي تملأ الحمام بالعقارب. وأخطأ الغريب في اعتبار تلك الثرثرة وسيلة لمواراة رضاها، وهكذا وجد نفسه يستسلم لإغراء التقدم خطوة إلى الأمام، عندما بدأت تفرك جسمها بالصابون. فقال متلعثماً:

- اسمحي لي أن أفركك بالصابون.

فقالت له:

- أشكرك على طيب نواياك، ولكن يديّ تكفيان.

- اسمحي لي، ولو بفرك ظهرك - توسل الغريب.

- سيكون ذلك بلاهة - قالت -. فلا أحد يفرك ظهره بالصابون.

وفي ما بعد، بينما هي تنشف جسدها، توسل إليها الغريب، وعيناه تغرورقان بالدموع، أن تتزوج منه. فأجابته صراحة بأنها لن تتزوج أبداً من رجل ساذج، يضيع قرابة ساعة من الزمن، حتى إنه

يبقى دون غداء، لمجرد أن يرى امرأة تستحم. وأخيراً، عندما لبست جلبابها، لم يستطع الرجل تحمل تأكده من أنها لا ترتدي، بالفعل، شيئاً تحته، مثلما كان الجميع يتوقعون. وأحس أنه قد صار موسوماً إلى الأبد بحديدة ذلك السر المتقدة. فانتزع عندئذ قرميدتين أخريين ليتدلى إلى الحمام.

- إنه عال جداً - حذرته هي، بخوف - سوف تقتل نفسك.

وتفتت القرميد المتهالك في قرقعة كارثة، ولم يكد الرجل يتمكن إلا من إطلاق صرخة رعب، وتحطمت جمجمته، ومات دون احتضار على الأرضية الإسمنتية. الغرباء الذين سمعوا الضجة وهم في قاعة الطعام، وأسرعوا لرفع الجثة، شموا على جلدها رائحة ريميديوس الجميلة الخانقة. كانت الرائحة متغلغلة في الجسد، حتى إن شروخ الجمجمة لم تكن تنز دماً، بل زيتاً عنبرياً يعبق برائحة ذلك العطر السري. وعندئذ أدركوا أن رائحة ريميديوس الجميلة، تواصل تعذيب الرجال في ما وراء الموت، بل إنها تحول عظامهم إلى رميم. ومع ذلك، لم يربطوا بين تلك الحادثة الرهيبة والرجلين اللذين ماتا من أجل ريميديوس الجميلة. كان لا بد من ضحية أخرى، كي يصدق الغرباء، وكثير من سكان ماكوندو القدماء، أسطورة أن ريميديوس بويندا لا تنبعث منها نفحات حب، إنما أنفاس موت. وقد جاءت الفرصة لتأكيد ذلك، بعد شهور، في عصر يوم ذهبت فيه ريميديوس الجميلة، مع جماعة من صديقاتها، لزيارة المزارع الجديدة. فقد توفرت لأهل ماكوندو تسلية جديدة، في ذرع الدروب الرطبة والطويلة المحفوفة ببيارات الموز، حيث يبدو كما لو أنه جيء بالصمت من مكان آخر. صمت لم يُستخدم من قبل، ولهذا كان شديد البلادة في نقل

الصوت. فأحياناً لا يُفهم جيداً ما يقال على بعد نصف متر؛ ولكنه يبدو، مع ذلك، مفهوماً بوضوح في الجانب الآخر من المزرعة. وقد كانت تلك اللعبة المستجدة تستثير ضحك فتيات ماكوند وتفاجئهن، خوفاً وسخرية. وفي الليل، يتحدثن عن النزهة كما لو أنها تجربة من الأحلام. لقد شاعت شهرة ذلك الصمت، حتى إن قلب أورسولا لم يطاوعها على حرمان ريميديوس الجميلة من تلك التسلية، فسمحت لها بالذهاب ذات عصر، شريطة أن تضع قبعة وترتدي ثياباً لائقة. منذ أن دخلت جماعة الصديقات إلى مزارع الموز، تضمخ الهواء بعبق قاتل. وأحس الرجال الذين كانوا يعملون بين المساكب بأنهم يقعون تحت هيمنة افتتان غريب، وبأنهم مهددون بخطر غير مرئي، واستسلم كثيرون منهم لرغبة رهيبة في البكاء. تمكنت ريميديوس الجميلة وصديقاتها من الالتجاء إلى بيت قريب، عندما كن على وشك الوقوع ضحية هجوم من زمرة ذكور شرسين. وبعد قليل من ذلك، أنقذهن الأوريليانويات الأربعة، وكانت صلبان الرماد على جباههم توحي باحترام قدسي، كأنما هي علامة عفة، أو خاتم عصمة من الأذى. لم تخبر ريميديوس الجميلة أحداً بأن واحداً من أولئك الرجال، استغل حالة الفوضى، وتمكن من إمساك بطنها بيد تبدو أقرب إلى مخلب نسر يتعلق بحافة هاوية. وقد واجهت المهاجم بانبهار وليد لحظته، ورأت العينين المحزونتين اللتين ظلتا مطبوعتين في قلبها كجمرة مثيرة للشفقة. في تلك الليلة، في شارع الأتراك، تبجح الرجل بجرأته، وتباهي بحسن حظه، قبل دقائق من أن تهشم صدره رفسه حصان، ويراه حشد من الغرباء وهو يحتضر في وسط الشارع، مختنقاً بقيء من الدماء.

عندئذ، صارت فرضية امتلاك ريميديوس الجميلة لقدرات مميتة، تستند إلى أربع وقائع لا تُدحض. ومع أن بعض الرجال المتشدقين، كانوا يجدون متعة في القول إن ليلة حب مع امرأة بمثل تلك الإثارة، تستحق التضحية بالحياة، إلا أن أحداً لم يبذل، في الحقيقة، أي جهد للحصول عليها. وربما كان يكفي، ليس للحصول عليها وحسب، وإنما لدرء أخطارها كذلك، مواجهتها بشعور شديد البدائية والبساطة، مثل الحب، ولكنه كان الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببال أحد منهم. لم تعد أورسولا تهتم بها. ففي أزمنة أخرى، عندما لم تكن قد تخلت عن نيتها في إنقاذها، ودمجها في الدنيا، حاولت دفعها إلى الاهتمام بالشؤون البيتية الأولية، وكانت تقول لها بغموض: «الرجال يطلبون أكثر مما تفكرين فيه. فهناك طبخ كثير، وكنس كثير، ومعاناة كثير من الصغائر، إضافة إلى ما تفكرين فيه». وفي العمق، كانت تخدع نفسها بمحاولة إكسابها مهارات السعادة الأسرية، لأنها كانت مقتنعة بأنه لا وجود لرجل على وجه الأرض قادر - بعد إشباع عاطفته - على أن يتحمل، ولو ليوم واحد، إهمالها الذي يتجاوز أي قدرة على التفهم. وقد دفعها مولد خوسيه أركاديو الأخير، وتصميمها الراسخ على تربيته ليكون بابا، إلى تحويل اهتمامها عن حفيدتها. تركتها لمصيرها، موقنة أن معجزة ما ستتحقق عاجلاً أو آجلاً، وأنه في هذا العالم الذي يوجد فيه من كل شيء، لا بد أن يكون هناك أيضاً رجل لديه من البلادة ما يكفي لتحمل عبئها. وقبل ذلك بوقت طويل، كانت آمارانتا قد تخلت عن أي محاولة لجعلها امرأة نافعة. منذ أمسيات مشغل الخياطة المنسية، عندما كانت ابنة الأخ لا تبدي اهتماماً حتى بتدوير ذراع آلة الخياطة

اليدوية، توصلت آمارانتا إلى النتيجة البسيطة بأنها بلهاء. «سوف نضطر إلى ضرب قُرعة عليك»، كانت تقول لها ذلك، حائرة من عدم تأثرها بكلمات الرجال. وفيما بعد، عندما أصرت أورسولا على ذهاب ريميديوس الجميلة لحضور القداس، ووجهها مغطى بخمار، فكرت آمارانتا في أن تلك الوسيلة السرية ستكون مثيرة، وأنه سرعان ما سيظهر رجل لديه ما يكفي من التصميم، ليبحث بصبر عن نقطة الضعف في قلبها. ولكنها حين رأت الطريقة الرعناء التي ازدرت بها المتودد إليها الذي كان مرغوباً، لأسباب عديدة، أكثر من أمير، تخلت عن أي أمل فيها. أما فرناندا فلم تجرب ولو مجرد تفهمها. فمنذ أن رأت ريميديوس الجميلة بملابس ملكة، في الكرنفال الدامي، فكرت في أنها مخلوقة رائعة. ولكنها عندما رأتها تأكل بيدها، وغير قادرة على تقديم إجابة لا تكون أعجوبة في السذاجة، كان الشيء الوحيد الذي أسفت له، هو أن بلهاء العائلة يعيشون حياة مديدة. وبالرغم من كون الكولونيل أوريليانو بوينديا، لا يزال يعتقد، ويردد، أن ريميديوس الجميلة هي في الواقع، الأبعد بصيرة بين كل الكائنات التي عرفها على الإطلاق، وأنها تثبت ذلك في كل لحظة، بقدرتها المذهلة على السخرية من الجميع، فقد تخلوا عنها للرحمة الربانية. ظلت ريميديوس الجميلة تهيم على وجهها في صحراء العزلة، بلا صلبان على كاهلها، تنضج في أحلامها بلا كوابيس، وفي حماماتها التي لا تنتهي، وفي وجبات طعامها التي بلا مواعيد ثابتة، وفي صمتها العميق والطويل الذي بلا الذكريات، حتى عصر يوم من شهر آذار، أرادت فيه فرناندا أن تطوي في الحديقة ملاءاتها التي من القنب، وطلبت مساعدة نساء البيت.

وما كدن يبدأن، حتى لاحظت آمارانتا أن ريميديوس الجميلة تشف بشحوب شديد، فسألتها:

- أتشعرين بالمرض؟

ابتسمت ريميديوس الجميلة ابتسامة مشفقة، وهي تمسك بطرف الملاءة الآخر، وقالت:

- على العكس، لم أشعر قط بأنني أحسن مما أنا عليه الآن.

وما إن قالت ذلك، حتى أحست فرناندا بريح نور خفيفة تنتزع الملاءات من يديها، وتنشرها على اتساعها. وأحست آمارانتا باهتزاز غامض في دانتيلا تنانيرها الداخلية، وحاولت التعلق بالملاءة كيلا تسقط أرضاً، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع في الجو. كانت أورسولا، وقد صارت شبه عمياء، هي الوحيدة التي احتفظت بالهدوء، لتحدد طبيعة تلك الريح التي لا راد لها، فأفلتت الملاءات تاركة إياها بتصرف الضوء، وهي ترى ريميديوس الجميلة تلوح لها بيدها مودعة، وسط الخفقان المبهر للملاءات التي راحت ترتفع معها، مغادرة هواء الخنافس والأضاليا، وتجتاز معها طبقات الأثير، حيث لا تعود الساعة هي الرابعة بعد الظهر، لتضيع معها، إلى الأبد، في طبقات الهواء العليا، حيث لا تستطيع الوصول إليها حتى أعلى طيور الذاكرة تحليقاً.

ظن الغرباء، طبعاً، أن ريميديوس الجميلة قد استسلمت أخيراً لمصيرها المحتوم كملكة نحل، وأن أسرتها تحاول إنقاذ شرفها بخرافة صعودها. لكن فرناندا التي عضها الحسد، انتهت إلى تقبل الأعجوبة، وواصلت لزمن طويل التضرع إلى الله أن يعيد إليها الملاءات. صدّق معظم الناس المعجزة، بل إنهم أشعلوا

الشموع، وصلوا صلوات التاسوع. وربما ما كانوا سيتحدثون في أمر آخر لوقت طويل، لو لم تأت عملية الإبادة الهمجية للأوريليانويات لتُحلّ الرعب محل الدهشة. كان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد هجس مسبقاً، بطريقة ما، بالنهاية المأساوية لأبنائه، لكنه لم يحدد الهاجس قط على أنه نبوءة. فعندما جاء أوريليانو سيرّادور، وأوريليانو أركايا إبان فوضى تدفق الغرباء، وأعربا عن إرادتهما في البقاء في ماكوندو، حاول أبوهما أن يثنيهما عن عزمهما. لم يكن يفهم ما الذي سيفعلانه في قرية تحولت، بين عشية وضحاها، إلى مكان خطر. لكن أوريليانو ثنتينو وأوريليانو الحزين، بدعم من أوريليانو الثاني، وفرا لهما عملاً في مصانعهما. وقد ظلت لدى الكولونيل أوريليانو بوينديا، مع ذلك، مسوغات مبهمة تدفعه إلى عدم إحاطة ذلك القرار برعايته. فمنذ رأى السيد براون، في أول سيارة تصل إلى ماكوندو - سيارة برتقالية مكشوفة ترعب الكلاب بعوائها -، ثارت حفيظة المحارب العجوز من تزلف الناس المذل، وانتبه إلى أن شيئاً قد تبدل في طبع الرجال، منذ ذلك الزمن الذي كانوا يغادرون فيه نساءهم وأطفالهم، ويضعون بندقية صيد على أكتافهم، كي يذهبوا إلى الحرب. وكانت السلطات المحلية، بعد هدنة نيرلانديا، تتمثل في عمد بلا مبادرات، وقضاة للزينة والديكور، يختارونهم من بين المحافظين المسالمين والمتعبين في ماكوندو. فكان الكولونيل أوريليانو بوينديا يعلق حين يرى مرور رجال الشرطة حفاة، ومسلحين بعصي خشبية: «هذا نظام أبالسة بائسين. لقد خضنا حروباً كثيرة، وكل ذلك كيلا يدهنوا بيتنا باللون الأزرق» ومع ذلك، فقد جرى استبدال الموظفين المحليين، عندما جاءت شركة الموز،

وحلّ محلهم غرباء متسلطون، أسكنهم السيد براون في حظيرة الدجاج ذات السياج المكهرب، كي ينعموا، مثلما أوضح، بالاحترام اللائق بمناصبهم، ولا يعانوا من الحر والبعوض وما لا حصر له من المضايقات والحرمان في القرية. واستُبدل رجال الشرطة القدماء بقتلة مسلحين بمناجل المتشيتي. كان الكولونيل أوريليانو بوينديا المنزوي في مشغله، يفكر في هذه التبدلات. ولأول مرة، في صمت سنوات عزلته، عذبه اليقين الحاسم بأنه كان من الخطأ عدم مواصلة الحرب حتى حسم نتيجتها النهائية. وفي أحد تلك الأيام، اصطحب أحد أخوة العقيد المنسي ماغنيفيكو فيسبال، حفيده الذي في السابعة من عمره، لتناول شراب مرطب من عربات الساحة، ولأن الطفل اصطدم، دون قصد، بعريف شرطة، فاندلق الشراب على بزته، فقد مزقه ذلك الهمجي بضربات المتشيتي، وقطع بضربة واحدة رأس الجد الذي حاول منعه. رأت البلدة كلها مرور القتيل مقطوع الرأس، حين حمله بعض الرجال إلى بيته، والرأس الذي تدحرج، تحمله امرأة من شعره، والكيس الدامي الذي يضم أشلاء الطفل.

كانت تلك الحادثة، في نظر الكولونيل أوريليانو بوينديا، هي نهاية القدرة على التحمل. ووجد نفسه، فجأة، يشعر بالغضب نفسه الذي أحس به في شبابه، أمام جثة المرأة التي ماتت ضرباً بالعصي، لأن كلباً مسعوراً عضها. نظر إلى جماعات الفضوليين الذين كانوا أمام البيت، وبصوته القديم الجهوري، المستعاد بسبب ازدراء عميق لنفسه، صب عليهم شحنة الحقد التي لم يعد يطيقها في قلبه:

- في واحد من هذه الأيام، سأسلّح أولادي ليقضوا على

غرينغيي البراز هؤلاء.

خلال ذلك الأسبوع، وفي أماكن مختلفة من الساحل، جرى اصطياد أبنائه السبعة عشر، مثل أرانب، على يد مجرمين غير مرئيين، يصوبون إلى منتصف صليب الرماد. كان أوريليانو الحزين خارجاً من بيت أمه، في الساعة السابعة مساء، عندما ثقبت جبهته رصاصة بندقية آتية من الظلام. وعُثر على أوريليانو ثنتينو في أرجوحة نومه التي اعتاد أن يعلقها في المعمل، ومخرز لنقر الجليد مغروس حتى المقبض، بين حاجبيه. وكان أوريليانو سيرادور قد أوصل خطيبته إلى بيت أبويها، بعد أن اصطحبها إلى السينما، وبينما هو عائد عبر شارع الأتراك المضاء، أطلق عليه شخص لم يُعرف قط، وسط الزحام، رصاصة مسدس أوقعته في مرجل شحم يغلي. وبعد دقائق قليلة، طرق أحدهم باب الغرفة، حيث كان أوريليانو أركايا مع امرأة، وصاح به: «أسرع، إنهم يقتلون أخوتك». وفي ما بعد، روت المرأة التي كانت معه، أن أوريليانو أركايا قفز من السرير وفتح الباب، فكانت بانتظاره رشّة رصاص ماوزر، أطاحت بجمجمته. في ليلة الموت تلك، وبينما البيت يعد العدة للسهر على الجثث الأربع، جابت فرناندا القرية مثل مجنونة، بحثاً عن أوريليانو الثاني الذي كانت بيترا كوتيس قد خبأته في خزانة، معتقدة أن أمر الإبادة يشمل كل من يحملون اسم الكولونيل. ولم تسمح له بالخروج حتى اليوم الرابع، عندما أتاحت البرقيات الواردة من مختلف مناطق الساحل إدراك أن مطاردة العدو الخفي، موجهة ضد الأخوة الموسومين بصليب الرماد وحدهم. بحثت آمارانتا عن السجل الذي دونت فيه المعلومات عن أبناء أخيها، ومع توالي ورود البرقايات، راحت تشطب الأسماء، حتى لم

يبق منهم سوى الابن الأكبر. وكانوا يذكرونه جيداً، بسبب التضاد بين بشرته السوداء، وعينيه الكبيرتين الخضراوين. كان اسمه أوريليانو أمادور، وكان نجاراً، يعيش في قرية منسية في سلسلة الجبال. وبعد أسبوعين من انتظار برقية تنبئ بموته، أرسل إليه أوريليانو الثاني رسولاً يحذره، ظناً منه أنه يجهل الخطر المحدق به. وعاد الرسول بخبر أن أوريليانو أمادور بمنجى من القتل. ففي ليلة الإبادة، جاء رجلان يبحثان عنه في بيته، وأفرغا مسدسيهما باتجاهه، ولكنهما لم يصيبا صليب الرماد. وتمكن أوريليانو أمادور من القفز فوق سور الفناء، وتوارى في متاهات سلسلة الجبال التي يعرفها شبراً شبراً، بفضل صداقته للهنود الذين يتاجر معهم بالخشب. ولم يعد يُعرف عنه أي شيء.

كانت أياماً سوداء للكولونيل أوريليانو بوينديا. وجه إليه رئيس الجمهورية برقية تعزية، يعده فيها بإجراء تحقيق مستفيض، ويعرب عن تكريمه للقتلى. وبأمر منه، حضر العمدة إلى الجنازة، ومعه أربعة أكاليل جنائزية، أراد وضعها على النعوش، ولكن الكولونيل طرده إلى الشارع. وبعد الدفن، حرر برقية عنيفة موجهة إلى رئيس الجمهورية، وأخذها بنفسه إلى موظف التلغراف الذي رفض إرسالها. عندئذ أغناها الكولونيل بعبارات فريدة في عدوانيتها، ودسها في مغلف، وأرسلها بالبريد. ومثلما حدث عند موت زوجته، ومثلما حدث مرات كثيرة، خلال الحرب، عند موت أفضل أصدقائه، لم تنتابه مشاعر الحزن، بل غضب أعمى وبلا وجهة، وإحساس مضنٍ بالعجز. ووصل به الأمر إلى اتهام الأب أنطونيو إيزابيل بالتواطؤ، لأنه وسم أبناءه برماد لا يزول، ليتمكّن أعداؤه من تمييزهم. وكان الكاهن العجوز قد فقد القدرة على

ترتيب أفكاره جيداً، وبدأ يثير ذعر المؤمنين بتفسيراته الطائشة التي يقدمها عند مذبح الكنيسة. فجاء في عصر أحد الأيام إلى البيت، حاملاً الإناء الذي يحضّر فيه رماد الأربعاء، وحاول أن يسم به الأسرة كلها، كي يثبت أنه يزول بالماء. ولكن رعب الكارثة كان قد تغلغل عميقاً، حتى إن فرناندا نفسها رفضت الخضوع للتجربة. ولم يُرَ بعد ذلك قط أحدٌ من آل بوينديا جاثياً أمام منضدة المناولة في أيام أربعاء الرماد.

لم يتمكن الكولونيل أوريليانو بوينديا من استعادة اتزانه لوقت طويل. فهجر صناعة الأسماك، وصار لا يأكل إلا بصعوبة، ويجوب أنحاء البيت مثل منوّم، مجرجراً بطانيته، ومجتراً غضباً أصم. وبعد ثلاثة أشهر، كان شعره قد شاب، وشاربه معقوف الطرفين والمصمغ، قد تهدل على شفتين بلا لون. ولكن عينيه، بالمقابل، صارتا مجدداً الجمرتين اللتين أخافتا من رأوه عند ولادته، واللتين كانتا تحركان الكراسي بمجرد النظر إليها. وفي غضب عذابه، كان يحاول، دون جدوى، استثارة النبوءات التي قادته في شبابه، عبر دروب الخطر، حتى أوصلته إلى قفر المجد الكئيب. كان ضائعاً، تائهاً في بيت غريب، حيث لا شيء ولا أحد يستثير فيه أدنى قدر من الحب. وفي أحد الأيام، فتح غرفة ميلكيادس، بحثاً عن آثار ماض سابق للحرب، فلم يجد فيها سوى الأنقاض، والقمامة، وأكوام القذارة المتراكمة عبر سنوات طويلة من الإهمال. وعلى أغلفة الكتب التي لم يعد أحد إلى قرأتها، على الرقاق القديمة الموسومة بالرطوبة، نمت زهرة شاحبة. وفي الهواء الذي كان أكثر نقاء وإشراقاً مما هو في بقية غرف البيت، كانت تطفو رائحة ذكريات عفنة لا تطاق. وفي صباح أحد الأيام، وجد

أورسولا تبكي تحت شجرة الكستناء، على ركبتي زوجها الميت. وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا هو الوحيد، بين ساكني البيت، الذي لم يعد يرى ذلك الشيخ القوي الذي يُثقل عليه نصف قرن أمضاه في العراء. «سلّم على أبيك»، قالت له أورسولا. فتوقف هنيهة أمام شجرة الكستناء، وتأكد مرة أخرى من أن ذلك المكان الخاوي لا يستثير فيه أية عاطفة.

- ماذا يقول؟ سألها.

- إنه حزين جداً - أجابت أورسولا - لأنه يظن أنك ستموت.

فقال الكولونيل مبتسماً:

- قولي له إن المرء لا يموت عندما يتوجب عليه الموت، وإنما عندما يستطيع الموت.

أثار نذير الأب الميت فيه آخر جذوات الكبرياء المتبقية في قلبه، ولكنه أخطأ في اعتبارها نفحة قوة مفاجئة. وكان هذا هو ما دفعه إلى محاصرة أمه كي تكشف له عن المكان الذي دُفنت فيه، في الفناء، النقود الذهبية التي عثروا عليها في تمثال القديس يوسف الذي من الجبس. «لن تعرف ذلك مطلقاً» قالت له بتصميم مستوحى من عبرة قديمة، وأضافت: «لا بد أن يعود، في يوم ما، صاحب تلك الثروة، وهو وحده من يستطيع نبش الأرض عنها». لم يدر أحد ما الذي جعل رجلاً سخياً، يبدأ الطمع بالمال بتلك اللهفة، وليس بكميات متواضعة يمكن لها أن تحل أزمة مستعجلة، وإنما بثروة ذات حجم غير معقول، مجرد ذكرها أغرق أوريليانو الثاني في بحر من الذهول. وكان محازبو الكولونيل القدامى الذين لجأ إليهم طالباً المساعدة، قد اختبؤوا، هرباً من اللقاء به. فسُمع في تلك الفترة يقول: «الفرق الوحيد بين

الليبراليين والمحافظين، هو أن الليبراليين يذهبون إلى قداس الساعة الخامسة، والمحافظين يذهبون إلى قداس الثامنة.» ومع ذلك، فقد ألح بجزع شديد، وتوسل بطريقة حطم معها مبادئ كرامته، حتى نجح، خلال ثمانية شهور، بقليل من هنا، وقليل من هناك، منسلاً إلى كل مكان بدأب متكتم، وإلحاح لا رحمة فيه، واستطاع أن يجمع أموالاً تزيد على ما تخبئه أورسولا مدفوناً. عندئذ ذهب لزيارة العقيد خيرينيلدو ماركيز المريض، ليطلب مساعدته في خوض الحرب الشاملة.

في إحدى اللحظات، كان العقيد خيرينيلدو ماركيز هو الوحيد القادر، حقاً، حتى من كرسي شلله، على تحريك خيوط التمرد الصدئة. فبعد هدنة نيرلانديا، وبينما الكولونيل أوريليانو بوينديا يلوذ بمنفى أسماكه الذهبية، حافظ هو على اتصاله بالضباط الثوريين الذين ظلوا على إخلاصهم له حتى الهزيمة. خاض معهم حرب المذلة اليومية الحزينة، حرب التوسلات والمذكرات، وارجع إلينا غداً، وصار الأمر وشيكاً، ونحن ندرس حالتك بالاهتمام اللازم؛ الحرب الخاسرة دون مفر، ضد الموظفين الودودين والواثقين الذين عليهم أن يوقعوا، ولم يوقعوا قط، الموافقة على معاشات التقاعد مدى الحياة. الحرب الأخرى، حرب العشرين سنة الدامية، لم تسبب لهم من الأذى قدر ما سببته حرب التأجيل الأبدي المنهكة. فالعقيد خيرينيلدو ماركيز الذي نجا من ثلاث محاولات اغتيال، وتجاوز حياً إصابته بخمسة جروح، وخرج سليماً مما لا حصر له من المعارك، ناء بحصار الانتظار الفظيع، وغرق في هزيمة الشيخوخة البائسة، حالماً بآمارانتا بين موشورات الضوء الساطعة في بيت مستعار. آخر قدماء المحاربين الذين

عرف أخبارهم، ظهرت صور لهم في الجريدة، بوجوه مرفوعة بصورة مشينة، إلى جانب رئيس للجمهورية مجهول، يهدي إليهم أزراراً نُقشت عليها صورته، كي يضعوها على ياقات سترهم، ويعيد إليهم علماً متسخاً بالدم والبارود، ليضعوه على نعوشهم. أما الآخرون، الأكثر كرامة، فما زالوا ينتظرون رسالة في ظل الإحسان العام، وهم يموتون جوعاً، ويعيشون على الغضب، متعفنين من الشيخوخة على براز المجد اللذيذ. وهكذا، عندما دعاه الكولونيل أوريليانو بوينديا لإشعال نيران حرب عاتية، تذرو كل أثر لنظام الفساد والفضائح المدعوم من الغازي الأجنبي، لم يستطع العقيد خيريليندو ماركيز كبح قشعريرة شفقة، وقال متنهداً:

- آه يا أوريليانو. كنت أعرف أنك صرت عجوزاً، ولكني أكتشف الآن أنك أكثر هرماً مما يبدو عليك.

في فوضى السنوات الأخيرة، لم يتوفر لأورسولا سوى القليل من الوقت للاهتمام بتنشئة خوسيه أركاديو تنشئة بابوية، عندما كان لا بد من تهيئته بسرعة كي يذهب إلى مدرسة الدير. وفي الوقت نفسه تقريباً، كانت أخته ميمي، الموزعة بين تزمت فرناندا ومرارة آمارانتا، قد بلغت السن المطلوبة لإرسالها إلى مدرسة راهبات، ليجعلن منها عازفة بارعة على الكلافيكورديو. كانت أورسولا تشعر أنها معذبة بشكوك خطرة حول فعالية الأساليب التي صلّبت بها روح الحبر الأعظم المتدرب الهزيل، ولكنها لم تُلق مسؤولية ذلك على شيخوختها المتعثرة، ولا على غمامات بصرها التي تكاد لا تسمح لها برؤية هيئة الأشياء، وإنما على أمر لم تتوصل هي نفسها إلى تحديده، ولكنها تدركه بصورة مشوشة على أنه تآكل متزايد في الزمن. «السنون الآن لا تأتي مثل السنوات من قبل»، اعتادت أن تقول ذلك، شاعرة بأن الوقع اليومي يفلت من بين يديها. فمن قبل - فكرت - كان الأطفال يتأخرون طويلاً في النمو. وليس عليها إلا أن تتذكر كل الزمن الذي انقضى قبل أن يذهب ابنها البكر، خوسيه أركاديو، مع الغجر، وكل ما جرى قبل أن يعود ملوناً كحية، ومتحدثاً مثل فلكي؛ والأشياء التي حدثت في البيت قبل أن ينسى أركاديو وآمارانتا لغة الهنود، ويتعلما القشتالية. ولا بد من رؤية أيام الشمس والصحو التي تحمّلها

خوسيه أركاديو بوينديا المسكين، تحت شجرة الكستناء، وكم كان عليها أن تبكي موته، قبل أن يحملوا إليها كولونيلاً يحتضر اسمه أوريليانو بوينديا لتجد أنه، بعد كثير من الحروب، وبعد كل ما عانته من أجله، لم يبلغ الخمسين من عمره بعد. ففي زمن آخر، وبعد أن تمضي النهار بطوله في صنع حيوانات من السكر، كانت تجد فائضاً من الوقت للعناية بالأطفال، والنظر إلى بياض عيونهم لرؤية أنهم بحاجة إلى جرعة من زيت الخروع. أما الآن بالمقابل، عندما لم يعد لديها شيء تفعله، وتمضي الوقت، منذ الفجر حتى الليل، حاملة خوسيه أركاديو الصغير على وركها، تضطرها نوعية الزمن الرديء إلى ترك الأمور غير ناجزة بالكامل. الحقيقة أن أورسولا كانت ترفض أن تشيخ، حتى بعد أن فقدت حساب سنوات عمرها، فكانت تعرقل الآخرين في كل مكان، وتحاول حشر نفسها في كل أمر، وتضايق الغرباء بسؤالهم إذا ما كانوا قد تركوا في البيت، في أزمنة الحرب، تمثالاً من الجبس للقديس يوسف، لتخبئته ريثما يتوقف المطر. ولم يدر أحد بصورة مؤكدة، متى بدأت تفقد بصرها. فحتى في سني حياتها الأخيرة، عندما لم تعد قادرة على النهوض من فراشها، كان يبدو ببساطة أن الشيخوخة قد هزمتها وأقعدتها. أما هي، فلاحظت الأمر منذ ما قبل ميلاد خوسيه أركاديو. وظنت في البداية أنه ضعف بصر عابر، فصارت تتناول، خفية، شراباً من خلاصة نخاع العظام، وتضع عسل نحل في عينيها. ولكنها سرعان ما اقتنعت بأنها آخذة بالغرق، دون مفر، في الظلمات، إلى حدّ أنه لم تتشكل لديها قط، فكرة واضحة عن كنه النور الكهربائي المخترع، لأنهم عندما ركّبوا أول المصابيح، لم تلمح إلا الوميض. ولم تخبر أحداً بالأمر، لأن

ذلك سيكون اعترافاً معلناً بعدم نفعها. فانهمكت في تعلّم صامت لأبعاد الأشياء، وأصوات الناس، كي تواصل بذاكرتها، رؤية ما لا تسمح لها ظلال الماء الأزرق برؤيته. ولسوف تكتشف، في ما بعد، المساعدة غير المتوقعة التي توفرها الروائح التي تميزت، في الظلام، بقوة أشد إقناعاً من الأحجام والألوان، وأنقذتها نهائياً من عار الاستسلام. كان بإمكانها، في عتمة الغرفة، إدخال الخيط في سمّ الإبرة، وخياطة عروة، وكانت تعرف اللحظة التي يوشك الحليب فيها أن يفور. عرفت بصورة أكيدة تماماً، مكان كل شيء، حتى إنها، هي نفسها، كانت تنسى أحياناً أنها عمياء. في إحدى المرات، قلبت فرناندا البيت رأساً على عقب، لأنها فقدت خاتم زواجها، فوجدته أورسولا على رف في غرفة الأطفال. والأمر ببساطة، أن الآخرين يمضون دون انتباه في كل الاتجاهات، بينما هي ترصدهم بحواسها الأربع، كيلا يفاجئوها بشيء، وبمرور بعض الوقت، اكتشفت أن كل فرد في العائلة يكرر كل يوم، دون وعي منه، التنقلات نفسها، والتصرفات نفسها، بل ويكررون تقريباً الكلمات نفسها، في الموعد نفسه. وعندما يخرجون عن هذا الروتين الدقيق فقط، يتعرضون للمجازفة بفقدان شيء ما. ولهذا، حين سمعت فرناندا تقول بذهول إنها فقدت الخاتم، تذكرت أورسولا أن الشيء الوحيد المختلف الذي فعلته فرناندا في ذلك اليوم، هو تشميس حصيرتي الطفلين، لأن ميمي اكتشفت، في الليلة السابقة، وجود بقة فيها. وبما أن الطفلين قد حضرا عملية التنظيف، فقد فكرت أورسولا بأن فرناندا قد وضعت الخاتم في المكان الوحيد الذي لا يمكنهما الوصول إليه: الرف. أما فرناندا، بالمقابل، فبحثت عنه في مجال تحركها اليومي المعهود فقط، دون

أن تدري أن البحث عن الأشياء المفقودة، تعرقله العادات الروتينية، وهذا هو السبب في مشقة العثور عليها.

الاهتمام بتربية خوسيه أركاديو، ساعد أورسولا في مهمتها المرهقة في البقاء على اطلاع على أدنى التبدلات في البيت. فعندما انتبهت إلى أن آمارانتا تقوم بكسوة تماثيل القديسين في غرفة النوم، تظاهرت بأنها تعلّم الطفل اختلاف الألوان، فكانت تقول له:

- فلنر، أخبرني ما هو لون ثوب القديس رافائيل الملاك.

بهذه الطريقة، كان الطفل يقدم إليها المعلومة التي أنكرتها عليها عيناها. وقبل وقت طويل من ذهابه إلى مدرسة الدير، صار بإمكان أورسولا أن تميز، من ملمس النسيج، مختلف ألوان ثياب القديسين. وفي بعض الأحيان، كانت تقع حوادث غير متوقعة. ففي عصر أحد الأيام، كانت آمارانتا تطرز في ردهة أزهار البيغونيا، فاصطدمت بها أورسولا.

- حباً بالرب - قالت آمارانتا محتجة - انتبهي أين تمشين.

فقالت أورسولا:

- بل أنت من تجلسين حيث لا يتوجب الجلوس.

وكان ذلك القول صحيحاً بنظرها. ولكنها بدأت تلاحظ من ذلك اليوم، شيئاً لم يكتشفه أحد من قبل، وهو أن الشمس، في سياق السنة، تبدل موضعها بصورة غير ملحوظة، ومن يجلسون في الردهة، يغيرون أماكن جلوسهم، قليلاً قليلاً، دون يشعروا بذلك. ومنذ ذلك الحين، لم يكن على أوروسولا إلا أن تتذكر تاريخ اليوم، كي تحدد المكان الدقيق الذي تجلس فيه آمارانتا. ومع أن ارتعاش يديها كان يزداد وضوحاً، وكان تثاقل قدميها يُعجزها، فإن هيئتها

الضئيلة لم تُر قط، من قبل، في أماكن كثيرة في الوقت نفسه. فهي تكاد تكون على الدأب نفسه الذي كانت عليه حين كانت تحمل كل أعباء البيت على كاهلها. ومع ذلك، فقد امتلكت في عزلة الوحدة الكتيمة، بصيرة تمكّنها من ملاحظة حتى أشد شؤون الأسرة تفاهة؛ فرأت بوضوح، لأول مرة، الحقائق التي حالت مشاغلها دون رؤيتها في أزمنة أخرى. ففي الفترة التي كانوا يُعدّون بها خوسيه أركاديو للالتحاق بالمدرسة الدينية، قامت باستذكار بالغ الدقة لحياة البيت، منذ إنشاء ماكوندو، وبدّلت تماماً الرأي الذي تحمله طوال الوقت عن ذريتها. فانتبهت إلى أن الكولونيل أوريليانو بوينديا، لم يفقد محبته للعائلة بسبب قسوة الحرب، مثلما كانت تظن من قبل، وإنما لأنه لم يحب أحداً قط، ولا حتى زوجته ريميديوس، أو نساء الليلة الواحدة الكثيرات اللواتي مررن في حياته، وأقل من ذلك أبناؤه. واستشفت أنه لم يخض كل تلك الحروب لدوافع مثالية، مثلما يظن الجميع، وأنه لم يتخل عن النصر الوشيك بسبب التعب، مثلما يظن الجميع، وإنما كسب وخسر للسبب نفسه، بدافع الغطرسة المحضة والأثيمة. وتوصلت إلى نتيجة أن ذلك الابن الذي كانت مستعدة لأن تقدم حياتها من أجله، هو بكل بساطة رجل غير قادر على الحب. ففي إحدى الليالي، وهو لا يزال جنيناً في بطنها، سمعته يبكي. كان بكاء واضحاً تماماً، حتى إن زوجها خوسيه أركاديو بوينديا، استيقظ بجانبها، وأبدى سعادته لفكرة أن الطفل سيكون قادراً على الكلام من بطنه. وتنبأ أشخاص آخرون بأنه سيكون متنبئاً. أما هي، فقد اجتاحتها قشعريرة ليقينها بأن ذلك الأنين العميق، هو مؤشر أول إلى ذيل الخنزير الرهيب، وتوسلت إلى الله أن

يموت الجنين في بطنها. ولكن بصيرة الشيخوخة، أتاحت لها أن ترى، وقد كررت ذلك مرات كثيرة، أن بكاء الأطفال في بطون أمهاتهم، ليس إشارة إلى قدرتهم على التكلم من البطن، ولا دليلاً على قدرات تنبؤية، وإنما هو مؤشر مؤكد على عدم القدرة على الحب. ذلك الحطّ من صورة الابن، استثار فيها دفعة واحدة الشفقة التي تدين له بها. أما آمارانتا التي كانت تخيفها بقسوة قلبها، وتمرمرها بمراراتها المركَّزة، فقد تكشف لها، في مراجعتها الأخيرة، أنها المرأة الأكثر رقة على الإطلاق، بين كل من وجدن من النساء، وأدركت ببصيرة محزنة أن العذاب الجائر الذي سببته ابنتها لبيترو كريسبي، لم تُملِه إرادة في الانتقام، مثلما كان الجميع يظنون، وأن التعذيب البطيء الذي أحبطت به حياة العقيد خيرينيلدو ماركيز، لم يكن محكوماً بمرارة خبيثة من مرارتها، مثلما يظن الجميع، بل إن الحالتين كلتيهما كانتا صراعاً حتى الموت، بين حب غير محدود، وجبن لا يُهزم، وقد انتصر في نهاية المطاف، الخوف غير العقلاني الذي كانت آمارانتا تشعر به دوماً تجاه قلبها المعذب. وكانت تلك هي الفترة التي بدأت فيها أورسولا بذكر اسم ريبيكا، وتَذَكُّرها بعاطفة هائجة، بسبب الندم المتأخر والإعجاب المفاجئ، بعد أن أدركت أنها هي وحدها، ريبيكا، من لم تتغذ على حليبها قط، وإنما على تراب الأرض وكلس الجدران، ومن لا تحمل في عروقها دماً من عروقها، بل دماً مجهولاً من أبوين مجهولين، ما زالت عظامهما تقرقع في القبر.. ريبيكا ذات القلب المتلهف، ذات البطن المتمادي، هي الوحيدة التي امتلكت الشجاعة المندفعة التي كانت أورسولا تتمناها لسلالتها. فكانت تقول وهي تتلمس الحائط:

- ريبيكا، كم كنا جائرين معك!

في البيت، كانوا يعتقدون، ببساطة، أنها تهذي، خاصة منذ أن بدأت تمشي وذراعها اليمنى مرفوعة، مثل كبير الملائكة جبرائيل. ولكن فرناندا انتبهت، مع ذلك، إلى أنّ هناك شمساً من البصيرة في ظلال ذلك الهذيان، لأن أورسولا كانت قادرة على القول، دون تلعثم، كم من المال أنفقوا في البيت خلال السنة الأخيرة. وقد راودت آمارانتا فكرة مماثلة في أحد الأيام، عندما كانت أمها تحرك قدر حساء في المطبخ، وقالت فجأة، دون أن تدري أن هناك من يسمعها، إن مطحنة الذرة التي اشتروها من الغجر الأوائل، واختفت منذ ما قبل دوران خوسيه أركاديو خمساً وستين مرة حول العالم، لا تزال في بيت بيلار تيرنيرا. وكان عمر هذه الأخيرة قد شارف على المئة أيضاً، ولكنها لا تزال قوية ورشيقة، على الرغم من سمنتها غير المعقولة التي تخيف الأطفال، مثلما كانت ضحكتها، في أزمنة أخرى، تخيف الحمام. ولم تفاجأ بيلار تيرنيرا بصحة كلام أورسولا، لأنها بدأت تعرف من تجربتها، أنه يمكن للشيخوخة المتيقظة أن تكون أكثر إصابة من استقصاءات ورق اللعب.

ومع ذلك، عندما أدركت أورسولا أن الوقت لم يكفها لتعزيز ميول خوسيه أركاديو الصغير الدينية، استسلمت للذهول. وبدأت ترتكب أخطاء، محاولة أن ترى بعينيها الأشياء التي يتيح لها الحدس رؤيتها بوضوح أكبر. ففي صباح أحد الأيام، صبّت محتويات دواة حبر على رأس الطفل، معتقدة أنها زجاجة ماء زهر. وتسبّبت في عثرات كثيرة لإصرارها على التدخل في كل شيء، حتى أحست بالاختلال في نوبات من تعكر المزاج، فحاولت

أن تزيح عن نفسها الظلمة التي أطبقت عليها أخيراً، مثل رداء من شباك العناكب. وكان أن خطر لها عندئذ، أن سبب خراقتها ليس في انتصار الشيخوخة الأول عليها، وإنما هو صدع في الزمان. كانت تفكر في أن الأمور كانت مختلفة، من قبل، عندما لم يكن الرب يمارس في الشهور والسنوات، الخدع نفسها التي يمارسها الأتراك عند قياس ياردة من قماش البروكار. فالأطفال لا يكبرون الآن بسرعة أكبر وحسب، بل إن المشاعر نفسها تتطور بطريقة أخرى. فما إن صعدت ريميديوس الجميلة إلى السماء، جسداً وروحاً، حتى راحت فرناندا المتهورة تتذمر في أركان البيت، لأنها أخذت لها ملاءاتها. ولم تكد تبرد أجساد الأوريليانويات في قبورهم، حتى كان أوريليانو الثاني يُنير البيت مرة أخرى، ويملؤه بالمخمورين الذين يعزفون الأوكوديون، ويبللون أنفسهم بالشمبانيا، وكأن الموتى ليسوا مسيحيين، وإنما كلاب. وكما لو أن ذلك البيت المجنون الذي كلف الكثير من وجع الرأس، والكثير من حيوانات السكاكر، مقدر له أن يتحول إلى مزبلة للضياع. وبينما كانت تتذكر هذه الأمور، وهم يرتبون صندوق خوسيه أركاديو للسفر، تساءلت أورسولا عما إذا لم يكن من الأفضل لها أن تستلقي، مرة واحدة، في القبر، وأن يهيلوا عليها التراب. وسألت الرب، دون خوف، عما إذا كان يعتقد حقاً أن البشر مصنوعون من حديد، ليتحملوا كل هذه الآلام والعذابات. سألت وسألت مُسعِّرة عماها، وشاعرة برغبة جامحة في إطلاق اللعنات مثل واحد من الغرباء، وفي أن تسمح لنفسها بلحظة تمرد، اللحظة التي طالما تلهفت إليها، وطالما أجلتها بقبولها الانصياع للعرف، وأن تلقي عن كاهلها كل شيء دفعة واحدة، وتُخرج من قلبها ما لا حصر له من ركام الكلمات

البذيئة التي كان عليها أن تبتلعها على امتداد قرن من الخضوع. فصاحت:

- كراخو!

كانت آمارانتا قد بدأت بوضع الثياب في صندوق السفر، فظنت أن عقرباً قد لسعها، فسألت بذعر:

- أين هو؟

- ماذا؟

- الحيوان! - أوضحت آمارانتا.

فوضعت أورسولا إصبعها على قلبها وقالت:

- هنا.

في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم خميس، غادر خوسيه أركاديو الصغير إلى مدرسة الدير. وستتذكره أورسولا دوماً، مثلما تخيلته عند الوداع: نحيلاً، جدياً، لم يسكب دمعة واحدة، مثلما علّمته هي، مختنقاً من الحر في بدلة المخمل الخضراء ذات الأزرار النحاسية، والياقة المنشاة حول عنقه. لقد خلّف غرفة الطعام عابقة برائحة ماء الزهر الذي كانت تسكبه على رأسه، كي تتمكن من تتبع أثره في البيت. وفي أثناء غداء الوداع، أخفى أفراد الأسرة عصبيتهم بمظاهر المرح، واحتفوا بحماسة مبالغ فيها بخواطر الأب أنطونيو إيزابيل. ولكنهم عندما حملوا الصندوق المغلف بالمخمل، وذا الزوايا الفضية، بدا كما لو أنهم يُخرجون نعشاً من البيت. والوحيد الذي رفض المشاركة في الوداع، هو الكولونيل أوريليانو بوينديا. فقد دمدم باستياء:

- هذا هو الشيء الأخير الذي كان ينقصنا: بابا!

بعد ثلاثة شهور من ذلك، اصطحب أوريليانو الثاني وفرناندا

ابنتهما ميمي إلى المدرسة الداخلية، ورجعا بجهاز كلافيكورديو، احتل محل البيانولا. وكانت تلك هي الفترة التي بدأت فيها آمارانتا بخياطة كفنها. كانت حمى الموز قد هدأت. ووجد سكان ماكوندو القدماء أنفسهم مهملين وسط الغرباء، يتمسكون بمشقة بوسائل عيشهم القديمة غير المستقرة، ولا يشدّ من عزيمتهم إلا الإحساس بأنهم خرجوا سالمين من حادثة غرق. وفي البيت، تواصل استقبال مدعوين للغداء. والواقع أن الروتين القديم لم يعد إلى الاستقرار، إلا عندما رحلت، بعد سنوات، شركة الموز. ومع ذلك، فقد حدثت تبدلات جذرية في المعنى التقليدي للضيافة، لأن فرناندا هي التي كانت تفرض القوانين في البيت آنذاك. فمع رُكُونِ أورسولا إلى ظلمات العمى، واستغراق آمارانتا في خياطة كفنها، حصلت الملكة المتدربة القديمة على الحرية في اختيار الضيوف، وفي أن تفرض عليهم القواعد الصارمة التي لقنها إياها أبواها. فجعلت صرامتها من البيت حصناً للعادات البالية، في قرية تضطرب بابتذال يبدد به الغرباء ثرواتهم التي جنوها بسهولة. فالناس الأخيار في نظرها، هم أولئك الذين ليست لهم أي علاقة بشركة الموز. حتى إن خوسيه أركاديو الثاني، شقيق زوجها، وقع ضحية غيرتها التمييزية، لأنه في اندفاع الوهلة الأولى، أعاد بيع ديكة الصراع الرائعة، والتحق بالعمل في شركة الموز رئيساً للعمال. فقالت فرناندا:

- لن يدخل هذا البيت ما دام مصاباً بجرب الغرباء.

وقد بلغ التضييق المفروض على البيت حداً، أحس معه أوريليانو الثاني، بصورة نهائية، أن العيش عند بيترا كوتيس أكثر راحة. فنقل حفلاته إلى هناك في أول الأمر، متعللاً بالتخفيف

من أعباء زوجته. ثم تذرع بأن الحيوانات أخذت تفقد خصوبتها، فنقل الحظائر والاسطبلات. وأخيراً، بحجة أن وطأة الحر أخف في بيت خليلته، نقل مكتبه الصغير الذي يدير فيه أعماله. وعندما أدركت فرناندا أنها صارت أرملة، بينما زوجها لم يمت بعد، كان الوقت قد فات على إمكانية عودة الأمور إلى وضعها السابق. نادراً ما كان أوريليانو الثاني يأتي ليأكل في البيت، والمظاهر الوحيدة التي تابع الحرص عليها، مثل النوم مع زوجته في السرير، لم تكن كافية لإقناع أحد. وفي إحدى الليالي، وبسبب الإهمال، فاجأ الصباح أوريليانو الثاني وهو في سرير بيترا كوتيس. وخلافاً لما كان يتوقعه، لم توجه إليه فرناندا أدنى تأنيب، ولم تطلق أضأل زفرة غمّ. ولكنها في ذلك اليوم بالذات، أرسلت إلى بيت خليلته صندوقي ملابسه. أرسلتهما في وضح النهار، وبتعليمات تقضي بحملهما في وسط الشارع، كي يراهما الجميع، معتقدة أن الزوج الضال لن يتحمل العار، ويعود إلى حظيرته مطأطئ الرأس. ولكن فعلتها البطولية تلك، لم تكن سوى دليل آخر على سوء معرفة فرناندا، ليس لطبع زوجها وحسب، وإنما كذلك لنوع المجتمع الذي لا علاقة له بمجتمع أبويها، لأن كل من رأى مرور الصندوقين، قال لنفسه إنها النهاية الطبيعية لقصة لم يكن هناك من يجهل تفاصيلها الحميمة. وقد احتفل أوريليانو الثاني بالحرية المهداة إليه، بحفلة قصف وعربدة استمرت ثلاثة أيام. وزيادة في خسارة الزوجة، الآخذة بالهرم في نضوج مترد بثيابها القاتمة السابغة، وميدالياتها الكبيرة القديمة، وكبريائها الذي في غير مكانه، كانت الخليلة تبدو كأنها تتفجر في شباب متجدد، مرتدية ثياباً بديعة من الحرير الطبيعي، وبعينين متنمرتين

بوهج الاسترداد. عاد أوريليانو الثاني ليستسلم لها بحمية المراهقة، كما في السابق، عندما لم تكن بيترا كوتيس تحبه لأنه هو، وإنما لأنها كانت تخلط بينه وبين أخيه التوأم، وتضاجع الاثنين معتقدة أن الله حباها بامتلاك رجل يمارس الحب كما لو أنه اثنان. وكان إلحاح العاطفة المستعادة قوياً إلى حدّ أنهما، في أكثر من مناسبة، كان ينظر أحدهما إلى عيني الآخر، وهما يستعدان لتناول الطعام، فيغطيان الأطباق دون أن يقولا شيئاً، ويمضيان ليموتا جوعاً وحباً في غرفة النوم. وباستلهام ما رآه في زياراته المتخفية إلى السيدات الفرنسيات، اشترى أوريليانو الثاني لبيترا كوتيس سريراً بقبة أسقفية، ووضع ستائر مخملية على النوافذ، وغطى سقف غرفة النوم وجدرانها بمرايا كبيرة من الكريستال الصخري. وبدا عندئذ أنه قد صار أكثر عربدة وتبذيراً من أي وقت مضى. ففي القطار الذي يصل كل يوم في الساعة الحادية عشرة، كان يتلقى صناديق ومزيداً من صناديق الشمبانيا والبراندي. وفي طريق عودته، يدعو إلى الحفلة المرتجلة كل من يلتقي به من البشر في طريقه، ممن يعرفهم أو ممن سيتعرف إليهم، دون أي نوع من أنواع التمييز. حتى السيد براون المتهرب، والذي لا يتكلم إلا بلغة أجنبية، استسلم لإغراء لغة الإشارات التي توجه بها إليه أوريليانو الثاني، وسكر عدة مرات حتى الموت في بيت بيترا كوتيس، بل إنه جعل كلابه الألمانية الشرسة التي ترافقه أينما ذهب، ترقص على ألحان أغنيات تكساسية، كان هو نفسه يمضغها كيفما اتفق على إيقاع الأكورديون. وكان أوريليانو الثاني يصرخ في أوج الحفلة:

- ابتعدي أيتها الأبقار. ابتعدي، فالحياة قصيرة.

لم يكن أكثر انشراحاً قط، ولا محبوباً أكثر، ولا وصل توالد حيواناته إلى مثل ذلك الإفراط. كان يُذبح في حفلاته كثير من الأبقار، وكثير من الخنازير والدجاج، حتى صارت أرض الفناء سوداء وموحلة من كثرة الدم. وصار المكان مكبّاً أبدياً للعظام والأحشاء، ومزبلة للفضلات، وكان لا بد من مواصلة إحراق شحنات من الديناميت طوال الوقت، كيلا تقتلع طيور الرخمة عيون المدعوين. صار أوريليانو الثاني بديناً، متورداً، متسلحفاً، نتيجة شهية تكاد لا تدانيها إلا شهية خوسيه أركاديو عندما عاد من جولته حول العالم. وانتشرت شهرة نهمه المفرط، وقدرته الهائلة على التبذير، وكرمه غير المسبوق، حتى تجاوزت حدود منطقة المستنقعات، واجتذبت أوسع الشرهين سمعة في مناطق الساحل. وراح الأكولون الخرافيون يتوافدون من كل مكان، ليشاركوا في مباريات القدرة والتحمل التي ينظمونها في بيت بيترا كوتيس. وكان أوريليانو الثاني هو الأكول الذي لا يُهزم، حتى يوم السبت المشؤوم الذي ظهرت فيه كاميلا ساغاستومي، المرأة الطوطمية المعروفة في سائر أنحاء البلاد بالاسم الطيب: **الفيلة**. استمرت المبارزة حتى صباح الثلاثاء. في الساعات الأربع والعشرين الأولى، أجهزا على عجلة مع اليُكّة، والنيامي[1]، والموز المشوي، إضافة إلى صندوق ونصف صندوق من الشمبانيا. كان أوريليانو الثاني واثقاً من النصر. فهو يبدو أكثر حماسة وحيوية من منافسته الهادئة، والتي تمتلك أسلوباً احترافياً واضحاً، ولكنها لهذا السبب، أقل إثارة للجمهور المتنوع الذي ازدحم به البيت.

---

[1] اليكة yuca، جذور درنية تشبه البطاطا، والنيامي ñame، نوع آخر من الجذور الدرنية الوتدية كالجزر.

وبينما كان أوريليانو الثاني يأكل اللحم نهشاً، تدفعه اللهفة إلى الفوز، كانت الفيلة تقطع اللحم بمهارة جرّاح، وتأكله بتأن، بل وبشيء من المتعة. لقد كانت عملاقة ومتينة، لكن الرقة الأنثوية كانت تطغى على ضخامتها الجسدية. فقد كان لها وجه جميل، ويدان بالغتا الرهافة، معتنى بهما جيداً، وجاذبية شخصية لا تُقاوم، حتى إن أوريليانو الثاني، حين رآها تدخل البيت، علق بصوت خافت إنه يفضل عدم إجراء المباراة على المائدة، وإنما في السرير. وعندما رآها، في ما بعد، تنهي فخذ العجل دون أن تخرق قاعدة واحدة من أرقى آداب الطعام، علق بجدية، إن تلك الخرطومية الرقيقة، الفاتنة التي لا تعرف الشبع، هي المرأة المثالية، بطريقة ما. لم يكن مخطئاً. فشهرة مهشِمة العظام التي سبقت الفيلة لم يكن لها أساس. فهي ليست ساحقة جواميس، ولا امرأة ملتحية في سيرك يوناني، كما كان يقال، بل مديرة أكاديمية للغناء. وقد تعلمت الأكل وهي أم أسرة محترمة، تبحث عن طريقة مثلى لتغذية أولادها، ليس بواسطة محرضات اصطناعية للشهية، وإنما عن طريق السكينة الروحية المطلقة. وتستند نظريتها، المثبتة في الممارسة، إلى مبدأ أن الشخص الذي تكون كل أمور ضميره مرتبة تماماً، يمكنه أن يأكل دون توقف حتى يغلبه التعب. وهكذا فإنها، لأسباب أخلاقية، وليس لاهتمامات رياضية، تخلت عن أكاديمية الغناء والمنزل، لتنافس رجلاً ملأت شهرته البلاد كأكول عظيم. مذ رأته أول مرة، أدركت أن السبب في خسارة أوريليانو الثاني لن تكون معدته، وإنما طبعه. عند انتهاء الليلة الأولى، بينما ظلت الفيلة محافظة على تماسكها، كان أوريليانو الثاني منهوكاً من كثرة الكلام والضحك. ناما أربع ساعات. وعندما استيقظا،

شرب كل منهما عصير خمسين برتقالة، وثمانية ليترات قهوة، وثلاثين بيضة نيئة. وفي فجر اليوم التالي، بعد ساعات طويلة دون نوم، والتهامهما خنزيرين، وقرط موز، وأربعة صناديق شمبانيا، راودت الفيلة الشكوك في أن أوريليانو الثاني، دون أن يدري، قد اكتشف منهجها نفسه، ولكن عن طريق عدم المبالاة العبثية التامة. إنه، إذن، أخطر مما قدّرت. ومع ذلك، عندما حملت بيترا كوتيس إلى المائدة ديكين روميين مشويين، كان أوريليانو الثاني على بعد خطوة واحدة من الإصابة بعسر هضم، فقالت له الفيلة:

- إذا كنت لا تستطيع، فلا تأكل المزيد. ولنبق متعادلين.

قالت ذلك من قلبها، مدركة أنها هي أيضاً لن تستطيع أكل لقمة أخرى، بسبب تأنيب ضميرها لأنها تتسبب في موت خصمها. لكن أوريليانو الثاني فسّر الأمر على أنه تحدٍّ جديد، فنهش من الديك الرومي أكثر بكثير من قدرته العجيبة. ففقد الوعي، وانهار على وجهه فوق طبق العظام، مطلقاً زبد كلب من فمه، ومختنقاً بحشرجات احتضار. أحس، وهو وسط الظلمات، بأنه يُدفع من أعلى برج إلى هوة بلا قرار، وأدرك في ومضة صحو أخيرة، أن الموت ينتظره في نهاية ذلك السقوط اللانهائي. وتمكن من القول:

- خذوني إلى فرناندا.

الأصدقاء الذين حملوه إلى البيت، ظنوا أنه نفذ الوعد الذي قطعه لزوجته، بألا يموت في سرير خليلته. وكانت بيترا كوتيس قد صبغت جزمته اللامعة التي يريد أن يكون منتعلاً إياها في النعش، وراحت تبحث عمن يوصلها، عندما جاء من يخبرها بأن

أوريليانو الثاني صار بمنجى من الخطر. وقد استعاد عافيته، فعلاً، خلال أقل من أسبوع، وبعد خمسة عشر يوماً من ذلك، كان يحتفل، في وليمة لا سابق لها، بحدث بقائه حياً. واصل العيش في بيت بيترا كوتيس، ولكنه كان يزور فرناندا كل يوم، ويبقى لتناول الطعام مع الأسرة أحياناً، كما لو أن القدر قد قلب الوضع، وجعله زوجاً لخليلته وعشيقاً لزوجته.

كانت فترة استراحة لفرناندا. ففي عطالة الهجران، كانت سلواها الوحيدة هي تمارين العزف على الكلافيكورديو في موعد القيلولة، ورسائل ابنيها. لم يكن هناك سطر واحد من الحقيقة، في الرسائل التفصيلية التي ترسلها إليهما، مرة كل خمسة عشر يوماً. كانت تخفي عنهما أحزانها. وتكتم عنهما كآبة بيت آخذ بالتماثل، أكثر فأكثر، مع منزل أبويها الكولونيالي، على الرغم من الضوء على أزهار البيغونيا، وعلى الرغم من الحر الخانق في الثانية بعد الظهر، وعلى الرغم من صخب الاحتفالات الكثيرة التي تصل أصداؤها من الشارع. كانت فرناندا تهيم على وجهها وحيدة بين ثلاثة أشباح حية، وشبح خوسيه أركاديو بوينديا الميت الذي يأتي أحياناً، ليجلس بانتباه متفحص في عتمة الصالون، بينما هي تعزف على الكلافيكورديو. أما الكولونيل أوريليانو بوينديا، فكان ظلاً. فمنذ المرة الأخيرة التي خرج فيها إلى الشارع، ليقترح حرباً بلا مستقبل على العقيد خيريليندو ماركيز، لم يعد يغادر المشغل إلا للتبول تحت شجرة الكستناء. ولم يعد يستقبل زائرين سوى الحلاق كل ثلاثة أسابيع. ويتغذى على أي شيء تأتيه به أورسولا مرة في اليوم، ومع أنه كان يواصل صنع الأسماك الذهبية الصغيرة، بشغف الماضي نفسه، إلا أنه كفّ عن بيعها حين علم أن

الناس لا يشترونها كحلي، وإنما كأثر تاريخي. وقد أشعل في الفناء محرقة كبيرة لدمى ريميديوس التي كانت تزين غرفته منذ يوم زواجهما. وانتبهت أورسولا المتيقظة إلى ما كان يفعله ابنها، ولكنها لم تستطع منعه، فقالت له:

- لك قلب من حجر.

- ليست هذه مسألة قلب - قال لها - فالغرفة امتلأت بالعثّ.

كانت آمارانتا تحوك كفنها. ولم تفهم فرناندا سبب كتابتها الرسائل بين حين وآخر إلى ميمي، بل وإرسالها الهدايا إليها، ولكنها لا تريد مجرد الكلام عن خوسيه أركاديو. «ستموتون دون أن تعرفوا السبب»، هكذا أجابت آمارانتا عندما وجهت إليها فرناندا السؤال من خلال أورسولا، وقد زرع هذا الجواب في قلب فرناندا لغزاً لم تستطع حله قط. كانت آمارانتا الطويلة، المناكفة، المتكبرة، والتي ترتدي دائماً تنانير وفيرة الطيات، بمزاج متميز يقاوم السنين والذكريات السيئة، تبدو كأنها تحمل على جبينها صليب رماد عذريتها. والحقيقة أنها كانت تحمله في يدها، في الضماد الأسود الذي لا تنزعه حتى وهي نائمة، وتغسله وتكويه بنفسها. وكانت تمضي حياتها في تطريز الكفن. وكان يمكن القول إنها تطرز في النهار، وتفك ما طرزته في الليل، لا لتهزم الوحدة بهذه الطريقة، وإنما على العكس تماماً، لتحافظ عليها.

قلق فرناندا الأكبر في سني هجرها، تمثل في أن تأتي ميمي لقضاء عطلتها الأولى، ولا تجد أوريليانو الثاني في البيت. لكن عسر الهضم قضى على تلك المخاوف. فعندما رجعت ميمي، كان أبواها قد اتفقا، ليس فقط على جعل الصغيرة تظن أن أوريليانو الثاني لا يزال زوجاً داجناً وحسب، وإنما على ألا تلحظ كآبة البيت

أيضاً. وعلى امتداد شهرين، كل سنة، كان أوريليانو الثاني يمثل دور الزوج المثالي، وينظم حفلات مثلجات وبسكويت، تحييها الصبية المرحة والحيوية بالعزف على الكلافيكورديو. كان واضحاً، منذ ذلك الحين، أنها ورثت القليل جداً من طباع أمها. وتبدو أقرب إلى نسخة ثانية من آمارانتا، حين لم تكن هذه تعرف المرارة، وتملأ البيت صخباً بخطواتها الرقصة، وهي في الثانية عشرة، وفي الرابعة عشرة، قبل أن يغير حبها المكتوم لبيترو كريسبي اتجاه قلبها نهائياً. لكن ميمي، خلافاً لآمارانتا، وخلافاً للجميع، لم تكن تتكشف آنذاك إلا عن توحد الأسرة، وتبدو متوافقة تماماً مع العالم، حتى عندما تحبس نفسها في الصالون، في الساعة الثانية بعد الظهر، لتتدرب العزف على الكلافيكورديو بانضباط صارم. كان واضحاً أن البيت يروقها، وأنها تقضي العام وهي تحلم بصخب المرهقات الذي يثيره وصولها، وأنها لم تكن بعيدة جداً عن ميول أبيها الاحتفالية وتبذيره المضياف. أول إمارات هذا المظهر الوراثي، تكشف في الإجازة الثالثة، عندما جاءت ميمي إلى البيت، ومعها أربع راهبات وثمان وستون زميلة من صفها، دعتهن لقضاء أسبوع مع الأسرة، بمبادرة خاصة منها، ودون أي إشعار مسبق. وقد تحسرت فرناندا:

- يا للمصيبة! هذه البنت لا تقل همجية عن أبيها.

وكان لا بد من استعارة أسرة وأراجيح نوم من الجيران، وتنظيم تسع ورديات على المائدة، وتحديد مواعيد لدخول الحمام، والتوصل إلى استعارة أربعين كرسياً صغيراً، كيلا تظل أولئك البنات ذوات الزي الأزرق والأحذية الرجالية، يتنقلن من مكان إلى آخر طوال النهار. وقد كانت الدعوة فشلاً ذريعاً، لأن التلميذات

الصاخبات ما كن ينتهين من تناول الفطور، حتى تبدأ ورديات الغداء، ثم العشاء بعد ذلك؛ ولم يستطعن، طوال الأسبوع، سوى القيام بنزهة واحدة إلى المزارع. وعند الغروب، تكون الراهبات مستنفدات، غير قادرات على الحركة، ولا على إصدار أي أمر إضافي، بينما تكون جوقة الفتيات المراهقات اللواتي لا يعرفن التعب، في الفناء، يغنين أناشيد مدرسية سخيفة. وفي أحد الأيام، كن على وشك الاصطدام بأورسولا التي تصر على أن تقوم بشيء نافع، ولكنها تفعل ذلك حيث تسبب أكبر عرقلة للآخرين. وفي يوم آخر، أثارت الراهبات ضجة صاخبة، لأن الكولونيل أوريليانو بوينديا كان يبول تحت شجرة الكستناء، دون أن يهتم بوجود التلميذات في الفناء. وكانت آمارانتا على وشك زرع الرعب، لأن إحدى الراهبات دخلت المطبخ، حين كانت هي تُملّح الحساء، وكان السؤال الوحيد الذي خطر للراهبة أن تسأله: ما هي حفنات المسحوق الأبيض تلك. فقالت لها آمارانتا:

- زرنيخ.

وفي ليلة وصولهن، تسببت التلميذات في ازدحام شديد، وهن يحاولن الذهاب إلى المرحاض قبل النوم، وقد تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بينما أواخرهن لا يزلن يدخلن. عندئذ اشترت فرناندا اثنتين وستين مبولة. ولكنها لم تتمكن إلا من تحويل المشكلة الليلية إلى مشكلة صباحية، فقد تشكل، منذ الفجر، صف طويل من الفتيات، وكل واحدة منهن تحمل مبولتها لتغسلها. ومع أن بعضهن عانين من ارتفاع في الحرارة، وأصيب عدد منهن بالالتهابات في مواضع لسع البعوض، إلا أن معظمهن أظهرن مقاومة عنيدة في مواجهة أقسى المصاعب، وحتى في

أشد ساعات الحر وطأة، كن يثرثرن في الحديقة. وعندما غادرن أخيراً، كانت الأزهار مخربة، والأثاث مكسراً، والجداران ممتلئة برسوم وكتابات. لكن فرناندا، في راحة مغادرتهن، غفرت لهن ما سببنه من أضرار. أعادت الأسرّة والكراسي المستعارة، وخبأت الاثنتين والستين مبولة في حجرة ميلكيادس. ومنذ ذلك الحين، صارت الغرفة المغلقة التي كانت تدور حولها، في زمن آخر، حياة البيت الروحية، تُعرف باسم *غرفة المباول*. فكان هذا الاسم، في نظر الكولونيل أوريليانو بويندیا، هو الأكثر ملاءمة، لأن بقية أفراد الأسرة كانوا مذهولين من بقاء غرفة ميلكيادس بمنجى من الغبار والخراب، بينما يراها هو متحولة إلى مزبلة. ولكنه لم يكن يهتم، على كل حال، بمن هو المحق؛ وإذا كان قد علم بالمصير الذي آلت إليه الغرفة، فما ذلك إلا لأن فرناندا كانت تذهب وتجيء، معرقلة عمله، طوال أمسية كاملة، كي تخبئ المباول فيها.

في تلك الأيام، عاد خوسيه أركاديو الثاني إلى الظهور في البيت. كان يمرّ عرضاً من الردهة، دون أن يحيي أحداً، وينزوي في المشغل لتبادل الحديث مع الكولونيل. وبالرغم من أنها لا تستطيع رؤيته، فقد حللت أورسولا وقع كعبي جزمة رئيس العمال، وفوجئت بالمسافة الهائلة التي تفصله عن الأسرة، بمن في ذلك أخيه التوأم الذي كان يلعب معه، في صغرهما، ألعاب تحايل بارعة، والذي لم تعد تجمعه به أية ملامح مشتركة. كان نحيلاً، وقوراً، مستغرقاً في التفكير، حزيناً كمسلم في أوروبا، وبريق كآبة في وجهه الذي بلون الخريف. كان الأكثر شبهاً بأمه صوفيا قديسة الرحمة. وكانت أورسولا تؤنب نفسها لميلها إلى نسيانه عند الحديث عن العائلة، لكنها حين أحست بوجوده في البيت مجدداً،

ولاحظت أن الكولونيل يستقبله في المشغل في ساعات العمل، عادت إلى تفحص ذكرياتها القديمة، وتأكدت من اعتقادها بأنه في إحدى لحظات الطفولة، استُبدل بشخصية أخيه التوأم، لأنه هو، وليس الآخر، من كان يحب أن يحمل اسم أوريليانو. لم يكن هناك من يعرف تفاصيل حياته. لقد عُرف عنه، في وقت ما، أنه لا يملك مكان إقامة ثابت، وأنه يربي ديوكاً في بيت بيلار تيرنيرا، وأنه يبقى للنوم هناك أحياناً، ولكنه يقضي معظم لياليه في غرف السيدات الفرنسيات. كان يمضي مع التيار. بلا حب ولا طموح، كنجم تائه في مجموعة أوروسولا الشمسية.

والواقع أن خوسيه أركاديو الثاني لم يكن فرداً من العائلة، ولن ينتمي أبداً إلى أي عائلة أخرى، منذ فجر اليوم البعيد الذي أخذه فيه العقيد خيرينيلدو ماركيز إلى الثكنة، لا ليشهد عملية إعدام، بل كيلا ينسى، طوال ما تبقى من حياته، ابتسامة المعدوم الحزينة، والساخرة قليلاً. لم تكن تلك هي أقدم ذكرى لديه فقط، وإنما الذكرى الوحيدة من طفولته. أما الذكرى الأخرى التي لديه، عن رجل مسن يلبس صداراً عتيقاً، وقبعة كجناحي غراب، يروي العجائب قبالة نافذة مبهرة، فإنه غير قادر على تحديدها في حقبة معينة. كانت ذكرى مضطربة، مجردة تماماً من الدروس أو الحنين، خلافاً لذكرى المعدوم التي حددت، في الواقع، اتجاه حياته، وهي تعود إلى ذاكرته، في كل مرة، بوضوح أكبر كلما تقادم بها الزمن، كما لو أن مرور الزمن يقربها. حاولت أورسولا أن تستغل خوسيه أركاديو الثاني لإخراج الكولونيل أوريليانو بوينديا من محبسه. فكانت تقول له: «أقنعه بأن يذهب إلى السينما، فحتى لو لم تعجبه الأفلام، ستتاح له فرصة تنفس هواء نقي».

لكنها سرعان ما أدركت أنه غير مبال بتوسلاتها، بالقدر نفسه الذي يمكن للكولونيل أن يكونه، وأنهما مدرعان بالحصانة نفسها من العواطف. ومع أنها لم تعرف قط، ولا عرف أحد سواها، عما يتحدثان في أوقات اعتكافهما الطويلة في المشغل، إلا أنها أدركت أنهما العضوان الوحيدان في العائلة اللذان يبدوان مرتبطين بأمور مشتركة.

والحقيقة أنه لم يكن بمقدور خوسيه أركاديو الثاني نفسه أن يُخرج الكولونيل من محبسه. كانت الغزوة المدرسية قد تجاوزت حدود صبره. وبحجة أن غرفة عرسه صارت تحت رحمة العث، على الرغم من تدمير دمى ريميديوس المحببة، فقد علق أرجوحة نوم في المشغل، ولم يعد يغادره، منذئذ، إلا للذهاب إلى الفناء من أجل قضاء حاجة. ولم يكن بمقدور أورسولا أن تقيم معه ولو حديثاً تافهاً. كانت تعرف أنه لا ينظر إلى أطباق الطعام، بل يضعها على طرف المنضدة إلى أن ينتهي من صنع السمكة التي بين يديه، ولا يهتم إذا ما تخثر الحساء أو برد اللحم. وكان تصلبه يزداد أكثر فأكثر، منذ رفض العقيد خيرينيلدو ماركيز مساعدته في حرب الشيخوخة. فأغلق على نفسه برتاج، وانتهى الأمر بالأسرة إلى التفكير فيه كما لو أنه قد مات. لم يعد يُلحظ عليه أي رد فعل إنساني، حتى يوم حادي عشر من تشرين الأول، خرج فيه إلى الباب الخارجي ليشاهد استعراض سيرك. وكان ذلك اليوم، بالنسبة للكولونيل أوريليانو بوينديا، مثل بقية أيام سنواته الأخيرة. فقد أيقظه في الخامسة صباحاً صخب الضفادع والجداجد من خارج السور. وكان رذاذ مطر يتواصل منذ يوم السبت. ولم يكن بحاجة لسماع وقعه الناعم على أوراق الحديقة،

لأنه كان يشعر به، على أي حال، من البرد في عظامه. كان ملتفاً، كعادته، بالبطانية الصوفية، ويرتدي سروال القطن الخام الطويل الذي يواصل استعماله لأنه مريح، بالرغم من أنه كان هو نفسه يسميه، لقِدمه، «السروال القوطي». لبس البنطال الضيق، لكنه لم يغلق أربطته، ولم يضع في ياقة قميصه الزر الذهبي الذي يستخدمه دائماً، لأنه كان ينوي الاستحمام. ثم وضع البطانية على رأسه، مثل قلنسوة، ومَسَّدَ شاربه المتهدل بأصابعه، ومضى للتبول في الفناء. كان لا يزال هناك متسع من الوقت لبزوغ الشمس، حتى إن خوسيه أركاديو بوينديا ما زال يتناوم تحت عريشة السعف المتعفن من المطر. لم يره، مثلما لم يره من قبل قط، ولم يسمع كذلك الجملة غير المفهومة التي وجهها إليه طيف أبيه عندما أيقظه تدفق البول الدافئ الذي لطخ حذاءه. أجَّل الاستحمام إلى ما بعد، ليس بسبب البرد والرطوبة، وإنما بسبب ضباب تشرين الأول الضاغط. وفي طريق عودته إلى المشغل، شم رائحة فتيلة المواقد التي كانت تشعلها صوفيا قديسة الرحمة، وانتظر في المطبخ إلى أن تغلي القهوة، كي يأخذ فنجاناً بلا سكر. وكما في كل صباح، سألته صوفيا قديسة الرحمة في أي يوم من الأسبوع هم، فقال إنه الثلاثاء، الحادي عشر من تشرين الأول. وبينما هو ينظر إلى المرأة رابطة الجأش، المذهبة ببريق نار الموقد، والتي لم تكن تبدو في هذه اللحظة، أو في أي لحظة أخرى من حياتها، أنها موجودة بالكامل، تذكر فجأة، أنه في حادي عشر آخر من تشرين الأول، في أوج الحرب، أيقظه يقين فظ بأن المرأة التي نام معها قد ماتت. وقد وجدها ميتة بالفعل، ولم ينس التاريخ، لأنها هي الأخرى كانت قد سألته قبل ساعة، في أي يوم هم. وبالرغم

من هذه الذكرى، لم يعِ هذه المرة أيضاً إلى أي حد تخلت عنه النبوءات. وريثما تغلي القهوة، واصل التفكير بفضول محض، ولكن بلا أدنى مجازفة حنين، بتلك المرأة التي لم يعرف اسمها قط، ولم ير وجهها وهي حية، لأنها كانت قد جاءت إلى أرجوحته متعثرة في الظلام. ومع ذلك، في خواء النساء الكثيرات اللواتي دخلن حياته بالطريقة نفسها، لم يتذكر أنها هي من كادت، في دوار اللقاء الأول، أن تغرق في دموعها، وكانت قبل أقل من ساعة من موتها، قد أقسمت له أنها ستحبه حتى الموت. لم يعد إلى التفكير بها، ولا بأي واحدة أخرى، بعد أن دخل إلى المشغل بالفنجان الذي يتصاعد منه البخار، وأشعل النور كي يعدّ الأسماك الذهبية التي يحفظها في علبة من الصفيح. كانت هناك سبع عشرة سمكة. فمنذ قرر عدم بيعها، واصل صنع سمكتين كل يوم، وكلما صار عددها خمساً وعشرين، يعيد صهرها في الحوجلة، ليبدأ بصنعها من جديد. اشتغل طوال الصباح، مستغرقاً، دون أن يفكر في شيء، ودون أن ينتبه إلى أن المطر اشتد في الساعة العاشرة، وأن أحداً مرّ أمام المشغل يصرخ طالباً إغلاق الأبواب كيلا يغرق البيت كله، بل إنه لم ينتبه لنفسه بالذات، إلى أن دخلت أورسولا حاملة له الغداء، وأطفأت النور. قالت:

- يا له من مطر!

- إنه تشرين - قال هو.

وحين قال ذلك، لم يرفع بصره عن سمكة اليوم الأولى، لأنه كان يثبت ياقوتتي العينين. وعندما أنهاها، ووضعها في العلبة مع الأخريات، بدأ بتناول الحساء. ثم أكل بعد ذلك، ببطء شديد، قطعة اللحم المطبوخة مع البصل، والرز الأبيض وشرائح الموز

المقلية، وكانت كلها في الطبق نفسه. لم تكن شهية تتبدل، سواء في أفضل الظروف أو أشدها قسوة. ومع انتهائه من الغداء، شعر بقلق الكسل. فبنوع من الوساوس العلمية، لم يكن يعمل قط، أو يقرأ، أو يستحم، أو يمارس الحب، قبل انقضاء ساعتين للهضم، وكان ذلك إيماناً متجذراً، دفعه في مرات عديدة إلى تأخير العمليات الحربية، كيلا يعرض قواته لمخاطر عسر الهضم. وهكذا، استلقى في الأرجوحة، وراح يُخرج الشمع من أذنيه بسكين بري أقلام الرصاص، وبعد دقائق قليلة غلبه النوم. حلم أنه يدخل بيتاً خاوياً، جدرانه بيضاء. وأقلقه غمٌّ كونه أول إنسان يدخله. وتذكر، في الحلم، أنه رأى المنام نفسه في الليلة السابقة، وفي ليال كثيرة خلال السنوات الأخيرة، وعرف أن الصورة كانت تمحى من ذاكرته عندما يستيقظ، لأن ذلك الحلم المتواتر يتميز بأنه لا يمكن تذكره إلا ضمن الحلم نفسه. وبالفعل، عندما طرق الحلاق باب المشغل، بعد لحظة من ذلك، استيقظ الكولونيل أوريليانو بوينديا، يراوده إحساس بأنه قد غفا لاإرادياً لثوان قليلة، وأن الوقت لم يتسع للحلم بأي شيء.

- ليس اليوم - قال للحلاق - نلتقي يوم الجمعة.

لم تكن ذقنه قد حُلقت منذ ثلاثة أيام، وكانت مرقشة بشعيرات بيضاء، ولكنه لم يجد حاجة لحلاقتها، ما دام سيقص شعره يوم الجمعة، ويمكنه عمل الأمرين معاً. عرق القيلولة غير المرغوبة اللزج، نشّط في إبطيه قروح الدمامل. كان المطر قد توقف، لكن الشمس لم تظهر بعد. أطلق الكولونيل أوريليانو بوينديا جُشأة مدوية، أعادت إلى حلقه حموضة الحساء، وكانت أشبه بأمر من الجسد لإلقاء البطانية على كتفيه والذهاب إلى

المرحاض. ظلَّ هناك لوقت أطول مما ينبغي، مقرفصاً فوق التخمر الكثيف المتصاعد عبر الأرضية الخشبية، إلى أن أشار له الروتين المعتاد إلى أن موعد استئناف العمل قد حل. وخلال الوقت الذي دامه الانتظار، عاد لتذكر أن اليوم هو الثلاثاء، وأن خوسيه أركاديو الثاني لم يأت إلى المشغل، لأنه يوم دفع الأجور في مزارع شركة الموز. وحملته هذه الذكرى، مثل كل ذكريات السنوات الأخيرة، دون أي انتباه منه، إلى التفكير في الحرب. تذكر أن العقيد خيرينيلدو ماركيز وعده، ذات مرة، بأن يقدم له حصاناً له نجمة بيضاء في جبهته، ثم لم يعد إلى الحديث عنه قط. ثم انحرف إلى أحداث متفرقة، ولكنه استذكرها دون أن يحكم عليها، ولأنه غير قادر على التفكير في شيء آخر، فقد تعلم التفكير ببرود، حتى لا تؤذي الأفكارُ التي لا يمكن تجنبها، أياً من مشاعره. في طرق عودته إلى المشغل، حين لاحظ أن الهواء بدأ يجف، قرر أنه وقت ملائم للاستحمام، لكن آمارانتا كانت قد سبقته. وهكذا بدأ بصنع سمكة اليوم الثانية. كان يقوم بتثبيت الذيل، عندما ظهرت الشمس بقوة شديدة، فرقع معها الضياء كأنه مركب. وكان الهواء المغسول برذاذ ثلاثة أيام، ممتلئاً بالنمل الطيار. عندئذ انتبه إلى أن لديه رغبة في التبول، وأنه كان يؤجلها إلى أن ينتهي من تركيب السمكة. وكان متوجهاً إلى الفناء، في الرابعة وعشر دقائق، عندما سمع صوت الآلات النحاسية البعيدة، ودوي الطبل الكبير، ومرح الأطفال، فداس بوعي، لأول مرة منذ شبابه، على فخ حنين، وعاش مجدداً أمسية الغجر العجيبة التي أخذه فيها أبوه ليتعرف على الجليد. تركت صوفيا قديسة الرحمة ما كانت تفعله في المطبخ، وركضت نحو الباب.

- إنه السيرك - صاحت.

وبدلاً من التوجه إلى شجرة الكستناء، اتجه الكولونيل أوريليانو بوينديا إلى الباب أيضاً، واختلط بالفضوليين الذين يتأملون الاستعراض. رأى امرأة بثياب مذهبة على رقبة فيل. وجملاً حزيناً. رأى دباً بملابس امرأة هولندية، يضبط إيقاع الموسيقى بمغرفة وقِدر كبيرة. رأى المهرجين يقومون بحركات بهلوانية في آخر الموكب، ورأى مرة أخرى وجه وحدته البائسة، عندما مرّ الجميع، ولم يبق إلا الفراغ المضيء في الشارع، والهواء الممتلئ بالنمل الطيار، وعدد من الفضوليين الذين يطلون على هاوية عدم اليقين. عندئذ رجع إلى شجرة الكستناء، مفكراً في السيرك، وبينما هو يتبول، حاول أن يواصل التفكير في السيرك، لكنه لم يجد التذكر. أدخل رأسه بين كتفيه، مثل صوص، وظل ساكناً بلا حراك، وجبهته مستندة إلى جذع شجرة الكستناء. لم تعرف الأسرة بأمره حتى اليوم التالي، في الحادية عشرة صباحاً، عندما ذهبت صوفيا قديسة الرحمة لرمي القمامة وراء الفناء، ولفت انتباهها نزول نسور الرخمة.

توافقت عطلة ميمي المدرسية الأخيرة مع الحداد على موت الكولونيل أوريليانو بوينديا، كان الحديث يدور همساً، والأكل يتم بصمت، وتُصلى صلاة المسبحة ثلاث مرات في اليوم، وحتى التمرينات على الكلافيكورديو، في قيظ القيلولة، كان لها وقع مأتمي. وعلى الرغم من عداء فرناندا الخفي للكولونيل، إلا إنها هي التي فرضت صرامة ذلك الحداد، مبهورة بالوقار الذي أحيت به الحكومة ذكرى عدوها الميت. عاد أوريليانو الثاني، كعادته، إلى النوم في البيت، ريثما تنقضي عطلة ابنته، ولا بد أن فرناندا قد فعلت شيئاً لاستعادة امتيازاتها كزوجة شرعية، لأن ميمي وجدت لها، في السنة التالية، أختاً حديثة الولادة، عمّدوها، بالرغم من مشيئة أمها، باسم آمارانتا أورسولا.

كانت ميمي قد أنهت دراستها. والشهادة التي تعتمدها كعازفة جوقة على آلة الكلافيكورديو، صادق عليها العزف البارع الذي أدته لألحان شعبية من القرن السابع عشر، في حفلة أقيمت احتفاء بإنهائها دراستها، ووُضع بها حدّ لفترة الحداد. وقد أعجب المدعوون بازدواجيتها الغريبة، أكثر من إعجابهم بعزفها. فطبعها المستهتر، وحتى الطفولي إلى حد ما، لا يبدو مناسباً لأي نشاط جاد، ولكنها حين تجلس إلى الكلافيكورديو تتحول إلى فتاة مختلفة، يضفي عليها نضوجها الطارئ مظهر الكبر. هكذا كانت

على الدوام. والحقيقة أنه لم يكن لها ميل محدد، ولكنها توصلت إلى الحصول على أعلى الدرجات من خلال انضباط صارم لا يلين، لمجرد أن لا تعارض أمها. وكان يمكن لهم أن يفرضوا عليها تعلم أية مهنة أخرى، وتكون النتائج هي نفسها. لقد كانت تزعجها، منذ طفولتها المبكرة، صرامة فرناندا، وعادتها في اتخاذ القرارات عن الآخرين، وكان يمكن لها الإقدام على تضحية أقسى من دروس الكلافيكورديو، لمجرد ألا تصطدم بتشدد أمها. وفي حفلة التخرج، أحست أن رقّ الشهادة المكتوب بحروف قوطية، كبيرة ومنمقة، سيحررها من التزام تقبّلته بانصياع لا يقل عن طلب الراحة، وظنت أنه منذ تلك اللحظة، لن تعود فرناندا اللجوجة نفسها إلى الاهتمام بآلة موسيقية تعتبرها الراهبات أنفسهن مستحاثة متاحف. خيل إليها في السنوات الأولى أن حساباتها كانت خاطئة، لأنها بعد أن نومت نصف المدينة، ليس في صالون الاستقبال فقط، وإنما في كل أنواع السهرات الخيرية، والحفلات المدرسية، والمناسبات الوطنية التي تقام في ماكوندو، واصلت أمها دعوة كل قادم جديد تفترض أنه قادر على تقدير مواهب ابنتها. ولم تتمكن ميمي من إغلاق الكلافيكورديو ونسيان المفتاح في واحدة من الخزائن القديمة، دون أن تكلف فرناندا نفسها مشقة التقصي عن متى ومن تسبب في فقدانه، إلا بعد موت آمارانتا، وعودة العائلة إلى الانغلاق في فترة حداد أخرى. وقد تحمّلت ميمي تلك العروض بالصبر الرواقي نفسه الذي توصلت فيه إلى إنهاء تعلمها. كان ذلك هو ثمن حريتها. فقد كانت فرناندا راضية تمام الرضا عن وداعتها، وفخورة بالإعجاب الذي يستثيره فنها، حتى إنها لم تعارض امتلاء البيت بصديقاتها، ولا خروجها عصراً

للتنزه في المزارع، ولا ذهابها إلى السينما مع أوريليانو الثاني أو مع سيدات يحظين بثقتها، شريطة أن يكون الفيلم حائزاً على موافقة الأب أنطونيو إيزابيل التي يعلنها في الكنيسة. في لحظات الراحة تلك، كانت تتكشف أذواق ميمي الحقيقية. فقد كانت سعادتها، على الطرف النقيض من الانضباط، في الحفلات الصاخبة، وفي ثرثرات القيل والقال عن المحبين، وفي اللقاءات المطولة المغلقة مع صديقاتها، حيث يتعلمن التدخين، ويتحدثن عن أمور الرجال، وحيث تجاوزن الحدّ مرة، بشرب ثلاث زجاجات من روم القصب، وانتهين إلى التعري وقياس ومقارنة أجزاء أجسادهن. ولن تنسى ميمي، أبداً، ليلة عادت إلى البيت وهي تمضغ قطعة من عرق السوس، وجلست إلى المائدة، حيث كانت فرناندا وآمارانتا تتناولان العشاء، دون أن تكلم إحداهما الأخرى، ودون أن تلحظا حالتها. كانت قد أمضت ساعتين رهيبتين في غرفة نوم إحدى صديقاتها، تبكي من الضحك والخوف. وفي الجانب الآخر من الأزمة، وجدت الإحساس الغريب بالشجاعة الذي كانت تفتقده كي تهرب من المدرسة الداخلية، وكي تقول لأمها، بهذه الكلمات أو غيرها، إنه يمكن لها الآن أن تصنع لنفسها حقنة شرجية من الكلافيكورديو. كانت جالسة عند رأس المائدة، تتناول حساء دجاج، ينزل إلى معدتها كأنه إكسير انبعاث، ورأت ميمي عندئذ فرناندا وآمارانتا محاطتين بهالة الواقع الاتهامية. وكان عليها أن تبذل جهداً كبيراً، كيلا تواجههما مباشرة بتصنعهما، وبؤس روحيهما، وجنون عظمتيهما. كانت قد عرفت، منذ عطلتها المدرسية الثانية، أن أباها لا يقيم في البيت إلا حفاظاً على المظاهر. ولمعرفتها بفرناندا مثلما تعرفها، تدبرت

أمورها، فيما بعد، للتعرف على بيترا كوتيس، ووجدت أن أباها على حق. وكانت تفضل، هي نفسها أيضاً، لو أنها ابنة الخليلة. وفي خدر الكحول، كانت ميمي تفكر بتلذذ في الفضيحة التي يمكن أن تثيرها لو أنها عبّرت، في تلك اللحظة، عما يدور في ذهنها. وبلغ رضاها الداخلي عن فكرتها الخبيثة حداً من الزخم جعل فرناندا تلحظه. فسألتها:

- ما بالك؟

- لا شيء - أجابت ميمي - الآن فقط، بدأت أكتشف كم أحبكما.

ارتعبت آمارانتا من شحنة الحقد الواضحة في ذلك التصريح. لكن فرناندا أحست بتأثر عميق، وحسبت أنها ستصاب بالجنون، عندما استيقظت ميمي في منتصف الليل، ورأسها ينفجر من الألم، وتختنق بقيء من الصفراء. أعطتها زجاجة من زيت الكاستور، ووضعت لها كمادات على بطنها، وأكياس ثلج على رأسها، وأجبرتها على التزام الحمية والحجز لخمسة أيام، مثلما أمر الطبيب الفرنسي الجديد وغريب الأطوار، والذي توصل، بعد أن فحصها لأكثر من ساعتين، إلى النتيجة الضبابية بأنها تعاني من اضطرابات نسائية. وبتخلي الشجاعة عنها، ووقوعها في حالة مزرية من انهيار المعنويات، لم يعد أمام ميمي من سبيل سوى التحمل. وكانت أورسولا، وقد صارت عمياء تماماً، ولكنها لا تزال فعالة وثاقبة الذهن، هي الوحيدة التي خمنت التشخيص الصائب للحالة، وفكرت: «في رأيي أن هذه الأعراض هي نفسها التي تبدو على السكارى». لكنها لم ترفض الفكرة وحسب، وإنما أنبت نفسها على خفة تفكيرها. وأحس أوريليانو الثاني بتأنيب الضمير عندما

رأى حالة وهن ميمي، وعاهد نفسه على الاهتمام بها في المستقبل، وهكذا ولدت علاقة الرفقة المرحة بين الأب وابنته، فحررته من وحدة اللهو والقصف المريرة، وحررتها من وصاية فرناندا، دون حاجة إلى إثارة الأزمة العائلية التي كانت تبدو مؤكدة. عندئذ، أجّل أوريليانو الثاني كل التزاماته كي يبقى مع ميمي، يأخذها إلى السينما أو إلى السيرك، ويكرس لها أكبر جزء من أوقات فراغه. وفي الأزمنة الأخيرة، كانت عقبة سمنته غير المعقولة التي لم تعد تتيح له أن يربط شرائط حذائه، والتمادي في إشباع كل أنواع شهواته، قد بدأت تعكر طباعه. فجاء اكتشافه لابنته ليعيد إليه مرحه القديم، وراحت متعة بقائه معها، تبعده شيئاً فشيئاً عن التبذير. كانت ميمي قد أشرفت على مرحله عمرها المثمرة. لم تكن جميلة، مثلما لم تكن آمارانتا قط، لكنها بالمقابل، كانت لطيفة، غير معقدة، وتتمتع بميزة استلطاف الآخرين لها منذ اللحظة الأولى. كانت روحها الحديثة تخدش اتزان فرناندا العتيق وبخل قلبها الذي لا تنجح في إخفائه، بينما كان أوريليانو الثاني يسعد برعايتها. وكان هو من قرر إخراجها من غرفة النوم التي تشغلها منذ طفولتها، حيث كانت عيون تماثيل القديسين المرعوبة لا تزال تغذي مخاوفها في فتوتها، وأثث لها غرفة بسرير ملكي، وخوان زينة فسيح، وستائر من المخمل، دون أن ينتبه إلى أنه يرتب نسخة ثانية عن حجرة بيترا كوتيس. وكان مسرفاً مع ميمي، حتى إنه لم يكن يعرف كم يعطيها من المال، لأنها هي نفسها كانت تأخذه من جيوبه. وكان يطلعها على كل مستجدات التجميل والزينة التي تصل إلى منطقة شركة الموز. امتلأت حجرة ميمي بقطع من حجر الخفان لبرد أظافرها

وصقلها، ومُجَعِدات الشعر، وملمعات الأسنان، وقطرات لجعل النظرات متراخية، وكثير من مستجدات مستحضرات وأدوات التجميل، حتى إن فرناندا كانت تثور مستنكرة، كلما دخلت غرفة النوم، لفكرة أن خوان زينة ابنتها لا بد أن يكون مثلما لدى السيدات الفرنسيات. ومع ذلك، فقد كانت فرناندا توزع وقتها، في تلك الفترة، بين صغيرتها آمارانتا أورسولا، متقلبة النزوات والعليلة، وبين مراسلات مؤثرة مع الأطباء غير المرئيين. وهكذا، حين اكتشفت التواطؤ بين الأب والابنة، كان الوعد الوحيد الذي انتزعته من أوريليانو الثاني هو ألا يأخذ ميمي أبداً إلى بيترا كوتيس. ولكنه كان تحذيراً بلا معنى، لأن الخليلة كانت قلقة من رفقة عشيقها لابنته، لدرجة أنها لا تريد معرفة شيء عنها. كان يعذبها خوف مجهول، كما لو أن الغريزة تشير إليها بأنه يمكن لميمي، بمجرد إبداء رغبتها، أن تحقق ما لم تستطع فرناندا تحقيقه: حرمانها من حب كانت تعتبره مضموناً حتى الموت. وكان على أوريليانو الثاني أن يتحمل، لأول مرة، تجهم وجه خليلته وسخرياتها اللاذعة، حتى إنه خشي أن تقوم صناديق أمتعته، الذاهبة والآيبة، برحلة العودة إلى بيت زوجته. ولكن ذلك لم يحدث. فليس هناك امرأة تعرف رجلها أفضل مما عرفت بيترا كوتيس عشيقها، وكانت تعرف أن الصناديق ستبقى حيث تُرسل، لأنه إذا كان هناك شيء يكرهه أوريليانو الثاني، فإنه تعقيد حياته بالتبدلات ونقل الأمتعة. وهكذا ظلت الصناديق حيث هي، وسعت بيترا كوتيس لاسترداد الزوج بشحذ السلاح الوحيد الذي لا تستطيع الابنة منازعتها فيه. وكان جهداً لا لزوم له أيضاً، لأنه لم تكن لدى ميمي قط نية التدخل في شؤون أبيها، ولو أنها فعلت،

لكان تدخلها لمصلحة الخليلة بكل تأكيد. لم يكن لديها فائض من الوقت لإزعاج أحد. فقد كانت تكنس غرفتها بنفسها، وترتب سريرها، مثلما علمتها الراهبات. وفي الصباح تهتم بالثياب، فتطرز في الردهة أو تخيط بماكينة آمارانتا اليدوية القديمة. وعندما ينام الآخرون القيلولة، تتدرب ساعتين على الكلافيكورديو، مدركة أن هذه التضحية اليومية، تُبقي فرناندا هادئة. ولهذا السبب بالذات، واظبت على العزف في الأسواق الخيرية الكنسية، والأمسيات المدرسية، بالرغم من أن الطلبات راحت تقل تدريجياً. وعند الغروب، كانت تتجمل، وترتدي أثوابها البسيطة، وتنتعل حذاءها القاسي؛ وإذا لم يكن هناك ما تفعله مع أبيها، تذهب إلى بيوت صديقاتها، حيث تبقى حتى موعد العشاء. ومن النادر ألا يجيء أوريليانو الثاني عندئذ، ليأخذها إلى السينما.

كان بين صديقات ميمي ثلاث فتيات أمريكيات شماليات، كسرن سياج حظيرة الدجاج المكهرب، وأقمن صداقات مع فتيات من ماكوندو. وكانت باتريسيا براون واحدة منهن. واعترافاً منه بكرم ضيافة أوريليانو الثاني، فتح السيد براون أبواب بيته لميمي، ودعاها إلى حفلات السبت الراقصة، وهي المناسبة الوحيدة التي يختلط فيها الغرينغيون بالأهالي. وعندما علمت فرناندا بالأمر، نسيت لبعض الوقت آمارانتا أورسولا والأطباء غير المرئيين، وافتعلت ميلودراما كاملة. قالت لميمي: «تصوري ما الذي سيفكر فيه الكولونيل في قبره». كانت تهدف من ذلك، بالطبع، إلى الحصول على مساندة أورسولا. لكن العجوز العمياء، وخلافاً لما توقعه الجميع، اعتبرت أنه لا ضير في حضور ميمي حفلات

رقص، وإقامة صداقة مع أمريكيات شماليات في مثل عمرها، ما دامت تحافظ على متانة معتقدها، ولا تتحول إلى الديانة البروتستانتية. وقد فهمت ميمي تفكير أم جدها جيداً، فصارت تستيقظ في اليوم التالي لحفلات الرقص، في وقت أبكر من المعتاد، كي تذهب إلى القداس. أما معارضة فرناندا فتواصلت، حتى اليوم الذي جردتها فيه ميمي من أسلحتها بخبر أن الأمريكيين الشماليين يريدون سماع عزفها على الكلافيكورديو. فأُخرجت الآلة الموسيقية مرة أخرى من البيت، وحُملت إلى بيت السيد براون، حيث قوبلت العازفة الشابة، فعلاً، بأشد التصفيق صدقاً، وأكثر التهاني حماسة. ومنذ ذلك الحين، لم تعد دعواتهم لها تقتصر على حفلات الرقص وحدها، وإنما صارت تشمل السباحة أيام الآحاد في المسبح، والدعوة لتناول الغداء مرة كل أسبوع. تعلمت ميمي السباحة كمحترفة، ولعب التنس، وأكل جامبون فيرجينيا مع شرحات أناناس. وما بين الرقص والمسبح والتنس، وجدت نفسها فجأة تتورط في اللغة الإنكليزية. تحمس أوريليانو الثاني لما تحرزه ابنته من تقدم، فاشترى لها، من بائع متجول، موسوعةً إنكليزية من ستة مجلدات، تضم الكثير من اللوحات الملونة، فكانت ميمي تقرؤها في ساعات فراغها. وشغلت القراءة الاهتمام الذي كانت تكرسه من قبل للثرثرة عن المحبين، أو الجلسات التجريبية المغلقة مع صديقاتها؛ ليس لأنها فرضت على نفسها ذلك الانضباط، وإنما لأنها فقدت أي اهتمام في الحديث عن أسرار يعرفها الجميع. كانت تتذكر سكرتها على أنها مغامرات طفولية، وبدت لها مضحكة، حتى إنها أخبرت بها أوريليانو الثاني، فوجدها مضحكة أكثر منها، وقال لها وهو يختنق بالضحك:

«تصوري لو أن أمك علمت بذلك»، مثلما كان يقول لها كلما اعترفت له بأحد أسرارها. وطلب منها وعداً بأن تطلعه، بالثقة نفسها، على أول علاقة غرامية تقيمها؛ وكانت ميمي قد أخبرته بأنها تستلطف فتى أمريكياً شمالياً أحمر الشعر، جاء لقضاء العطلة مع والديه. فضحك أوريليانو الثاني: «يا للهول، لو أن أمك علمت بذلك». لكن ميمي أخبرته أيضاً، أن الفتى عاد إلى بلاده، ولا توجد لديها أية أخبار عنه. لقد أمّن نضوج تفكيرها السلام المنزلي. فكان أوريليانو الثاني يكرس آنذاك، وقتاً أطول لبيترا كوتيس، ومع أن جسده وروحه لم يعودا يسمحان له بالانغماس في العربدة كالسابق، إلا أنه لم يكن يضيع أية فرصة لإقامة الحفلات وإخراج الأوكورديون الذي كانت بعض ملامسه مثبتة برباط حذاء. وفي البيت، كانت آمارانتا تطرز كفنها الذي لا ينتهي، وأورسولا تترك للشيخوخة أن تقتادها إلى قاع الظلمات، حيث الشيء الوحيد الذي ما زالت تراه، هو طيف خوسيه أركاديو بوينديا، تحت شجرة الكستناء. وكانت فرناندا قد رسخت سلطتها. ولم تكن رسائلها الشهرية إلى ابنها خوسيه أركاديو تتضمن آنذاك أي سطر من الكذب، وكانت تخفي عنه فقط، مراسلاتها مع الأطباء غير المرئيين الذين شخّصوا وجود ورم حميد في معيها الغليظ، وكانوا يهيئونها ليجروا لها مداخلة جراحية تخاطرية.

كان بالإمكان القول إن بيت آل بوينديا المتعب، سيعرف السلام والسعادة الروتينية لوقت طويل، لو لم يُثر موت آمارانتا المفاجئ جلبة جديدة. كان حدثاً غير متوقع. فمع أنها عجوز، ونائية عن الجميع، إلا أنها كانت تبدو قوية ومنتصبة القامة، بصحتها الصخرية التي تمتعت بها على الدوام. لم يعرف أحد ما الذي

كانت تفكر فيه، منذ المساء الذي صدت فيه العقيد خيريليندو ماركيز نهائياً، وحبست نفسها لتبكي. عندما خرجت، كانت قد استنفدت كل دموعها. فلم يرها أحد تبكي عند صعود ريميديوس الجميلة إلى السماء، ولا عندما جرت إبادة الأوريليانويات، ولا عند موت الكولونيل أوريليانو بوينديا، وهو أكثر شخص أحبته في هذا العالم، وإن لم تستطع إظهار ذلك إلا عندما وجدوا جثته تحت شجرة الكستناء. فقد ساعدت في رفع الجثمان. وألبسته ملابس المحارب، وحلقت ذقنه، وسرّحت شعره، وصمّغت شاربه أفضل مما كان يفعله هو في سنوات مجده. ولم يعتقد أحد أن هناك حباً في عملها ذاك، لأنهم معتادون على تآلف آمارانتا مع طقوس الموت. كانت فرناندا تستفظع عدم فهمها لعلاقة الديانة الكاثوليكية بالحياة، وإنما علاقتها بالموت فقط، كأنها ليست ديانة، وإنما بيان للتقاليد الجنائزية. لقد كانت آمارانتا عالقة في تشابك ذكرياتها، وغير قادرة على فهم التفاصيل الدينية. لقد وصلت إلى الشيخوخة بكل ما لديها من حنين متأجج. فعندما تسمع فالسات بيترو كريسبي، تشعر بالرغبة في البكاء نفسها التي كانت تشعر بها في مراهقتها، كما لو أن الزمن والعبر لم تفد في شيء. ولفافات الموسيقى التي ألقت بها هي نفسها إلى القمامة، بحجة أنها قد تعفنت من الرطوبة، لا تزال تدور وتضرب بمطارق في ذاكرتها. لقد حاولت إغراقها في الوله المستنقعي الذي سمحت لنفسها بخوضه مع ابن أخيها أوريليانو خوسيه، وحاولت أن تلتجئ إلى حماية العقيد خيرينيلدو ماركيز الهادئة والرجولية، لكنها لم تستطع هزيمتها حتى في أشد ممارسات شيخوختها يأساً، عندما كانت تحمم خوسيه أركاديو الصغير، قبل ثلاث سنوات من إرساله

إلى مدرسة الرهبنة، وداعبته لا كما تداعب جدةٌ حفيدَها، وإنما كما تفعل امرأة مع رجل، ومثلما يقال إن السيدات الفرنسيات يفعلن، ومثلما كانت ترغب هي نفسها أن تفعل مع بيترو كريسبي، حين كانت في الثانية عشرة، وفي الرابعة عشرة من عمرها، ورأته ببنطال الرقص، وفي يده العصا السحرية التي يضبط بها إيقاع المترونوم. كان يؤلمها أحياناً أنها خلّفت وراءها كل ذلك الركام من البؤس، وفي أحيان أخرى تشعر بالغضب، فتَخِز أصابعها بالإبر؛ لكن أكثر ما كان يؤلمها، ويُغضبها، ويمرمرها، هو حقل جوافة الحب العابق والمدوِّد الذي تجرجره معها إلى الموت. ومثلما كان الكولونيل أوريليانو بويندیا يفكر في الحرب، ولا يستطيع تجنب ذلك التفكير، كانت آمارانتا تفكر بريبيكا. ولكن، بينما تمكن أخوها من تعقيم ذكرياته، لم تتوصل هي إلا إلى تأجيجها. وكانت الشيء الوحيد الذي تضرعت إلى الله من أجله، لسنوات طويلة، هو ألا يعاقبها بالموت قبل ريبيكا. وكانت كلما مرت أمام بيتها، ورأت تقدم الخراب فيه، تفرح لفكرة أن الله يستجيب لها. وفي مساء أحد الأيام، بينما هي تخيط في الردهة، فاجأها يقين بأنها ستكون جالسة في هذا المكان، بهذا الوضع نفسه، وتحت هذا الضوء نفسه، عندما سيأتونها بخبر موت ريبيكا. وجلست تنتظر الخبر، كمن ينتظر رسالة، وكان صحيحاً أنها صارت، في أحد الأوقات، تقتلع أزراراً كي تعيد تثبيتها من جديد، كيلا تكون عطالتها طويلة وانتظارها ممضاً. ولم يلحظ أحد في البيت، أن آمارانتا قد حاكت كفناً بديعاً لريبيكا. وفيما بعد، عندما روى أوريليانو الحزين كيف رأى ريبيكا متحولة إلى صورة شبح، بجلد مشقق، وبضع خصل شعر صفراء على جمجمتها، لم تُفاجأ آمارانتا بذلك،

لأن الشبح الذي وصفه مطابق تماماً لما تخيلتها عليه منذ زمن بعيد. وكانت قد قررت أن ترمم جثة ريبيكا، وأن تخفي أخاديد الوجه بالبارافين، وتصنع لها باروكة من شعور تماثيل القديسين. ستصنع جثة جميلة، وتضعها في كفن الكتان، وفي تابوت مبطن بمخمل أرجوني ذي طيات، ثم تضعها تحت تصرف الدود في مأتم مهيب. لقد وضعت الخطة بحقد شديد، حتى إنها أحست بقشعريرة من فكرة أنها كانت ستتصرف بالطريقة نفسها لو أنها فعلت ذلك بحب، لكنها لم تسمح لنفسها بالبلبلة من الالتباس، وإنما واصلت ضبط كل التفاصيل الدقيقة بإتقان، حتى تحولت إلى أكثر من اختصاصية، إلى موهبة في طقوس الموت. الشيء الوحيد لم تأخذه في الحسبان، في خطتها الرهيبة، هو أنها، بالرغم من تضرعاتها إلى الله، قد تموت قبل ريبيكا. وهذا ما حدث بالفعل. ولكن آمارانتا لم تشعر بالإحباط في اللحظة الأخيرة، بل أحست، على العكس من ذلك، بأنها تحررت من كل أنواع المرارة، لأن المنية منحهتا امتياز إعلامها بموتها قبل سنوات من حدوثه. فقد رأت المنيةَ، ذات ظهيرة قائظة، تخيط معها في الردهة، بعد قليل من ذهاب ميمي إلى المدرسة الداخلية. عرفتها فوراً، لم يكن هناك شيء مخيف في المنية، لأنها كانت امرأة تلبس ثوباً أزرق، ولها شعر طويل، وهيئة قديمة قليلاً، فيها شيء من الشبه مع بيلار تيرنيرا أيام كانت تساعدهم في أعمال المطبخ. وتصادف حضور فرناندا عدة مرات، ولكنها لم ترها، بالرغم من أنها كانت شديدة الواقعية، شديدة الإنسانية، حتى إنها طلبت مرة من آمارانتا أن تعمل معروفاً وتدخل لها الخيط في سم إبرتها. لم تخبرها المنية متى ستموت، ولا إذا ما كانت ساعتها مقدرة قبل

ساعة ريبيكا، بل أمرتها بأن تبدأ بحياكة كفنها منذ السادس من نيسان التالي. وسمحت لها المنية بأن تصنع كفناً بالغ التعقيد والدقة، ولكن بالنزاهة التي صنعت بها كفن ريبيكا، ونبهتها إلى أنها ستموت دون ألم، ولا خوف، ولا مرارة، عند غروب شمس اليوم الذي تنهي فيه الكفن. وفي محاولة الحصول على أكبر قدر تستطيعه من الزمن، أوصت آمارانتا على غزول كتان بيّال، وحاكت القماش بنفسها. وقد صنعته بدقة كبيرة، حتى إن ذلك العمل وحده، استغرق منها أربع سنوات. ثم بدأت بعد ذلك التطريز. وكلما كان الأجل المحتوم يقترب، كانت تدرك أنه لا يمكن إلا لمعجزة أن تطيل العمل إلى ما بعد موت ريبيكا، لكن تركيزها الذهني نفسه، منحها الطمأنينة التي كانت تفتقر إليها لتقبّل فكرة الإحباط. وكان أن أدركت عندئذ حلقة السمكات الذهبية المفرغة التي استغرق فيها الكولونيل أوريليانو بوينديا. فاختُزل العالم إلى سطح بشرتها، وظل داخلها بمنجى من كل أشكال المرارة. آلمها عدم توصلها إلى ذلك الكشف قبل سنوات كثيرة، عندما كان لا يزال بإمكانها تنقية ذكرياتها وإعادة بناء العالم تحت ضوء جديد، واستحضار رائحة خزامى بيترو كريسبي المسائية دون قشعريرة، وإنقاذ ريبيكا من صلصة بؤسها، ليس بدافع الحب ولا بدافع الحقد، وإنما بدافع الفهم غير المحدود للوحدة. والحقد الذي لمحته ذات ليلة في كلمات ميمي، لم يؤثر فيها لأنه ينال منها، وإنما لأنها أحست أنها تتكرر في مُرَاهَقَة أخرى، تبدو شديدة النقاء، مثلما توجب أن تبدو مُرَاهَقَتُها، وهي مع ذلك، خاوية بسبب الضغينة. لكن تقبلها آنذاك لقدرها كان عميقاً، إلى حدّ لا يقلقها معه اليقين بأن كل إمكانيات التصحيح باتت مغلقة. صار هدفها

الوحيد هو إنهاء كفنها. وبدلاً من أن تؤخر عملها بتدقيق لا طائل منه، مثلما فعلت في البداية، راحت تعجل فيه. وقدرت، قبل أسبوع، أنها ستطرز الغرزة الأخيرة في ليلة الرابع من شباط، فاقترحت حتى على ميمي، من دون أن تكشف لها عن السبب، أن تعلن عن تقديم موعد حفلة عزف على الكلافيكورديو ستقيمها في اليوم التالي، لكن ميمي لم تستجب لها. فبحثت آمارانتا عندئذ عن طريقة لتأجيل موتها ثماني وأربعين ساعة، بل إنها ظنت أن الموت قد ارتضى ذلك، لأن عاصفة عطلت محطة توليد الكهرباء، في ليلة الرابع من شباط. لكنها في اليوم التالي، في الساعة الثامنة صباحاً، أنهت الغرزة الأخيرة من أدق عمل يمكن لامرأة أن تكون قد اشتغلته على الإطلاق، وأعلنت دون أي دراماتيكية أنها ستموت عند الغروب. لم تنبه الأسرة فقط، وإنما القرية بأسرها، لأن آمارانتا أقنعت نفسها بفكرة أنه يمكن لها أن تصلح حياة كاملة من الدناءة، بتقديم معروف أخير للجميع، ورأت أنه ليس هناك معروف تقدمه أفضل من حمل رسائل إلى الموتى.

قبل انتصاف النهار، كان خبر أن آمارانتا بوينديا سوف تُبحر مع الغسق، حاملة معها بريد الموت، قد انتشر في ماكوندو، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، كان هناك في القاعة صندوق ممتلئ بالرسائل. ومن لم يشاؤوا الكتابة، قدموا لآمارانتا رسائل شفوية، دونتها على دفتر ملاحظات، مع اسم المرسل إليه وتاريخ موته. وكانت تطمئن كل واحد من المرسلين: «لا تقلق. أول ما سأفعله لدى وصولي هو البحث عنه، وإيصال الرسالة إليه». بدا الأمر مهزلة. ولم تبدِ آمارانتا أي قدر من القلق، ولا أدنى علامة ألم، بل كانت تبدو كمن استعادت شيئاً من شبابها، لإحساسها بالقيام

بالواجب. كانت منتصبة القامة ورشيقة كعادتها. ولولا تصلب وجنتيها وفقدانها بعض أسنانها، لبدت أقل شيخوخة بكثير مما هي عليه في الواقع. وهي نفسها من أمرت بوضع الرسائل في صندوق مطلي بالقار، وأشارت إلى طريقة وضعه في القبر لحمايته بأفضل طريقة من الرطوبة. كانت قد استدعت، في الصباح، نجاراً، أخذ مقاسها ليصنع لها النعش، وهي واقفة، في الصالون، كما لو أن سيخيط لها ثوباً. واستيقظت فيها ديناميكية الساعة الأخيرة، فظنت معها فرناندا أنها تسخر منهم. ومن تجربتها بأن آل بوينديا يموتون دون مرض، لم يخامر الشك أورسولا في أن آمارانتا قد تلقت نذر الموت، ولكن كان يعذبها مع ذلك، الخوف من أن تؤدي مسألة الرسائل، واللهفة في وصولها بسرعة، إلى دفع المرسلين المزدحمين إلى دفنها ابنتها حية. ولهذا أصرت على إخلاء البيت، متنازعة بالصراخ مع الدخلاء، وقد توصلت إلى تحقيق ما أرادت في الرابعة بعد الظهر. وفي هذه الساعة، كانت آمارانتا قد انتهت من توزيع أشيائها على الفقراء، وأبقت على النعش الخشبي غير المصقول، والثوب الذي سترتديه، والخف المخملي البسيط الذي ستنتعله في موتها. لم تهمل هذا الاحتياط، حين تذكرت كيف اضطروا، عند موت الكولونيل أوريليانو بوينديا، إلى شراء حذاء جديد له، لأنه لم يكن لديه إلا الخف الذي يستخدمه في المشغل. وقبل الساعة الخامسة بقليل، جاء أوريليانو الثاني ليصطحب ميمي إلى حفلتها الموسيقية، ففوجئ بالبيت يستعد لمأتم. وإذا كان هناك من يبدو حياً في تلك الساعة، فإنها آمارانتا الهادئة الرصينة التي أتيح لها الوقت، حتى لقص ثآليلها. فودعها أوريليانو الثاني وميمي بعبارات وداع

ساخرة، ووعداها بأن يقيما يوم السبت القادم حفلة كبرى على شرف انبعاثها. وجاء في الساعة الخامسة الأب أنطونيو إيزابيل، تجتذبه الأصوات القائلة إن آمارانتا بوينديا تتلقى رسائل إلى الموتى، وكان يحمل معه قربان الزاد الأخير، وكان عليه أن ينتظر أكثر من خمس عشرة دقيقة، ريثما تخرج المحتضرة من الحمام. وعندما رآها تخرج إليه بقميص نوم قطني أبيض، وشعرها مفلت على ظهرها، ظن الكاهن العجوز أن الأمر سخرية، فصرف صبي الخدمة. ولكنه فكر مع ذلك، في استغلال الفرصة، لتلقى اعتراف آمارانتا بعد ما يقارب العشرين سنة من تكتمها. فردت عليه آمارانتا، ببساطة، بأنها ليست بحاجة لأي نوع من العون الروحي، لأن ضميرها نظيف. فاستفظعت فرناندا الأمر، ودون مراعاة ألا يسمعها الحاضرون، تساءلت بصوت عال، عن الخطيئة المرعبة التي ارتكبتها آمارانتا، حتى تفضل موتاً دنساً على عار الاعتراف. عندئذ استلقت آمارانتا، وأجبرت أورسولا على التأكد علناً من عذريتها.

- لا يتوهمن أحد - صاحت أورسولا، كي تسمعها فرناندا - فآمارانتا بوينديا تغادر هذا العالم مثلما جاءت إليه.

ولم تعد آمارانتا للنهوض. ظلت مستلقية على حشايا، كما لو أنها مريضة حقاً، فضفرت جدائلها الطويلة، ولفتها حول أذنيها، بالوضع الذي أخبرتها المنية بأن تكون عليه في النعش. ثم طلبت بعد ذلك مرآة من أورسولا، ولأول مرة منذ أربعين عاماً، رأت وجهها الذي عاث به تقدم العمر والعذاب، وفوجئت بمدى مشابهته للصورة الذهنية التي لديها عن نفسها. وأدركت أورسولا من الصمت الذي ساد الغرفة، أن الظلام بدأ يخيم، فطلبت منها

متوسلة:

- ودعي فرناندا. فدقيقة مصالحة أفضل من عمر كامل من الصداقة.

- لم يعد هناك ما يستحق العناء - أجابتها آمارانتا.

لم تستطع ميمي عدم التفكير فيها عندما أضيئت أنوار منصة المسرح المرتجلة، وبدأ القسم الثاني من البرنامج. وفي منتصف المقطوعة، همس أحدهم الخبر في أذنها، فأوقفت الحفلة. وعند الوصول إلى البيت، اضطر أوريليانو الثاني إلى شق طريقه بالدفع بين الحشد، كي يرى جثة العجوز العذراء، قبيحة وسيئة اللون، بالضماد الأسود على يدها، وملفوفة بالكفن البديع. كانت مسجاة في صالة الاستقبال، إلى جانب صندوق الرسائل.

لم تعد أورسولا إلى النهوض بعد ليالي السهر التسع على آمارانتا. وتولت صوفيا قديسة الرحمة العناية بها. فكانت تحمل لها الطعام إلى الغرفة، وماء زهر البيخا لغسلها، وتبقيها مطلعة على ما يحدث في ماكوندو. وكثيراً ما كان أوريليانو الثاني يزورها، ويحمل إليها ثياباً تضعها إلى جانب السرير، مع الأشياء الضرورية للحياة اليومية، بحيث أنشأت، خلال وقت قصير، عالماً متكاملاً في متناول يدها. وتمكنت من إيقاظ عاطفة كبيرة في نفس الصغيرة آمارانتا أورسولا التي كانت تشبهها تماماً، وقد علمتها القراءة. وكانت بصيرتها، ومهارتها في الاعتماد على نفسها، تدفع الآخرين إلى التفكير في أنها منهوكة، بالطبع، بثقل المئة عام، وأن بصرها قد ضعف دون شك، ولكن أحداً لم يكن يظن أنها صارت عمياء تماماً. وكان لديها آنذاك فائض من الوقت، وفائض من الصمت الداخلي، لمراقبة حياة البيت، فكانت

هي أول من تنبه إلى محنة ميمي الصامتة، فقالت لها:

- تعالي إلي. الآن ونحن وحدنا، اعترفي لهذه العجوز المسكينة بما أصابك؟

تفادت ميمي تلك المحادثة بضحكة متقطعة. لم تلح أورسولا عليها، لكن شكوكها تأكدت عندما لم تعد ميمي تزورها. كانت تعرف أنها تتزين أبكر من المعتاد، وأنها لا تجد لحظة واحدة من الراحة بينما هي تنتظر موعد الخروج إلى الشارع، وأنها تقضي ليالي كاملة وهي تتقلب في فراشها في الغرفة الملاصقة لغرفتها، وأن صوت طيران فراشة كان يكفي لتعذيبها. وفي إحدى المرات، سمعتها تقول إنها خارجة للقاء مع أوريليانو الثاني، وفوجئت أورسولا بضيق مخيلة فرناندا التي لم تشك بالأمر عندما جاء زوجها إلى البيت يسأل عن ابنته. كان واضحاً أن ميمي مستغرقة في قضايا سرية، في مواعيد مستعجلة، في تلهفات مكبوحة، قبل وقت طويل من الليلة التي أثارت فيها فرناندا ضجة هائلة في البيت، لأنها رأتها تُقَبّل رجلاً في السينما.

كانت ميمي نفسها تمضي آنذاك مستغرقة في أفكارها، حتى إنها اتهمت أورسولا بالوشاية بها. والواقع أنها هي التي وشت بنفسها. فمنذ بعض الوقت، راحت تخلف وراءها ركاماً من الآثار التي يمكن لها أن توقظ انتباه أشد الغافلين، وإذا كانت فرناندا قد تأخرت طويلاً في اكتشافها، فإنما لأنها كانت مشغولة أيضاً بعلاقاتها السرية مع الأطباء غير المرئيين. ومع ذلك، فقد انتهى بها الأمر إلى ملاحظة صمت ابنتها العميق، وتقلباتها المفاجئة، وتبدلات مزاجها، وتناقضاتها. فانهمكت في مراقبة متكتمة، ولكنها صارمة. سمحت لها بالذهاب إلى صديقاتها المعهودات،

وساعدتها في ارتداء ملابسها لحفلات أيام السبت، ولم توجه إليها قط أي سؤال محرج يمكن له أن يغضبها. صارت لديها أدلة كثيرة على أن ميمي تفعل أشياء غير التي تقولها، ولكنها لم تُظهر لها شكوكها مع ذلك، بانتظار الفرصة الحاسمة. وفي إحدى الليالي، أخبرتها ميمي أنها ذاهبة إلى السينما مع أبيها. وبعد قليل، سمعت فرناندا دوي الأسهم النارية من حفلة عربدة أوريليانو الثاني، وصوت أكورديونه الذي لا يمكنها أن تخطئ فيه، آتية من جهة بيت بيترا كوتيس. عندئذ ارتدت ثيابها، ودخلت إلى السينما. وفي العتمة المخيمة على مقاعد الصالة، تعرفت إلى ابنتها. وقد حال تشوش ذهنها من صحة توقعاتها، دون رؤيتها للرجل الذي كانت ابنتها تتبادل القُبَل معه، ولكنها تمكنت من سماع صوته الراجف، وسط صفير الجمهور وضحكاته المدوية. «آسف يا حبيبتي»، سمعته يقول لها. أخرجت ميمي من الصالة لتقول لها كلمة، وأخضعتها لعار اقتيادها عبر شارع الأتراك الصاخب، وأقفلت عليها غرفة نومها بالمفتاح.

في اليوم التالي، في الساعة السادسة مساء، تعرفت فرناندا إلى صوت الرجل الذي جاء يزورها. كان شاباً، شاحباً، له عينان سوداوان وكئيبتان ما كانتا لتفاجئانها لو أنها عرفت الغجر، وهيئة حالمة تكفي لأن تدرك أي امرأة قلبها أقل منها تصلباً، مسوغات ابنتها. كان يرتدي ثياباً من الكتان مستخدمة كثيراً، وينتعل حذاء محمياً بيأس بطبقة من الطلاء الأبيض، ويحمل في يده قبعة قش مشتراة السبت الفائت. لن يكون، ولم يكن في حياته الماضية، خائفاً مثلما كان في تلك اللحظة، ولكنه أبدى وقاراً وسيطرة على نفسه يضعانه بمنجى من أي إذلال، ومهابة أصيلة لم تخفق إلا في

يديه الملوثتين وأظفاره المشققة من العمل القاسي. ومع ذلك، كانت رؤية فرناندا له مرة واحدة، كافية لأن تدرك أنه عامل يدوي. وانتبهت إلى أنه يرتدي ثياب يوم الأحد الوحيدة لديه، وأن بشرته تحت القميص متآكلة بجرب شركة الموز. لم تسمح له بالكلام. بل لم تسمح له بتجاوز الباب الذي كان عليها أن تغلقه لحظتئذ، لأن البيت امتلأ بفراشات صفراء. وقالت له:

- انصرف من هنا. فليس لديك ما تبحث عنه بين الناس المحترمين.

كان اسمه ماوريسيو بابيلونيا. وقد ولد وترعرع في ماكوندو، ويعمل ميكانيكياً متدرباً في ورش شركة الموز. تعرفت إليه ميمي مصادفة، في مساء يوم ذهبت فيه مع باتريسيا براون بحثاً عن السيارة للقيام بنزهة في مزارع الموز. ولأن السائق كان مريضاً، فقد كُلِّف هو بقيادة السيارة بهما، وتمكنت ميمي، أخيراً، من إشباع رغبتها في الجلوس إلى جانب المقود، لتراقب عن قرب أجهزة السياقة. وعلى عكس السائق الرسمي، عرض عليها ماوريسيو بابيلونيا إمكانية التجربة عملياً. كان ذلك في الفترة التي بدأت فيها ميمي بالتردد على بيت السيد براون، وكانت قيادة السيارات لا تزال تعتبر أمراً غير لائق للنساء. ولهذا اكتفت بالمعلومات النظرية، ولم تعد لرؤية ماوريسيو بابيلونيا طوال عدة أشهر. وفيما بعد، ستتذكر أن جماله الرجولي، باستثناء خشونة يديه، قد لفت انتباهها خلال النزهة، ولكنها تحدثت بعد ذلك مع باتريسيا براون، عن الإزعاج الذي سببته لها ثقته بنفسه المتغطرسة بعض الشيء. وفي أول سبت ذهبت فيه مع أبيها إلى السينما، عادت لرؤية ماوريسيو بابيلونيا بثيابه الكتانية النظيفة،

جالساً على مقربة منهما. وقد لاحظت أنه لا يهتم بمتابعة الفيلم، كي يلتفت ناظراً إليها، ليس لرويتها بقدر ما هو لإشعارها بأنه ينظر إليها. وقد تضايقت ميمي من فجاجة ذلك الأسلوب. وفي النهاية، تقدم ماوريسيو بابيلونيا لمصافحة أوريليانو الثاني؛ عندئذ فقط، عرفت ميمي أن هناك معرفة سابقة بينهما، لأنه كان قد عمل في محطة توليد الكهرباء البدائية التي أقامها أوريليانو الحزين، وكان يتعامل مع أبيها معاملة المرؤوس لرئيسه. وقد خفف ذلك الإثبات من الاستياء الذي سببته لها عجرفته. لم يكونا قد تقابلا على انفراد، أو تبادلا كلمة واحدة غير التحية، حتى تلك الليلة التي حلمت فيها أنه ينقذها من الغرق، دون أن تشعر تجاهه بعرفان الجميل، بل بالسخط. لأن ذلك بدا لها كما لو أنها منحته فرصة يتمناها، بينما ميمي تتلهف إلى عكس ذلك، ليس مع ماوريسيو بابيلونيا وحده، وإنما مع أي رجل آخر يبدي اهتماماً بها. ولهذا، أحست بحنق شديد بعد الحلم، لأنها بدل أن تزداد مقتاً له، صار يراودها تعجل لا يُقاوم لرؤيته. وازدادت لهفتها زخماً في سياق ذلك الأسبوع، فكانت في يوم السبت طاغية إلى حد اضطرتها إلى بذل جهد كبير، كيلا يلحظ ماوريسيو بابيلونيا، حين حياها في السينما، أن قلبها يكاد يخرج من فمها. وبينما هي تختنق بإحساس مختلط من المتعة والسخط، مدت إليه يدها أول مرة، وعندئذ فقط سمح ماوريسيو بابيلونيا لنفسه بالشدّ عليها. وتمكنت ميمي، خلال جزء من الثانية، من الندم لاندفاعها، ولكن الندم تحول على الفور إلى رضى قاس، عندما تبينت أن يده أيضاً، كانت متعرقة وباردة. وفي تلك الليلة، أدركت أنها لن تعرف لحظة واحدة من الراحة، ما لم تبيّن لماوريسيو بابيلونيا عدم جدوى

تطلعاته، وأمضت الأسبوع وهي تتقلب حول تلك اللهفة. لجأت إلى كل أنواع الحيل، دون جدوى، كي تأخذها باتريسيا براون لإحضار السيارة. وأخيراً، استعانت بالأمريكي الشمالي ذي الشعر الأحمر، وكان قد جاء في تلك الأيام لقضاء عطلته في ماكوندو. وبحجة أنها تريد التعرف إلى موديلات السيارات الجديدة، جعلته يأخذها إلى الورش. ومنذ اللحظة التي رأته فيها، توقفت ميمي عن خداع نفسها، وأدركت أن ما يحدث في الواقع، هو أنها لم تعد قادرة على مقاومة الرغبة في تكون على انفراد مع ماوريسيو بابيلونيا، وأغاظها يقينها من أنه أدرك ذلك مذ رآها قادمة.

- جئتُ لأرى الموديلات الجديدة - قالت ميمي.

فقال:

- إنها ذريعة جيدة.

ولاحظت ميمي أنها تحترق في نار كبريائه، فبحثت بيأس عن طريقة لإذلاله. ولكنه لم يمنحها الوقت لذلك. فقد قال لها بصوت خافت: «لا تخافي. فليست هذه هي المرة الأولى التي تجنّ فيها امرأة برجل». أحست بالخذلان إلى حدّ غادرت معه الورشة دون أن ترى موديلات السيارات الجديدة، وأمضت الليلة من أقصاها إلى أقصاها، وهي تتقلب في فراشها، وتبكي من الغضب. بدا لها الأمريكي الشمالي أحمر الشعر، وكانت قد بدأت تهتم به في الواقع؛ أنه طفل في أقمطة. وكان أن انتبهت عندئذ إلى الفراشات الصفراء التي تسبق ظهور ماوريسيو بابيلونيا. لقد رأتها من قبل، وخاصة في ورشة إصلاح السيارات، وظنت أن ما يجتذبها هي رائحة الدهان. وقد أحست بها تحوم حول رأسها في عتمة السينما. ولكنها عندما بدأ ماوريسيو بابيلونيا يلاحقها، كشبح، لا

يتبينه أحد غيرها في الزحام، أدركت أن للفراشات الصفراء علاقة ما به. كان ماوريسيو بابيلونيا حاضراً، على الدوام، بين جمهور الحفلات الموسيقية، وفي السينما، وفي قداس الأحد. ولم تكن بحاجة لأن تراه كي تكتشف وجوده، لأن الفراشات كانت تدل عليه. وفي إحدى المرات، تضايق أوريليانو الثاني كثيراً من خفق الأجنحة الخانق، حتى أنها أحست برغبة مفاجئة في الإفضاء له بسرها، كما وعدته. لكن غريزتها أوحت لها بأنه لن يضحك هذه المرة، كعادته، ويقول: «لو أن أمك علمت بذلك». وذات صباح، بينما هي وأمها تقلمان شجيرات الورد، صاحت فرناندا مذعورة، وأبعدت ميمي عن المكان الذي تقف فيه، لأنه المكان نفسه من الحديقة الذي صعدت منه ريميديوس الجميلة إلى السماء. لقد أحست للحظة، أن المعجزة ستتكرر مع ابنتها، لأن خفق أجنحة مفاجئ أقلقها. وكان خفق أجنحة الفراشات. لقد رأتها ميمي، كما لو أنها تولد فجأة من النور، فطفر قلبها. وفي تلك اللحظة، دخل ماوريسيو بابيلونيا حاملاً علبة، قال إنها هدية من باتريسيا براون. ابتلعت ميمي تورد وجهها، وأخفت اضطرابها، بل وتمكنت من إبداء ابتسامة طبيعية، كي تطلب منه أن يضع العلبة على الحاجز، لأن أصابعها متسخة بالتراب. والشيء الوحيد الذي لاحظته فرناندا في الرجل الذي ستطرده بعد شهور من البيت، دون أن تتذكر أنها رأته يوماً، هو صفرة نسيج بشرته.

- إنه رجل غريب جداً - قالت فرناندا - يبدو على وجهه أنه سيموت.

ظنت ميمي أن أمها قد تأثرت بالفراشات. وعندما فرغتا من تقليم شجيرات الورد، غسلت يديها، وحملت العلبة إلى غرفة

نومها لتفتحها. كانت نوعاً من اللعب الصينية، مؤلفة من خمس علب، في كل واحدة توجد علبة أخرى أصغر منها. وفي العلبة الأخيرة، بطاقة مكتوبة بخط شخص يكاد لا يعرف الكتابة، تقول: *سنلتقي يوم السبت في السينما*. أحست ميمي بذهول متأخر، لأن العلبة ظلت وقتاً طويلاً على الحاجز، في متناول فضول فرناندا، ومع أنها أعجبت بجرأة ماوريسيو بابيلونيا وذكائه، إلا أنها أشفقت على سذاجته إذ يتوقع أنها ستوافيه إلى الموعد. كانت ميمي تعرف، منذ ذلك الحين، أن لدى أوريليانو الثاني التزامات عمل ليلة السبت. ومع ذلك، فقد أحرقتها نار اللهفة طوال الأسبوع، حتى أنها أقنعت أباها بأن يتركها وحدها في السينما، ويعود لأخذها عند انتهاء العرض. حوّمت فراشة ليلية فوق رأسها حين كانت الأنوار مضاءة. وعندئذ حدث ما هو منتظر. فعندما أُطفئت الأنوار، جلس ماوريسيو بابيلونيا بجانبها. وأحست ميمي بأنها تتخبط في مخاضة من القلق، لا يمكن لأحد أن ينقذها منها، مثلما حدث في الحلم، إلا ذلك الرجل العابق برائحة زيت المحركات، والذي تكاد لا تتبينه في الظلام. قال لها:

- لو لم تأتِ، لما رأيتني بعد مطلقاً.

أحست ميمي بثقل يده على ركبتها، وعرفت أنهما يصلان كلاهما، في تلك اللحظة، إلى الجانب الآخر من الخذلان. فقالت مبتسمة:

- ما يصدمني فيك هو أنك تقول دائماً ما لا ينبغي قوله.

صارت مجنونة به. فقدت الرغبة في النوم والشهية، وغرقت عميقاً في العزلة، حتى إن أباها صار يزعجها. اختلقت شبكة معقدة من المواعيد الزائفة لتضلل فرناندا، ولم تعد تلتقي

صديقاتها، وتجاوزت كل التقاليد من أجل أن تلتقي بماوريسيو بابيلونيا في أي وقت وأي مكان. كانت تتضايق، في البدء، من خشونته. ففي المرة الأولى التي التقيا فيها على انفراد، في المروج المقفرة وراء ورشة إصلاح السيارات، جرجرها بلا رحمة إلى حال بهيمية، خلفتها مستنفدة القوى. وقد احتاجت لبعض الوقت كي تدرك أن تلك المعاملة أيضاً، هي نوع من الحنان، فكان أن فقدت، منذ ذلك الحين، الطمأنينة؛ ولم تعد تعيش إلا من أجله، مشوشة باللهفة للغرق في خدر رائحة زيوته المغسولة بماء الصودا. وقبل قليل من موت آمارانتا، اصطدمت فجأة ببقعة صحو وسط الجنون، وارتجفت حيال شكوكها بالمستقبل. عندئذ سمعت عن امرأة تتنبأ بورق اللعب، فذهبت لزيارتها سراً. وكانت المرأة هي بيلار تيرنيرا. منذ رأتها هذه تدخل، عرفت دوافع ميمي الخفية. «اجلسي»، قالت لها، ثم تابعت: «لست بحاجة إلى الورق كي أستشرف مستقبل شخص من آل بوينديا». كانت ميمي تجهل، وستبقى تجهل إلى الأبد، أن تلك العرافة المئوية، ما هي إلا جدة أبيها. وما كانت لتصدق ذلك، بعد الواقعية الفظة التي كشفت لها بها، عن أن جزع العشق لا يمكن الراحة منه إلا في الفراش. وكان هذا هو نفسه رأي ماوريسيو بابيلونيا، ولكن ميمي رفضت تصديقه، وكانت تفترض في أعماقها، أن رأيه مستوحى من وجهة نظر صنائعي خبيثة. وكانت تعتقد آنذاك أن الحب بهذه الطريقة، يهزم حب الطريقة الأخرى، لأن من طبع الرجال ازدراء الجوع بعد إشباع شهيتهم. ولم تصحح بيلار تيرنيرا ذلك الخطأ فقط، بل عرضت عليها سريرها العتيق، حيث حبلت هي نفسها بأركاديو، جد ميمي، ثم حبلت بعد ذلك بأوريليانو خوسيه. وعلمتها كذلك

كيف تتفادى الحمل غير المرغوب فيه، بتبخير لبخات من عجينة الخردل، وأعطتها وصفات أشربة يمكن لها في الحالات الطارئة، أن تطرد «حتى الندم وتأنيب الضمير». وقد بثت تلك المقابلة في ميمي، الشعور بالشجاعة نفسه الذي عرفته يوم سكرتها. ومع ذلك، فقد أجبرها موت آمارانتا على تأجيل قرارها. وخلال ليالي السهر المأتمي التسع، لم تبتعد لحظة واحدة عن ماوريسيو بابيلونيا المختلط بالجموع التي اجتاحت البيت. وجاء بعد ذلك الحداد الطويل، والحبس الإجباري، فافترقا لبعض الوقت. كانت أيام هيجان داخلي كبير، ولهفة شديدة لا يمكن كبحها، وأشواق كبيرة مكبوتة، حتى إن ميمي، في أول مساء تمكنت من الخروج فيه، ذهبت مباشرة إلى بيت بيلار تيرنيرا. وأسلمت نفسها لماوريسيو بابيلونيا بلا مقاومة، وبلا حياء، وبلا شكليات، وبميل متدفق، وبديهة خبيرة، إلى حد يمكن معه لرجل أكثر وسوسة من رجلها، أن يظنها حصيلة خبرة صافية. واصلا ممارسة الحب مرتين في الأسبوع، على امتداد أكثر من ثلاثة أشهر، يحميهما تواطؤ أوريليانو الثاني البريء، الذي كان يثق دون خبث ببراءة مشاوير ابنته، لمجرد أن يراها متحررة من صرامة أمها.

ليلة فاجأتهما فيرناندا في السينما، أحس أوريليانو الثاني أنه مثقل بعبء الضمير، فذهب إلى ميمي في غرفة نومها، حيث حبستها فرناندا، موقناً من أنها ستفرج له عن نفسها، وتبوح بالسر الذي تدين به إليه. لكن ميمي أنكرت كل شيء. كانت واثقة من نفسها، متمسكة بوحدتها، إلى حد شعر معه أوريليانو الثاني أنه ليست هناك أي رابطة بينهما، وأن الصداقة والتواطؤ لم يكونا إلا وهماً من الماضي. فكر في التحدث إلى ماوريسيو بابيلونيا في

الأمر، معتقداً أنه يمكن لسلطته، كرب عمل سابق، أن تثنيه عن نواياه. لكن بيترا كوتيس أقنعته بأن الأمر من شؤون النساء. وهكذا، ظل يطفو في جو من التردد، يكاد لا يحفظ تماسكه سوى الأمل بأن يضع الحبس حداً لمحنة ابنته.

لم تُبد ميمي أي نوع من الحزن. بل على العكس تماماً، فمن الحجرة المجاورة، أحست أورسولا بإيقاع نومها الهادئ، وحركتها المطمئنة وهي تقوم بأعمالها، وانتظام أكلها، وحسن هضمها. والشيء الوحيد الذي حير أورسولا، بعد ما يقارب شهرين من العقاب، هو أن ميمي لم تعد تستحم في الصباح، مثلما يفعل الجميع، وإنما في السابعة مساء. وفكرت مرة في أن تحذرها من العقارب، ولكن ميمي كانت شديدة التهرب منها، لاقتناعها بأنها هي من وشت بها. ففضلت عدم إزعاجها بسفاهات جدة جدها. كانت الفراشات الصفراء تغزو البيت منذ الغروب. وفي كل ليلة، لدى عودتها من الحمام، كانت ميمي تجد فرناندا منهمكة، بيأس، في قتل الفراشات بمضخة مبيد للحشرات، وهي تقول: «إنها نكبة. فطوال عمري كان يقال لي إن الفراشات الليلة تجلب سوء الطالع». وفي إحدى الليالي، بينما ميمي في الحمام، دخلت فرناندا إلى غرفتها مصادفة، فكانت هناك أعداد كبير من الفراش، يكاد لا يكون التنفس معها ممكناً. تناولت خرقة لتطردها، فتجمد قلبها هلعاً حين ربطت بين استحمام ابنتها الليلة ولبخات الخردل التي تدحرجت أمامها على الأرض. لم تنتظر فرصة مناسبة، مثلما فعلت في المرة الأولى. ففي اليوم التالي، دعت العمدة الجديد إلى الغداء، وكان آتياً من المرتفعات مثلها، وطلبت منه أن يفرض حراسة ليلية على الفناء الخلفي، لأنها

تشعر أن هناك من يسرق لها الدجاج. في تلك الليلة، أسقط الحراس ماوريسيو بابيلونيا، وهو ينتزع القرميد كي يدخل إلى الحمام، حيث كانت ميمي تنتظره، عارية ومرتجفة حباً، بين العقارب والفراشات، مثلما كانت تفعل كل ليلة في الشهور الأخيرة. الرصاصة التي أصابت عموده الفقري، أقعدته طريح الفراش طوال ما تبقى من حياته. وقد مات في عزلته، بعد أن شاخ وتقدمت به السن، دون أي أنين أو أي اعتراض، ودون أدنى محاولة خيانة، معذباً بالذكريات وبالفراشات الصفراء التي لم تمنحه لحظة أمن واحدة، ومنبوذاً من الجميع باعتباره سارق دجاج.

الأحداث التي ستوجه الضربة القاصمة إلى ماكوندو، بدأت تُلمح عندما جيء إلى البيت بابن ميمي بوينديا. كان الوضع العام قلقاً آنذاك وغير واضح، إلى حد لم يكن معه هناك من لديه روح مستعدة للاهتمام بالفضائح الخاصة. وهكذا، اعتمدت فرناندا على جو ملائم، لإبقاء الطفل مخبأ كما لو أنه لم يوجد قطّ. كان عليها أن تتقبله، لأن الظروف التي جاؤوها به لا تتيح إمكانية رفضه. وكان عليها أن تتحمله، خلافاً لإرادتها، طوال ما تبقى من عمرها، لأنها عندما حانت ساعة الحقيقة، افتقرت إلى الشجاعة، لتنفيذ قرارها بإغراقه في حوض الحمام. حبسته في مشغل الكولونيل أوريليانو بوينديا القديم. ونجحت في إقناع صوفيا قديسة الرحمة بأنها وجدته طافياً، في سلة، على سطح الماء. وستموت أورسولا دون أن تعرف أصله. أما آمارانتا أورسولا الصغيرة التي دخلت ذات يوم إلى المشغل، بينما فرناندا تطعم الطفل، فصدقت أيضاً رواية السلة العائمة. وكان أوريليانو الثاني قد ابتعد عن زوجته، نهائياً، بسبب الطريقة غير العقلانية التي عالجت بها مأساة ميمي، وفلم يعلم بأمر حفيده إلا بعد ثلاث سنوات من إحضاره إلى البيت، عندما هرب الطفل من محبسه، بسبب سهو فرناندا، وأطل على الردهة، خلال جزء من الثانية، عارياً ومشعث الشعر، وبعضو ذكري مثل عرف ديك رومي؛ كأنه

ليس مخلوقاً بشرياً، وإنما رسم توضيحي لآكل لحوم بشر في موسوعة علمية.

لم تحسب فرناندا حساباً لمثل تلك المزحة القذرة من قدرها الفاسد. فكان الطفل أشبه بعودة عار ظنت أنها استبعدته نهائياً من البيت. فما إن حُمِل ماوريسيو بابيلونيا بعموده الفقري المكسور، حتى كانت فرناندا قد وضعت تصوراً لأدق تفاصيل خطتها المكرسة لمحو أي أثر للعار. ودون أن تناقش الأمر مع زوجها، أعدت في اليوم التالي أمتعتها، ودست في حقيبة صغيرة ثلاثة غيارات قد تحتاجها ابنتها، وذهبت بحثاً عنها في حجرتها، قبل نصف ساعة من موعد القطار.

- هيا بنا يا ريناتا - قالت لها.

ولم تقدم لها أي توضيح. ولم تكن ميمي، من جهتها، تنتظر التوضيح أو ترغب فيه. فهي لم تكن تجهل إلى أين ستذهبان وحسب، بل لم يكن لديها فرق في أن تؤخذ إلى المسلخ. لم تعد تتكلم، ولن تفعل ذلك طوال ما تبقى من حياتها، منذ أن سمعت صوت الرصاصة في الفناء الخلفي، وصرخة الألم التالية التي أطلقها ماوريسيو بابيلونيا. وعندما أمرتها أمها بالخروج من غرفة نومها، لم تسرّح شعرها، ولم تغسل وجهها، وصعدت إلى القطار كالمنومة، دون أن تنتبه حتى إلى أن الفراشات الصفراء ما زالت ترافقها. ولم تدر فرناندا قط، ولم تتكلف عناء تقصي إذا ما كان صمت ابنتها نتيجة قرار اتخذته بإرادتها، أم أنها أصيبت بالبكم من صدمة المأساة. لم تكد ميمي تنتبه إلى الرحلة عبر المنطقة المسحورة. فلم ترَ مزارع الموز الظليلة وغير المتناهية على جانبي الخط الحديدي. ولم تر بيوت الغرينغيين البيضاء، ولا حدائقهم

التي أجدبها الغبار والحر، ولا النساء اللواتي يرتدين بناطيل قصيرة، وقمصاناً مخططة بالأزرق، ويلعبن الورق عند الأبواب. ولم تر عربات الجواميس المحملة بأقراط الموز على الدروب المعفرة. ولم تر الصبايا اللواتي يقفزن مثل أسماك شابل في الأنهار الشفافة، ليخلّفن في ركاب القطار مرارة نهودهن البديعة، ولا براكات العمال المبرقشة والبائسة، حيث تتطاير فراشات ماوريسيو بابيلونيا، وعند أبوابها أطفال خضر ضامرون، يجلسون على مباولهم؛ والنساء الحوامل اللواتي يصرخن ببذاءات لدى مرور القطار. تلك الرؤيا العابرة التي كانت احتفالاً بالنسبة لها، عند عودتها من المدرسة، مرت بقلب ميمي الآن دون أن تهزه. بل إنها لم تلق نظرة عبر النافذة، حتى بعد انتهاء رطوبة مزارع الموز الملتهبة، ومرّ القطار في سهوب شقائق النعمان، حيث لا يزال موجوداً هيكل السفينة الشراعية الإسبانية المتفحم، ثم خرج بعد ذلك إلى الهواء الصافي نفسه، والبحر المزبد والمتسخ نفسه، حيث أخفقت، قبل نحو قرن من الزمان، أوهام خوسيه أركاديو بويندا.

في الساعة الخامسة مساء، عندما وصلتا إلى المحطة الأخيرة في منطقة المستنقعات، نزلت ميمي من القطار، لأن فرناندا فعلت ذلك. صعدتا إلى عربة صغيرة تشبه خفاشاً ضخماً، يجرها حصان مريض مصاب بالربو، واجتازتا المدينة المقفرة، التي تصدح في شوارعها اللامتناهية والمشققة بملح البارود، تمرينات عزف على البيانو، مثل تلك التي كانت تسمعها فرناندا، في قيلولات صباها. ثم أبحرتا في سفينة نهرية، تُصدر عجلتها الخشبية الكبيرة ضجة انفجار، وصفائحها الحديدية المتآكلة بالصدأ ترتد مثل فم فرن. أنزوت ميمي في القمرة. وكانت فرناندا تضع لها

طبق طعام، مرتين في اليوم، إلى جوار سريرها، وتأخذ الأطباق، مرتين في اليوم، دون أن تُمس؛ ليس لأن ميمي قررت الموت جوعاً، وإنما لأنها كانت تشمئز من مجرد شم رائحة الأطعمة، وكانت معدتها تلفظ حتى الماء. لم تكن هي نفسها تعلم، آنذاك، أن خصوبتها قد قهرت أبخرة الخردل، كما أن فرناندا لم تعرف ذلك إلا بعد عام تقريباً، حين جاؤوها بالطفل. أضاعت ميمي حساب الأيام في جو القمرة الخانق، لتشوشها من اهتزاز الجدران المعدنية، ومن رائحة الطين التي لا تطاق عندما تُقَلِّبه عجلة السفينة. وكان قد مضى زمن طويل حين رأت آخر فراشة صفراء تتفتت على أذرع المروحة، وتقبلت، كحقيقة واقعة مؤكدة، أن ماوريسيو بابيلونيا قد مات. ومع ذلك، لم تسمح للاستسلام بأن يهزمها. فقد واصلت التفكير فيه خلال الرحلة على متن بغلة، عبر السهوب الهذيانية التي ضاع فيها أوريليانو الثاني، وهو يبحث عن أجمل امرأة ظهرت على وجه الأرض، وعندما ارتقتا الجبال عبر دروب الهنود، وحين دخلتا المدينة الكئيبة التي يتردّد في أزقتها الحجرية دوي النواقيس النحاسية المأتمية من اثنتين وثلاثين كنيسة. نامتا تلك الليلة في البيت الكولونيالي المهجور، على ألواح خشبية وضعتها فرناندا على أرضية حجرة اجتاحتها أجمة نباتات برية، وتدثرتا بمزق ستائر انتزعتاها عن النوافذ، كانت تتفتت مع كل تقلب من جسميهما. عرفت ميمي أين هما، لأنها في رعب أرقها، رأت مرور ذلك السيد الذي يرتدي السواد، والذي جيء به إلى البيت، عشية أعياد الميلاد، في صندوق من الرصاص. وفي اليوم التالي، بعد القداس، اقتادتها فرناندا إلى بناء قاتم، عرفت ميمي على الفور، من الذكريات التي اعتادت أمها

استحضارها، أنه الدير الذي تربت فيه أمها وتعلمت لتكون ملكة. وعندئذ أدركت أنها وصلت إلى نهاية الرحلة. وبينما كانت فرناندا تتبادل الحديث مع أحدهم في المكتب المجاور، ظلت هي في قاعة شطرنجية، فيها لوحات زيتية كبيرة لأساقفة من العهد الاستعماري. وكانت ترتجف من البرد، لأنها لا تزال تلبس ثوباً قطنياً خفيفاً، مزيناً بأزهار صغيرة سوداء، وتنتعل الجزمة القاسية التي صلّبتها ثلوج المرتفعات. كانت تقف في منتصف القاعة، وهي تفكر بماوريسيو بابيلونيا، تحت دفقة النور الأصفر الآتية من زجاج النوافذ الملون، عندما خرجت من المكتب راهبة مستجدة باهرة الجمال، حاملة حقيبتها الصغيرة التي تضم غيارات ملابسها الثلاثة. وحين مرت بجوار ميمي، مدت لها يدها دون أن تتوقف. قائلة لها:

- هيا بنا يا ريناتا.

أمسكت ميمي بيدها، وأسلمت لها قيادها. المرة الأخيرة التي رأتها فيها فرناندا، كانت تحاول ضبط خطواتها مع خطوات الراهبة المستجدة، وكان قد أُغلق وراءها باب محبس الدير الحديدي. وكانت لا تزال تفكر بماوريسيو بابيلونيا، برائحته المفعمة بالزيت، وبأجواء الفراشات التي تحيط به، وستواصل التفكير فيه كل أيام حياتها، حتى فجر اليوم الخريفي النائي الذي ستموت فيه من الشيخوخة، باسمها المتبدل، ودون أن تقول كلمة واحدة، في مشفى قاتم في كراكوفيا.

عادت فرناندا إلى ماكوندو في قطار يحرسه رجال شرطة مسلحون. ولاحظت خلال الرحلة توتر المسافرين، والاستعدادات العسكرية في قرى الخط الحديدي، والجوّ المخلخل بيقين أن شيئاً

خطيراً سيحدث، ولكنها ظلت تفتقر إلى المعلومات حتى وصلت إلى ماكوندو، وأخبروها بأن خوسيه أركاديو الثاني يحرض عمال شركة الموز على الإضراب. فقالت فرناندا لنفسها: «هذا آخر ما كان ينقصنا. فوضوي في العائلة». اندلع الإضراب بعد أسبوعين، ولم يتمخض عن النتائج الدراماتيكية التي كان يُخشى وقوعها. كان العمال يتطلعون إلى عدم إرغامهم على قطف الموز وشحنه في أيام الآحاد، وبدا مطلبهم عادلاً، حتى إن الأب أنطونيو إيزابيل تدخل للدفاع عنه، لأنه وجده متوافقاً مع شريعة الرب. نجاح التحرك، ثم تحركات أخرى في الشهور التالية، أخرج خوسيه أركاديو الثاني الباهت من الغفلة، بعد أن كان يقال عنه إنه لم يفعل شيئاً سوى ملء القرية بالعاهرات الفرنسيات. وبالتصميم المندفع نفسه الذي اتخذ به قرار بيع ديكة الصراع، لتأسيس شركة ملاحة خرقاء، تخلى عن موقعه كرئيس فريق عمل في شركة الموز، ووقف إلى جانب العمال. وسرعان ما اتهم بأنه عميل لإحدى المؤامرات العالمية ضد النظام العام. وفي إحدى الليالي، خلال أسبوع مظلم بالشائعات القاتمة، نجا بمعجزة من أربع رصاصات مسدس، أطلقها عليه مجهول، عند خروجه من اجتماع سري. كانت الأجواء بالغة التوتر في الأشهر التالية، حتى إن أورسولا أحست بذلك، في ركنها المظلم، وراودها شعور بأنها تعيش مجدداً، أزمنة المخاطر التي كان ابنها أوريليانو يحمل فيها أقراص دواء الثورة في جيوبه. وحاولت أن تحدث خوسيه أركاديو الثاني، لتُطلعه على تلك السابقة، ولكن أوريليانو الثاني أخبرها بأن أحداً لم يعد يعرف مكانه منذ ليلة محاولة اغتياله. فهتفت أورسولا:

- مثل أوريليانو بالضبط. يبدو كما لو أن العالم يدور حول

نفسه.

ظلت فرناندا غير عابئة بقلق تلك الأيام. تفتقد الاتصالات بالعالم الخارجي، بعد شجارها العنيف مع زوجها، لأنها قررت مصير ميمي دون موافقته. وكان أوريليانو الثاني مصمماً على إنقاذ ابنته، والاستعانة بالشرطة إذا اقتضى الأمر؛ لكن فرناندا أرته أوراقاً تثبت أن ميمي دخلت محبس الدير بإرادتها الخاصة. وبالفعل، فقد وقَّعت ميمي تلك الأوراق بعد أن صارت في الجانب الآخر من البوابة الحديدية، وفعلت ذلك بعدم المبالاة نفسها التي انقادت بها. لم يقتنع أوريليانو الثاني، في أعماقه، بشرعية تلك الأدلة، مثلما لم يقتنع بأن ماوريسيو بابيلونيا قد دخل فناء البيت لسرقة الدجاج، لكن الحجتين أفادتاه في طمأنة ضميره. واستطاع عندئذ أن يرجع، دون تأنيب ضمير، إلى ظل بيترا كوتيس، حيث استأنف حفلاته الصاخبة وولائمه الهائلة. أما فرناندا التي كانت غريبة عن مخاوف القرية، وتصم أذنيها عن تنبؤات أورسولا الرهيبة، فقد وضعت اللمسة الأخيرة على مخططها الناجز. كتبت رسالة مطولة إلى ابنها خوسيه أركاديو، وكان على وشك تلقي المرتبة الدينية الصغرى، أخبرته فيها أن أخته ريناتا قد توفيت في سلام الرب، نتيجة إصابتها بالقيء الأسود. ثم وضعت ابنتها الصغيرة آمارانتا اورسولا في رعاية صوفيا قديسة الرحمة، وعكفت على تنظم مراسلاتها مع الأطباء غير المرئيين، بعد اضطراب تلك المراسلات بسبب حادثة ميمي.

وكان أول ما قامت به هو تحديد موعد نهائي للمداخلة الجراحية التخاطرية التي أُجلت طويلاً. ولكن الأطباء غير المرئيين ردّوا عليها بأن ذلك غير مأمون العواقب، مادام جو الاضطراب

الشعبي مخيماً على ماكوندو. وكانت هي متعجلة، وغير مطلعة على ما يجري، فأوضحت لهم في رسالة أخرى أنه لا وجود لذلك الجو المضطرب، وأن الأمر كله نتيجة جنون أخي زوجها، الممسوس في هذه الأيام بنزوة نقابية، مثلما أصيب في أزمنة أخرى، بهوس صراع الديوك، والملاحة. ولم يكونوا قد توصلوا إلى اتفاق، حتى يوم الأربعاء الحار الذي طرقت فيه الباب راهبة، تحمل سلة معلقة بذراعها. وقد ظنت صوفيا قديسة الرحمة، حين فتحت لها، أنها تحمل هدية، وحاولت أن تأخذ منها السلة المغطاة بغطاء من الدانتيلا المشغولة بدقة. لكن الراهبة صدتها، لأن لديها تعليمات بتسليمها شخصياً، وبأقصى تكتم، إلى دونيا فرناندا دِل كاربيو دي بوينديا. كان ذلك هو ابن ميمي. وقد أوضح مدير فرناندا الروحي القديم في رسالة لها، بأن الطفل قد ولد قبل شهرين، وأنهم سمحوا لأنفسهم بتعميده باسم أوريليانو، مثل جده، لأن أم الطفل لم تنبس ببنت شفة للإعراب عن رغبتها في تسميته. ثارت فرناندا، في أعماقها، من سخرية القدر تلك، ولكنها وجدت القوة لمواراة غضبها أمام الراهبة. وقالت مبتسمة:

- سنقول إننا وجدناه طافياً في السلة.

- لن يصدق ذلك أحد - قالت الراهبة.

فردت فرناندا:

- إذا كانوا قد صدقوا الكتابات المقدسة، فلا أجد ما يمنعهم من تصديقي.

تناولت الراهبة الغداء في البيت، ريثما يمر قطار العودة، وعملاً بالتكتم الذي أُمرت به، لم تعد تأتي على ذكر الطفل في حديثها، لكن فرناندا رأت فيها شاهداً غير مرغوب فيه على

عارها، وتأسفت لزوال عادة القرون الوسطى، القاضية بشنق الرسول الذي يحمل أخباراً سيئة. وكان أن صممت، حينئذ، على أن تُغرق الطفل في الحوض، فور رحيل الراهبة. لكن قلبها لم يطاوعها إلى ذلك الحد، وآثرت الانتظار بصبر، لعل رحمة الرب غير المتناهية تنقذها من ذلك العبء.

كان أوريليانو الجديد قد أكمل السنة، عندما اندلع التوتر العام دون سابق إنذار. وكان خوسيه أركاديو الثاني وغيره من القادة النقابيين الذين عملوا، حتى ذلك الحين، في السرية، قد ظهروا فجأة في نهاية الأسبوع، وحركوا مظاهرات في قرى منطقة الموز. واكتفت الشرطة بحفظ النظام. ولكن أولئك القادة أُخرجوا من بيوتهم، في ليلة الاثنين، وأُرسلوا بأغلال تزن خمسة كيلو غرامات في أقدامهم، إلى سجن عاصمة المقاطعة. وكان بينهم خوسيه أركاديو الثاني، ولورينثو غافيلان، وهو كولونيل شارك في الثورة المكسيكية، ومنفي في ماكوندو، يقول إنه كان شاهداً على بطولة رفيقه أرتيميو كروث. ومع ذلك، فقد أُطلق سراحهم قبل انقضاء ثلاثة أشهر، لأن الحكومة وشركة الموز، لم تتوصلا إلى اتفاق حول من الذي يتوجب عليه توفير الطعام لهم في السجن. كان احتجاج العمال يستند، هذه المرة، إلى عدم صحية أماكن السكن، وخدعة الخدمات الطبية، وجور ظروف العمل. وقد أكدوا، فوق ذلك، أن أجورهم لا تُدفع لهم نقداً، وإنما بقسائم لا تنفع إلا لشراء جامبون فرجينيا من مخازن الشركة. وقد سُجن خوسيه أركاديو الثاني لأنه كشف أن نظام القسائم ذاك، هو وسيلة من الشركة لتمويل سفنها التي تنقل الفواكة، لأنها لولا السلع التي تأتي بها إلى المخازن، لاضطرت إلى الرجوع فارغة من نيو أورليانز إلى مرافئ تحميل

الموز. أما الشكاوى الأخرى فكانت معروفة للجميع. فأطباء الشركة لا يفحصون المرضى، وإنما يوقفونهم في صف طويل أمام المستوصفات، وتضع ممرضة على ألسنتهم قرص دواء بلون الزمرد. سواء أكانوا مصابين بالملاريا، أم السيلان، أم الإمساك. وكانت هذه الطريقة في العلاج شائعة، حتى إن الأطفال كانوا يقفون في الصف، عدة مرات، وبدل أن يبتلعوا الأقراص، يأخذونها إلى بيوتهم لاستخدامها في التعلّيم على الأرقام الرابحة في لعبة اليانصيب. كان عمال الشركة يتكدسون في أكواخ بائسة. وكان المهندسون، بدلاً من بناء مراحيض، يُحضرون في أعياد الميلاد مرحاضاً متنقلاً لكل خمسين عاملاً، ويقدمون عروضاً عامة لكيفية استخدام تلك المراحيض، كي تخدم لفترة أطول. وكان المحامون الهرمون المتشحون بالسوداء، والذين كانوا يحاصرون، في أزمنة أخرى، الكولونيل أوريليانو بوينديا، وتحولوا إلى وكلاء لشركة الموز، يحبطون هذه الشكاوى بدعاوى تبدو كأعمال السحر. فعندما حرر العمال مذكرة بمطالبهم الإجماعية، مضى وقت طويل دون أن يتمكنوا من تبليغها رسمياً إلى شركة الموز. لأن السيد براون، فور علمه بالاتفاق، سارع إلى ربط عربته البلورية الفخمة بالقطار، واختفى من ماكوندو، ومعه أبرز ممثلي شركته. ومع ذلك، فقد وجد بعض العمال واحداً من مسؤولي الشركة، يوم السبت التالي، في ماخور، وأرغموه على توقيع نسخة من مذكرة مطالبهم، وهو عارٍ مع المرأة التي تواطأت لإيقاعه في المصيدة. لكن المحامين المحزنين أثبتوا في المحكمة، أن ذلك الرجل لا علاقة له بالشركة، وكيلا يخامر الشك أحداً بصحة حججهم، عملوا على سجنه بتهمة انتحال شخصية أخرى. وفيما بعد، جرت

مفاجأة السيد براون وهو يسافر متنكراً في إحدى عربات الدرجة الثالثة، وأُجبر على توقيع نسخة أخرى من مذكرة المطالب. وفي اليوم التالي، مثل أمام القضاة بشعر مصبوغ بالأسود، وهو يتكلم اللغة القشتالية دون عثرات. وأثبت المحامون أنه ليس السيد جاك براون، مدير شركة الموز، المولود في براتفيل بولاية ألاباما، وإنما هو بائع أعشاب طبية مسالم، مولود في ماكوندو، ومعمّد فيها باسم داغوبيرتو فونسيكا. وفيما بعد، حيال محاولة أخرى من العمال، عرض المحامون، في أماكن عامة، شهادة وفاة السيد براون، مصدقة من قناصل ووزراء، تؤكد أن سيارة إطفاء صدمته في شيكاغو، في التاسع من حزيران الماضي. ولضجرهم من ذلك الهذيان التفسيري، نبذ العمال سلطات ماكوندو، وتوجهوا بشكاويهم إلى المحاكم العليا. وهناك أثبت عباقرة القانون أن المطالب ليست لها أي قيمة، وذلك بكل بساطة، لأنه لم يكن لدى شركة الموز قط، ولن يكون لديها أبداً، عمال يعملون في خدمتها، وإنما كانت تستخدمهم عند الحاجة، وبصورة مؤقتة. وهكذا أُحبطت أكذوبة جامبون فرجينيا، وأقراص الدواء العجيبة، مراحيض أعياد الميلاد، وأُقر بحكم من المحكمة، وأُعلن في بلاغ رسمي، أنه لا وجود للعمال.

اندلع الإضراب العام. وتُركت الزراعة قبل إكمالها، وتعفنت الثمار على شجيراتها، وتوقفت قطارات المئة وعشرين عربة على الخطوط الفرعية. ملأ العمال العاطلون القرى. وتألق شارع الأتراك في سبت دامٍ أياماً طويلة، وكان لا بد من تنظيم ورديات للعب في قاعة البلياردو، في فندق جاكوب، على مدار أربع وعشرين ساعة. وهناك كان خوسيه أركاديو الثاني، يوم أُعلن أن

الجيش قد كُلّف بمهمة حفظ النظام العام. ومع أنه لم يكن رجل نبوءات، إلا أن الخبر كان بالنسبة إليه نذيراً بالموت الذي انتظره، منذ ذلك الصباح البعيد الذي أتاح له فيه العقيد خيرينليدو ماركيز، رؤية تنفيذ حكم بالإعدام. ومع ذلك، لم تنل نبوءة الشؤم من وقاره. قام بالضربة التي تصورها مسبقاً في لعبة البلياردو، ولم يخنه الحظ. وبعد قليل، أنبأه دويّ قرع الطبول، وعواء الأبواق، وصراخ الناس وازدحامهم، بأن الذي انتهى ليس لعبة البلياردو وحدها، وإنما كذلك اللعبة الصامتة المنفردة التي كان يلعبها مع نفسه منذ فجر تنفيذ الإعدام، قد انتهت أخيراً. عندئذ أطل على الشارع، ورآهم. كانوا ثلاثة أفواج، مشيتهم المنتظمة على إيقاع طبل سفينة تجديف، تهز الأرض. ولهاثهم الذي كأنفاس تنين متعدد الرؤوس، يملأ صفاء الظهيرة ببخار نتن. كانوا قصاراً، متينين، فظين. يتعرقون عرق خيول، ولهم رائحة لحم نتن عفنته الشمس، وصمت وتكتم رباطة جأش رجال السهب. ومع أن مرورهم استغرق أكثر من ساعة، إلا أنه كان يمكن التفكير أنهم ليسوا سوى بضع فصائل قليلة، تلتف في حركة دائرية، لأنهم متشابهون جميعهم حدّ التطابق، أبناء الأم نفسها، وجميعهم يتحملون بالبلادة نفسها ثقل جعبهم وزمزمياتهم، وعار بنادقهم التي تعلوها الحراب، ودُمَّل الطاعة العمياء ومعنى الشرف. سمعت أورسولا مرورهم من سرير ظلامها، فرفعت إصبعيها على شكل صليب. عادت صوفيا قديسة الرحمة إلى الوجود للحظة، وهي منحنية على شرشف مطرز أنهت كيه، وفكرت بابنها خوسيه أركاديو الثاني الذي رأى مرور آخر الجنود، دون أن يضطرب، عند باب فندق جاكوب.

قانون الأحكام العرفية يخول الجيش تولي مهام الحَكَم في الخلاف، ولكن لم تكن هناك أي محاولة للمصالحة. ففور انتهاء استعراضهم في ماكوندو، وضع الجنود بنادقهم جانباً، وراحوا يقطفون الموز ويُحَمِّلُونه، وحركوا القطارات. أما العمال الذين اكتفوا حتى ذلك الحين بالانتظار، فقد انطلقوا إلى الجبال، وليس معهم من سلاح سوى مناجل الماتشيتي التي يستخدمونها في العمل، وبدؤوا بأعمال التخريب. أحرقوا مزارع الشركة ومخازنها، وخربوا سكة الحديد ليمنعوا تنقل القطارات التي بدأت تشق طريقها بحماية نيران المدافع الرشاشة، وقطعوا أسلاك التلغراف والهاتف. اصطبغت السواقي بالدماء. وأُخرج السيد جاك براون، وكان حياً في حظيرة الدجاج المكهربة، من ماكوندو مع أسرته، وأسر مواطنيه الآخرين، ونُقلوا إلى منطقة آمنة تحت حماية الجيش. كان الوضع يهدد بالتحول إلى حرب أهلية غير متكافئة ودامية، عندما وجهت السلطات نداء إلى العمال للاجتماع في ماكوندو. وقد أعلن النداء، أن الحاكم المدني والعسكري للمقاطعة سيأتي يوم الجمعة القادم، للتوسط في النزاع.

كان خوسه أركاديو الثاني بين الحشود التي اجتمعت في المحطة، منذ صباح يوم الجمعة. وكان قد شارك في اجتماع للقادة النقابيين، وكُلِّف هو والعقيد غافيلان بالاختلاط بالحشود، وتوجيهها حسب تطور الظروف. لم يكن يشعر بأنه على ما يرام، وكان يحرك عجينة مالحة في حلقه، منذ أن انتبه إلى أن الجيش قد نصب أعشاش مدافع رشاشة حول الساحة الصغيرة، وأن مدينة شركة الموز المسيجة بالأسلاك، محمية بالمدافع. وفي حوالي الساعة الثانية، بانتظار قطار لن يأتي، كان هناك أكثر من ثلاثة

آلاف عامل وامرأة وطفل، يملؤون الحيز المكشوف أمام المحطة، ويتزاحمون في الشوارع المجاورة التي أغلقها الجيش بصفوف من المدافع الرشاشة. وكان ذلك يبدو عندئذ أكثر من استقبال، وأشبه بمهرجان مرح. فقد انتقلت أكشاك المأكولات المقلية والمشروبات من شارع الأتراك، وكان الناس يتحملون، بحماسة كبيرة، ضجر الانتظار والشمس الملتهبة. وقبل الساعة الثالثة بقليل، سرت الإشاعة بأن القطار الرسمي لن يصل حتى اليوم التالي. أطلق الجمهور المتعب زفرة قنوط. وعندئذ صعد ملازم من الجيش إلى سطح المحطة، حيث توجد أربعة أعشاش مدافع رشاشة موجهة إلى الحشد، وعُزف بوق الصمت. كانت هناك، إلى جانب خوسيه أركاديو الثاني، امرأة حافية، شديدة السمنة، معها طفلان في حوالي الرابعة والسابعة من عمرهما. حملت الصغير ورفعته عالياً، وطلبت من خوسيه أركاديو الثاني أن يرفع الآخر ليسمع ما سيقال. حمل خوسيه أركاديو الثاني الطفل على كتفيه. وبعد سنوات طويلة، سيظل هذا الطفل يروي، دون أن يصدقه أحد، أنه رأى الملازم يقرأ عبر نفير فونوغراف، البلاغ رقم ٤ الصادر عن الحاكم المدني والعسكري للمقاطعة. كان يحمل توقيع الجنرال كارلوس كورتيس بارغاس، وسكرتيره الرائد إنريكي غارسيا أيساثا، ويتألف من ثلاث مواد، في ثمانين كلمة، يعتبر المضربين *عصابة من المشاغبين* ويخول الجيش قتلهم بالرصاص.

بعد قراءة البلاغ، وسط صرخات احتجاج تبعث على الصمم، حلّ نقيب محل الملازم على سطح المحطة، وأشار بنفير الفونوغراف إلى أنه يريد التكلم. فعاد الحشد إلى الصمت.

- السيدات والسادة - قال النقيب بصوت خافت، بطيء، متعب

قليلاً:- لديكم خمس دقائق للانصراف.

طغى الصفير والصراخ المتجدد على صوت البوق الذي أعلن بدء المهلة. ولم يتحرك أحد.

- لقد انتهت الدقائق الخمس - قال النقيب باللهجة السابقة نفسها، وأضاف:- سأمنحكم دقيقة أخرى، ثم نطلق النار.

خوسيه أركاديو الثاني الذي كان يتعرق عرقاً بارداً، أنزل الطفل عن كتفيه، وسلمه للمرأة، فتلعثمت: «هؤلاء القوادون لن يتورعوا عن إطلاق النار». ولم يجد جوسيه أركاديو الثاني متسعاً من الوقت للكلام، لأنه تعرف، على الفور، على صوت العقيد غافيلان الأجش، يصرخ كأنه صدى لكلمات المرأة. ومنتشياً بالتوتر، وبعمق الصمت البديع، وموقناً فوق ذلك، بأنه ليس هناك ما يمكنه تحريك ذلك الحشد المخدر بسحر الموت، اشرأب خوسيه أركاديو الثاني فوق الرؤوس التي أمامه، ورفع صوته لأول مرة في حياته، وصرخ:

- قوادون! إننا نهدي إليكم الدقيقة المتبقية.

مع انتهاء صرخته، حدث شيء لم يسبب له الرعب، وإنما نوعاً من الهذيان. أصدر النقيب أمر إطلاق النار، واستجاب له أربعة عشر مربض مدفع رشاش على الفور. لكن كل شيء بدا أشبه بتمثيل مهزلة. كما لو أن المدافع الرشاشة محشوة بخدعة أو لعبة نارية، فقد كانت تُسمع فرقعتها اللاهثة، ويُرى بصاقها المتوهج، لكن لا يلمح أدنى ردّ فعل، فلا صوت، ولا حتى زفرة بين الحشود المتراصة التي تبدو كأنها قد تحجرت في مناعة آنية. وفجأة، مزقت السحر صرخة موت، انطلقت من أحد جوانب المحطة: «آي، يا أماه.» قوة مزلزلة، لهاث بركاني، قعقعة كارثة طبيعية، انفجرت

وسط الحشد بقوة انتشار خارقة. ولم يكد خوسيه أركاديو الثاني يجد الوقت لأكثر من حمل الطفل، بينما ابتلع الحشد المتدافع رعباً، الأم وطفلها الآخر.

بعد سنوات طويلة من ذلك، كان الطفل لا يزال يروي، بالرغم من أن الجيران ما زالوا يعتقدون أنه عجوز مختل، أن خوسيه أركاديو الثاني حمله فوق رأسه، وانقاد متجرجراً، في الهواء، كما لو أنه يطفو في تيار رعب الحشود، باتجاه شارع مجاور. موقع الطفل المتميز أتاح له أن يرى أن الجموع المندفعة، بدأت تصل إلى الناصية، وأن صف المدافع الرشاشة فتح النار. وصرخت عدة أصوات في الوقت نفسه:

- انبطحوا أرضاً! انبطحوا أرضاً.

كان من هم في الصفوف الأولى قد فعلوا ذلك، مكنوسين بزخات الرشاشات. أما الأحياء، وبدل أن ينبطحوا أرضاً، حاولوا العودة إلى الساحة الصغيرة، وعندئذ قام الرعب بضربة ذيل تنين، قذفتهم في موجة متراصة ارتطمت بموجة متراصة أخرى تتحرك في اتجاه معاكس، قذفت بها ضربة ذيل تنين أخرى من الشارع المقابل، حيث كانت الرشاشات تطلق نيرانها دون توقف أيضاً. كانوا محاصرين، يصرخون في دوامة عملاقة، راحت تتقلص شيئاً فشيئاً حول مركزها، لأن أطرافها كانت تُقطع منهجياً بصورة دائرية، مثل تقشير بصلة، بمقص الرشاشات المنهجي الذي لا يرتوي. رأى الطفل امرأة جاثية، وذراعاها متصالبتان، في بقعة خالية، محمية بصورة غامضة من الرصاص. وهناك وضعه خوسيه أركاديو الثاني، في اللحظة التي هوى فيها ووجهه مضرج بالدم، قبل أن يجتاح التزاحم العاتي البقعة الخالية، والمرأة

الجاثية، ونور سماء الجفاف العالية، والعالم العاهر الذي باعت فيه أورسولا إيغواران الكثير من حيوانات السكاكر الصغيرة.

عندما استفاق خوسيه أركاديو الثاني، كان مطروحاً على ظهره في الظلمة. وانتبه إلى أنه يمضي في قطار صامت وبلا نهاية، وأن شعره ملبد بالدم الجاف، وكل عظامه تؤلمه. أحس بنعاس لا يطاق. وكان مستعداً لأن ينام ساعات طويلة، بمنجى من الرعب والهول، اضطجع على الجنب الذي يؤلمه أقل، وعندئذ فقط، اكتشف أنه ينام فوق موتى. لم يكن في العربة مكان فارغ، باستثناء الممر الأوسط. لا بد أن ساعات عديدة قد انقضت على المذبحة، لأن الجثث كانت لها حرارة الجبس نفسها في الخريف، وقوامه نفسه كزبد متحجر. ومن وضعوا الجثث في العربة، كان لديهم الوقت لتنضيدها، بالترتيب والاتجاه نفسه الذي تنضد به أقراط الموز عند شحنها. وفي محاولة للهرب من الكابوس، جرجر خوسيه أركاديو الثاني نفسه من عربة إلى أخرى، في الاتجاه الذي يتقدم به القطار. وعلى الومضات التي تنفذ من بين العوارض الخشبية، لدى المرور في القرى الهاجعة، كان يرى الرجال الموتى والنساء الموتى، والأطفال الموتى الذين سيُلقى بهم إلى البحر مثل الموز الكاسد. لم يتعرف بينهم إلا على امرأة كانت تبيع المرطبات في الساحة، وعلى العقيد غافيلان، وكان لا يزال يلف على يده الحزام ذا الإبزيم المصنوع من فضة موريّا، والذي حاول أن يشق به طريقاً عبر الهلع. عندما وصل إلى العربة الأولى، قفز في الظلام، وظل مستلقياً في الخندق إلى أن انتهى مرور القطار. كان أطول قطار رآه على الإطلاق، مؤلفاً من قرابة مئتي عربة شحن، مع قاطرة في كل طرف من طرفيه، وقاطرة ثالثة في الوسط.

ولم تكن فيه أية أنوار، ولا حتى الأنوار الحمراء والخضراء التي تشير إلى حالة توقف القطار أو سيره، وكان يمضي في سرعة ليلية ومتكتمة. وعلى أسطح العربات، كانت تظهر كتل أشباح الجنود القاتمة، وهم يمسكون برشاشتهم الجاهزة.

بعد منتصف الليل، هطل وابل مطر طوفاني. كان خوسيه أركاديو الثاني يجهل أين قفز، لكنه يعرف أنه إذا سار بالاتجاه المعاكس لسير القطار، فسوف يصل إلى ماكوندو. وبعد أكثر من ثلاث ساعات من المسير، مبللاً حتى العظام، وبألم ممض في رأسه، لمح أول البيوت على ضوء الفجر. ومنجذباً إلى رائحة القهوة، دخل إلى مطبخ، حيث كانت امرأة تنحني على الموقد، وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها. وقال مستنفداً:

- صباح الخير. أنا خوسيه أركاديو الثاني بويندبا.

نطق الاسم كاملاً، وحرفاً حرفاً، كي يقنع نفسه بأنه حي. وقد أحسن صنعاً بذلك، لأن المرأة ظنت أنه شبح، حين رأت عند الباب، الهيئة الضامرة، المكفهرة، ذات الرأس والثياب الملطخة بالدم، وقد مسها وقار الموت. كانت تعرفه. جاءته ببطانية يتدثر بها ريثما تجف ثيابه على الموقد، وسخنت له ماء كي يغسل جرحه، وكان مجرد خدش سطحي، وقدمت له قماطاً نظيفاً ليضمد به رأسه. ثم قدمت له فنجان قهوة، بلا سكر، مثلما قيل لها إن آل بويندبا يشربونها. ونشرت ثيابه قريباً من النار.

- لا بد أنهم كانوا ثلاثة آلاف - دمدم.

- ماذا؟

فأوضح لها:

- الموتى. لا بد أنهم كل من كانوا في المحطة.

تطلعت إليه المرأة بنظرة مشفقة، وقالت: «لم يسقط هنا أي موتى. منذ زمن عمك الكولونيل، لم يحدث شيء في ماكوندو». وفي المطابخ الثلاثة التي توقف فيها خوسيه أركاديو الثاني، قبل أن يصل إلى البيت، قالوا له الشيء نفس: «ليس ثمة موتى». مرّ عبر ساحة المحطة، ورأى مناضد أكشاك بيع المأكولات المقلية مكومة بعضها فوق بعض، ولم يجد هناك أيضاً أي أثر للمذبحة. كانت الشوارع مقفرة تحت المطر اللجوج، والبيوت مغلقة، دون أثر للحياة بداخلها. الإشارة الوحيدة إلى الحياة كانت قرع أول ناقوس يدعو إلى القداس. طرقَ باب بيت العقيد غافيلان. ظهرت امرأة حبلى، كان يراها كثيراً، فأغلقت الباب في وجهه. وقالت مذعورة: «لقد عاد إلى بلاده». المدخل الرئيسي لحظيرة الدجاج المسيجة بالأسلاك الشائكة، كان يحرسه، كالعادة، شرطيان محليان يبدوان حجريين تحت المطر، بردائيهما المطريين وخوذتيهما المطاطيتين. وفي زقاقهم الجانبي، كان الانتليون الزنوج يغنون، في جوقة، ترانيم السبت الدينية. قفز خوسيه أركاديو الثاني عن سياج الفناء، ودخل إلى البيت من المطبخ. ولم تكد صوفيا قديسة الرحمة ترفع صوتها حين قالت: «إياك أن تراك فرناندا. فقد نهضت منذ لحظة». وكما لو أنها تنجز تعهداً صامتاً، اقتادت ابنها إلى ***غرفة المباول***، ورتبت له سرير ميلكيادس المزعزع. وفي الساعة الثانية بعد الظهر، بينما فرناندا تنام القيلولة، مررت له طبق طعام من النافذة.

كان أوريليانو الثاني قد نام في البيت، لأن المطر فاجأه وهو هناك. وفي الساعة الثالثة، كان لا يزال ينتظر توقف المطر. وفي هذه الساعة، زار أخاه في غرفة ميلكيادس، حين أخبرته صوفيا

قديسة الرحمة، بسرية، أنه موجود في البيت. ولم يصدق هو أيضاً رواية المذبحة ولا كابوس القطار المحمل بالموتى والمسافر باتجاه البحر. ففي الليلة الفائتة، قرأ بياناً وطنياً استثنائياً، يعلن أن العمال قد انصاعوا للأمر بإخلاء المحطة، وتوجهوا إلى بيوتهم في مواكب مسالمة. ويعلن البيان أيضاً، أن القادة النقابيين، بروح وطنية عالية، اختزلوا مطالبهم إلى نقطتين اثنتين: إصلاح الخدمات الطبية، وبناء مراحيض في المساكن. وأُعلن فيما بعد، أنه عندما حصلت السلطات العسكرية على موافقة العمال، سارعت إلى إطلاع السيد براون عليها، فلم يتقبل الشروط الجديدة فقط، بل عرض دفع تكاليف ثلاثة أيام من البهجة العامة، احتفالاً بنهاية النزاع. وحين سأله العسكريون، متى يمكنه تحديد موعد توقيع الاتفاق، عندئذ فقط، نظر من النافذة إلى السماء المشروخة بالبروق، وقام بإيماءة تنم عن تشكك عميق، وقال:

- سيكون ذلك عند توقف المطر. لأننا سنوقف كل أنواع النشاطات، ما دام هطوله مستمراً.

لم يكن ثمة أمطار منذ ثلاثة أشهر، وكانت أزمنة جفاف. ولكن ما إن أعلن السيد براون قراره، حتى انهمر على منطقة الموز كلها الوابل الطوفاني الذي فاجأ خوسيه أركاديو الثاني وهو في طريقه إلى ماكوندو. وبعد أسبوع من ذلك، كان المطر لا يزال متواصلاً. والرواية الرسمية، التي كررتها ولاكتها، في البلاد بأسرها، كل وسائل الإعلام التي وجدتها الحكومة في متناول يدها، انتهت إلى فرض نفسها: لم يكن ثمة موتى، والعمال السعداء رجعوا إلى أسرهم، وشركة الموز أوقفت أعمالها إلى أن يتوقف المطر. وقد

استمر العمل بالقانون العرفي، تحسباً للحاجة إلى اتخاذ إجراءات مستعجلة لمواجهة كارثة المطر المتواصل العامة، لكن القوات العسكرية ظلت في مواقعها. وفي النهار، كان الجنود يمضون في سيول الشوارع، وقد رفعوا بناطيلهم حتى منتصف سيقانهم، ليلعبوا مع الأطفال لعبة الغرق. وفي الليل، بعد موعد منع التجول، يحطمون الأبواب بأعقاب بنادقهم، ويُخرجون المشبوهين من فراشهم، ويقتادونهم في رحلة لا رجوع منها. كانت تلك هي عمليات البحث عن الأشرار، والقتلة، ومشعلي الحرائق، واجتثاثهم مع المتمردين على المرسوم رقم أربعة. غير أن العسكريين كانوا ينكرون ذلك، ولا يعترفون به لذوي ضحاياهم الذين يعج بهم مكتب القادة، طلباً للأخبار، فيصر الضباط: «من المؤكد أن ما رأيتموه كان حلماً. ففي ماكوندو لم يحدث ولا يحدث شيء، ولن يحدث أي شيء أبداً. إنها قرية سعيدة». وهكذا استأصلوا القادة النقابيين.

الوحيد الذي بقي على قيد الحياة هو خوسيه أركاديو الثاني. وفي إحدى ليالي شباط، سُمعت على الباب ضربات أعقاب البنادق التي لا يمكن الخطأ فيها. كان أوريليانو الثاني ما يزال ينتظر انقطاع المطر كي يخرج، ففتح الباب لستة جنود بأمرة ضابط. كانوا يقطرون مطراً. ودون أن يقولوا كلمة واحدة، فتشوا البيت غرفة غرفة، خزانة خزانة، ابتداء من الصالونين وحتى مستودع المؤونة. استيقظت أورسولا حين أضاؤوا نور غرفتها، فلم تُصدر نَفَساً واحداً خلال الوقت الذي دامه التفتيش، ولكنها أبقت إصبعيها متقاطعين على شكل الصليب، وكانت تديرهما حيث يتجه الجنود. وتمكنت صوفيا قديسة الرحمة من تنبيه خوسيه أركاديو

الثاني الذي كان ينام في غرفة ميلكيادس، لكنه أدرك أن الوقت قد فات لمحاولة الفرار. وهكذا، أعادت صوفيا قديسة الرحمة إغلاق الباب، وارتدى هو القميص والحذاء، وجلس على السرير ينتظر قدومهم. كانوا في تلك اللحظة يفتشون مشغل الصياغة. كان الضابط قد أمر بفتح القفل، وبجولة سريعة من مصباحه اليدوي، رأى منضدة العمل، والخزانة ذات الأبواب الزجاجية، وفيها قوارير الأحماض وأدوات العمل التي ما زالت في المكان نفسه الذي تركها فيه صاحبها، وبدا أنه أدرك أن أحداً لا يعيش هناك. ومع ذلك، فقد سأل أوريليانو الثاني بدهاء إذا ما كان صائغاً، فأوضح له أن الغرفة كانت مشغل الكولونيل أوريليانو بوينديا. فهمهم الضابط: «آه». وأضاء نور الغرفة وأمر بإجراء تفتيش دقيق، لم تفلت منه الأسماك الذهبية الثماني عشرة التي لم تُصهر، وكانت مخبأة وراء القوارير في علبة الصفيح. فحصها الضابط واحدة فواحدة، على منضدة العمل، وعندئذ تأنسن بالكامل. قال: «أريد أخذ واحدة منها، إذا كنت تسمح. لقد كانت في زمن آخر رمزاً للنشاط الهدام، ولكنها الآن تراث» كان شاباً، بل أقرب إلى أن يكون يافعاً، دون أي ملمح خجل، وبجاذبية طبيعية لم تظهر عليه حتى تلك اللحظة. أهدى إليه أوريليانو الثاني سمكة. خبأها الضابط في جيب قميصه، وفي عينيه بريق طفولي، وأعاد الأخريات إلى العلبة ليضعها حيث كانت. وقال:

- إنها ذكرى لا تقدر بثمن. لقد كان الكولونيل أوريليانو بوينديا أحد رجالنا العظماء.

ومع ذلك، لم تبدل لمحة أنسنتة المفاجئة من سلوكه المهني. وأمام غرفة ميلكيادس، وكانت مغلقة بالقفل من جديد، لجأت

صوفيا قديسة الرحمة إلى أمل أخير، فقالت: «منذ نحو قرن لم يسكن أحد هذه الغرفة». أمر الضابط بفتحها، وجابها بحزمة ضوء المصباح اليدوي، ورأى أوريليانو الثاني وصوفيا قديسة الرحمة عيني خوسيه أركاديو الثاني العربيتين في اللحظة التي مرّت فيها بقعة النور على وجهه، وأدركا أن تلك هي نهاية جزء، وبداية جزء آخر لا راحة منه إلا بالاستسلام. لكن الضابط واصل تفحص الغرفة بالمصباح، ولم يُبدِ أية علامة اهتمام، إلا عندما اكتشف الاثنتين والستين مبولة المكدسة في الخزائن. عندئذ أشعل ضوء الغرفة. كان خوسيه أركاديو الثاني جالساً على حافة السرير الضيق، مستعداً للخروج، وأشد وقاراً وتأملاً من أي وقت آخر. وفي أقصى الغرفة، كانت الرفوف وعليها الكتب التي انفرطت خياطتها، ولفائف الرقاق الجلدية، ومنضدة العمل النظيفة والمرتبة، والحبر الذي ما زال طازجاً في المحابر. وكان هناك نقاء الهواء نفسه، والصفاء نفسه، وامتياز الحصانة من الغبار والخراب نفسه الذي عرفه أوريليانو الثاني في طفولته، ولم يستطع الكولونيل أوريليانو بوينديا وحده أن يلحظه. لكن الضابط لم يهتم إلا بالمباول. فسأل:

- كم شخصاً يعيش في هذا البيت؟

- خمسة.

لم يفهم الضابط بالطبع. وتوقف نظره حيث كان أوريليانو الثاني وصوفيا قديسة الرحمة لا يزالان يريا خوسيه أركاديو الثاني، وقد أدرك هذا الأخير أيضاً، أن العسكري ينظر إليه دون أن يراه. أطفأ الضابط النور، وأغلق الباب. وعندما تكلم إلى الجنود، أدرك أوريليانو الثاني أن الضابط الشاب قد رأى الغرفة

مثلما كان يراها الكولونيل أوريليانو بوينديا في الماضي. فقد قال الضابط للجنود:

- صحيح أن أحداً لم يسكن هذه الغرفة منذ قرن على الأقل. لا بد أن فيها ثعابين.

عندما أُغلق الباب، أيقن خوسيه أركاديو الثاني أن حربه قد انتهت. فقبل سنوات، كان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد حدثه عن فتنة الحرب، وحاول أن يثبت له ذلك بأمثلة لا حصر لها مستخلصة من تجربته الخاصة. وقد صدقه هو. لكنه في الليلة التي نظر فيها العسكريون إليه دون أن يروه، بينما هو يفكر في توتر الشهور الأخيرة، وفي بؤس السجن، ورعب المحطة، والقطار المحمل بالموتى، توصل خوسيه أركاديو الثاني إلى أن الكولونيل أوريليانو بوينديا لم يكن إلا مهرجاً مخادعاً أو معتوهاً. لم يفهم لماذا احتاج إلى كثير من الكلام كي يوضح ما كان يشعر به في الحرب، ما دامت هناك كلمة واحدة كافية: الخوف. ولكنه في غرفة ميلكيادس بالمقابل، وهو محمي بنور خارق، وبصوت المطر، وبالإحساس بأنه غير مرئي، وجد الراحة التي لم يعرفها للحظة واحدة في حياته السابقة، وكان الخوف الوحيد الذي ما زال يلح عليه، هو أن يدفن حياً. أخبر بذلك صوفيا قديسة الرحمة التي كانت تأتيه بوجبات طعامه اليومية، فوعدته بأن تناضل للبقاء حية أبعد مما تسمح به قواها، كي تتأكد من أنه سيُدفن ميتاً. وحين صار بمنجى من كل خوف، كرس خوسيه أركاديو الثاني نفسه عندئذ، لمراجعة رقاق ميلكيادس مراراً، وكانت متعته تزداد كلما قلَّ فهمه لها. وبتعوده على دوي وقع المطر الذي تحول، بعد شهرين، إلى طريقة جديدة من الصمت، كان الشيء الوحيد الذي يعكر

عليه وحدته، هو دخول صوفيا قديسة الرحمة وخروجها. ولهذا رجاها بأن تضع له الطعام على إفريز النافذة، وأن تقفل الباب بالقفل. نسيته بقية العائلة، بمن فيهم فرناندا التي لم تجد مانعاً من بقائه هناك، حين علمت أن العسكريين رأوه دون أن يتعرفوا عليه. وبعد ستة شهور من اعتكافه، ونظراً لأن العسكريين غادروا ماكوندو، انتزع أوريليانو الثاني القفل، بحثاً عمن يتحدث إليه ريثما يتوقف المطر. ومنذ فتحه الباب واجهته نتانة المباول الموضوعة على الأرض، وجميعها مستخدمة عدة مرات. لكن خوسيه أركاديو الثاني الذي كان يتآكله داء الثعلبة، وغير العابئ بجو الحجرة المخلل من الأبخرة النتنة، واصل قراءة الرقاق المبهمة وإعادة قراءتها. كان مضاء بأنوار ملائكية. ولم يكد يرفع بصره، عندما أحس بفتح الباب، ولكن تلك النظرة كانت كافية لأن يرى أخوه فيها المصير المحتوم الذي انتهى إليه جده.

وكان كل ما قاله خوسيه أركاديو الثاني:

- كانوا أكثر من ثلاثة آلاف. إنني واثق الآن من أنهم جميع من كانوا في المحطة.

هطل المطر أربع سنوات وأحد عشر شهراً ويومين. كانت هناك فترات رذاذ، ارتدى فيها الجميع ثيابهم الاحتفالية، وأبدوا وجوهاً ناقهة، للاحتفال بتوقف المطر. ولكنهم سرعان ما اعتادوا على تفسير تلك التوقفات على أنها إعلان باشتداد المطر. كانت السماء تنشق عن عواصف عاتية، ويرسل الشمال أعاصير تقتلع سقوفاً، وتقوض جدراناً، وتستأصل جذور آخر جذوع شجيرات مزارع الموز. ومثلما حدث أيام جائحة الأرق التي تذكرتها أورسولا في تلك الأيام، كان البلاء نفسه يوحي بابتداع أساليب دفاعية ضد الضجر. وكان أوريليانو الثاني أحد أكثر من بذلوا الجهد كيلا يسمحوا للكسل بالتغلب عليهم. كان قد ذهب إلى البيت، لأمر عارض، في الليلة التي استدعى فيها السيد براون العاصفة، وحاولت فرناندا مساعدته بمظلة نصف مهترئة وجدتها في إحدى الخزائن. فقال لها: «لا حاجة بي إليها. سأبقى هنا إلى أن يتوقف المطر». لم يكن قوله التزاماً لا يمكن تجنبه بالطبع، ولكنه كان على وشك إنجازه بحذافيره. وبما أن ثيابه كلها في بيت بيترا كوتيس، فقد كان يخلع، كل ثلاثة أيام، ثيابه التي يرتديها، وينتظر بالسروال الداخلي، ريثما يغسلونها له. وكي لا يناله الملل، شغل نفسه بمهمة إصلاح أعطال البيت الكثيرة. فراح يضبط مفصلات الأبواب، ويزيّت أقفالاً، ويثبت براغي المزالج، ويسوّى مغاليق

النوافذ. وشوهد طوال عدة أشهر، يتنقل في البيت بعلبة أدوات، لا بد أن الغجر نسوها في أزمنة خوسيه أركاديو بوينديا. ولم يدرِ أحدٌ إذا كانت الرياضة القسرية، أو الضجر الشتوي، أو الصيام الإجباري، هي السبب في أن كرشه أخذ يفش شيئاً فشيئاً كأنه قربة، ووجه السلحفاة السعيدة الذي كان له، صار أقل دموية، وصار لُغدوده أقل بروزاً، إلى أن تحول بكامله، في النهاية، عن هيئته الخرتيتية، وصار بإمكانه ربط شريط حذائه بنفسه. وحين رأته فرناندا يركّب مقابض الأبواب، ويفكك الساعات، تساءلت إذا لم يكن قد بدأ يصاب بآفة فك الأشياء وإعادة تركيبها، مثلما كان يفعل الكولونيل أوريليانو بوينديا بأسماكه الذهبية، وآمارانتا بأزرار ثيابها وكفنها، وخوسيه أركاديو الثاني بالرقاق، وأورسولا بذكرياتها. ولكن ظنها لم يكن صحيحاً. فالسيئ هو أن المطر قلب كل شيء، فصارت أشد الآلات قُحولة، مرتعاً لنمو الأزهار بين تروسها إذا هي لم تُزيَّت كل ثلاثة أيام، وصارت خيوط البروكار تصدأ، وتتوالد أشنات الزعفران على الملابس المبللة. كان الجو رطباً إلى حد يمكن معه للأسماك أن تدخل من الأبواب وتخرج من النوافذ، مبحرة في هواء الغرف. وفي صباح أحد الأيام، استيقظت أورسولا وهي تشعر بخدر سكينة، وكانت قد طلبت أن يحضروا لها الأب أنطونيو إيزابيل، ولو على حمالة، عندما اكتشفت صوفيا قديسة الرحمة أن ظهرها مرصوف بالعلق. انتزعوها واحدة واحدة، بإحراقها بالجمر، قبل أن تمتص دمها كله. كان لا بد من حفر قنوات لتصريف الماء من البيت، وتخليصه من الضفادع والحلزونات، وهكذا تمكنوا من تجفيف أرضية الغرف، وانتزاع قطع القرميد من تحت قوائم الأسرة، والمشي مرة

أخـرى وهـم ينتعلـون أحذيتـهم. وبينمـا أوريليـانو الثـاني مشـغول بالصغـائر الكثيرة التي تتطلـب اهتمامـه، لـم ينتبـه إلـى أنـه آخـذ بالهرم، حتى مساء يوم وجد نفسه فيه يتأمل الغـروب المبكـر، وهـو فـي كرسي هـزاز، يفكر ببيترا كوتيس دون أن يرتعش تأثراً. ما كان ليجد أي مانع فـي العودة إلـى حـب فرنـاندا الـذي بـلا طعم؛ وكـان جمالها قد هدأ مع نضوجها وتقدمها فـي العمر، لكن المطر وضعـه بمنجى من التسرع العـاطفـي، وبث فـي نفسـه صفـاءً إسـفنجياً مـن انعدام الشهية. وابتهج وهو يفكر فـي الأشياء التي كان يمكن له أن يفعلها، فـي أزمنة أخرى، فـي مثل ذلك المطر المتواصـل منـذ قرابـة العام. فقد كان أحد أول من جاؤوا بصفائح التوتياء إلـى مـاكوندو، قبل زمن طويل من إشاعة شركة الموز استخدامها، وفعـل ذلـك مـن أجل أن يغطـي سـقف غرفـة نـوم بيترا كوتيس فقـط، كـي يسـتمتع بالإحساس بالحميمية العميقة التي تثيرهـا فـيه قرقعـة المطـر علـى الصفـيح. ولكن، حتى هذه الذكريات الجنونية من شبابه المستهتر، لـم تبدل تبلـد إحساسـه، كمـا لـو أن حفلـة العربـدة الأخـيرة قـد استنفدت كل نصيبه من الشبق، ولم تبق لـه سـوى الجـائزة الرائعـة المتمثلة فـي القدرة على تذكّره بـلا مـرارة وبـلا تـأنيب ضمـير. كـان يمكن التفكير فـي أن الطوفان قد أمـده بفرصـة الجلـوس والتـأمل، وأن انهماكه فـي العمـل بالكماشـات والمزيِّـة، أيقـظ فـيه الحنـين المتأخر إلى مهن مفيدة كثيرة، كان يمكن له مزاولتها، ولـم يزاولـها فـي حياتـه. ولكـن لـم يكـن هـذا ولا ذاك صحيحـاً، لأن إغـواء الاستقرار والحياة البيتية الذي راح يكتنفه، لم يكن حصيلة التـأمل أو استخلاص العبر، بل كان يأتيـه ممـا هـو أبعد مـن ذلـك بكثـير، وقد نبشه معول المطر. يأتيه من الأزمنة التي كان يقـرأ فـيها، فـي

غرفة ميلكيادس، حكايات بساط الريح، والحيتان التي تلتهم السفن وملاحيها. وحدث في تلك الأيام نفسها، في لحظة سهو من فرناندا، أن ظهر أوريليانو الصغير في الردهة، وعلم جده عندئذ بسر وجوده. قص له شعره، وألبسه ثياباً، وعلمه التخلص من الخوف من الناس، وسرعان ما رأى أنه أوريليانو بويندیا حقيقي، بوجنتيه العاليتين، ونظرته الذاهلة، ومزاجه المتوحد. كان ذلك مصدر طمأنينة لفرناندا. فقد تمكنت، منذ زمن، من تقدير مدى غرورها، ولكنها لم تجد الطريقة الملائمة لإصلاح الأمور، لأنها كلما أمعنت التفكير في الحلول، بدت لها أقل عقلانية. ولو أنها عرفت أن أوريليانو الثاني سيتقبل الأمر بالطريقة التي تقبله بها، بسعادة جد طيبة، لما كانت قلبت الأمور وأجّلتها كل ذلك التأجيل، ولكانت حررت نفسها من سنة عذاب. وقد رأت آمارانتا أورسولا التي كانت قد بدلت أسنانها، في ابن أختها لعبة زلقة شكلت لها سلوى من ضجر المطر. وتذكر أوريليانو الثاني عندئذ الموسوعة الإنكليزية التي لم يعد أحد إلى لمسها في غرفة ميمي القديمة. فبدأ بعرض الصور على الطفلين، وخاصة صور الحيوانات، ثم خرائط وصور بلدان نائية، وشخصيات مشهورة. ولأنه لا يعرف اللغة الإنجليزية، ولأنه يكاد لا يميز أشهر المدن والشخصيات المشهورة، فقد راح يخترع أسماء وأساطير كي يشبع فضول الطفلين غير المحدود.

كانت فرناندا تعتقد فعلاً، أن زوجها ينتظر توقف المطر، كي يعود إلى خليلته. وكانت تخشى، في شهور المطر الأولى، أن يحاول التسلل إلى غرفة نومها، وتتعرض عندئذ لعار الكشف له عن أنها صارت عاجزة عن إرضائه، منذ ولادة آمارانتا أورسولا. وكان هذا

هـو سـبب مراسـلاتها المتلهفـة مـع الأطبـاء غـير المرئيـين، والتـي انقطعت بسبب كوارث البريد المتتاليـة. فخـلال الشـهور الأولـى، عُرف أن القطارات تخرج عن خطوطها في العاصفة، وأشارت لها رسالة من الأطباء غير المرئيين إلى أن رسائلها لا تصلهم. وفي ما بعد، عندما توقفت اتصالاتها مع مراسليها المجهولين، فكرت جدياً بأن تضع قناع النمر الذي استخدمه زوجها في الكرنفال الدامي، كي تعرض نفسها، باسم مستعار، على أطباء شركة الموز. ولكن واحداً من الأشخاص الذين اعتادوا المجيء إلى البيت، حاملين أخبار الطوفان البغيضة، أخبرها بأن الشركة تفكك مستوصفاتها لنقلها إلى أراض مناخها منفرج. عندئذ فقدت الأمل. أذعنت لانتظار توقف الأمطار، وعودة البريد إلى الانتظام، وفي أثناء ذلك، كانت تخفف من آلامها السرية، بوسائل مستلهمة، لأنها تفضل الموت على وضع نفسها بين يدي الطبيب الوحيد المتبقي في ماكوندو، ذلك الفرنسي غريب الأطوار الذي يتغذى بعشب للحمير. كانت قد تقرّبت من أورسولا، واثقة من أنها تعرف مهدئاً ما لأوجاعها. ولكن عادتها الملتوية بعدم تسمية الأشياء بأسمائها، جعلتها تضع ما هو قدام في الخلف، واستبدال مولود بمطرود، واستعمال كلمة حرقة بدل سيلان، كي يكون كل شيء أقل خجلاً، مما جعل أورسولا تستنتج، عقلانياً، أن اضطراباتها ليست مهبلية، وإنما معوية، فنصحتها بتناول مظروف من ملين كالوميل على الريق. ولولا تلك الآلام التي ليست لها أية علاقة بالحياء، لو كان المصاب بها شخصاً غير مريض بالحياء، ولولا ضياع الرسائل، لما كانت فرناندا لتهتم بالمطر؛ فحياتها كلها، في نهاية المطاف، كانت كما لو أنها مطر متواصل. لم تعدّل المواقيت، ولم تتسامح في

الطقوس. وحتى عندما كانت المائدة لا تزال مرفوعة على قطع من القرميد، والكراسي موضوعة على ألواح خشبية، كيلا تبتل أقدام الآكلين، واصلت هي خدمة المائدة بأغطية من الكتان، وأطباق وأوان صينية، وبإشعال الشمعدانات عند العشاء، لأنها ترى أنه لا يمكن اتخاذ الكوارث الطبيعية ذريعة للابتعاد عن العادات. لم يعد أحد يطل برأسه إلى الشارع. ولو تعلق الأمر بفرناندا، لما عادوا إلى الخروج أبداً، ليس منذ بدأ هطول الأمطار وحسب، وإنما قبل ذلك بزمن طويل، لا سيما وأنها ترى أن الأبواب قد اختُرِعت لكي تُغلق، وأن الفضول إلى ما يجري في الشارع هو من شؤون المومسات. ومع ذلك، كانت هي أول من أطلت عندما أُخبروا بمرور جنازة العقيد خيرينيلدو ماركيز، وإن يكن ما رأته آنذاك، من خلال النافذة المواربة، خلّفها في حالة أسى جعلتها تندم مدة طويلة على ضعفها.

ما كانت لتتصور موكباً جنائزياً أشد أسى. فقد وضعوا النعش على عربة تجرها الثيران، وأقاموا فوقه عريشة من أوراق الموز، لكن ضغط المطر كان شديداً، والشوارع موحلة، فكانت العجلات تتعثر في كل خطوة، والعريشة توشك أن تتقوض. وكان دفق الماء الكئيب الذي يسقط على النعش، يبلل الراية الموضوعة عليه، وهي في الواقع الراية نفسها الملطخة بالدم والبارود التي نبذها أشد المحاربين القدماء جدارة. وكان يُوضع فوق النعش أيضاً، السيف ذو الشرابات النحاسية والفضية، وهو السيف نفسه الذي كان العقيد خيرينيلدو ماركيز يعلقه على مشجب الصالة، كي يدخل وهو أعزل إلى مشغل خياطة آمارانتا. ووراء العربة، يمضي آخر المتبقين على قيد الحياة ممن شهدوا الاستسلام في نيرلانديا،

بعضهم حفاة، وجميعهم يرفعون بناطيلهم إلى منتصف سيقانهم، ويخوضون في الوحل، حاملين العكاز بيد، وباليد الأخرى إكليل أزهار ورقية ذهب المطر بألوانها. ظهروا مثل رؤيا غير واقعية في الشارع الذي مازال يحمل اسم الكولونيل أوريليانو بوينديا، وجميعهم نظروا إلى البيت لدى مرورهم، وانعطفوا عند زاوية الساحة، حيث اضطروا إلى طلب المساعدة لإخراج العربة من الوحل. كانت أورسولا قد طلبت من صوفيا قديسة الرحمة حملها إلى الباب. وتابعت أحداث الجنازة باهتمام شديد، لم يخامر الشك معه أحد في أنها تراها، خاصة وأن يدها المرفوعة كيد ملاك منذر، كانت تتحرك مع عثرات العربة.

- وداعاً يا خيرينيلدو، يا بني - صرخت - بلغ تحياتي لمعشري، وقل لهم إننا سنلتقي عندما يتوقف المطر.

ساعدها أوريليانو الثاني في العودة إلى السرير، وسألها بالمرح الذي يعاملها به دوماً، عن معنى وداعها.

- إنها الحقيقة - قالت هي - فأنا أنتظر توقف المطر فقط، كي أموت.

أثارت حالة الشوارع قلق أوريليانو الثاني. وفي قلق متأخر لمصير حيواناته، ألقى رداء مشمعاً على نفسه، وذهب إلى بيت بيترا كوتيس. وجدها في الفناء، وقد وصل الماء حتى خصرها، تحاول أن تُخرج من الوحل جثة حصان. ساعدها أوريليانو الثاني بعتلة، فانقلب جسد الحيوان المنتفخ مثل جرس، وانساق في تيار الوحل السائل. منذ بدء الأمطار، لم تفعل بيترا كوتيس شيئاً سوى تنظيف فناء بيتها من الحيوانات النافقة. وكانت قد أرسلت، خلال الأسابيع الأولى، رسائل إلى أوريليانو الثاني، كي يتخذ احتياطات

مستعجلة، وأجاب عليها بأنه لا حاجة إلى التسرع، وأن الوضع لا يستدعي الذعر، وأنه سيفكر في عمل شيء عندما يتوقف المطر. أرسلت من يقول له إن المراعي قد غرقت، وإن البهائم تهرب إلى الأراضي المرتفعة، حيث لا وجود لشيء تأكله، وإنها هناك تحت رحمة النمور والأمراض. فأجابها أوريليانو الثاني: «لا يمكن عمل شيء. وسوف تولد حيوانات أخرى عندما ينقطع المطر». رأت بيترا كوتيس الماشية تموت بالجملة، وكانت لا تكاد تتمكن من تقصيب إلا ما يظل منها عالقاً في الوحل. ورأت بعجز أصم، كيف راح الطوفان يُفني، دون رحمة، ثروةً كانت في أحد الأوقات هي الأكبر والأشد رسوخاً في ماكوندو، فلم يبق منها إلا رائحة العفونة. وعندما قرر أوريليانو الثاني أن يذهب إليها ليرى ما الذي يجري، لم يجد سوى جثة الحصان، وبغلة هزيلة بين أنقاض الإسطبل. رأته بيترا كوتيس قادماً، بلا مفاجأة، وبلا سعادة، وبلا استياء، ولم تكد تبدي سوى ابتسامة ساخرة. وقالت:

- توقيت مناسب!

كانت هرمة، ومجرد عظام، وكانت عيناها اللتان كعيني حيوان لاحم، قد صارتا حزينتين ووديعتين من كثرة النظر إلى المطر. بقي أوريليانو الثاني أكثر من ثلاثة أشهر في بيتها، ليس لأنه كان يشعر، آنذاك، بأن حاله هناك أفضل منها في بيت أسرته، وإنما لأنه احتاج إلى كل ذلك الوقت، لكي يتخذ القرار بإلقاء قطعة القماش المشمّع، مرة أخرى، على نفسه. وقال، مثلما كان يقول في البيت الآخر: «لا داعي للتسرع. فلننتظر توقف المطر في الساعات القادمة». وفي سياق الأسبوع الأول، راح يعتاد على التآكل الذي أحدثه الزمن والمطر في صحة خليلته، وشيئاً فشيئاً،

بدأ يراها مثلما كانت من قبل، متذكراً شططها المرح، والخصوبة الهذيانية التي يولدها حبها في الحيوانات، وفي إحدى ليالي الأسبوع الثاني، أيقظها بشيء من الحب، وشيء من الاهتمام، بمداعبات ملحة. فكان رد فعل بيترا كوتيس، القول له مدمدمة: «نم هادئاً. فالأزمنة لم تعد مناسبة لهذه الأمور». رأى أوريليانو الثاني نفسه في مرايا السقف، ورأى عمود بيترا كوتيس الفقري، كأنه صف بكرات مشكوكة في قضيب أعصاب ذاوية؛ فأدرك أنها على حق، لا بسبب الأزمنة، وإنما بسببهما هما بالذات، لأنهما لم يعودا مناسبين لهذه الأشياء.

عاد أوريليانو الثاني إلى بيته بصندوقيه، موقناً أن سكان ماكوندو جميعهم، وليس أورسولا وحدها، ينتظرون توقف المطر كي يموتوا. لقد رآهم لدى مروره، يجلسون في صالونات بيوتهم، نظراتهم ذاهلة، وأذرعهم متقاطعة، شاعرين أن زمناً بكامله يمضي، زمناً جامحاً بلا ترويض، لأنه لا فائدة من تقسيمه إلى شهور وسنين، وأيامه إلى ساعات، عندما لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً سوى تأمل المطر. استقبل الطفلان، بمرح صاخب، أوريليانو الثاني الذي عاد يعزف لهما على الأكورديون المصاب بالربو. لكن عزف الموسيقى لم يشد اهتمامهما مثلما فعلت الجلسات الإنسيكلوبيدية. فعادوا للاجتماع في غرفة ميمي، حيث راحت مخيلة أوريليانو الثاني تحوّل رسم المنطاد الموجه إلى فيل طائر، يبحث عن مكان ينام فيه بين الغيوم. وفي إحدى المرات، وجد في الموسوعة صورة رجل يمتطي حصاناً، وكانت له، برغم مظهره الغريب، ملامح مألوفة، وبعد تفحص طويل، توصل إلى أنها صورة للكولونيل أوريليانو بويندیا. أراها لفرناندا، ووافقت هي أيضاً

ليس على الشبه بين الفارس والكولونيل، بل بينه وبين كل أفراد الأسرة، مع أنه كان في الواقع محارباً تترياً. وهكذا راح يمضي وقته بين عملاق رودس وسحرة الأفاعي، إلى أن أخبرته زوجته بأنه لم يبق في مستودع المؤن سوى ست كيلو غرامات من اللحم المملح، وكيس رز واحد. فسألها:

- وماذا تريدينني أن أفعل الآن؟

- لا أدري - أجابت فرناندا - فهذا من شؤون الرجال.

- حسن - قال أوريليانو الثاني - سيكون بالإمكان عمل شيء عندما يتوقف المطر.

وواصل اهتمامه بالموسوعة أكثر من اهتمامه بالمشكلة البيتية، حتى بعد أن اضطر إلى الاكتفاء بقطعة صغيرة من اللحم وقليل من الأرز للغداء. وكان يقول: «من المستحيل عمل شيء الآن. ولكن المطر لن يستمر مدى الحياة». وكان كلما ازداد تجاهله لاحتياجات مستودع المؤونة، ازداد غضب فرناندا زخماً، إلى أن تفاقمت احتجاجاتها المتباعدة، وتزايدت حالات تنفيس غمها القليلة، وفاضت في سيل عارم، لا كابح له، بدأ ذات صباح كطنطنة جيتار رتيب، وراح الإيقاع يرتفع مع تقدم النهار، ويزداد غنى وبهاء. لم ينتبه أوريليانو الثاني إلى سيل الغمغمة إلا في اليوم التالي، بعد تناول الفطور، حين أحس بالبلبلة من طنين صار آنذاك أكثر تدفقاً وارتفاعاً من دوي المطر. وكان ذاك هو صوت فرناندا التي تجوب أنحاء البيت، شاكية من أن أهلها ربوها كملكة، لينتهي بها الأمر إلى خادمة في بيت مجانين، مع زوج كسول، وثني، فاجر، يستلقي نائماً بانتظار أن يأتيه الخبز من السماء، بينما هي تُنهك كليتيها في سعيها لتنقذ من الغرق بيتاً مثبتاً بالدبابيس، حيث لا بد من

العمل كثيراً، والتحمل أكثر، والإصلاح منذ شروق شمس الرب حتى موعد النوم، فتصل إلى السرير بعينين يملؤهما الغبار وفتات الزجاج، ومع ذلك، لم يقل لها أحد قط، صباح الخير يا فرناندا، أو كيف أمضيت ليلتك يا فرناندا، ولم يسألها أحد، ولو مجاملة، عن سبب شحوبها، أو عن سبب استيقاظها بهذه الدوائر البنفسجية حول عينيها، مع أنها لا تتوقع، بالطبع، أن يأتي ذلك من بقية أسرة لم تعتبرها، في نهاية المطاف، سوى عقبة، سوى خرقة صغيرة لإنزال القدر عن النار، سوى كركوز مرسوم على الجدار، ولا يتوقفون عن النمّ ضدها في الأركان، فيسمونها الورعة الزائفة، ويسمونها الفريسية، ويسمونها الحرباء، وحتى آمارانتا، فلترقد روحها بسلام، قالت لها بصوت عال إنها ممن يخلطن بين الشرج وأيام الصوم، فليتبارك الرب، يا له من كلام، وقد تحملت هي كل ذلك باستسلام لمشيئة الأب المقدس، ولكنها لم تستطع تحمل المزيد عندما قال الشرير خوسيه أركاديو الثاني، إن ضياع العائلة بدأ حين فتحت بيتها لامرأة كاتشاكا[1] متطلبة، فلينجني الرب، كاتشاكا ابنة خبث، من طينة الكاتشاكيين أنفسهم الذين أرسلتهم الحكومة لقتل العمال، ما رأيكم، ولم يكن يعني أحداً سواها، هي التي عرّابها دوق ألبا، والسيدة التي يسبب نسبها العريق اضطراب أكباد زوجات رؤساء الجمهورية، سيدة نبيلة الدم مثلها، تملك حق التوقيع بإحدى عشرة كنية كلها من شبه الجزيرة (إسبانيا)، وهي الكائن الحي الوحيد في قرية أبناء

[1] كاتشاكا cachaca: تأنيث كاتشاكو، ويقصد بها فئة المتأنقين من أهالي بوغوتا، وتُستخدم في مناطق الساحل الكولومبي لتحقير البوغوتيين عموماً والسخرية منهم.

الزنا هذه، التي لا تشعر بأي ارتباك قبالة ستة عشر أداة طعام فضية، كي يأتي بعد ذلك زوجها الزاني، ليقول إن كل هذه الملاعق والشوك، وكل هذه السكاكين والملاعق الصغيرة ليست من أمور المسيحيين، بل لحشرات أم أربع وأربعين، وهي الوحيدة التي يمكنها أن تقرر، بعينين مغمضتين، متى يقدم النبيذ الأبيض، ومن أية جهة، وفي أية كأس، ومتى يقدم النبيذ الأحمر، ومن أية جهة، وفي أية كأس، وليس مثل الجاهلة آمارانتا، فلتنعم روحها بالسلام، التي كانت تظن أن النبيذ الأبيض يقدم في النهار، والنبيذ الأحمر في الليل؛ وهي الوحيدة في منطقة الساحل كلها التي يمكنها أن تفاخر بأنها لم تقضِ حاجتها إلا في مبولة من الذهب، كي يأتي بعد ذلك الكولونيل أوريليانو بوينديا، فلترقد روحه بسلام، ويتجرأ على سؤالها، بخبثه الماسوني، من أين لها ذلك الامتياز، وإذا كان ما تتغوطه ليس برازاً، وإنما أزهار أستروميليا، تصوروا، بهذه الكلمات نفسها، ثم لتأتي بعد ذلك ريناتا، ابنتها التي رأت ذات مرة، في لحظة سهو، برازها في غرفة النوم، لتجيبه بأن المبولة في الحقيقة من الذهب الخالص ونبيلة جداً، ولكن ما فيها مجرد براز، براز عادي، بل هو أسوأ من غيره، لأنه براز كاتشاكا، تصوروا، هذا تقوله ابنتها، ولهذا لم تكن تعلل نفسها بالأوهام بشأن بقية الأسرة؛ ولكن لها الحق، مع ذلك، في أن تتوقع قليلاً من الاحترام من زوجها، لأنه بخيره وشره، شريكها في رباط الزوجية المقدس، رجلها، ومن فض بكارتها شرعياً، ومن أخذ على عاتقه، بمشيئته الحرة، المسؤولية الخطيرة بإخراجها من عقار أبويها، حيث لم تعرف شيئاً من الحرمان أو الألم، وحيث كانت تجدل أكاليل سعفٍ جنائزية، لمجرد المتعة والتسلية وحسب؛ لأن

عرابها أرسل رسالة بتوقيعه وخاتمه المطبوع على الشمع، كي يقول إن يديها لم تخلقا لأعمال هذا العالم، اللهم إلا العزف على الكلافيكورديو. ومع ذلك، فقد أخرجها زوجها عديم الإحساس من بيتها، رغم التحذيرات والتنبيهات، وجاء بها إلى مرجل الجحيم هذا، حيث لا يمكن التنفس من شدة الحر؛ وقبل أن تنهي صيام العنصرة، كان قد رحل مع صناديقه المتنقلة وأكورديون إهماله، ليلهو بالزنا مع شقية، تكفي رؤية إليتيها، حسن، لقد قلتها، تكفي رؤية اهتزاز إليتيها مثل ردف فرس، كي يدرك المرء أنها... على العكس منها تماماً، فهي تظل سيدة، سواء أكانت في القصر أم في الزريبة، على المائدة أم في السرير، سيدة نبيلة، تخاف الرب، وتطيع شرائعه، وتنصاع لمشيئته، ولا يمكن لزوجها أن يمارس معها، بالطبع، الخلاعة التي يمارسها مع الأخرى التي توافق، بالطبع، على كل شيء، مثل المومسات الفرنسيات، بل أسوأ منهن إذا ما فكرنا جيداً، لأن هؤلاء يتمتعن بنزاهة وضع مصباح أحمر على أبوابهن؛ فتصوروا، لم يكن ينقص غير هذه القذارات للابنة الوحيدة والعزيزة لدونيا ريناتا أرغوتي ودون فرناندو دل كاربيو، وخاصة هذا الأب، طبعاً، الرجل القديس، والمسيحي العظيم، والفارس ضمن فرسان القديس سيبولكرو، ممن يتلقون من الرب مباشرة امتياز بقاء جثثهم سليمة في قبورهم، ببشرة مشدودة مثل مخمل ثوب العروس، وعيون براقة صافية كالزمرّد.

- هذا غير صحيح - قاطعها أوريليانو الثاني - فعندما جيء به كانت تفوح منه رائحة النتانة.

فقد وجد الصبرَ لسماعها طوال النهار، إلى أن فاجأها في غلطة. لم تعره فرناندا اهتماماً، ولكنها خفضت صوتها. وفي

المساء، عند تناول العشاء، كانت غمغمة شكاويها المثيرة للحفيظة تطغى على صوت المطر. أكل أوريليانو الثاني قليلاً، وهو يخفض رأسه، وانسحب إلى غرفته مبكراً. وفي فطور اليوم التالي، كانت فرناندا ترتجف، وبمظهر من أمضت ليلة سيئة، وكانت تبدو كمن فرّجت تماماً عن أحقادها. ومع ذلك، عندما سأل زوجها إذا ما كان بالإمكان تناول بيضة مسلوقة، لم تجبه ببساطة، بأن البيض قد نفد منذ الأسبوع الفائت، وإنما اندفعت في خطبة هجاء لاذعة للرجال الذين يقضون الوقت في تزيين سُرَرِهم، ثم يطلبون بعد ذلك توفر أكباد قبرات على المائدة. أخذ أوريليانو الثاني الطفلين للتفرج على الموسوعة، كما هي عادته، وتظاهرت فرناندا بأنها تريد ترتيب غرفة ميمي، لمجرد أن يسمعها تغمغم أنه لا بد أن يكون وقحاً، بالطبع، حتى يمتلك الجرأة على القول للمسكينين البريئين إن الكولونيل أوريليانو بويندیا مُصَوَّرٌ في الموسوعة. وبعد الظهر، بينما الطفلان ينامان القيلولة، جلس أوريليانو الثاني في الردهة، فلحقت به فرناندا إلى هناك، وواصلت استفزازه، تعذيبه، الدوران حوله بطنينها المتواصل كذبابة، قائلة إنه، بالطبع، بعد أن لم يبق شيء يؤكل سوى الحجارة، يجلس زوجها كسلطان من بلاد فارس، ليتأمل المطر، لأنه ليس سوى ذلك، مجرد خامل، بحاجة لمن يعيله، وينفع في لا شيء وحسب، لأنه أكثر رخاوة من شرابة، متعود على العيش على حساب النساء، ومقتنع من أنه تزوج من امرأة يونس التي ارتضت حكاية الحوت. استمع إليها أوريليانو الثاني طوال أكثر من ساعتين، بهدوء أعصاب، كما لو أنه أصم. ولم يقاطعها حتى وقت متقدم من المساء، عندما لم يعد قادراً على تحمل دوي الطبل الذي يؤلم رأسه. فتوسل إليها:

- اصمتي، أرجوك.

ولكن فرنادا رفعت صوتها، بدلاً من ذلك. «لا أجد سبباً يدعوني للصمت. ومن لا يريد سماعي فليذهب». عندئذ فقد أوريليانو الثاني السيطرة على نفسه. نهض دون تعجل، كما لو أنه يريد تحريك عظامه وحسب، وبغضب منتظم تماماً ومنهجي، راح يتناول أصص البيغونيا واحداً واحداً، وأصص السرخس، والأوريغانو، واحداً فواحداً، ويحطمها على الأرض. أصاب الذعر فرناندا، فهي لم تدرك بوضوح في الواقع، حتى تلك اللحظة، مدى القوة الداخلية الرهيبة لكلامها، ولكن الوقت كان قد فات للقيام بأي محاولة للتصحيح. فثملاً بتيار التفريج عن النفس الجارف، كسر أوريليانو الثاني زجاج الخزانة، وراح يُخرج، دون تسرع، صحاف وأطباق المائدة، وواحداً فواحداً، ويهشمها إلى فتات على الأرض. كان منهجياً، هادئاً، وببرودة الأعصاب نفسها التي غطى بها جدران البيت بالأوراق النقدية، راح يكسر بعد ذلك - بضربها إلى الجدران - قطع الكريستال البوهيمي، والزهريات المشغولة يدوياً، ولوحات العذراوات اللواتي في زوارق محملة بالورود، والمرايا ذات الأطر المذهبة، وكل ما هو قابل للكسر، ابتداء من الصالون وحتى مستودع المؤونة، وانتهى بخابية المطبخ التي تحطمت في وسط الفناء بانفجار مهيب. ثم غسل يديه بعد ذلك، وألقى على نفسه قطعة المشمع؛ وقبل انتصاف الليل، رجع ومعه بعض قطع لحم قاسية مملحة، وعدة أكياس أرز وذرة مسوسة، وبعض أقراط الموز العجفاء. ومنذ ذلك الحين، لم تعد المأكولات تُفتقد في البيت.

ستتذكر آمارانتا أورسولا وأوريليانو الصغير فترة الطوفان

كمرحلة سعيدة. فقد كانا، على الرغم من صرامة فرناندا، يخوضان في مستنقعات الفناء، ويصطادان الحراذين لتمزيقها إرباً، ويلعبان لعبة تسميم الحساء بأن يلقيا فيه مسحوق أجنحة الفراشات، عندما تسهو صوفيا قديسة الرحمة. وكانت أورسولا هي تسليتهما المفضلة. فقد كانا يريان فيها دمية كبيرة هرمة، يذهبان ويجيئان بها في أركان البيت، متنكرة بخرق ملونة، وبوجه مطلي بسناج وطلاء أحمر، وفي إحدى المرات، كانا على وشك اقتلاع عينيها بمقص التقليم، مثلما يفعلان بالضفادع. ولم يكن هناك ما يبهجهما أكثر من هذيانها. ولا بد أن شيئاً قد أصاب عقلها بالفعل، في سنة المطر الثالثة، لأنها راحت تفقد، شيئاً فشيئاً، الإحساس بالواقع، وتخلط بين الزمن الحالي والأزمنة البعيدة من حياتها، حتى إنها أمضت في إحدى المرات، ثلاثة أيام في بكاء متواصل، حزناً على موت بيترولينا إغواران، جدة جدتها، المدفونة منذ أكثر من قرن. لقد غرقت في حالة بلبلة غير معقولة، فصارت تظن أن أوريليانو الصغير هو ابنها الكولونيل، في السن التي أخذه فيها أبوه لمعرفة الجليد، وأن خوسيه أركاديو الذي كان آنذاك في مدرسة الدير، هو ابنها البكر الذي ذهب مع الغجر. وكانت تطيل الحديث عن العائلة، حتى إن الطفلين تعلما تنظيم زيارات متخيلة لها، يقوم بها أشخاص لم يموتوا منذ زمن بعيد وحسب، وإنما عاشوا في أزمنة مختلفة. كانت أورسولا تجلس في السرير وقد غطى رماد الشيب شعرها، ووجهها مغطى بمنديل أحمر، سعيدة وسط الأقارب الوهميين الذين يصفهم لها الصغيران دون نسيان أي تفصيل، وكأنهما عرفاهم حقاً. وتتبادل أورسولا الحديث مع أسلافها عن أحداث سابقة لوجودها بالذات،

وتفرح بالأخبار التي يقدمونها إليها، وتبكي معهم على موتى أحدث عهداً بالموت من الضيوف أنفسهم. وسرعان ما انتبه الطفلان إلى أن أورسولا، خلال تلك الزيارات الشبحية، كانت تطرح على الدوام، سؤالاً تريد منه التوصل إلى معرفة من الذي حمل إلى البيت، خلال الحرب، تمثالاً من الجبس، بالحجم الطبيعي، للقديس يوسف، وطلب إبقاءه ريثما يتوقف المطر. وهكذا تذكر أوريليانو الثاني الثروة المدفونة في مكان لا يعرفه أحد غير أورسولا. ولكن كل الأسئلة والمناورات الماكرة التي خطرت له، لم تفده في شيء، لأنها كانت تحتفظ في متاهات هذيانها، كما يبدو، بهامش من صفاء الذهن، يتيح لها حماية ذلك السر الذي لا تبوح به إلا لمن يثبت أنه صاحب الذهب المدفون الحقيقي. وقد كانت بالغة البراعة والصرامة، عندما علّم أوريليانو الثاني واحداً من رفاق عربدته، ليتظاهر بأنه صاحب الثروة، فورطته في استجواب مفصل ومزروع بالفخاخ الذكية.

توصل أوريليانو الثاني إلى القناعة بأن أورسولا ستحمل السر معها إلى القبر، فتعاقد مع فريق حفارين، بذريعة إنشاء قنوات تصريف في فناء البيت والفناء الخلفي؛ وقام هو نفسه بسبر الأرض بقضبان حديدية، وبكل أنواع أجهزة الكشف عن المعادن، دون أن يعثر على شيء يشبه الذهب، خلال ثلاثة أشهر من التنقيب المضني. وبعد ذلك، لجأ إلى بيلار تيرنيرا، على أمل أن ترى أوراق اللعب أكثر مما رآه الحفارون، ولكنها أوضحت له في البداية، عدم جدوى أي محاولة ما لم تكن أورسولا نفسها هي من تقطع الورق. وأكدت بالمقابل وجود الكنز، محدّدة أنه يتألف من سبعة آلاف ومئتين وأربع عشرة قطعة عملة، مدفونة في ثلاثة

أكياس من قماش الخيم، مشدودة بأسلاك نحاسية، ضمن دائرة نصف قطرها مئة واثنان وعشرون متراً، باتخاذ سرير أورسولا مركزاً لها، ولكنها نبهت إلى أن العثور عليها لن يكون ممكناً قبل انتهاء المطر، وتوالي شمس ثلاثة حزيرانات متعاقبة، تحيل مخاضات الطين إلى غبار. وفرة المعلومات التي قدّمتها بيلار تيرنيرا، ودقة غموضها، بدت لأوريليانو الثاني شديدة الشبه بحكايات الروحانيين، فأصر على مشروعه، بالرغم من أنهم كانوا في شهر آب، ولا بد له من الانتظار ثلاث سنوات على الأقل من أجل التوافق مع شروط النبوءة. كان أول ما أثار استغرابه، وإن يكن قد زاد من تشوشه في الوقت نفسه، هو تأكده من أن هناك مئة واثنين وعشرين متراً بالضبط، بين سرير أورسولا وسياج الفناء الخلفي. خافت فرناندا من أن يكون زوجها قد جن، مثل أخيه التوأم، عندما رأته يقوم بالقياسات، وازداد خوفها عندما أمر فرق الحفارين بأن يعمقوا القنوات متراً آخر. وبوقوعه أسير هوس اكتشافي، يكاد لا يقارن إلا بهوس جد جده عندما راح يبحث عن طريق الاختراعات، فقد أوريليانو الثاني آخر جيوب الشحم المتبقية في جسمه، وأخذ الشبه القديم بأخيه التوأم يبرز من جديد، ليس في الملامح وحدها، وإنما كذلك في المزاج الذاهل والسلوك المتأمل. لم يعد يهتم بالطفلين. وصار يأكل في أي وقت، وهو مغطى بالوحل من قدميه حتى رأسه، ويفعل ذلك في ركن من المطبخ، ولا يكاد يرد على أسئلة صوفيا قديسة الرحمة القليلة. وعندما رأته فرناندا يعمل بتلك الطريقة، وهو ما لم تحلم بأنه قادر عليه، ظنت جرأته دأباً، وجشعه تفانياً، ومكابرته مثابرة، فأحست في أعماقها بالندم للحدة التي هاجمت بها تهاونه. لكن

أوريليانو الثاني لم يكن آنذاك في وارد المصالحات المشفقة. فقد كان غارقاً حتى عنقه في مستنقعات أغصان ميتة وأزهار متعفنة، يقلّب أرض الحديقة من جانب إلى آخر، بعد أن انتهى من الفناء والفناء الخلفي، وحفر بعمق تحت دعائم الجناح الشرقي من البيت، حتى أنهم استيقظوا في إحدى الليالي مذعورين مما ظنوه كارثة طبيعية، سواء بسبب الاهتزازات أو القرقعة تحت الأرضية المخيفة، فتبينوا أن ثلاث غرف آخذة بالانهيار، وأن شرخاً أرضياً يبعث على القشعريرة، قد انشق من الردهة حتى غرفة فرناندا. لم يتوقف أوريليانو الثاني بسبب ذلك عن البحث. وحتى عندما تلاشت آخر الآمال، ولم يبق شيء له معنى غير نبوءة أوراق اللعب، عزز الركائز المتداعية، وملأ الشرخ الأرضي بالملاط، وواصل التنقيب في الجانب الغربي. وكان لا يزال يعمل هناك في الأسبوع الثاني من حزيران السنة التالية، عندما بدأ المطر يهدأ، وراحت الغيوم ترتفع، وبدا أن المطر سينقطع بين لحظة وأخرى. وكان هذا ما حدث. ففي يوم جمعة، في الساعة الثانية بعد الظهر، أُضيئت الدنيا بشمس بلهاء، قرمزية، وخشنة كغبار القرميد، وباردة كالماء تقريباً، ولم يعد المطر إلى الهطول طوال عشر سنوات.

كانت ماكوندو أطلالاً. تراكم في مستنقعات شوارعها حطام أثاث، وهياكل حيوانات تغطيها زنابق حمراء، وآخر آثار جموع الغرباء الذين هربوا من ماكوندو بالرعونة نفسها التي جاؤوا بها. وقد هُجرت البيوت التي أقيمت على عجل خلال حمى الموز. وفككت شركة الموز منشآتها. ولم يبق من المدينة القديمة المسيجة سوى الأنقاض. فبدت البيوت الخشبية، وشرفاتها الأمامية الباردة، حيث كانت تدور في المساء ألعاب الورق الهادئ، كما لو أنها قد

دُمرت مسبقاً بالريح التنبؤية التي ستمحو ماكوندو، بعد سنوات، عن وجه الأرض. والأثر الإنساني الوحيد الذي خلفته تلك العاصفة الشرهة، هو قفاز لباتريسيا براون في السيارة التي خنقتها أزهار الثالوث. أما المنطقة المسحورة التي ارتادها خوسيه أركاديو بويندیا في أزمنة التأسيس، وازدهرت فيها مزارع الموز في ما بعد، فكانت قيعاناً موحلة تغطيها جذوع متعفنة، وقد ظلت رؤية زبد البحر الصامت ممكنة، لسنوات عديدة، في أفقها البعيد. عانى أوريليانو الثاني نوبة أسى في أول يوم أحد ارتدى فيه ثياباً جافة، وخرج لاستطلاع القرية. فالناجون من الكارثة، هم أنفسهم من كانوا يعيشون في ماكوندو قبل أن يهزها إعصار شركة الموز. وكانوا يجلسون وسط الشارع، للاستمتاع بأول الشموس. وكانت لا تزال على جلودهم خضرة الطحالب ورائحة الزوايا التي طبعهم بها المطر، ولكنهم يبدون، في أعماق قلوبهم، راضين عن استعادتهم القرية التي ولدوا فيها. وكان شارع الأتراك قد عاد مجدداً إلى ما كان عليه، شارع الأزمنة التي كان فيها العرب ذوو الأخفاف، والأقراط في آذانهم، يجوبون العالم مستبدلين بضائعهم الرخيصة بالببغاوات، ووجدوا في ماكوندو ركناً مناسباً للاستراحة من شرطهم القديم كأناس متنقلين. في الجانب الآخر من المطر، كانت بضائع البازار تتساقط فتاتاً، وكانت الأقمشة المعروضة عند الأبواب موشاة بالطحالب، ومناضد الكونتوار نخرها النمل الأبيض، والجدران تآكلت بفعل الرطوبة، لكن عرب الجيل الثالث كانوا جالسين في المكان نفسه، والوضع نفسه الذي جلس فيه آباؤهم وأجدادهم، صامتين، رابطي الجأش، عصيين على الزمن والكارثة، مفعمين بالحياة أو الموت، مثلما كانوا

بعد وباء الأرق، وحروب الكولونيل أوريليانو بويندبا الاثنتين والثلاثين. وكانت تثير الذهول متانة معنوياتهم أمام أنقاض مناضد اللعب، وعربات المأكولات المقلية، وأكشاك الرماية على الهدف، والزقاق الذي تُفسر فيه الأحلام ويُقرأ المستقبل، حتى إن أوريليانو الثاني سألهم، باستهتاره المعهود، عن الوسيلة السرية التي استخدموها كيلا يغرقوا في العاصفة، وأية شياطين فعلوا للنجاة من الغرق، فأجابوه واحداً بعد آخر، ومن باب لباب، وهم يردون إليه ابتسامة ماكرة، ونظرة حالمة، مرددين الجواب نفسه، دون أن يتفقوا عليه مسبقاً:

- سباحة.

ربما كانت بيترا كوتيس هي الوطنية الوحيدة التي لها قلب عربي. فقد رأت وقائع الدمار الأخيرة في حظائرها وإسطبلاتها التي جرفتها العاصفة، ولكنها تمكنت من إبقاء البيت منتصباً. كانت قد بعثت، في السنة الأخيرة، رسائل مستعجلة إلى أوريليانو الثاني، فأجابها بأنه لا يعرف متى سيرجع إلى بيتها، لكنه سوف يحمل إليها، على أي حال، صندوقاً من القطع الذهبية ليبلط بها أرضية غرفة نومها. عندئذ نبشت في قلبها، باحثة عن قوة تتيح لها النجاة من الكارثة، ووجدت غضباً مرناً وعادلاً، أقسمت به على استعادة الثروة التي بددها العشيق وأجهز عليها الطوفان. كان قرارها حازماً، حتى إن أوريليانو الثاني رجع إلى بيتها بعد ثمانية شهور من آخر رسالة، فوجدها خضراء، مشعثة، بعينين غائرتين، وبشرة يغطيها الجرب، ولكنها تدون أرقاماً على قصاصات من الورق، لإجراء يانصيب. وقف أوريليانو الثاني مذهولاً، بنحول ووقار كبيرين، حتى إن بيترا كوتيس لم تصدق أن العائد للبحث

عنها هو عشيق عمرها، وظنت أنه أخوه التوأم.

- أنت مجنونة - قال لها - إلا إذا كنت تريدين إجراء يانصيب على العظام.

عندئذ طلبت منه أن يلقي نظرة على غرفة النوم. ورأى أوريليانو الثاني البغلة. كان جلدها ملتصقاً بعظمها، مثل صاحبتها، ولكنها حية ومصممة مثلها أيضاً. كانت بيترا كوتيس قد غذتها بغضبها، ولما لم يبق لديها شيء من العشب، ولا الذرة ولا الجذور، آوتها في غرفة نومها، وأطعمتها الملاءات القطنية، والسجاجيد الفارسية، وأغطية السرير، وستائر المخمل، ومظلة السرير الأسقفية الموشاة بخيوط من الذهب وشرابات حريرية.

كان على أورسولا أن تبذل جهداً عظيماً لتتجز وعدها بالموت عندما يتوقف المطر. ومضات صفاء الذهن التي كانت قليلة جداً أثناء المطر، راحت تزداد منذ شهر آب، عندما بدا هبوب الهواء الجاف الذي كان يخنق شجيرات الورد القرمزي ويُحَجِّر المستنقعات، وانتهى إلى أن ينثر على ماكوندو غباراً حارقاً غطى، إلى الأبد، سطوح التوتياء الصدئة وأشجار اللوز المئوية. بكت أورسولا أسى حين اكتشفت أنها ظلت، طوال ثلاثة أعوام، لعبة للطفلين. غسلت وجهها الملون بالأصبغة، ونزعت عنها مزق القماش الملونة، والسحالي والضفادع المتيبسة، والمسابح والعقود العربية القديمة التي علقاها على جسدها كله. ولأول مرة منذ موت آمارانتا، غادرت سريرها دون مساعدة أحد، كي تنضم مجدداً إلى الحياة العائلية. قادتها حماسة قلبها الذي لا يقهر في الظلمات. ومن أمعنوا النظر في تعثرها أو من صدمتهم يدها الملائكية المرفوعة دوماً على مستوى رأسها، فكروا أنها لا تتمكن من حمل جسدها إلا بمشقة، لكنهم لم يظنوا أنها عمياء. ولم تحتج هي إلى الرؤية لكي تدرك أن أصص الزهور التي زُرعت بعناية كبيرة، منذ إعادة البناء الأولى، قد تهشمت من المطر، وأودت بها حفريات أوريليانو الثاني؛ وأن الجدران وإسمنت الأرضية قد تشققت، وأن الأثاث تضعضع وحال لونه، وأن الأبواب

قد تداعت، وأن العائلة مهددة بروح الاستسلام والغم التي ما كان تصورها ممكناً في زمانها. وبينما هي تنتقل، متلمسة طريقها، بين الغرف الخاوية، كانت تسمع هسيس النمل الأبيض ينخر الأخشاب، وقصقصة العث في خزائن الملابس، والجلبة المدمرة للنمال الحمر الضخمة التي تكاثرت أثناء الطوفان، وراحت تنخر ركائز البيت. وفي أحد الأيام، فتحت صندوق القديسين، وكان عليها أن تطلب مساعدة صوفيا قديسة الرحمة كي تُبعد عنها الصراصير التي اندفعت منه، بعد أن حوّلت الثياب فيه غباراً. فكانت تقول: «لا يمكن العيش في هذا الإهمال. إذا استمرت الحال على هذا النحو فستأكلنا الحيوانات». ومنذ ذلك الحين، لم تعرف لحظة راحة واحدة. كانت تستيقظ قبل الفجر، فتستعين بمن تجده مستعداً، بمن في ذلك الطفلين. نشرت تحت الشمس الملابس القليلة التي مازالت في وضع يمكن معه استخدامها، وطاردت الصراصير بغارات مفاجئة بالمبيدات، وكشطت عروق النمل الأحمر عن الأبواب والنوافذ، وخنقت النمل، بالكلس الحي، في أوكاره. واقتادتها حمى الترميم تلك، في نهاية الأمر، إلى الغرف المنسية. فأمرت بالتخلص من الأنقاض وشباك العنكبوت في الغرفة التي جف فيها دماغ خوسيه أركاديو بوينديا وهو يبحث عن حجر الفلاسفة، ورتبت مشغل الصياغة الذي بعثره الجنود، وطلبت أخيراً مفاتيح غرفة ميلكيادس، لترى في أية حالة هي. وبوفاء لمشيئة خوسيه أركاديو الثاني الذي حظر أي نوع من التدخل ما لم تظهر دلائل حقيقية على موته، لجأت صوفيا قديسة الرحمة لكل أنواع الذرائع لتضليل أورسولا. ولكنها كانت حازمة في قرارها بألا تترك للحشرات أي ركن قصي وغير نافع في

البيت، فقوضت كل العراقيل التي اعترضتها، وبعد ثلاثة أيام من الإلحاح، توصلت إلى جعلهم يفتحون الغرفة. كان عليها أن تتشبث بمقبض الباب كيلا تسقط أرضاً من النتانة، ولكنها لم تحتج لأكثر من ثانيتين، كي تتذكر أن مباول التلميذات الاثنتين والستين محفوظة هناك، وأن دورية من الجنود فتشت البيت، في واحدة من أولى ليالي المطر، بحثاً عن خوسيه أركاديو الثاني، ولم تتمكن من العثور عليه.

- فليتبارك الرب! - هتفت كما لو أنها رأت كل شيء، وأضافت:- بالرغم من كل الجهد المبذول لتلقينكَ العادات الحميدة، تنتهي للعيش مثل خنزير.

كان خوسيه أركاديو الثاني يواصل قراءة الرقاق. وكان الشيء الوحيد المرئي في متاهة الشعر المتشابكة والكثة، هي أسنانه المخططة بزنجار أخضر، وعينيه الثابتتين. حين تعرف على صوت جدة أبيه، حرك رأسه باتجاه الباب، وحاول الابتسام، وكرر دون معرفة مسبقة، جملة قديمة لأورسولا، إذ قال مدمدماً:

- ماذا تريدين، فالزمن يمضي.

- صحيح - قالت أورسولا - ولكن ليس إلى هذا الحد.

وما إن قالت ذلك، حتى انتبهت إلى أنها تقدم الجواب نفسه الذي تلقته من الكولونيل أوريليانو بويندیا في زنزانته، وهو محكوم عليه بالإعدام، وأحست بالقشعريرة، مرة أخرى، وهي تتأكد مجدداً من أن الزمن لا يمضي، مثلما وافقت للتو، وإنما يلتف دائرياً. ولكنها لم تمنح الاستسلام فرصة. أنبت خوسيه أركاديو الثاني كما لو كان طفلاً، وأصرت على أن يستحم، ويحلق ذقنه، ويمدها بقوته لتنهي ترميم البيت. ارتعب خوسيه أركاديو الثاني

لمجرد التفكير بمغادرة الغرفة التي وفرت له السلام. فصرخ بأنه لا يمكن لقوة بشرية أن تُخرجه، لأنه لا يريد رؤية قطار المئتي عربة، المحمل بالموتى، الذي ينطلق عند كل غروب، من ماكوندو، باتجاه البحر. وصرخ: «إنهم جميع من كانوا في المحطة. ثلاثة آلاف وأربعمئة وثمانية». عندئذ فقط، أدركت أورسولا أنه في عالم ظلمات أشد قتامة من ظلمتها، عالم ظلمة متماسكة وكتيمة، كعالم جد جده. تركته في الغرفة، ولكنها توصلت إلى أن تجعله لا يضع القفل، وأن تُنَظَّف الغرفة كل يوم، وأن تُلقى المباول إلى القمامة، وتُستبقى واحدة منها فقط، وأن يظل خوسيه أركاديو الثاني نظيفاً وحسن المظهر، مثلما كان جد جده في حبسه الطويل تحت شجرة الكستناء. في البدء، فسرت فرناندا ذلك الانكباب بأنه ولوج في جنون الشيخوخة، وكانت تتكلف مشقة كبيرة في كبح سخطها. ولكن ابنها خوسيه أركاديو أخبرها، من روما، في تلك الأثناء، بأنه يفكر في المجيء إلى ماكوندو، قبل أن ينذر نفسه للرهبنة الأبدية، فبث فيها الخبر الطيب حماسة كبيرة، وجدت نفسها معها، بين عشية وضحاها، تسقي الزهور أربع مرات في اليوم، كي لا يأخذ ابنها انطباعاً سيئاً عن البيت. وكان هذا الحافز هو الذي دفعها إلى التعجيل بمراسلاتها مع الأطباء غير المرئيين، وإلى إصلاح أصص السرخس والأوريغانو في الردهة، وأصص البيغونيا، قبل وقت طويل من أن تعلم أورسولا بأن أوريليانو الثاني قد حطمها جميعها في نوبة غضبه المهلكة. وفيما بعد، باعت أدوات المائدة الفضية، واشترت أطباقاً وأواني خزفية، وآنية حساء ومغارف من القصدير، أضفت بها مظهراً بائساً على خزائن الأواني المعتادة على خزف شركة الهند الغربية، وكريستال

بوهيميا. كانت أورسولا تحاول، على الدوام، المضي بعيداً، فتصرخ: «افتحوا الأبواب والنوافذ. اطبخوا لحماً وسمكاً، واشتروا أكبر السلاحف، وليأت الغرباء ليفرشوا حصرهم في الأركان، ويتبولوا على شجيرات الورد، وليجلسوا إلى المائدة ليأكلوا ما يرغبون فيه من المرات، وليتجشؤوا ويهذروا ويلوثوا كل شيء بأحذيتهم، ويفعلوا بنا ما يشتهون، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإبعاد الخراب». ولكنه كان وهماً غير مجدٍ. فقد هرمت كثيراً، وصارت تعيش وقتاً فائضاً لا يمكنها معه تكرار معجزة حيوانات السكاكر، ولم يكن أحد من ذريتها قد ورث عنها صلابتها. فتواصل إغلاق البيت بأمر من فرناندا.

أوريليانو الثاني الذي حمل صندوقيه مجدداً إلى بيت بيترا كوتيس، كان لا يكاد يملك الوسائل التي تحول دون موت الأسرة جوعاً. وباليانصيب على البغلة، اشترى هو وبيترا كوتيس حيوانات أخرى، تمكنا بها من ترسيخ تجارة يانصيب بدائية. كان أوريليانو الثاني يتنقل من بيت إلى بيت، عارضاً بطاقات اليانصيب التي يلونها بنفسه، بأحبار ملونة، ليجعلها أكثر جاذبية وإقناعاً، وربما لم يكن ينتبه إلى أن كثيرين يشترون تلك البطاقات بدافع الاعتراف بالجميل، ومعظمهم بدافع الشفقة. ومع ذلك، فإن أشد المشترين إشفاقاً، كانوا يمنون أنفسهم بكسب خنزير مقابل عشرين سنتافو، أو عِجلة باثنين وثلاثين، ويتحمسون كثيراً لهذا الأمل، حتى إنهم يملؤون فناء بيت بيترا كوتيس، كل ليلة ثلاثاء، بانتظار اللحظة التي يقوم فيها طفل يُختار مصادفة، بتناول الرقم الرابح من الجراب. وسرعان ما تحول الأمر إلى مهرجان أسبوعي، فمنذ الغروب توضع في الفناء بسطات مأكولات مقلية ومشروبات، ويقوم كثير

من الرابحين بذبح الحيوان الذي كسبوه، هناك بالذات، شريطة أن يقدم آخرون الموسيقى والخمر. وهكذا، ودون أن يكون راغباً في ذلك، وجد أوريليانو الثاني نفسه فجأة، يعود مجدداً إلى عزف الأكورديون، ويشارك بتواضع في مباريات النهم. هذا التكرار البائس لحفلات الأيام الغابرة، أفاد في جعل أوريليانو الثاني يكتشف كم انحدرت حماسته، وإلى أي حد جف نبوغ عربدته البارعة. لقد صار رجلاً متحولاً. فالمئة وعشرون كيلو غراماً التي بلغها وزنه في الزمن الذي تحدى فيه «الفيلة»، تقلصت إلى ثمانية وسبعين؛ ووجه السلحفاة طيب النية والمنتفخ، تحول إلى وجه عظاءة إيغوانا، وهو يمضي دوماً، قريباً من الضجر والتعب. مع ذلك، لم يكن في نظر بيترا كوتيس، رجلاً أفضل مما هو عليه حينذاك، ربما لأنها كانت تخلط بين الحب والشفقة التي يوحي بها إليها، والإحساس بالعزلة الذي أيقظه البؤس في كليهما. لم يعد السرير المخلع مكاناً للملذات، وتحول إلى ملاذ لتبادل الشجون. وبتحررهما من المرايا التي تكرر صورتيهما، بعد أن باعاها من أجل شراء حيوانات لليانصيب؛ ومن ستائر الدمقس والمخامل الشهوانية التي أكلتها البغلة، صارا يبقيان مستيقظين حتى وقت متأخر ببراءة جدين مؤرقين، مستغلين الوقت الذي كانا يبددانه في تبديد نفسيهما، لإجراء حسابات وتحويل سنتات من بند نفقات إلى آخر. فكانت يفاجئهما صياح أول الديكة، في بعض الأحيان، وهما يشكلان أكواماً صغيرة من النقود ويبعثرانها، بنقل قليل من هنا لوضعه هناك، بحيث تكفي هذه الكومة لنفقات فرناندا، وتلك لشراء حذاء لأمارانتا أورسولا، وهذه الثالثة لصوفيا قديسة الرحمة التي لم تدشن ثوباً جديداً منذ أزمنة

الضجيج، وهذه للتوصية على نعش، إذا ما ماتت أورسولا، وهذه لشراء القهوة التي يرتفع سعرها، كل ثلاثة أشهر، بمعدل سنتافو لكل ليبرة، وهذه للسكر الذي يقل حلاوة في كل مرة، وهذه للحطب الذي لا يزال مبللاً بفعل الطوفان، وهذه الأخرى من أجل ورق البطاقات وأحبارها الملونة، وتلك المتبقية لتسديد قيمة بقرة نيسان، التي أنقذوا جلدها بأعجوبة، لأنها أصيبت بحمى فحمية عارضة بعد أن باعا كل أرقام اليانصيب. كانت شديدة النقاء صلوات الفقر تلك، حتى إنهما كانا يخصصان دوماً، أفضل حصة لفرناندا. ولم يفعلا ذلك قط بدافع تأنيب الضمير أو الشفقة، وإنما لأن سعادتها تهمهما أكثر من سعادتهما بالذات. وما كان يحدث في الحقيقة، مع أن أياً منهما لم ينتبه إلى ذلك، هو أنهما كانا يفكران بفرناندا كما لو أنها الابنة التي رغبا في إنجابها ولم يفعلا، إلى حد أنهما ارتضيا، في إحدى المرات، بالاكتفاء بأكل العصيدة وحدها، مدة ثلاثة أيام، كي تتمكن هي من شراء شرشف مائدة هولندي. ومع ذلك، ومهما قتلا نفسيهما في العمل، ومهما كانت النقود التي يحصلانها، ومهما كانت الحيل التي يتصورانها، فقد كان ملاكاهما الحارسان ينامان من التعب، بينما هما يضيفان إلى كومات القطع النقدية، أو يُنقصان منها في محاولة لجعلها تكفيهما ولو لمجرد العيش. وفي الأرق الذي تخلفهما فيه الحسابات السيئة، يتساءلان عما حدث للعالم كيلا تتوالد المواشي بالهياج السابق نفسه، ولماذا تتبدد النقود من أيديهما، ولماذا صار الناس الذين كانوا، إلى ما قبل وقت قصير، يحرقون رزماً من الأوراق النقدية في الولائم الصاخبة، يستكثرون عليهما تقاضي اثني عشر سنتافو ليانصيب على ست دجاجات. كان أوريليانو

الثاني يفكر، دون أن يقول ذلك، في أن العيب ليس في العالم، وإنما في مكان خفي من قلب بيترا كوتيس الغامض، حيث حدث شيء خلال الطوفان، حوّل الحيوانات إلى عاقرة، والنقود إلى متهربة. وفي حيرته من هذه الأحجية، نبش عميقاً في مشاعرها، باحثاً عن المصلحة، فوجد الحب. لأنه في محاولته لجعلها تحبه، انتهى هو إلى الوقوع في حبها. وكانت بيترا كوتيس، من جهتها، آخذة في حبه أكثر فأكثر، مع إحساسها بازدياد حبه لها، وكان هكذا أن عادت في ذروة الخريف، إلى الإيمان بالخرافة الشبابية القائلة إن الفقر هو عبد للحب. وصار كلاهما يتذكر عندئذ، كعقبة، حفلات القصف غير المعقولة، والثروة الهائلة، والمضاجعات دون كابح، ويتحسران على الوقت الطويل الذي ضيعاه من أجل الوصول إلى فردوس الوحدة المتقاسمة. وبتبادلهما حباً مجنوناً، بعد سنوات طويلة من التواطؤ القاحل، صارا يستمتعان بمعجزة الحب، سواء على المائدة أو في السرير، وتوصلا إلى أن يكونا سعيدين، إلى حد أنهما، بعد أن صارا عجوزين مستنفدين، واصلا النطنطة كأرنبين، والعراك ككلبين.

لم يكفِهما اليانصيب قطّ لما هو أكثر من ذلك. في البدء، كان أوريليانو الثاني يقضي ثلاثة أيام في الأسبوع، معتكفاً في مكتبه القديم كمربي ماشية، ليرسم البطاقات واحدة واحدة، فيرسم بشيء من المهارة، بقرة حمراء، أو خنزيراً أخضر، أو مجموعة دجاجات زرقاء، حسب نوع الحيوان الذي سيجري الاقتراع عليه، ويخط بتقليد جيد لحروف الطباعة، الاسم الذي رأته بيترا كوتيس مناسباً لتعميد تجارتهما: *يانصيب العناية الإلهية*. ولكنه مع مرور الوقت، صار يشعر بإرهاق شديد بعد رسم حوالي ألفي بطاقة كل

أسبوع، فأوصى على صنع الحيوانات والاسم والأرقام على أختام من الكاوتشوك، واقتصر العمل عندئذ على ترطيبها على وسائد أحبار مختلفة الألوان. وفي السنوات الأخيرة من حياتيهما، خطر لهما استبدال الأرقام بأحجيات، بحيث تتوزع الجائزة على كل من يصيبون في حل الأحجية. ولكن تبين لهما أن هذا النظام بالغ التعقيد، ويحتمل افتراضات كثيرة، فتخليا عنه بعد المحاولة الثانية.

كان أوريليانو الثاني مشغولاً جداً بمحاولة ترسيخ سمعة يانصيبه، ولم يكد يبقى لديه متسع من الوقت لرؤية الطفلين. وضعت فرناندا ابنتها آمارانتا أورسولا في مدرسة خاصة، حيث لا يقبلون سوى ستة تلاميذ، ولكنها رفضت السماح بذهاب أوريليانو إلى المدرسة العامة. مقدرة أنها قد تنازلت كثيراً بموافقتها على مغادرته الغرفة. فضلاً عن أن المدارس في ذلك العهد، لم تكن تقبل إلا أبناء شرعيين لأزواج كاثوليكيين، بينما كان مسجلاً في شهادة ميلاد أوريليانو التي علقوها بدبوس على مريلته، عندما جيء به إلى البيت، أنه لقيط. وهكذا ظل تحت حراسة صوفيا قديسة الرحمة المشفقة، ومبادرات أورسولا العقلية، مستكشفاً عالم البيت الضيق مثلما تشرحه له الجدات. كان نحيلاً، ممطوطاً، وبفضول يُخرج الكبار عن طورهم، ولكن على خلاف النظرة المتفحصة، والمتبصرة أحياناً، التي كانت للكولونيل وهو في مثل سنه، كانت نظرته رامشة وذاهلة بعض الشيء. وبينما تكون آمارانتا أورسولا في المدرسة، كان هو يصطاد الديدان، ويعذب حشرات في الحديقة. وعندما فاجأته فرناندا، ذات مرة، وهو يجمع عقارب في علبة، كي يضعها على فراش

أورسولا، حبسته في غرفة ميمي القديمة، حيث شغل نفسه في ساعات وحدته، بمراجعة صور الموسوعة. وهناك وجدته أورسولا في عصر أحد الأيام، وهي ترش البيت بماء مصفى وباقة من القُراص، وبالرغم من أنها كانت قد التقته مرات كثيرة من قبل، فقد سألته عمن يكون. فقال:

- أنا أوريليانو بوينديا.

- صحيح - ردت هي - لقد آن الأوان كي تبدأ تعلم الصياغة.

وعادت تخلط بينه وبين ابنها، لأن الهواء الساخن الذي تلا الطوفان، وبث في دماغ أورسولا بعض ومضات الصفاء الآنية، كان قد انقضى. ولم تستعد عقلها بعد ذلك. فعندما كانت تدخل غرفتها، تجد هناك بيترولينا إيغواران بتنورتها المنتفخة التي تعرقل مشيها، وصدار الخرز الذي ترتديه لاستقبال الزيارات وللمواعيد، وتجد جدتها ترانكيلينا ماريا مينياتا آلاكوكي بوينديا، جالسة على كرسيها الهزاز، تُهوّي بريشة طاووس، وجد جدها أوريليانو أركاديو بوينديا مرتدياً سترة حرس نائب الملك المزيفة، وأباها أوريليانو إيغواران الذي ابتدع ترتيلة تحرق الدود وتُسقطه من البقر، وأمها التقية، وابن عمها ذا ذنب الخنزير، وخوسيه أركاديو بوينديا، وأبناءها الميتين، جميعهم جالسين على كراسٍ أُسندت إلى الجدار، كما لو أنهم ليسوا في زيارة، وإنما في سهر على ميت. فترتجل معهم ثرثرة ملونة، متحدثة عن شؤون أمكنة متباعدة، وأزمنة غير متوافقة، حتى إذا ما عادت آمارانتا أورسولا من المدرسة، وملّ أوريليانو من الموسوعة، وجداها جالسة في السرير، تتكلم وحدها، ضائعة وسط متاهة من الموتى. وفي إحدى المرات، صاحت مذعورة: «النار!». فنشرت الهلع في البيت هنيهة؛ لكن ما حذرت

منه كان حريقاً في إسطبل شهدته وهي في الرابعة من عمرها. وقد بلغ خلطها للماضي بالحاضر، إلى حدّ أن أحداً لم يعرف بصورة مؤكدة، في نوبات صحوها الاثنتين أو الثلاث، قبل الموت، إذا ما كانت تتحدث عما تشعر به أو عما تتذكره. وشيئاً فشيئاً، راحت تتضاءل، تتحول جنيناً، تتحنط في الحياة، إلى أن صارت في أشهرها الأخيرة خوخة ناشفة، ضائعة في قميص النوم، وانتهى الأمر بذراعها المرفوعة دائماً إلى أن تبدو كقائمة قرد صغير. كانت تبقى أياماً عديدة بلا حراك، فيكون على صوفيا قديسة الرحمة أن تهزها لتتأكد من أنها لا تزال حية، وتُجلسها على ركبتيها لتغذيتها بملاعق صغيرة من ماء محلى. كانت تبدو عجوزاً حديثة الولادة. وكانت آمارانتا أورسولا وأوريليانو يذهبان ويجيئان بها في غرفة النوم، ويمددانها على مذبح الغرفة الصغير، ليريا كيف أنها تكاد لا تكون أطول إلا قليلاً من تمثال الطفل يسوع. وفي مساء أحد الأيام، خبأها في إحدى خزائن مستودع المؤونة، حيث كان يمكن للجرذان أن تأكلها. وذات يوم أحد شعانين، دخلا الغرفة بينما فرناندا في القداس، وحملا أورسولا من كتفيها ورسغي قدميها. قالت آمارانتا أورسولا:

- مسكينة جدة جدي. لقد ماتت من الشيخوخة.

ذُعرت أورسولا، وقالت:

- إنني حية.

- أترى - قالت آمارانتا أورسولا وهي تكبح ضحكتها:- حتى إنها لا تتنفس.

فصرخت أورسولا:

- إنني أتكلم!

- وحتى إنها لا تتكلم - قال أوريليانو - لقد ماتت مثل جدجد صغير.

عندئذ استسلمت أورسولا للأمر الواقع، وهتفت بصوت خافت: «رباه! إنه الموت إذاً». وبدأت ترتيلة لا نهائية، متعثرة، عميقة، استمرت أكثر من يومين، وانحطت في يوم الأربعاء إلى خليط من التضرعات لله، ونصائح عملية كيلا يقوض النملُ الأحمر البيت، وكيلا يُطفأ أبداً القنديل المضاء أمام صورة ريميديوس، وكيلا يتزوج أحد من آل بوينديا امرأة من دمه نفسه، لأن الأبناء سيولدون بأذناب خنازير. حاول أوريليانو الثاني أن يستغل هذيانها لتعترف له أين هو الذهب المدفون، ولكن توسلاته لم تُجدِ نفعاً مرة أخرى. فقد قالت أورسولا: «عندما يجيء صاحبه سيضيء الله قلبه ليجده». أيقنت صوفيا قديسة الرحمة أنها ستجدها ميتة بين لحظة وأخرى، لأنها لمحت، في الأيام الأخيرة، اضطراباً في الطبيعة: الورد صارت له رائحة الريحان، ووقع من يدها إناء فيه حمص، فتوزعت الحبات على الأرض في نظام هندسي دقيق، على شكل نجمة بحر، ورأت في إحدى الليالي، مرور صف من الدوائر البرتقالية المضيئة في السماء.

طلع عليها صباح يوم الخميس المقدس وهي ميتة. آخر مرة ساعدوها فيها على حساب سنوات عمرها، في أزمنة شركة الموز، قدرتها بين مئة وخمس عشرة سنة ومئة واثنتين وعشرين سنة. دفنوها في صندوق لا يكاد يكون أكبر من السلة التي جيء بأوريليانو الصغير فيها، وقلة من الناس حضروا الجنازة، لأن من يتذكرونها لم يكونوا كثيرين من جهة، ولأن تلك الظهيرة، من جهة أخرى، كانت شديدة الحر، حتى إن العصافير التي فقدت صوابها،

صارت ترتطم بالجدران كأنها الخردق، وتمزق شباك النوافذ المعدنية كي تموت في غرف النوم.

في البدء، ظن الناس أنه وباء جديد. واستُنفدت ربات البيوت من كثرة كنس الطيور الميتة، خاصة في ساعة القيلولة. وكان الرجال يحملونها في عربات لرميها في النهر. وفي أحد القيامة، أكد الأب أنطونيو إيزابيل الذي بلغ المئة، من فوق منبر الكنيسة، أن موت العصافير هو انصياع للتأثير الخبيث لليهودي التائه الذي رآه هو نفسه في الليلة الفائتة. ووصفه بأنه هجين من تصالب تيس وامرأة كافرة، وأنه بهيمة جهنمية، تؤجج أنفاسه الهواء، ومجيئه يحدد حبل المتزوجات حديثاً بمسوخ. لم يولِ كثيرون اهتماماً لخطبته الرؤيوية، لأن القرية كانت مقتنعة بأن الكاهن يخرف بسبب تقدمه في السن. لكن امرأة أيقظت الجميع في فجر يوم الأربعاء، لأنها وجدت آثار كائن بقائمتين اثنتين، تنتهيان بحافرين مشقوقين. كان الأثر صحيحاً ولا مجال للخطأ فيه، إلى حد أن من ذهبوا لرؤيته، لم يخامرهم الشك بوجود كائن مخيف، شبيه بالذي وصفه الكاهن، واتفقوا على نصب شِراك في أفناء بيوتهم. وبهذه الطريقة استطاعوا الإمساك به. فبعد أسبوعين من موت أورسولا، استيقظت بيترا كوتيس وأوريليانو الثاني مذعورين على صوت بكاء عجل غير عادي، يأتيهما من الجوار. وعندما نهضا، كانت جماعة من الرجال تُخلص المسخ من العيدان ذات الرؤوس الحادة التي نصبوها في حفرة مغطاة بأوراق جافة، وكان المسخ قد توقف عن الخوار. كان له وزن جاموس، بالرغم من أن طوله لا يزيد عن قامة فتى مراهق، وكان يسيل من جراحه دم أخضر مرهمي. وكان جسده مغطى بوبر خشن، تملؤه قرادات دقيقة،

وجلده متحجر بقشرة حرشفية، ولكن أجزاءه البشرية، وخلافاً لوصف الكاهن، بدت أقرب إلى ملاك منها إلى رجل، فيداه ناعمتان وماهرتان، وعيناه كبيرتان وغسقيتان، وله على لوحي كتفيه جدعة مندملة ومتصلبة من جناحين قويين، لا بد أنهما قُطعا بفأس فلاح. علقوه من كاحليه على شجرة لوز في الساحة، كيلا يبقى هناك من لا يراه، وعندما بدأ يتعفن، رمدوه في محرقة، لأنه لم يكن بالإمكان تحديد إذا ما كانت طبيعته الهجينة، هي طبيعة حيوان ليُرمى في النهر، أم مسيحي ليُدفن في قبر. ولم تُحسم قط مسألة إذا ما كان هو حقاً، السبب في موت العصافير، ولكن المتزوجات حديثاً لم ينجبن المسوخ المعلن عنها، كما أن شدة الحر لم تخف.

ماتت ريبيكا في أواخر تلك السنة. وطلبت أرخينيدا، خادمتها مدى الحياة، مساعدة السلطات لتحطيم باب غرفة النوم حيث كانت سيدتها معتكفة منذ ثلاثة أيام، فوجدوها في السرير المتوحد، متقوقعة على نفسها كقريدسة، رأسها أقرع بلا شعر، وإصبعها الإبهام في فمها. تولى أوريليانو الثاني مسؤولية الدفن، وحاول أن يرمم البيت لبيعه، لكن ضراوة الخراب فيه كانت من الحدة بحيث أن دهان الجدران كان يتقشر فور الانتهاء من طلائها، ولم يكن هناك ملاط كافٍ، مهما بلغت سماكته، يحول دون تشقيق الأعشاب للأرضيات، ويمنع اللبلاب من أن يعفن دعائم السقف.

كل شيء كان يمضي على هذا النحو منذ الطوفان. كان إهمال الناس يتعارض مع نهم النسيان الذي راح يقضم الذكريات شيئاً فشيئاً، بلا رحمة، إلى حدّ أنه عندما وصل إلى ماكوندو، في تلك

الأيام، مبعوثون من رئيس الجمهورية، كي يقوموا، أخيراً، بتسليم الوسام الذي رفضه الكولونيل أوريليانو بوينديا مراراً، ضيعوا مساء يوم كامل في البحث عمن يخبرهم أين يستطيعون العثور على أحد من ذريته. وكان أوريليانو الثاني يوشك على قبول تسلمه، معتقداً أن الوسام من الذهب الخالص، غير أن بيترا كوتيس توصلت إلى إقناعه بأن ذلك يحط من كرامته، بينما كان المبعوثون يعدون البلاغات والخطب للاحتفال. في تلك الفترة أيضاً، رجع الغجر، آخر ورثة علوم ميلكيادس، ووجدوا القرية منهوكة، وسكانها بعيدين جداً عن بقية العالم، فعادوا إلى دخول البيوت وهم يجرجرون قطع حديد ممغنطة، كما لو أنها حقاً آخر اكتشافات العلماء البابليين، وأعادوا تركيز الأشعة الشمسية بالعدسة الضخمة، ولم يعدم من وقف فاغراً فمه من الدهشة وهو يرى تساقط المقالي وتدحرج القدور، ومن يدفعون خمسين سنتافو ليندهشوا برؤية غجرية تنتزع أسنانها الاصطناعية وتعيد وضعها في فمها. وكان قطار أصفر مخلع، لا يأتي بأحد ولا يأخذ أحداً، ولا يكاد يتوقف في المحطة المقفرة، هو الشيء الوحيد الذي بقي من القطار الحاشد الذي كان السيد براون يربط به عربته ذات السقف البلوري والمقاعد الأسقفية، ومن قطارات ثمار الموز ذات المئة والعشرين عربة، التي كان مرورها يتواصل مساء كاملاً. مندوبو القضاء الكنسي الذين جاؤوا للتحقيق في التقرير عن موت العصافير الغريب، وذبح اليهودي التائه، وجدوا الأب أنطونيو إيزابيل يلعب مع الأطفال لعبة الدجاجة العمياء، فظنوا أن تقريره محصلة هلوسة الشيخوخة، ونقلوه إلى ملجأ للعجزة. وبعد قليل من ذلك، أرسلوا الأب أوغسطو أنخل، وهو صليبي من الدفعات

الجديدة، متشدد، جريء، جسور، يقرع الأجراس بنفسه عدة مرات في اليوم، كيلا يتسلل النعاس إلى الأرواح، ويتنقل من بيت إلى بيت، ليوقظ النؤومين كي يذهبوا إلى القداس. ولكن قبل انقضاء عام، تغلب عليه هو أيضاً الخمول الذي يعبق في الجو، والغبار الملتهب الذي يصيب كل شيء بالهرم والعطالة، والنعاس الذي تسببه كرات لحم الغداء في حر القيلولة الذي لا يطاق.

عاد البيت، بعد موت أورسولا، إلى السقوط في إهمال لا يمكن أن تخرجه منه حتى إرادة حازمة، مثل إرادة آمارانتا أورسولا التي عمدت، بعد سنوات طويلة، وكانت قد صارت امرأة بلا أحكام مسبقة، سعيدة وعصرية، راسخة القدمين تماماً في العالم، إلى فتح الأبواب والنوافذ كي تهزم الخراب، ورممت الحديقة، وأبادت النمل الأحمر الذي صار يذرع الردهة في وضح النهار، وحاولت دون جدوى، أن توقظ روح الضيافة المنسية. فقد أقام ولع فرناندا بالإغلاق سداً منيعاً في مواجهة مئة عام من الاندفاع الصاخب في حياة أورسولا. لم تكتف برفض فتح الأبواب عند مرور الرياح الجافة، بل أمرت كذلك بختم النوافذ بأخشاب متصالبة، منصاعة لشعار أبويها في دفن النفس في الحياة. وقد انتهت مراسلاتها باهظة التكاليف، مع الأطباء المجهولين، إلى الفشل. فبعد التأجيل عدة مرات، حبست نفسها في غرفتها، في اليوم والساعة المتفق عليهما، ملتفة بملاءة بيضاء فقط، ورأسها إلى جهة الشمال، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أحست بأنهم يكممون وجهها بمنديل مبلل بسائل جليدي. وعندما استيقظت، كانت الشمس تسطع من النافذة، وكانت في جسدها خياطة رهيبة، على شكل قوس، تبدأ من أصل الفخذ وتنتهي عند عظم القص. ولكنها قبل

أن تمضي فترة الاستراحة المقررة، تلقت رسالة محيرة من الأطباء المجهولين، يقولون فيها إنهم فحصوها خلال ست ساعات، دون أن يجدوا شيئاً يتفق مع الأعراض التي وصفتها لهم مراراً وبتدقيق بالغ. والحقيقة أن عادتها الوبيلة في عدم تسمية الأشياء بأسمائها، أدت إلى الوقوع في تشوش جديد، فالشيء الوحيد الذي وجده الجراحون التخاطريون، هو هبوط في الرحم يمكن إصلاحه باستخدام فِرزجة[1]. حاولت فرناندا خائبة الأمل أن تحصل على معلومات أكثر دقة، ولكن مراسليها المجهولين لم يعودوا إلى الرد على رسائلها. وأحست بالضيق تحت ثقل تلك الكلمة غير المعروفة، فقررت أن تقهر خجلها، وتسأل ما هي الفرزجة. وعندئذ فقط، علمت أن الطبيب الفرنسي قد شنق نفسه على إحدى عوارض السقف، قبل ثلاثة أشهر، وأن رفيقاً قديماً في السلاح للكولونيل أوريليانو بوينديا، تولى دفنه، خلافاً لإرادة القرية. فوضعت ثقتها عند ذلك بابنها خوسيه أركاديو، فأرسل لها فرزجات من روما، وأرسل معها نشرة توضح طريقة الاستعمال، فألقت بالنشرة في المرحاض بعد أن حفظتها عن ظهر قلب، كيلا يعرف أحد شيئاً عن طبيعة مرضها. كان إجراء احتياطياً بلا طائل، لأن من يعيشون في البيت كانوا لا يكادون يعيرونها اهتماماً. فصوفيا قديسة الرحمة، تهيم في شيخوخة متوحدة، وتطهو الطعام القليل الذي يأكلونه، وتكرس نفسها بالكامل تقريباً لرعاية خوسيه أركاديو الثاني. وصارت آمارانتا أورسولا، وريثة بعض مفاتن ريميديوس الجميلة، تستغل الوقت

---

[1] فرزجة pesario: أداة صغيرة من الكاوتشوك، تقحم في المهبل لتصحيح وضع الرحم.

الذي كانت تضيعه في تعذيب أورسولا، من أجل إنجاز واجباتها المدرسية، وبدأت تبدي تعقلاً وحكمة، وانكباباً على الدراسة، مما جدّد في نفس أوريليانو الثاني الأمل الطيب الذي كان يعقده على ميمي. فوعدها بأن يرسلها لإكمال دراستها في بروكسل، وفق عادة انتشرت في أزمنة شركة الموز. وقاده هذا الوهم إلى محاولة إعادة إحياء الأرضي التي خربها الطوفان. والمرات القليلة التي جاء فيها إلى البيت، إنما كانت لرؤية آمارانتا أورسولا، فقد تحول، مع مرور الوقت، إلى غريب لدى فرناندا، وكان أوريليانو الصغير يزداد انزواء كلما اقترب من سن البلوغ. وكان أوريليانو الثاني واثقاً من أن الشيخوخة ستلين قلب فرناندا، وتتيح للصبي الاندماج في حياة قرية لن يشغل أحد فيها نفسه، بكل تأكيد، في الظنون المتشككة حول أصله. إلا أنه كان يبدو أن أوريليانو الصغير نفسه، يفضل الانغلاق والعزلة، ولا يبدي أي حيلة للتعرف إلى العالم الذي يبدأ عند الباب المؤدي إلى الشارع. وعندما أمرت أورسولا بفتح غرفة ميلكيادس، راح يطوف حولها، وينظر بفضول إلى الباب الموارب، ولم يدر أحد في أي لحظة انتهى به الأمر إلى الارتباط بعلاقة مودة متبادلة مع خوسيه أركاديو الثاني. ولم يكتشف أوريليانو الثاني تلك الصداقة إلا بعد وقت طويل من بدئها، حين سمع الصغير يتحدث عن مذبحة المحطة. حدث ذلك على المائدة، في يوم أبدى فيه أحدهم الأسف للخراب الذي غرقت فيه القرية، بعد أن رحلت عنها شركة الموز. فعارضه أوريليانو الصغير بنضوج وتمكن شخص راشد. كانت وجهة نظره، خلافاً للتفسير الشائع، تقول إن ماكوندو كانت مكاناً مزدهراً تسير أموره على ما يرام، إلى أن نشرت فيها شركة الموز الفوضى، وأفسدتها،

وعصرتها. وإن مهندسي الشركة هم الذين أحدثوا الطوفان، كذريعة للتهرب من الوفاء بالتزاماتهم للعمال. وكان يتكلم برزانة بدت لفرناندا محاكاة ساخرة، تنطوي على تدنيس لمشهد المسيح وسط الحكماء. وقد قدم الصبي وصفاً، بالتفاصيل الدقيقة والمقنعة، للطريقة التي أطلق بها الجيش نيران رشاشاته على أكثر من ثلاثة آلاف عامل محاصرين في المحطة، وكيف شحنوا الجثث في قطار من مئتي عربة، وألقوا بها في البحر. ولقناعتها، مثل معظم الناس، بالحقيقة الرسمية القائلة إن شيئاً لم يحدث، استشاطت فرناندا لفكرة أن الطفل قد ورث غرائز الكولونيل أوريليانو بوينديا الفوضوية، فأمرته بالسكوت. أما أوريليانو الثاني بالمقابل، فاعترف بصحة رواية أخيه التوأم. والواقع أن خوسيه أركاديو الثاني، بالرغم من أن الجميع كانوا يعتبرونه مجنوناً، كان في ذلك الحين أشد قاطني البيت صفاء ذهن. لقد علّم أوريليانو الصغير القراءة والكتابة، وأدخله في دراسة الرقاق، ولقنه تفسيره الشخصي لما كانت تعنيه شركة الموز لماكوندو، حتى إن الناس، بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما اندمج أوريليانو بالعالم، كانوا يظنون أنه يروي رواية وهمية، لأنها تختلف اختلافاً جذرياً عن الرواية الزائفة التي تقبلها المؤرخون، وتكرست في الكتب المدرسية. في الحجرة الصغيرة المنعزلة التي لم يصلها الهواء الجاف قط، ولا الغبار ولا الحر، كانا يتذكران الرؤيا الارتدادية لشيخ هرم، يعتمر قبعة لها جناحا غراب، يتحدث عن العالم، مديراً ظهره للنافذة، قبل سنوات طويلة من ميلادهما. واكتشفا معاً، في الوقت نفسه، أن الزمن هناك دوماً هو شهر آذار، وأنه يوم اثنين على الدوام، وعندئذ أدركا أن خوسيه اركاديو بوينديا لم

يكن مجنوناً، مثلما تقول العائلة، وإنما الوحيد الذي امتلك صفاء ذهن يتيح له رؤية حقيقة أن الزمن أيضاً يتعرض لعقبات وحوادث، ويمكن له بالتالي أن يتشظى، ويخلف في إحدى الغرف جزئية خالدة. وكان خوسيه أركاديو الثاني قد توصل، فوق ذلك، إلى تصنيف حروف الرقاق السرية. كان موقناً من أنها تنتمي إلى أبجدية تتألف من سبعة وأربعين حتى ثلاثة وخمسين رمزاً، تبدو وهي منفصلة عن بعضها بعضاً مثل العناكب أو القُراد، وتبدو وهي مكتوبة بخط ميلكيادس المنمنم، كأنها قطع ملابس منشورة على سلك لتنشف. تذكر أوريليانو أنه رأى لوحة مشابهة في الموسوعة الإنكليزية، فجاء بها إلى الغرفة ليقارنها بتصنيفات خوسيه أركاديو الثاني للحروف. فكانت متطابقة بالفعل.

في الفترة التي خطرت له فكرة يانصيب الأحاجي، كان أوريليانو الثاني يستيقظ وفي حلقه عقدة، كما لو أنه يكبح رغبة في البكاء. وفسرت بيترا كوتيس الأمر على أنه عارض آخر من الاختلالات الكثيرة التي سببها سوء الأوضاع، فصارت في كل صباح، وعلى امتداد أكثر من سنة، تدهن سقف حلقه بشيء من عسل النحل، وتسقيه شراب الفجل. وعندما جارت عليه تلك العقدة، حتى صار يتكلف مشقة في التنفس، ذهب أوريليانو الثاني لزيارة بيلار تيرنيرا لعلها تعرف عشبة تخفف عنه. لكن تلك الجدة الصامدة التي بلغت المئة، وهي على رأس ماخور سري صغير، لم تكن تؤمن بالخرافات الداوائية، وإنما استطلعت المسألة في ورق اللعب. رأت ملك الديناري مجروح العنق بسيف شاب السباتي، فاستنتجت أن فرناندا تحاول أن تعيد زوجها إلى البيت بالوسيلة الخبيثة في غرز دبابيس في صورة له، ولكنها تسببت في إحداث

ورم داخلي له، لخراقة معارفها في فنون السحر الخبيث. ولأنه لم تكن هناك صور لأوريليانو، باستثناء صور زفافه، وقد وجدها كاملة في ألبوم العائلة، فقد واصل البحث في كل أرجاء البيت، في لحظات سهو زوجته. وأخيراً، عثر في قاع الخزانة على نصف دزينة من الفِرزجات في علبها الأصلية. ولاعتقاده بأن حلقات الكاوتشوك الصغيرة الحمراء تلك، هي أدوات سحر، دسّ واحدة منها في جيبه كي تراها بيلار تيرنيرا. لم تستطع هذه تحديد طبيعتها، ولكنها بدت لها مريبة، فطلبت منه أن يأتيها، على كل حال، بنصف الدزينة، وأحرقتها في محرقة أشعلتها في الفناء. ومن أجل التطهر من شؤم سحر فرناندا المزعوم، طلبت من أوريليانو الثاني أن يبلل دجاجة حاضنة، ويدفنها حية تحت شجرة الكستناء، وقد فعل هو ذلك بكل إيمان، حتى إنه شعر بتحسن تنفسه فور انتهائه من إخفاء التراب المنبوش بأوراق يابسة. ومن جهتها، فسرت فرناندا اختفاء الفرزجات بأنه عقاب من الأطباء غير المرئيين، فخاطت في الجانب الداخلي من صدارها جيباً سرياً، خبأت فيه الفِرزجات الجديدة التي أرسلها إليها ابنها.

بعد ستة شهور من دفن الدجاجة، ايقظت أوريليانو الثاني نوبة من السعال الشديد، وأحس بأنه يُخنق من الداخل بملقطي سرطان. عندئذ أدرك أنه مهما أحرق من الفِرزجات السحرية، ومهما بلل من دجاجات التعزيم، فإن الحقيقة الوحيدة والحزينة هي أنه آخذ بالموت. لم يقل ذلك لأحد. ولأنه كان يتعذب بخوفٍ أن يموت قبل أن يتمكن من إرسال آمارانتا أورسولا إلى بروكسل، فقد راح يشتغل كما لم يفعل ذلك من قبل، وبدلاً من سحب يانصيب واحد، صار يُجري ثلاثة كل أسبوع. وصار يُرى وهو يجوب القرية

منذ الصباح الباكر، بما في ذلك أقصى الأحياء وأشدها بؤساً، محاولاً بيع البطاقات بلهفة لا يمكن فهمها إلا لدى شخص يحتضر. كان ينادي: «لدينا هنا العناية الإلهية. لا تضيعوها، فهي لا تأتي إلا مرة كل مئة عام». كان يبذل جهوداً مؤثرة كي يبدو مرحاً، لطيفاً، ثرثاراً، غير أن رؤية تعرقه وشحوبه، كانت تكفي لمعرفة أن روحه لا تحتمل المزيد. كان ينحرف أحياناً إلى أراض خلاء، حيث لا يراه أحد، ويجلس ليستريح هنيهة من المخالب التي تمزقه من الداخل. وكان يبقى حتى منتصف الليل في حي التسامح، محاولاً أن يبث العزاء، بمواعظ حسن الطالع، في النساء المتوحدات اللواتي يبكين إلى جانب الفونوغرافات. «هذا الرقم لم يربح منذ أربعة أشهر»، كان يقول لهن وهو يعرض البطاقات، ويضيف: «لا تتركنه يفلت منكن، فالحياة أقصر مما يظنه أحدنا». انتهى به الأمر إلى فقدان احترام الناس له، والسخرية منه. وفي الشهور الأخيرة من حياته، لم يعودوا ينادونه «السيد أوريليانو»، مثلما اعتادوا، بل صاروا يسمونه، في وجهه، «السيد عناية إلهية». راح صوته يمتلئ بنبرات زائفة، ثم صار يرتجف، وانتهى بعد ذلك إلى الانطفاء في ما يشبه حشرجة كلب، ولكنه وجد الإرادة للحيلولة دون انحطاط التلهف لانتظار الجوائز في فناء بيت بيترا كوتيس. ومع ذلك، كلما ازداد فقدانه لصوته، كان يلاحظ أنه لن يعود قادراً على تحمل الألم عما قريب، وأدرك أن ابنته لن تستطيع الذهاب إلى بروكسل بيانصيب الخنازير والتيوس، وهكذا خطرت له فكرة إجراء اليانصيب الضخم على الأراضي التي خربها الطوفان، والتي يمكن لمن يملكون رأس مال أن يستصلحوها. كانت مبادرة باهرة، حتى إن العمدة نفسه تطوع

للإعلان عنها في بلاغ رسمي، وتشكلت جمعيات لشراء البطاقات، بمئة بيزو للبطاقة الواحدة، فنفدت خلال أقل من أسبوع. وفي ليلة السحب، أقام الرابحون حفلة هائلة، تكاد تقارن بحفلات الأزمنة الطيبة في أيام شركة الموز، وعزف أوريليانو الثاني على الأكورديون، لآخر مرة، أغنيات فرانثيسكو الرجل المنسية، ولكنه لم يستطع أن يغنيها.

بعد شهرين من ذلك، سافرت آمارانتا أورسولا إلى بروكسل. ولم يقدم لها أوريليانو الثاني نقود اليانصيب الاستثنائي وحسب، وإنما كذلك ما كان قد تمكن من ادخاره في الشهور السابقة، والمبلغ الضئيل الذي جناه من بيع البيانولا، والكلافيكورديو، وأشياء أخرى أصابها الخراب. ووفق حساباته، كان يمكن لهذا الرصيد أن يكفي للدراسة، فلا يبقى إلا قيمة تذكرة العودة. عارضت فرناندا تلك الرحلة حتى اللحظة الأخيرة، مروعة من فكرة قرب بروكسل الشديد من ضياع باريس، ولكنها اطمأنت لرسالة قدمها الأب أنخل، موجهة إلى نزل خاص بالفتيات الكاثوليكيات تديره راهبات، حيث وُعدت أن تقيم آمارانتا أورسولا حتى انتهاء دراستها. وتمكن الكاهن كذلك من جعلها تسافر برعاية جماعة من الراهبات الفرانسيسكان الذاهبات إلى طليطلة، حيث يأمل بالعثور على أناس موثوقين لإرسالها إلى بلجيكا. وبينما كانت تتقدم المراسلات المتعجلة التي جعلت هذا التنسيق ممكناً، تولى أوريليانو الثاني، بمساعدة بيترا كوتيس، أمر أمتعة آمارانتا أورسولا. وفي الليلة التي جهزا فيها أحد صناديق زفاف فرناندا، كانت الأشياء مرتبة على خير ما يرام، حتى أن الطالبة كانت تعرف عن ظهر قلب، الثياب التي ستلبسها، وأخفاف

المخمل التي ستنتعلها خلال اجتياز الأطلسي. ومعطف الجوخ الأزرق ذا الأزرار النحاسية، والحذاء المصنوع من جلد الماعز اللذين ستنزل بهما إلى البر. وكانت تعرف كذلك كيف يتوجب عليها المشي، كيلا تسقط في الماء، وهي على جسر الصعود إلى السفينة. وأنه عليها ألا تبتعد لحظة واحدة عن الراهبات، وألا تخرج من قمرتها إلا لتناول الطعام، وألا تجيب، لأي سبب، على أسئلة يوجهها إليها غرباء، من أي جنس كانوا، في عرض البحر. وكانت تحمل قارورة صغيرة، فيها قطرات ضد دوار البحر، ودفتراً كتبه الأب أنخل بخط يده، فيه ست صلوات لدرء أخطار العاصفة. وصنعت لها فرناندا حزاماً من قماش الأشرعة السميك، لتحفظ فيه النقود، وعلمتها كيفية استخدامه ملتصقاً بجسدها، بحيث لا تضطر إلى نزعه عنها، ولو من أجل النوم. وحاولت أن تهدي إليها المبولة الذهبية المغسولة بماء الصودا والمعقمة بالكحول، لكن آمارانتا أورسولا رفضت ذلك، خوفاً من أن تسخر منها رفيقاتها في الكلية. بعد شهور قليلة من ذلك، كان على أوريليانو الثاني، وهو على فراش الموت، أن يتذكرها مثلما رآها آخر مرة، وهي تحاول إنزال الزجاج المعفر بالغبار، في عربة الدرجة الثانية، كي تسمع آخر وصايا فرناندا. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الوردي، مع باقة أزهار لا تنسيني اصطناعية، مثبتة على الكتف الأيسر، وتنتعل حذاء جلد الماعز ذا الرباط والكعب الواطئ، وجوربي الساتان المثبتين برباطين مطاطيين على ربلتي ساقيها. كان جسمها ضئيلاً، وشعرها مفلتاً وطويلاً، وعيناها متوقدتين كعيني أورسولا حين كانت في عمرها، وكانت طريقتها في الوداع دون أن تبكي، ولكن دون أن تبتسم، تكشف عن قوة

الشخصية نفسها. أوريليانو الثاني الذي كان يمشي بجوار العربة الآخذة بالتسارع، ممسكاً بذراع فرناندا كيلا تتعثر، لم يكد يتمكن من الرد بتحية من يده، عندما أرسلت له ابنته قبّلة بأطراف أصابعها. ظل الزوجان جامدين تحت الشمس الملتهبة، ينظران كيف كان القطار يختلط بنقطة سوداء في الأفق، وكان ذراعاهما متشابكين لأول مرة منذ يوم زفافهما.

في التاسع من آب، وقبل تلقي أول رسالة من بروكسل، كان خوسيه أركاديو الثاني يتبادل الحديث مع أوريليانو الصغير في غرفة ميلكيادس، ودون أي سبب قال له:

- تذكر دائماً أنهم كانوا أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم ألقوا بهم إلى البحر.

سقط وجهه بعد ذلك على الرق، ومات وعيناه مفتوحتان. في تلك اللحظة نفسها، وفي سرير فرناندا، وصل أخوه التوأم إلى نهاية عذاب طويل ورهيب تسببه السرطانات الحديدية التي تنهش حلقه. وكان قد رجع، قبل أسبوع، إلى البيت، بلا صوت، وبلا نَفَس، وبعظام شبه معروقة، ومعه صناديقه المتنقلة، وأكورديون لهوه، ليفي بوعده في الموت إلى جوار زوجته. ساعدته بيترا كوتيس في جمع ملابسه، وودعته دون أن تذرف دمعة واحدة، ولكنها نسيت إعطاءه الحذاء اللماع الذي كان يريد انتعاله في نعشه. وعندما علمت أنه مات، لبست السواد، ولفت الحذاء في جريدة، وطلبت من فرناندا أن تأذن لها برؤية الجثة. لم تسمح لها فرناندا باجتياز الباب. فتوسلت بيترا كوتيس:

- ضعي نفسك مكاني. تصوري كم أحببته كي أتحمل هذا الإذلال.

فردت فرناندا:

- ليس هناك إذلال لا تستحقه محظية. ولهذا، انتظري موت رجل آخر من عشاقك الكثيرين كي تُلبسيه هذا الحذاء.

ووفاء للوعد الذي قطعته، قامت صوفيا قديسة الرحمة بذبح جثة خوسيه أركاديو الثاني بسكين مطبخ، لتتأكد من أنه لن يُدفن حياً. ووضع الجثمانان في نعشين متماثلين، وتبين هناك أنهما عادا إلى التشابه الكامل في موتهما، مثلما كانا حتى مراهقتهما. ووضع رفاق أوريليانو الثاني في اللهو، على نعشه، إكليلاً عليه شريط بنفسجي كُتب عليه: *ابتعدي أيتها الأبقار، فالحياة قصيرة*. غضبت فرناندا كثيراً لتلك السفاهة، وأمرت برمي الإكليل إلى القمامة. وفي فوضى الساعة الأخيرة، أختلط التابوتان على السكارى الحزينين الذين أخرجوهما من البيت، فدفنوا كلاً منهما في قبر الآخر.

لم يغادر أوريليانو غرفة ميلكيادس خلال فترة طويلة. فحفظ عن ظهر قلب أساطير الكتاب ممزق الغلاف العجيبة، وملخص دراسات هيرمان المقعدة، والملاحظات حول العلوم الشيطانية، ومفاتيح سرّ الحجر الفلسفي، ونبوءات نوستراداموس وأبحاثه عن الطاعون، فبلغ سن المراهقة وهو لا يعرف شيئاً من زمانه، ولكنه يمتلك المعارف الأساسية لإنسان العصور الوسطى. وفي أي وقت تدخل فيه صوفيا قديسة الرحمة إلى غرفته، تجده غارقاً في القراءة. كانت تحمل إليه، في الفجر، فنجاناً من القهوة بلا سكر، وفي الظهيرة، صحناً من الرز مع شرائح موز مقلية، وهو الطعام الوحيد الذي كان يؤكل في البيت بعد موت أوريليانو الثاني. وكانت تعنى بقص شعره، وإخراج الصئبان منه، وتكييف على مقاسه الملابس القديمة التي تجدها في صناديق منسية. وعندما بدأ شاربه بالظهور، جاءته بموسى الحلاقة وإناء رغوة الصابون الذي كان للكولونيل أوريليانو بوينديا. ولم يكن أي من أبناء هذا الأخير، حتى ولا أوريليانو خوسيه، يشبهه مثله، لا سيما بوجنتيه البارزتين، وخط شفتيه الحازم، والقاسي بعض الشيء. ومثلما حدث لأورسولا مع أوريليانو الثاني، عندما كان يدرس في الغرفة، كانت صوفيا قديسة الرحمة تظن أن أوريليانو يتكلم وحيداً. والواقع أنه كان يتحدث إلى ميلكيادس. ففي ظهيرة ملتهبة، بعد قليل من موت

التوأمين، رأى في بريق نور النافذة، العجوز الكئيب بالقبعة ذات جناحي الغراب، كتجسيد لذكرى كامنة في ذاكرته قبل ولادته بزمن طويل. كان أوريليانو قد انتهى من تصنيف أبجدية الرقاق. فلما سأله ميلكيادس إذا ما كان قد اكتشف اللغة التي كُتبت بها، لم يتردد في الجواب، وقال:

- بالسنسكريتية.

كشف له ميلكيادس أن إمكانيات عودته إلى الغرفة صارت معدودة. لكنه سيمضي مطمئناً إلى مروج الموت النهائي، لأن أوريليانو سيجد الوقت الكافي لتعلم السنسكريتية خلال السنوات المتبقية لانقضاء قرن على الرقاق، وأنه سيكون بالإمكان حل رموزها. وكان هو من أخبره بأنه في الزقاق الذي ينتهي عند النهر، حيث كان يجري، في أزمنة شركة الموز، التنبؤ بالمستقبل وتفسير الأحلام، هناك عالم كتلاني، يملك مكتبة كتب، بينها كتاب *مبادئ السنسكريتية*، سيلتهمه العث بعد ست سنوات، إذا هو لم يسارع إلى شرائه. ولأول مرة في حياتها، أتيح لصوفيا قديسة الرحمة إبداء شعورها، وكان شعوراً بالذهول، عندما طلب منها أوريليانو أن تأتيه بالكتاب الذي ستجده بين كتابي ***تحرير القدس*** وأشعار ميلتون، على الطرف الأيمن من صف الرفوف الثاني. ولأنها لم تكن تعرف القراءة، فقد حفظت ما قاله عن ظهر قلب، وحصلت على النقود من بيع إحدى السمكات الذهبية السبع عشرة المتبقية في المشغل، وكانت هي وأوريليانو وحدهما يعرفان مكانها الذي وُضعت فيه ليلة قيام الجنود بتفتيش البيت.

كان أوريليانو يتقدم في دراسة اللغة السنسكريتية، بينما صار ميلكيادس أقل مواظبة وأكثر بعداً، يتضاءل في ضوء الظهيرة

المشع. والمرة الأخيرة التي أحس فيها أوريليانو بوجوده، لم يكد يكون سوى حضور غير مرئي يتمتم: «لقد متُّ بالحمى على رمال شواطئ سنغافورة.» وفقدت الغرفة منذئذ المناعة من الغبار والحرارة والنمل الأبيض والنمل الأحمر والعث الذي سيحول معارف الكتب والرقاق إلى نشارة.

لم يفتقد البيت الأطعمة. ففي اليوم التالي لموت أوريليانو الثاني، جاء أحد الأصدقاء الذين حملوا الإكليل ذا الكتابة المستهترة، وعرض على فرناندا نقوداً كان مديناً بها لزوجها. ومنذ ذلك الحين، صار يأتي ساعٍ كل يوم أربعاء، حاملاً إلى البيت سلة مأكولات، تكفي لأسبوع كامل. ولم يعرف أحد قط، أن بيترا كوتيس هي التي ترسل تلك الأطعمة، مفكرة في أن الإحسان المتواصل هو طريقة لإهانة من أهانتها. ومع ذلك، فقد انقشع حقدها أسرع بكثير مما كانت تنتظر هي نفسها؛ وعندئذ واصلت إرسال الأطعمة، بدافع الغرور، ثم صارت ترسلها أخيراً بدافع الشفقة. وفي مرات عديدة، حين كانت تفتر همتها في بيع بطاقات اليانصيب، ويفقد الناس اهتمامهم بيانصيبها، تظل هي دون أكل، كي تأكل فرناندا، ولم تتخلف عن الوفاء بهذا الالتزام إلى أن رأت مرور جنازتها.

كان لا بد لتناقص سكان البيت، بالنسبة إلى صوفيا قديسة الرحمة، من أن يكون الراحة التي صارت من حقها بعد أكثر من نصف قرن من العمل. لم تُسمع أي شكوى قط من تلك المرأة الصموت، المنغلقة على نفسها، والتي زرعت في الأسرة البذور الملائكية لريميديوس الجميلة، والوقار الخفي لخوسيه أركاديو الثاني؛ وكرست حياة من العزلة والصمت لتربية أطفال لا يكادون

يذكرون أنهم أبناؤها وأحفادها، واهتمت بأوريليانو الصغير كما لو أنه خرج من أحشائها، دون أن تعلم هي نفسها أنها جدة أمه. لم يكن ممكناً إلا في بيت مثل ذاك، تصور أنها كانت تنام دوماً على حصيرة تفرشها على أرضية مستودع المؤونة، وسط جلبة الجرذان الليلية، ودون أن تخبر أحداً بأن إحساساً مرعباً أيقظها في إحدى الليالي، بأن هناك من ينظر إليها في الظلام، فكانت هناك حية تنسل على بطنها. كانت تعلم أنها لو أخبرت أورسولا بذلك، لجعلتها تنام في سريرها نفسه، ولكنها كانت أزمنة لا ينتبه فيها أحد إلى شيء ما لم يصرخ في الردهة، لأن مشاغل فرن الخبز، ومفاجآت الحرب، ورعاية الأطفال، لم تكن تتيح مزيداً من الوقت للتفكير في سعادة الآخرين. وكانت بيترا كوتيس التي لم ترها قط، هي الوحيدة التي تتذكرها. فهي تعنى بأن يكون لديها حذاء جيد للخروج، وألا تفتقر إلى ثوب أبداً، حتى في الأزمنة التي كانت تجترح فيها المعجزات بأموال اليانصيب. وعندما جاءت فرناندا إلى البيت، وجدت مسوغات للاعتقاد بأن صوفيا قديسة الرحمة هي خادمة أبدية فيه، وحتى عندما سمعت، مرات عديدة، من يقول إنها أم زوجها، بدا لها غير قابل للتصديق، حتى إنها كانت تنساه بأسرع مما استغرقت في سماعه. ولم يكن يبدو على صوفيا قديسة الرحمة الضيق من وضعها الأدنى ذاك. بل على العكس، كان يبدو عليها أنه يروقها التنقل في الأركان، دون راحة ودون شكوى، محافظة على ترتيب ونظافة البيت الفسيح الذي عاشت فيه منذ مراهقتها، والذي كان يبدو في أزمنة شركة الموز، أشبه بثكنة منه بمنزل. ولكن، عندما ماتت أورسولا، بدأت همة صوفيا قديسة الرحمة غير الإنسانية، وطاقتها الرهيبة على العمل

بالتضاؤل. ولم يكن ذلك لأنها صارت عجوزاً منهوكة وحسب، وإنما لأن البيت نفسه تردى، بين عشية وضحاها، في أزمة شيخوخة. فقد تسلقت الجدران طحالب طرية. وعندما لم يبق مكان مقفر في الفناء، انبثقت النباتات من تحت إسمنت الردهة، فشرخته كالزجاج، وخرجت من بين الشقوق الزهيرات الصفراء نفسها التي وجدتها أورسولا، قبل قرن تقريباً، في الكأس التي كانت فيها أسنان ميلكيادس الاصطناعية. ولافتقادها الوقت والموارد اللازمة لكبح جماح الطبيعة المندفعة، صارت صوفيا قديسة الرحمة تقضي النهار في غرف النوم، تطرد منها السحالي التي لا تلبث أن تعود إليها في الليل. وفي أحد الأيام، رأت النمل الأحمر يغادر أساسات البيت المنخورة، ويجتاز الحديقة، ويصعد الدرابزين حيث اكتست أزهار البيغونيا بلون ترابي، ويدخل إلى أعماق البيت. حاولت القضاء عليه أول الأمر بالمكنسة، ثم بمبيد للحشرات، وأخيراً بالكلس، ولكنه كان يظهر في اليوم التالي، في المكان نفسه، يمر دون توقف، عنيداً لا يقهر. أما فرناندا التي كانت تكتب الرسائل إلى ابنيها، لم تكن تنتبه إلى الهجمة المدمرة التي لا يمكن كبحها. واصلت صوفيا قديسة الرحمة الصراع وحدها، تناضل لمنع الأعشاب الضارة من دخول المطبخ، وتنتزع عن الجدران نسيج العنكبوت، فيعود للتكاثر خلال ساعات قليلة، وتكشط النمل الأبيض. ولكنها حين رأت أن غرفة ميلكيادس كانت تمتلئ أيضاً بنسج العناكب والغبار، حتى لو كنستها ثلاث مرات كل يوم، وأن الغرفة تظل مهددة، بالرغم من اندفاعها في التنظيف، بالأنقاض وطابع البؤس اللذين لم يلمحهما مسبقاً إلا العقيد أوريليانو بوينديا والضابط الشاب الذي فتش البيت، أدركت أنها مهزومة لا

محالة. عندئذ لبست ثياب الأحد الحائلة، وحذاء قديماً كان لأوروسولا، وجراباً قطنياً كانت قد أهدتها إياه آمارانتا أورسولا، وربطت صرة فيها الغياران أو الثلاثة المتبقية لديها.

- إنني أستسلم - قالت لأوريليانو - هذا بيت كبير على عظامي المسكينة.

سألها أوريليانو إلى أين ستذهب، فأومأت له بحركة غامضة، كما لو أنه ليس لديها أدنى فكرة عن وجهتها. لكنها حاولت، مع ذلك، أن تحدد أنها ستذهب لقضاء سنواتها الأخيرة مع ابنة عم لها تعيش في ريوهاتشا. لم يكن ذلك التوضيح ممكناً. فمنذ موت والديها، لم تُقم أي اتصال مع أحد في القرية، ولم تتلق رسائل ولا أخباراً، ولم يسمعها أحد تتحدث عن أي قريب لها. أعطاها أوريليانو أربع عشرة سمكة ذهبية، لأنها كانت مستعدة للرحيل بالمبلغ الوحيد الذي تملكه: بيزو واحداً وخمسة وعشرين سنتافو. ومن نافذة الغرفة، رآها تجتاز الفناء، حاملة صرة الملابس، مجرجرة قدميها، وقد أحنت السنون ظهرها، ورآها تُدخل يدها من كوة البوابة، كي تغلقها بالمزلاج بعد خروجها. ولم يعرف عنها شيئاً بعد ذلك. وعندما علمت فرناندا بهربها، راحت تهذر ضدها يوماً كاملاً، بينما هي تتفحص الصناديق، والأدراج، والخزائن، غرضاً غرضاً، لتتأكد من أن صوفيا قديسة الرحمة لم تسرق شيئاً. وأحرقت أصابعها وهي تحاول إشعال الموقد أول مرة في حياتها، وكان عليها أن تطلب من أوريليانو معروفاً بتعليمها كيفية إعداد القهوة. ومع مرور الوقت، كان هو من تولى أعمال المطبخ. وعندما كانت فرناندا تستيقظ، تجد الفطور جاهزاً، ولا تغادر بعد ذلك غرفة نومها إلا لتأخذ وجبة الطعام التي يتركها لها أوريليانو

مغطاة وساخنة، فتحملها إلى المائدة، لتأكلها على شراشف الكتان، وبين الشمعدانات، وهي جالسة وحدها على رأس مائدة محاطة بخمسة عشر كرسياً فارغاً. وحتى في هذه الظروف، لم يكن أوريليانو وفرناندا يتقاسمان العزلة، وإنما واصلا العيش، كل منهما في عزلته، يقوم بتنظيف غرفته الخاصة، بينما نسيج العنكبوت يمد ثلجه على شجيرات الورد، ويغطي دعائم السقف، ويبطن الجدران. وكانت تلك هي الفترة التي شعرت فيها فرناندا بأن البيت آخذ بالامتلاء بالعفاريت. بدا كما لو أن الأشياء، وخاصة أشياء الاستعمال اليومي، قد طوّرت القدرة على تبديل أمكنتها بنفسها. فكان وقت فرناندا ينقضي في البحث عن المقص، مع أنها واثقة من أنها وضعته على السرير، وبعد أن تقلب كل شيء، تجده على رف المطبخ الذي تعتقد أنها لم تدخله منذ أربعة أيام. وفجأة، لا تكون هناك شوكة واحدة في درج أدوات المائدة، ثم تجد ستاً منها على المذبح، وثلاثاً على المغسلة. مسار الأمور هذا كان أكثر مدعاة للقنوط عندما كانت تجلس لتكتب. فدواة الحبر التي تضعها إلى يمينها، تجدها إلى يسارها؛ ووسادة الورق النشاف تضيع منها، فتجدها بعد يومين تحت وسادتها؛ والصفحات المكتوبة لخوسيه أركاديو تختلط بتلك المكتوبة لآمارانتا أورسولا، وتبقى طوال الوقت في عذاب الإحساس بأنها وضعت رسالة هذا في مغلف تلك، وهو ما حدث لها فعلاً مرات عديدة. وفي إحدى المرات، فقدت ريشة الكتابة. وبعد خمسة عشر يوماً، أعادها إليها ساعي البريد الذي وجدها في جعبته، وراح يبحث عن صاحبها من بيت لبيت. في البدء، ظنت أنها من أعمال الأطباء غير المرئيين، لا سيما عندما اختفت الفِرزجات، حتى إنها

بدأت تكتب لهم رسالة تتوسل إليهم فيها أن يتركوها بسلام، ولكنها اضطرت إلى التوقف عن كتابتها لقضاء حاجة أخرى، وعندما رجعت إلى الغرفة، لم يقتصر الأمر على عدم عثورها على الرسالة وحسب، وإنما نسيت كذلك نيتها في كتابتها. وقد فكرت، في وقت ما، أنه أوريليانو. فراحت تراقبه، وتضع أشياء في طريقه لتفاجئه وهو يبدل أماكنها، لكنها سرعان ما اقتنعت بأن أوريليانو لا يغادر غرفة ميلكيادس، إلا للذهاب إلى المطبخ أو المرحاض، وأنه ليس رجلاً محباً للمزاح. وانتهت هكذا إلى الاعتقاد بأنها من ألاعيب العفاريت، فعمدت إلى تثبيت كل شيء في المكان الذي تستخدمه فيه. فربطت المقص بخيط طويل إلى طرف السرير. وربطت حاملة رياش الكتابة ووسادة ورق النشاف إلى قائمة المنضدة، وألصقت دواة الحبر على المنضدة بالصمغ، إلى يمين المكان الذي اعتادت الكتابة عليه. ولكن المشاكل لم تحل بين عشية وضحاها، فبعد ساعات قليلة من الخياطة، لم يعد خيط تثبيت المقص يصل إلى حيث تريد القص، كما لو أن العفاريت تقصره. وحدث الشيء نفسه لخيط الريشة، بل ولذراعها نفسه كذلك، إذ لم يعد قادراً على بلوغ المحبرة، بعد قليل من بدء الكتابة. لم تعلم آمارانتا أورسولا في بروكسل، ولا خوسيه أركاديو في روما، بهذه التعاسات التافهة. فقد كانت فرناندا تخبرهما بأنها سعيدة، وقد كانت كذلك حقاً، لشعورها بأنها متحررة من أي التزام، كما لو أن الحياة قد جرجرتها مرة أخرى إلى عالم أبويها، حيث لم تكن تعاني من المشاكل اليومية، لأنها محلولة مسبقاً في المخيلة. تلك المراسلات اللانهائية أفقدتها الإحساس بالزمن، خاصة بعد رحيل صوفيا قديسة الرحمة. كانت

قد اعتادت على حساب الأيام والشهور والسنين، ومرجعيتها في ذلك الموعد المتوقع لعودة ابنيها. ولكن، عندما عدلا الموعد مرة بعد مرة أخرى، اختلطت التواريخ في ذهنها، وضاعت الآجال، وتشابهت الأيام بعضها ببعض إلى حد لم تعد تشعر معه بمرورها. وبدلاً من أن يُفقدها التأجيل صبرها، كان يبعث فيها إحساساً عميقاً بالرضا. ولم تشعر بالقلق من أن خوسيه أركاديو، وبعد سنوات طويلة من إخبارها بأنه على وشك تقديم نذر الرهبنة الأبدية، ما زال يقول إنه يأمل الانتهاء من دراسة اللاهوت العليا، كي يبدأ الدراسات الدبلوماسية، لأنها تعلم أن السلّم الحلزوني المؤدي إلى كرسي القديس بولس، شديد العلو ومفروش بالصعاب. وبالمقابل، كانت روحها تمتلئ بالحماسة لأخبار تبدو تافهة لآخرين، مثل خبر أن ابنها قد رأى البابا. وقد أحست ببهجة مماثلة عندما أرسلت إليها آمارانتا أورسولا تقول إن دراستها ستمتد لوقت أطول مما قُدّر لها، لأن درجاتها الممتازة منحتها امتيازات لم يأخذها أبوها في الاعتبار عندما أجرى حساباته.

كانت قد انقضت أكثر من ثلاث سنوات على إحضار صوفيا قديسة الرحمة كتاب قواعد اللغة السنسكريتية، عندما توصل أوريليانو إلى ترجمة الورقة الأولى. لم يكن عملاً بلا طائل، ولكنه لم يكد يشكل سوى خطوة أولى على طريق من المستحيل التنبؤ بطولها، لأن النص القشتالي لم يكن يعني أي شيء: فهو مجرد أبيات شعر مشفرة. وكان أوريليانو يفتقر إلى العناصر اللازمة لإقرار مفاتيح تتيح له فك رموزها، وبما أن ميلكيادس كان قد قال له إنه توجد في مكتبة العالم الكتلاني، الكتب التي يحتاجها للوصول إلى عمق معاني الرقاق، فقد قرر أن يكلم فرناندا، كي

تسمح له بالذهاب للبحث عنها. وفي الغرفة التي التهمتها الأنقاض، وانتهى تكاثرها المتزايد إلى هزيمته، كان يفكر في أكثر الطرق ملاءمة لصياغة طلبه، فكان يستبق الأحداث، ويقدر الفرصة المناسبة أكثر من سواها، ولكنه حين يلتقي بفرناندا وهي تأخذ طعامها عن جمر الموقد، وهي الفرصة الوحيدة للتحدث إليها، تتلاشى صيغة الطلب التي فكر فيها بدقة، ويفقد القدرة على الكلام. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تجسس فيها عليها. فقد كان يتابع التنصت إلى وقع خطواتها في غرفة نومها. ويسمعها وهي تذهب إلى الباب لتستلم رسائل ابنيها، وتسلم رسائلها إلى ساعي البريد، ويصغي حتى ساعة متأخرة من الليل، لجرة الريشة القاسية والمنفعلة على الورق، قبل أن يسمع صوت مفتاح إطفاء النور، وتمتمة الصلوات في الظلام. وعندئذ فقط كان ينام، واثقاً من أنه سيجد في اليوم التالي الفرصة المنشودة. لقد منى نفسه طويلاً بفكرة أنها لن ترفض منحه الإذن، فعمد ذات صباح إلى قص شعره الذي صار يصل إلى كتفيه، وحلق ذقنه المشعثة، ولبس بنطالاً ضيقاً وقميصاً ذا ياقة مستعارة لا يعرف عمن ورثهما، وانتظر في المطبخ مجيء فرناندا لتناول فطورها. لم تكن المرأة التي تأتي كل يوم، ذات الرأس المرفوع والمشية المتحجرة، بل عجوز ذات جمال خارق، ترتدي عباءة من فرو قاقم طغى عليها الاصفرار، وتاجاً من الكرتون المذهب، تتحرك بفتور من بكت سراً. والحقيقة أن فرناندا ارتدت مرات كثيرة ملابس الملكة تلك التي أتلفها العث، مذ وجدتها في صناديق أوريليانو الثاني. وكان يمكن لأي شخص يراها أمام المرآة، منتشية بحركاتها الملكية، أن يفكر في أنها مجنونة. ولكنها لم تكن كذلك. وإنما هي حوّلت ذلك الزي

الملكي إلى آلة للتذكر. في المرة الأولى التي ارتدت فيها تلك الثياب، لم تستطع أن تتفادى تشكل عقدة انقباض في قلبها، وامتلاء عينيها بالدموع، لأنها عادت تشم، في تلك اللحظة نفسها، رائحة صباغ جزمة العسكري الذي جاء بحثاً عنها، في بيتها، ليجعل منها ملكة، وتبلورت روحها في الحنين إلى الأحلام الضائعة. أحست أنها عجوز محطمة، شديدة البعد عن أفضل ساعات حياتها، حتى إنها شعرت بالحنين إلى أسوأ ساعات حياتها. وعندئذ فقط، اكتشفت مدى حاجتها إلى نفحات الأوريغانو في الردهة، وإلى رائحة شجيرات الورد عند الغروب، وحتى إلى الطبيعة البهيمية للغرباء. لقد صمد قلبها الذي من رماد كثيف، لأشد ضربات الواقع اليومي إحكاماً، دون أن ينكسر؛ ولكنه انهار أمام أول هجمات الحنين. حاجتها إلى الإحساس بالحزن، راحت تتحول إلى إدمان مع ازدياد التلف الذي تلحقه بها السنون. لقد تأنسنت في العزلة. ومع ذلك، في صباح اليوم الذي دخلت فيه المطبخ، ووجدت فنجاناً من القهوة يقدمه إليها فتى معروق وشاحب، في عينيه بريق هذياني، مزقتها ضربة مخلب الإحساس بأنها مضحكة. فلم ترفض منحه الإذن بالخروج وحسب، بل وضعت كذلك مفاتيح البيت في الجراب الذي تخبئ فيه الفرزجات غير المستعملة. كان احتياطاً بلا جدوى، لأنه كان يمكن لأوريليانو أن يهرب، لو أرد، وأن يعود إلى البيت من دون أن تراه. لكن سجنه الطويل، وارتيابه من العالم، وعادته في الانصياع، جففت في قلبه بذور التمرد. وهكذا رجع إلى محبسه، يراجع الرقاق ويعيد مراجعتها، ويصغي حتى وقت متأخر من الليل، إلى بكاء فرناندا في غرفتها. وذات صباح، ذهب كعادته ليشعل الموقد؛

فوجد على الرماد المنطفئ الطعامَ الذي تركه لها في اليوم السابق. عندئذ أطل من باب غرفتها، ورآها ممددة على السرير، مغطاة بعباءة فرو القاقم، أجمل من أي زمن مضى، وببشرة متحولة إلى قشرة من العاج. وبعد أربعة شهور من ذلك، حين رجع ابنها خوسيه أركاديو من روما، وجدها لا تزال سليمة.

كان من المستحيل تصور رجل على مثل ذلك الشبه بأمه. كان يرتدي بدلة تافتا محزنة، وقميصاً ذا ياقة مدورة قاسية، وشريطاً حريرياً بعقدة بدلاً من ربطة العنق. كان شاحباً، فاتراً، بنظرة زائغة وشفتين رخوتين. شعره الأسود، اللامع والناعم، المفروق في منتصف رأسه بخط مستقيم لا حياة فيه، له المظهر المستعار نفسه الذي لشعر تماثيل القديسين. وكان ظل لحيته المستأصلة جيداً، في وجهه البارافيني، يبدو مسألة ضمير. وكانت يداه شاحبتين، عروقهما خضراء، وأصابعهما طفيلية، وخاتم من الذهب الخالص، مع حجر أوبال ملون، في السبابة اليسرى. عندما فتح له أوريليانو الباب الخارجي، لم يكن بحاجة إلى أن يخمن من يكون، لكي يعرف أنه آت من بعيد جداً. تضمخ البيت، عند مروره، برائحة ماء الكولونيا الذي كانت تضعه أورسولا على رأسه، في طفولته، كي تتمكن من العثور عليه في الظلام. وبطريقة يستحيل تحديدها، كان خوسيه أركاديو، بعد سنوات طويلة من الغياب، لا يزال طفلاً خريفياً، كئيباً ومتوحداً بصورة مروعة. اتجه مباشرة إلى غرفة أمه، حيث كان أوريليانو قد بخَّر زئبقاً طوال أربعة شهور، في موقد مخبر جد جده، من أجل حفظ الجسد وفق معادلة ميلكيادس. لم يوجه خوسيه أركاديو أي سؤال. قبّل جبين الجثة، وأخرج من تحت تنورتها الجيب المخبأ، حيث توجد ثلاث فِرزجات

لا تزال دون استخدام، ومفتاح خزانة الثياب. وكان يفعل كل شيء بحركات مباشرة وحاسمة، لا تتفق مع فتوره. أخرج من الخزانة صندوقاً صغيراً مطعماً بشعار الأسرة، ووجد في داخله، المعطر بالصندل، الرسالة المطولة التي فرجت فيها فرناندا عن قلبها بكشف الحقائق الكثيرة التي أخفتها عنه. قرأها وهو واقف، بنهم ولكن دون جزع، وعند الصفحة الثالثة توقف، وتفحص أوريليانو بنظرة تعرّف ثانية، وقال بصوت فيه شيء من موسى الحلاقة:

- أنت ابن الزنا إذن.

- أنا أوريليانو بوينديا.

- اذهب إلى غرفتك - قال خوسيه أركاديو.

ذهب أوريليانو، ولم يعد للخروج، ولو بدافع الفضول، حين سمع طقوس الجنازة التي لم يحضرها أحد. كان في بعض الأحيان يرى خوسيه أركاديو، من المطبخ، وهو يطوف في أنحاء البيت، مختنقاً بتنفسه اللاهث، ويواصل سماع خطواته في الغرف الخربة إلى ما بعد منتصف الليل. لم يُسمع صوته طوال شهور عديدة، ليس لأن خوسيه أركاديو لم يكن يوجه إليه الكلام وحسب، وإنما لأنه هو نفسه لم يكن يرغب في الحديث، ولا يجد الوقت للتفكير في أي شيء آخر غير الرقاق. فقد أخرج، عند موت فرناندا، السمكة الذهبية قبل الأخيرة، وذهب إلى مكتبة العالم الكتلاني بحثاً عن الكتب التي يحتاج إليها. لم يشد اهتمامه شيء مما رآه في الطريق، ربما لأنه يفتقر إلى ذكريات تتيح له المقارنة، ولأن الشوارع المقفرة، والبيوت الخربة، كانت مشابهة لما تخيلها عليه في الزمن الذي كان مستعداً فيه لتقديم روحه من أجل التعرف عليها. لقد منح نفسه الإذن الذي أنكرته عليه فرناندا،

لمرة واحدة فقط، ولهدف وحيد، ولأقصر وقت ممكن، وهكذا اجتاز دون توقف الإحدى عشرة كوادرا التي تفصل بين البيت والزقاق الذي كانت تُفسر فيه الأحلام فيما مضى، ودخل لاهثاً إلى المحل الممتلئ والمظلم، حيث لا يكاد يوجد متسع للحركة. وأكثر مما هو مكتبة، كان المكان يبدو مزبلة كتب مستعملة، موضوعة بفوضى على رفوف نخرها النمل الأبيض، وفي الأركان التي اجتاحها نسيج العناكب، وحتى في الفراغات التي يفترض أن تكون مخصصة للمرور. وإلى منضدة طويلة، مثقلة كذلك بمجلدات ضخمة، كان صاحب المحل يكتب نثراً لا يكل، بخط بنفسجي، فيه شيء من الهذيان، على أوراق منتزعة من دفتر مدرسي. كان له شعر فضي بديع، يبرز متقدماً على جبينه كناصية ببغاء؛ وعيناه الزرقاوان اللامعتان والضيقتان، تكشفان وداعة رجل قرأ كل الكتب. كان في سروال داخلي، مبللاً بالعرق، ولم يتوقف عن الكتابة لينظر إلى القادم. لم يجد أوريليانو صعوبة في العثور، وسط تلك الفوضى الخرافية، على الكتب الخمسة التي يريدها، لأنها كانت في المكان الدقيق الذي أشار إليه ميلكيادس. ودون أن يقول كلمة واحدة، قدمها هي والسمكة الذهبية إلى العالم الكتلاني. تفحصها هذا، فانطبق جفناه مثل محارتين، وقال بلغته وهو يهز كتفيه: «لا بد أنه مجنون.» وأعاد إلى أوريليانو الكتب الخمسة والسمكة، وقال بالقشتالية:

- خذها. لا بد أن آخر رجل قرأ هذه الكتب هو اسحق الأعمى، ولهذا عليك أن تفكر جيداً بما تفعله.

أعاد خوسيه أركاديو ترميم غرفة ميمي، وأمر بتنظيف ورفو الستائر المخملية ودمقس كلّة السرير الملكي، وأعاد تشغيل الحمام

المهجور، وكان حوضه الإسمنتي مغطى بطبقة من الكثأة الليفية الخشنة. وعلى هذين المكانين، اقتصر إمبراطوريته الضئيلة، ذات الأقمشة الغريبة المهترئة، والعطور المزيفة، والحلي الرخيصة. والشيء الوحيد الذي بدا له مزعجاً في ما تبقى من البيت، هو تماثيل قديسي المذبح المنزلي، فأحرقها ذات مساء إلى أن حولها رماداً، في محرقة أضرمها في الفناء. كان ينام إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة. ويذهب إلى الحمام بروب مهترئ مزين بتنانين مذهبة، وخف ذي شرابات صفراء، وهناك يبدأ طقوساً تُذَكِّر في بطئها وطول مدتها بحمامات ريميديوس الجميلة. وقبل أن يستحم، كان يعطر الحوض بأملاح يأتي بها في ثلاث قوارير من المرمر. ولم يكن يغتسل باستخدام إناء من ثمرة قرع مجوفة، وإنما كان يغطس في الماء المعطر، ويبقى فيه حتى ساعتين، طافياً على ظهره، مستسلماً للبرودة ولذكرى آمارانتا. بعد أيام قليلة من مجيئه، تخلى عن ملابس التفتا، وكانت الثياب الوحيدة التي يملكها، فضلاً عن أنها حارة جداً بالنسبة للقرية، واستبدلها ببنطال ضيق، يشبه كثيراً البنطال الذي كان يلبسه بيترو كريسبي في دروس الرقص، وقميص حيك من حرير دود القز، طرز عليه الحرفان الأولان من اسمه فوق القلب. وكان يغسل ثيابه كلها في الحوض، مرتين في الأسبوع، ويبقى بالروب إلى أن تجف، لأنه لا يملك ثياباً أخرى يلبسها. ولم يكن يأكل في البيت أبداً. يخرج إلى الشارع عندما يخف قيظ القيلولة، ولا يرجع إلا بعد تقدم الليل. وعندئذ يواصل تجواله المكروب في أنحاء البيت، متنفساً كقط، ومفكراً بآمارانتا. فهي، ونظرة القديسين المخيفة على وميض القنديل الليلي، كانا الذكريين الوحيدتين اللتين يحتفظ بهما من

البيت. مرات كثيرة، في هذيان حر آب في روما، كان يفتح عينيه، وهو في منتصف الحلم، فيرى آمارانتا تبرز من حوض مرمر متعدد الألوان، بثوب داخلي من الدانتيلا، ورباط يدها، وقد حوّلها جزع المنفى إلى صورة مثالية. وخلافاً لأوريليانو خوسيه الذي حاول خنق تلك الصورة في مستنقع الحرب الدامي، سعى هو إلى الحفاظ عليها حية في مستنقع شهوة، بينما كان يخدع أمه بأكاذيب ملفقة لا تنتهي عن استعدادته البابوية. لم يخطر له ولا لفرناندا التفكير قط، في أن مراسلاتهما لم تكن إلا تبادلاً للأوهام. فخوسيه أركاديو الذي هجر المدرسة الإكليركية، منذ وصوله إلى روما، واصل تغذية خرافة دراسة اللاهوت والقانون الكنسي، كيلا يعرض للخطر ميراثه الخرافي الذي تحدثه عنه رسائل أمه الهذيانية، والذي سيُخرجه من البؤس والقذارة اللذين يتقاسمهما مع صديقين في غرفة حقيرة في حي تراستيفيري. وعندما تلقى رسالة فرناندا الأخيرة، التي أملاها هاجس الموت الوشيك، دس في حقيبة آخر بقايا بريقه الزائف، واجتاز المحيط في عنبر سفينة، يزدحم فيه المهاجرون كماشية في مسلخ، ويأكل معكرونة باردة وجبناً ينغل بالدود. وقبل أن يقرأ وصية فرناندا، ولم تكن أكثر من رواية متأخرة ودقيقة لنكباتها، كان الأثاث المخلع وأعشاب الردهة قد أطلعته على أنه وقع في فخ لن يخرج منه أبداً، وأنه نُفي إلى الأبد عن الفجر الماسي لربيع روما وهوائها العريق. وفي سهاد ربوه المضني، كان يقيس ويعيد قياس عمق شقائه، بينما هو يجوب البيت المظلم، حيث بث فيه حركات شيخوخة أورسولا المتصنعة، الخوفَ من العالم. فلكي تكون متأكدة من أنها لن تفقده في ظلماتها، خصصت له ركناً من الغرفة، هو

الركن الوحيد الذي يكون فيه بمنجى من الموتى الذين يجوبون البيت منذ الغروب. وكانت تقول له: «أي أمر خبيث تقترفه، سيخبرني القديسون به». ليالي خوف طفولته اختُزلت إلى ذلك الركن، حيث كان يبقى جامداً بلا حراك، حتى موعد النوم، يتعرق خوفاً على كرسي بلا مسند، تحت الأنظار المترصدة والجليدية للقديسين الوشاة. لقد كان تعذيباً بلا جدوى، لأنه كان قد بدأ يخاف في ذلك الحين من كل ما يواجهه في الحياة: نساء الشارع اللواتي يفسدن الدم؛ ونساء البيت اللواتي يلدن أطفالاً بذيل خنزير؛ وديكة المصارعة التي تسبب موت الرجال وعذاب الضمير مدى الحياة؛ والأسلحة النارية التي يؤدي مجرد لمسها إلى حكم بعشرين سنة حرب؛ ومغامرات الطيش التي لا تقود إلا إلى خيبة الأمل والجنون؛ وكل شيء، في نهاية المطاف، كل ما خلقه الله بطيبته غير المتناهية، وأفسده الشيطان.

وعندما كان يستيقظ، وقد سحقته مطحنة الكوابيس، يحرره من الرعب ضوء النافذة، ومداعبات آمارانتا في حوض الحمام، واللذة التي تنثر بها البودرة ما بين ساقيه ببلوطة حريرية. وحتى أورسولا نفسها كانت مختلفة تحت ضوء الحديقة الباهر، لأنها لم تكن تحدثه هناك عن أشياء مخيفة، بل تفرك أسنانه بمسحوق الفحم كي تكون له ابتسامة بابا مشرقة، وتقص أظفاره وتشذبها كي يندهش الحجاج القادمون إلى روما، من كل أنحاء الأرض، بنعومة يدي البابا عندما يباركهم؛ وتمشط شعره كالبابا، وتبلله بماء معطر ليكون لجسمه وثيابه عبق أريج البابا. وفي فناء كاستيلغاندولفو، رأى هو نفسه البابا على الشرفة، يلقي الخطبة نفسها بسبع لغات، على حشد من الحجاج، وكان الشيء الوحيد

الذي استرعى انتباهه فعلاً، هو بياض يديه اللتين تبدوان كأنهما نقعتا في ماء الصودا، والبريق المبهر لثيابه الصيفية، ورائحة ماء الكولونيا الخفية التي تفوح منه.

بعد قرابة السنة من عودته إلى البيت، وكان قد باع - كي يأكل - الشمعدانات الفضية، والمبولة الموروثة التي تبين، في ساعة الحقيقة، أنه ليس فيها من الذهب إلا شعار العائلة؛ صارت تسلية خوسيه أركاديو الوحيدة هي إحضار أطفال القرية ليلعبوا في البيت. كان يُرى معهم في وقت القيلولة، ويجعلهم يلعبون نط الحبل في الحديقة، ويغنون في الردهة، ويقومون بحركات بهلوانية على أثاث الصالون، بينما هو ينتقل من جماعة منهم إلى أخرى، يلقي عليهم دروساً في حسن السلوك. وفي أثناء ذلك، أتلف بنطاله الضيق وقميصه الحريري، وصار يلبس ملابس عادية اشتراها من دكاكين العرب، لكنه حافظ على وقاره الواهن وحركاته البابوية. استولى الأطفال على البيت، مثلما فعلت زميلات ميمي في الماضي. فكانوا يُسمعون حتى ساعة متأخرة من الليل، وهم يثرثرون ويغنون ويرقصون الثاباتيادو، فبدا البيت كما لو أنه مدرسة داخلية بلا انضباط. لم يهتم أوريليانو بذلك الغزو ما داموا لا يزعجونه في غرفة ميلكيادس. وفي صباح أحد الأيام، دفع طفلان الباب، وفزعا حيال رؤية الرجل الوسخ وكثيف الشعر الذي يواصل فك رموز الرقاق على منضدة العمل. لم يجرؤا على الدخول، ولكنهما ظلا يحومان حول الغرفة. كانا ينظران من الشقوق وهما يتبادلان الوشوشات، ويرميان حيوانات حية من كوى النور. وفي إحدى المرات، سمرا الباب والنافذة من الخارج، فاحتاج أوريليانو إلى نصف نهار لخلعهما. ولابتهاج الأطفال لأن

شقاواتهم تمر دون عقاب، دخل أربعة منهم في صباح يوم آخر إلى الغرفة، بينما كان أوريليانو في المطبخ، مصممين على إتلاف الرقاق. ولكنهم ما إن أمسكوا الأوراق المصفرة، حتى رفعتهم قوة ملائكية عن الأرض، وأبقتهم معلقين في الهواء، إلى أن رجع أوريليانو وانتزع منهم الرقاق. فلم يعودوا لإزعاجه منذ ذلك اليوم.

الأطفال الأربعة الأكبر سناً، وكانوا يلبسون البناطيل القصيرة بالرغم من أنهم يشارفون على البلوغ، كانوا يهتمون بمظهر جوسيه أركاديو الشخصي. فكانوا يأتون قبل الآخرين، ويكرسون فترة الصباح لحلاقة ذقنه، وتدليكه بالمناشف الحارة، وتقليم أظافر يديه وقدميه وتشذيبها، وتعطيره بماء الكولونيا. وقد نزلوا معه إلى حوض الاستحمام، مرات عديدة، ليفركوه بالصابون من رأسه إلى قدميه، بينما هو يطفو مستلقياً، ومفكراً بآمارانتا. وكانوا بعد ذلك ينشفونه، ويرشون جسمه بالبودرة، ويلبسونه ثيابه. وكان أحد الأطفال، وهو ذو شعر أشقر وخشن، وعينين ورديتين لامعتين كأعين الأرانب، قد اعتاد على النوم في البيت. كانت الروابط التي تشده إلى خوسيه أركاديو متينة جداً، حتى إنه كان يرافقه في سهاد نوبات ربوه، دون أن يتكلم، متجولاً معه في أنحاء البيت الغارق في الظلام. وفي إحدى الليالي، رأيا في الغرفة التي كانت تنام فيها أورسولا بريقاً أصفر، يلمع من تحت الإسمنت المتبلور، كما لو أن شمساً تحت أرضية قد حولت أرض الغرفة إلى زجاج. لم يحتاجا إلى إشعال النور. وكان كافياً أن يرفعا صفائح البلاط المكسورة في الركن، حيث كان سرير أورسولا، وحيث كان البريق أشد قوة، فوجدا المخبأ السري الذي أهلك أوريليانو الثاني نفسه في البحث عنه في حمى التنقيب. وهناك كانت أكياس القنب

الثلاثة المربوطة بسلك نحاسي، وفيها السبعة آلاف ومئتان وأربع عشرة قطعة ذهبية، لا تزال تلمع كالجمر في الظلام.

كان العثور على الكنز أشبه بانفجار. وبدل أن يعود إلى روما بهذه الثروة المفاجئة التي كانت حلماً راوده في أيام البؤس، حوّل خوسية أركاديو البيت إلى جنة آيلة إلى الانحطاط. استبدل الستائر القديمة بمخمل جديد، وكذلك فعل بكلّة السرير، وبلَّط أرضية الحمام، وغطى جدرانه ببلاط خزفي. وملأ خزانة غرفة الطعام بالفواكه المحفوظة في السكر، والجامبون، واللحوم المجففة. وأعيد فتح مخزن المؤونة المهجور ليمتلئ بالأنبذة والمشروبات التي كان خوسيه أركاديو نفسه يذهب لاستلامها من مستودع المحطة، في صناديق تحمل اسمه. وفي إحدى الليالي، أقام هو والصبية الكبار الأربعة، حفلة امتدت حتى الفجر. وفي الساعة السادسة صباحاً، خرجوا جميعهم من الغرفة عراة، فأفرغوا حوض الحمام وملؤوه بالشمبانيا. وغطسوا فيه كقطيع، وسبحوا مثل عصافير تطير في سماء مذهبة بفقاقيع معطرة، بينما خوسيه أركاديو يطفو مستلقياً، غير عابئ بالحفلة، مستحضراً آمارانتا وعيناه مفتوحتان. وبقي على تلك الحال، مستغرقاً في تأملاته، مجتراً مرارة مباهجه الخاطئة، إلى ما بعد تعب الصبية وذهابهم الصاخب إلى الغرفة، حيث انتزعوا الستائر المخملية كي يجففوا أجسادهم، وكسروا مرآة الكريستال الصخري، ومزقوا كلّة السرير وهم يحاولون النوم فيه جميعهم. وعندما رجع خوسيه أركاديو من الحمام، وجدهم ينامون متكومين، عراة، في غرفة يعمها الخراب. لم تُغضبه الأضرار والخراب بقدر ما أغضبه القرف والشفقة اللذين أحس بهما تجاه نفسه بالذات في

خواء العربدة المحزن، فتسلح بسوط تكفير كنسي كان يحتفظ به في قاع الصندوق، إلى جانب مسوح كهنوتية وسلاسل تعذيب وتوبة أخرى، وطرد الأولاد من البيت وهو يزعق كمجنون، ويجلدهم بلا شفقة، كما ما كان ليفعل مع قطيع من الذئاب. أحس بالإنهاك، وأصيب بنوبة ربو امتدت عدة أيام، أضفت عليه مظهر المحتضر. وفي الليلة الثالثة من العذاب، وكان قد غلبه الاختناق، ذهب إلى غرفة أوريليانو ليرجوه أن يشتري له، من دكان عقاقير قريبة، مسحوقاً يتنشقه. وبهذه الطريقة، قام أوريليانو بخروجه الثاني إلى الشارع. ولم يكن عليه أن يجتاز سوى شارعين، ليصل إلى الصيدلية الضيقة ذات الواجهة المعفرة، والمترعة بقوارير خزفية عليها كتابات لاتينية، حيث وجد فتاة لها جمال أفعى النيل السري، باعته الدواء الذي كتبه له خوسيه أركاديو على ورقة. الرؤية الثانية للقرية المقفرة، المضاءة إضاءة خافتة بمصابيح الشوارع الشاحبة، لم توقظ في أوريليانو فضولاً أكبر من المرة الأولى. وكان خوسيه أركاديو قد بدأ يفكر في أنه هرب، عندما رآه يظهر من جديد، وهو يلهث قليلاً بسبب العجلة، ويجرجر ساقيه اللتين أضعفهما الحبس وعدم الحركة وجعلهما بليدتين. وقد كان عدم اهتمامه بالعالم حقيقياً، إلى حد أنه عندما خرق خوسيه أركاديو، بعد أيام قليلة، وعده لأمه، ومنحه حرية الخروج متى يشاء، ردّ عليه أوريليانو بالقول:

- ليس لدي ما أفعله في الشارع.

وظل حبيساً، مستغرقاً في الرقاق التي راح يتغلغل فيها شيئاً فشيئاً، ولكنه لا يتوصل مع ذلك إلى تفسير معناها. صار خوسيه أركاديو يحمل إليه، في الغرفة، شرحات من لحم الخنزير المقدد،

وأزهاراً محفوظة بالسكر تُخلّف في الفم مذاقاً ربيعياً، وقدم له في مناسبتين كأساً من النبيذ الجيد. لم يُبدِ أي اهتمام بالرقاق التي اعتبرها تسلية باطنية، لكن ما أثار اهتمامه هو تلك الحكمة النادرة، ومعرفة العالم العجيبة التي يمتلكها قريبه الكئيب ذاك. وعرف عندئذ أنه قادر على فهم الإنكليزية المكتوبة، وأنه قرأ في الاستراحة بين رق وآخر، مجلدات الموسوعة الستة، من الصفحة الأولى حتى الأخيرة، كما لو أنها رواية. وقد عزا إلى ذلك، في أول الأمر، مقدرة أوريليانو على التحدث عن روما وكأنه عاش فيها سنوات عديدة، ولكنه سرعان ما لاحظ أن لديه معلومات لا يمكن لها أن تكون من الموسوعة، كمعرفته أسعار الأشياء. «بالإمكان معرفة كل شيء»، كان هذا هو الجواب الوحيد الذي تلقاه من أوريليانو حين سأله عن الطريقة التي حصل بها على تلك المعلومات. وقد فوجئ أوريليانو، من جهته، بأن رؤية خوسيه أركاديو عن قرب، جعلته مختلفاً تماماً عن الصورة التي كوّنها عنه وهو يراه يجوب أنحاء البيت. فهو قادر على الضحك، وعلى أن يسمح لنفسه، بين حين وآخر، بإظهار شيء من الحنين إلى ماضي البيت، وأن يقلق لجو البؤس المخيم على غرفة ميلكيادس. ذلك التقارب بين متوحدين يجري في عروقهما الدم نفسه، كان أبعد ما يكون عن الصداقة، ولكنه أتاح لكليهما أن يتحملا بصورة أفضل، العزلة العميقة التي تفصل بينهما وتوحدهما في الوقت ذاته. لقد صار بإمكان خوسيه أركاديو منذئذ أن يلجأ إلى أوريليانو، لحل بعض المشاكل المنزلية التي تضايقه. وصار بوسع أوريليانو من جهته، أن يجلس ليقرأ في الردهة، وأن يستلم رسائل آمارانتا أورسولا التي يتواصل وصولها بالدقة المعهودة، وأن

يستعمل الحمام الذي حرمه خوسيه أركاديو منه منذ مجيئه.

وذات فجر حار، استيقظ كلاهما مذعورين على صوت طرق لجوج على الباب الخارجي. كان عجوزاً غامضاً، له عينان كبيرتان خضراوان تمنحان وجهه بريقاً شبحياً، وعلى جبهته صليب من رماد. كانت ثيابه البالية وحذاؤه الممزق والجعبة العتيقة التي يعلقها على كتفه كمتاع وحيد، تمنحه مظهر متسول، غير أن سلوكه الذي ينم عن وقار، يشكل نقيضاً صريحاً لمظهره. كانت رؤيته مرة واحدة، حتى في عتمة الصالة، كافية لإدراك أن القوة الخفية التي تمكنه من العيش، ليست غريزة حب البقاء، وإنما عادة الخوف. لقد كان أوريليانو أمادور، الابن الوحيد الناجي من أبناء الكولونيل أوليانو بوينديا السبعة عشر، يمضي باحثاً عن هدنة في حياة الهروب والشقاء الطويلة التي عاشها. عرّف بنفسه، وتوسل أن يمنحاه ملاذاً في ذلك البيت الذي تذكره، في لياليه كمنبوذ، كآخر ملجأ آمن متبق له في الحياة. لكن خوسيه أركاديو وأوريليانو لم يكونا يتذكرانه. ولاعتقادهما بأنه متشرد، طرداه إلى الشارع بالقوة. وقد رأى كلاهما عندئذ، من خلال الباب، نهاية مأساة كانت قد بدأت قبل أن يبلغ خوسيه أركاديو السن التي يعقل فيها الأشياء. فقد برز من بين أشجار اللوز على الرصيف المقابل، شرطيان لاحقا أوريليانو أمادور طوال سنين، مقتفيين أثره ككلبين عبر نصف العالم، وأطلقا عليه طلقتي ماوزر، اخترقتا بدقة صليب الرماد.

الواقع أن خوسيه أركاديو، ومنذ أن طرد الأولاد من البيت، كان ينتظر أخباراً عن عابرة محيطات ستتوجه إلى نابولي قبل عيد الميلاد. لقد أخبر أوريليانو بذلك، بل وضع خطة كذلك لإقامة

تجارة له، تمكنه من العيش، لأن سلة المؤونة كانت قد انقطعت منذ دفن فرناندا. غير أن هذا الحلم الأخير لن يقدر له أن يتحقق. ففي صباح يوم من أيلول، وبعد تناول القهوة مع أوريليانو في المطبخ، كان خوسيه أركاديو ينهي حمامه اليومي، عندما دخل عليه، من فجوات قرميد السقف، الأولاد الأربعة الذين طردهم من البيت. ودون أن يتيحوا له الوقت للدفاع عن نفسه، نزلوا بملابسهم إلى الحوض، وأمسكوا به من شعره، وأبقوا رأسه تحت الماء إلى أن تلاشت فقاقيع الاحتضار عن السطح، وانزلق جسد الدولفين الصامت والشاحب إلى قعر الماء المعطر. حملوا بعد ذلك أكياس الذهب الثلاثة التي لم يكن أحد غيرهم وغير ضحيتهم يعرف مخبأها. كانت عملية سريعة، منهجية، ووحشية، بدت وكأنها واحدة من هجمات العسكريين. أما أوريليانو، المعتكف في غرفته، فلم يلحظ أي شيء. وفي مساء ذلك اليوم، بعد أن افتقده في المطبخ، بحث عن خوسيه أركاديو في كل أنحاء البيت، فوجده طافياً في مرايا الحوض المعطرة، ضخماً ومنتفخاً، ولا يزال يحلم بآمارانتا. عندئذ فقط، أدرك كم بدأ يحبه.

رجعت آمارانتا أورسولا مع أول ملائكة كانون الأول، مدفوعة بنسائم سفينة شراعية، ومقتادة زوجها مربوطاً بحبل حريري حول عنقه. ظهرت دون أي إعلان مسبق، وهي ترتدي ثوباً عاجياً، وتضع عقداً من اللؤلؤ يكاد يصل إلى ركبتيها، وخواتم من زمرد وياقوت، وشعرها المدور الأملس ينتهي عند الأذنين كطرفي جناحي سنونوة. الرجل الذي تزوجت منه، قبل ستة شهور، هو بلجيكي ناضج، ممشوق القامة، له هيئة بحار. لم يكن عليها سوى أن تدفع باب الصالون، لتدرك أن غيابها كان طويلاً وهداماً أكثر مما قدرت.

- رباه - صاحت بصوت فيه من المرح أكثر مما فيه من الذعر - كم يبدو واضحاً عدم وجود امرأة في هذا البيت.

لم يكن هناك في الردهة متسع للأمتعة. ففضلاً عن صندوق فرناندا القديم الذي أرسلوه معها إلى الكلية، كانت تحمل معها صندوقي ملابس عموديين، وأربع حقائب كبيرة، وكيساً للمظلات، وثماني علب قبعات، وقفصاً كبيراً فيه خمسون كنارياً، ودراجة زوجها المفككة في علبة خاصة، يمكن حملها مثلما يُحمل الفيولونسيل. لم تمنح نفسها ولو يوم راحة واحد بعد سفرها الطويل. ارتدت أفرهولاً مهترئاً من الكتان، أحضره زوجها مع ملابس ميكانيكي أخرى، وبدأت عملية ترميم جديدة للبيت. شتتت

شمل النمل الأحمر الذي كان قد اجتاح الردهة، وأحيت شجيرات الورد، وانتزعت الأعشاب العشوائية من جذورها، وأعادت زرع نباتات سرخس، وأوريغانو وبيغونيا في أصص حاجز الردهة. وقادت فرقة نجارين ومصلحي أقفال وبنائين، أصلحوا شقوق الأرضية، وثبتوا مفصلات الأبواب والنوافذ، وجددوا الأثاث وبيضوا الجدران من الداخل والخارج، إلى أن صار بالإمكان مرة أخرى، بعد ثلاثة شهور من مجيئها، تنفس هواء الشباب والاحتفال الذي كان يسود البيت في أزمنة البيانولا. لم ير البيت قط أحداً أفضل منها مزاجاً في كل الأوقات والظروف، ولا من هو أكثر استعداداً للغناء والرقص، ولإلقاء كل الأشياء والعادات البائدة إلى القمامة. ولقد أجهزت بضربة مكنسة على الذكريات المأتمية وأكوام الترهات غير المجدية، وأجهزة الخرافات المتراكمة في الأركان. والشيء الوحيد الذي أبقته، وفاء لأورسولا، هو صورة ريميديوس في الصالون. وكانت تصيح وهي تكاد تموت من الضحك: «انظروا هذا الترف. أم جدة في الرابعة عشرة.» وعندما أخبرها أحد البنائين بأن الدار مسكونة بالأشباح، وأن الطريقة الوحيدة لطردها هي في البحث عن الكنوز التي خلّفوها مطمورة، أجابت وهي تقهقه، بأنها لا تؤمن بخرافات الرجال. كانت بالغة العفوية، وشديدة الانعتاق، لها روح بالغة الحداثة والتحرر، إلى حد لم يدر معه أوريليانو ماذا يفعل بجسده حين رأى وصولها. ولكنها صرخت بسعادة، وهي تفتح ذراعيها: «يا للروعة. انظروا كم كبر معبودي آكل اللحم البشري!» وقبل أن يتمكن من الإتيان بأي رد فعل، كانت قد وضعت اسطوانة في الفونوغراف النقال الذي أحضرته معها، وراحت تحاول تعليمه الرقصات

الدارجة. أجبرته على استبدال بنطاله المتسخ الذي ورثه عن الكولونيل أوريليانو بوينديا، وأهدت إليه قمصاناً شبابية وحذاء بلونين، وصارت تدفع به إلى الشارع، كلما أمضى وقتاً طويلاً في غرفة ميلكيادس.

كانت نشيطة، ضئيلة، جامحة مثل أورسولا، وتكاد تشبه ريميديوس الجميلة، بجمالها وإثارتها. وُهبت غريزة غريبة في استباق الموضة. فعندما تتلقى بالبريد، أحدث مجلات الأزياء، لا تكاد تنفعها إلا في التأكد من أنها لم تخطئ في الموديلات التي ابتكرتها، وخاطتها على آلة خياطة آمارانتا اليدوية البدائية. كانت مشتركة بكل مجلات الأزياء، ومطلعة على الأخبار الفنية والموسيقى الشعبية التي تنتشر في أوروبا، فكانت تكتفي بتصفحها لتعرف أن الأمور في العالم تجري مثلما تتخيلها هي نفسها. لم يكن مفهوماً كيف أمكن لامرأة لها تلك الروح، أن تعود إلى قرية ميتة، يُثقل عليها الغبار والحر، لا سيما وأنها متزوجة من رجل يملك ما يزيد من المال للعيش حياة رغيدة في أي مكان من العالم، وهو يحبها إلى حد الخضوع لأن تأخذه وتجيء به بالرسن الحريري. مع ذلك، وكلما مضى الزمن، كانت تتضح بجلاء أكبر، نيتها في البقاء. فهي لا تتصور مشاريع إلا وتكون طويلة الأجل، ولا تتخذ قرارات إلا وتكون موجهة لالتماس حياة مريحة وشيخوخة هادئة في ماكوندو. وكان قفص طيور الكناري يُثبت أن تلك النوايا ليست مرتجلة. فحين تذكرت أن أمها قد أخبرتها في إحدى رسائلها بهلاك الطيور، عمدت إلى تأخير سفرها عدة شهور، إلى أن وجدت سفينة ستتوقف في «الجزر السعيدة»، وانتقت هناك أجمل خمسة وعشرين زوجاً من طيور الكناري،

لتعيد إحياء سماء ماكوندو. وكانت هذه أشد مبادراتها العديدة المحبطة إثارة للرثاء. فكلما كانت الطيور تتكاثر، تقوم آمارانتا أورسولا بإطلاق أزواج منها، ولكن الطيور كانت تهرب من القرية، قبل أن تبدأ الإحساس بحريتها. ولم تُجدِ جهودها في تحبيبها ببرج الطيور الذي بنته أورسولا أثناء عملية ترميم البيت الأولى. وذهبت أدراج الرياح مساعيها في صنع أعشاش مزيفة لها، من الحلفاء، على أشجار اللوز، ونثرها الحبوب على السطوح، وتهيجها الطيور الحبيسة ليثني غناؤها الطيور الهاربة عن الفرار، لأن هذه الطيور كانت تحلق عالياً من المحاولة الأولى، وتقوم بجولة دائرية في السماء، لا تكاد تستغرق إلا الزمن اللازم لمعرفة طريق العودة إلى «الجزر السعيدة».

بعد مرور سنة على مجيئها، وبالرغم من أنها لم تتوصل إلى عقد صداقة أو إقامة حفلة واحدة، ظلت آمارانتا أورسولا على اعتقادها بإمكانية انتشال تلك القرية المختارة من بؤسها. كان زوجها غاستون، يتوخى عدم معارضتها، مع أنه أدرك منذ الظهيرة القاتلة التي نزل فيها من القطار، أن سراب الحنين هو ما دفع زوجته إلى اتخاذ قرارها. وليقينه بأن الواقع سوف يهزمها، لم يكلف نفسه عناء تركيب دراجة، وإنما انهمك في البحث عن أجمل البيوض في نسيج العناكب الذي يزيله البناؤون، فيفتحها بأظفاره، ويقضي الساعات متفحصاً، بعدسة مكبرة، العناكب الصغيرة التي تخرج منها. ولاعتقاده في ما بعد، بأن آمارانتا أورسولا إنما تواصل أعمال الإصلاح كيلا تعترف بالهزيمة، قرر أن يركّب دراجته الفخمة، بعجلتها الأمامية الأكبر بكثير من العجلة الخلفية، وانهمك في اصطياد وتحنيط ما يجد من حشرات المنطقة في

محيط القرية، وإرسالها في أواني المربيات إلى أستاذه القديم بالتاريخ الطبيعي في جامعة لييج، حيث قام بدراسة متقدمة في علم الحشرات، مع أن ميله الطاغي هو علوم الطيران. عندما كان يمضي على الدراجة، يلبس بنطال بهلوان، وجوارب زمار قِربة، وقبعة تحري، ولكنه عندما يتجول ماشياً، يرتدى بدلة من الكتان الخام، لا تشوبها شائبة، وحذاء أبيض، وربطة عنق من الحرير، وقبعة من القش، ويحمل في يده عصا من الخيزران. له حدقتان شاحبتان تبرزان هيئته الملاح فيه، وشارب من شعر سنجاب. ومع أنه يكبر زوجته بخمسة عشر عاماً على الأقل، إلا أن أهواءه الشبابية، وحرصه على إسعادها، وفضائله كعاشق طيب، كانت تعوض فارق السن. والحقيقة أن من رأوا ذلك الأربعيني ذا العادات الحذرة، بحبل الحرير حول عنقه، ودراجة السيرك التي يركبها، لم يكن بإمكانهم أن يتخيلوا أن هناك عقد حب جامح بينه وبين زوجته الشابة، وأن كلاً منهما كان يستجيب للدعوة الملحة المتبادلة في أقل الأمكنة ملاءمة، وحيثما يفاجئهما الإلهام، مثلما فعلا ذلك منذ بداية لقاءاتهما، وبعاطفة راحت تغتني وتتعمق مع مرور الزمن وتوالي الظروف التي تزداد غرابة. لم يكن غاستون عاشقاً مندفعاً ذا معارف ومخيلة لا تنضب وحسب، ولكنه ربما كان أول رجل في تاريخ النوع البشري يقوم بهبوط اضطراري، كاد أن يموت فيه مع عروسه، لكي يمارسا الحب في مرج أزهار بنفسج.

لقد تعارفا قبل ثلاث سنوات من زواجهما، عندما حاولت طائرته الرياضية ذات الأجنحة المزدوجة، والتي كان يقوم فيها بالشقلبات فوق كلية آمارانتا أورسولا، أن تُنفذ مناورة جريئة لتفادي سارية العلم، فتشابك ذيل الطائرة البدائية بأسلاك

الكهرباء، وظل بدنها المصنوع من قماش سميك وورق الألمنيوم معلقاً بالأسلاك. منذ ذلك اليوم، ودون مبالاة بساقه المجبرة، صار يذهب في نهاية كل أسبوع لأخذ آمارانتا أورسولا من نزل الراهبات، حيث ظلت تعيش طوال الوقت، ولم تكن أنظمته صارمة مثلما أملت فرناندا، وبأخذها إلى ناديه الرياضي. بدأا تبادل الحب على ارتفاع خمسمئة متر، في فضاء أيام الآحاد فوق الأراضي المقفرة، وكانا يشعران بحميمية أكبر كلما بدت لهما كائنات الأرض أصغر حجماً. كانت تحدثه عن ماكوندو باعتبارها أبهى قرى العالم وأكثرها وداعة، وعن بيت كبير، معطر برائحة الأوريغانو، حيث تتمنى أن تعيش حتى الشيخوخة، مع زوج وفيّ وابنين جامحين تسميهما رودريغو وغونثالو، وليس أوريليانو أو خوسيه أركاديو بأي حال، وبنت تسميها فيرجينيا وليس ريميديوس بأي حال. وكانت قد استحضرت، بإصرار متلهف، ذكرى القرية التي حوّلها الحنين إلى المثالية، فأدرك غاستون أنها لن تقبل الزواج منه ما لم يأخذها للعيش في ماكوندو. وقد وافق على ذلك، مثلما وافق فيما بعد على رسن الحرير، لأنه ظن أنها نزوة عابرة من الأفضل إشباعها قبل فوات الأوان. ولكن عندما انقضت سنتان في ماكوندو، وآمارانتا أورسولا لا تزال على سعادة اليوم الأول، بدأ يبدي إمارات الذعر. وكان في أثناء ذلك قد حنط كل ما يمكن تحنيطه من حشرات المنطقة، وصار يتكلم القشتالية كواحد من أهل البلاد، وحل كل الكلمات المتقاطعة في المجلات التي كان يتلقاها بالبريد. لم يكن بوسعه التذرع بالمناخ كي يعجّل الرجوع، لأن الطبيعة حبته بكبد استعماري، يتحمل دون انكسارات قيظ القيلولة والماء المترع بالديدان الصغيرة. لقد أحب المأكولات

المحلية كثيراً، حتى إنه أكل في أحد الأيام عنقوداً من اثنتين وثمانين بيضة من بيوض عظاءات الإيغوانا. أما آمارانتا أورسولا في المقابل، فكانت تطلب أن تُرسل إليها، بالقطار، أسماك وأصداف بحرية في صناديق مملوءة بالثلج، ولحوم معلبة، وفواكه محفوظة بالرب، وهي الأشياء الوحيدة التي تستطيع أكلها، وواصلت ارتداء الملابس على الموضة الأوروبية، وتلقي مجلات الأزياء بالبريد، على الرغم من أنه ليس هناك مكان تذهب إليه ولا أحد تزوره، وبالرغم من أن زوجها كان قد فقد، عند ذلك الحد، المزاج الذي يتيح له إبداء الإعجاب بفساتينها القصيرة، وقبعاتها ذات الحواف العريضة من اللبد، وعقودها ذات السبع لفات. وبدا أن سرها يتلخص في عثورها طوال الوقت على طريقة لشغل نفسها؛ فهي تحل مشاكل بيتية كانت هي نفسها تخلفها، وتقوم بأمور خاطئة عن عمد لتصلحها في اليوم التالي، بحماسة مرضية كان يمكن لها أن تذكّر فرناندا بالإدمان الوراثي على تركيب الأشياء من أجل إعادة فكها. وكان طبعها الاحتفالي لا يزال آنذاك متحفزاً، فكلما تلقت اسطوانات جديدة، تدعو غاستون للبقاء في الصالون حتى وقت متأخر، للتدرب على الرقصات التي تصف لها زميلاتها في الكلية طريقة أدائها برسوم توضيحية، وينتهيان في معظم الأحيان إلى ممارسة الحب على الأرائك الفيينية الهزازة، أو على الأرضية الجرداء. الشيء الوحيد الذي كان ينقصها لتكون سعيدة تماماً هو إنجاب الأبناء، لكنها احترمت اتفاقها مع زوجها بعدم إنجابهم قبل انقضاء خمس سنوات على زواجهما.

وفي بحثه عن شيء يشغل به أوقاته الميتة، اعتاد غاستون أن يقضي الصباح في غرفة ميلكيادس، مع أوريليانو النفور. ويسعد

بأن يتحدث معه عن أشد الأركان حميمية في موطنه الذي يعرفه أوريليانو كما لو أنه عاش فيه زمناً طويلاً. وعندما سأله غاستون كيف حصل على معلومات لا وجود لها في الموسوعة، تلقى الجواب نفسه الذي تلقاه خوسيه أركاديو: «بالإمكان معرفة كل شيء». وكان أوريليانو قد تعلم، فضلاً عن السنسكريتية، الإنكليزية والفرنسية، وشيئاً من اللاتينية واليونانية. ولأنه صار يخرج آنذاك في عصر كل يوم، ولأن آمارانتا أورسولا خصصت له مبلغاً أسبوعياً لنفقاته الشخصية، فقد صارت غرفته تبدو وكأنها جزء من مكتبة العالم الكتلاني. كان يقرأ بنهم حتى ساعات متأخرة من الليل، وإن تكن الطريقة التي يعلق بها على قراءاته، قد دفعت غاستون إلى التفكير في أنه لا يشتري الكتب لجني المعارف منها، وإنما للتأكد من صحة معلوماته، وأنه لم يكن هناك أي كتاب يهمه مثل الرقاق التي يخصص لها أفضل ساعات الصباح. وكان غاستون وزوجته، على السواء، يرغبان في دمجه في حياتهما العائلية، غير أن أوريليانو كان رجلاً متكتماً، تحيط به غمامة من الغموض، تزداد كثافة مع الزمن. كان حالة شديدة الانغلاق، أخفقت جهود غاستون في التقرب منه، فكان عليه أن يبحث عن تسليات أخرى لملء ساعاته الميتة. وكان أن خطرت له، في تلك الفترة، فكرة إنشاء خدمات بريد جوي.

لم يكن المشروع جديداً. والواقع أنه كان قد تقدم فيه كثيراً قبل أن يتعرف إلى آمارانتا أورسولا، غير أن ذلك المشروع لم يكن من أجل ماكوندو، وإنما من أجل الكونغو البلجيكي، حيث تملك عائلته استثمارات في إنتاج زيت النخيل. غير أن الزواج، وقراره في قضاء بضعة شهور في ماكوندو لإسعاد زوجته، اضطره إلى

تأجيل المشروع. لكنه عندما رأى أن آمارانتا أورسولا مستغرقة في تنظيم جمعية تحسينات عامة، بل إنها كانت تضحك منه لأنه يُلمِّح إلى إمكانية العودة، أدرك أن الأمر سيطول، وأعاد اتصالاته مع شركائه المنسيين في بروكسل، مفكراً في أن الريادة ستكون هي نفسها، سواء في منطقة الكاريبي أو في أفريقيا. وبينما اتصالاته تتقدم، هيأ حقلاً لهبوط الطائرة في المنطقة المسحورة القديمة التي كانت تبدو آنذاك سهلاً صوانياً مشققاً. ودرس اتجاه الرياح، وجغرافية الساحل، وأكثر الطرق ملاءمة للملاحة الجوية، دون أن يدري أن دأبه، شديد الشبيه بدأب المستر هربرت، كان يثير في القرية ارتياباً خطيراً بأن نواياه ليست التخطيط لدروب اتصال، وإنما لزراعة الموز. وفي حماسته لفكرة أنه يستطيع، في نهاية المطاف، تبرير استقراره نهائياً في ماكوندو، قام بعدة رحلات إلى عاصمة المقاطعة، وقابل السلطات فيها، وحصل على تراخيص، ووقّع اتفاقيات حصرية. وفي أثناء ذلك، كان يواظب على مراسلات مع شركائه في بروكسل، تشبه مراسلات فرناندا مع الأطباء غير المرئيين، وانتهى به الأمر إلى إقناعهم بأن يرسلوا أول طائرة مع ميكانيكي خبير، يستطيع تركيبها في أقرب مرفأ، ويأتي بها طائراً إلى ماكوندو. وبعد سنة من القياسات والحسابات للأحوال الجوية، والوثوق بوعود مراسليه المتكررة، اكتسب عادة التنزه في الشوارع، مراقباً السماء، ومصغياً إلى أصوات الرياح، بانتظار ظهور الطائرة.

مع أن آمارانتا أورسولا لم تكن تنتبه إلى الأمر، إلا أن عودتها أحدثت تغيراً جذرياً في حياة أوريليانو. فقد تحول بعد موت خوسيه أركاديو إلى زبون مواظب في مكتبة العالم الكتلاني. كما

أن الحرية التي نعم بها آنذاك، والوقت الذي صار يتوفر له، أيقظا فيه نوعاً من الفضول تجاه القرية التي تعرّف عليها بلا دهشة. جاب الشوارع المعفرة والمقفرة، متفحصاً داخل البيوت المهدمة، باهتمام علمي أكثر منه إنسانياً، وشِباك النوافذ المعدنية التي مزقها الصدأ والطيور المحتضرة، والسكان الذين أخمدت الذكريات همتهم. حاول أن يعيد، في المخيلة، بناء البهاء الغابر لمدينة شركة الموز القديمة، وقد امتلأ مسبحها الذي جف، بأحذية رجالية وأخفاف نسائية متعفنة حتى حافته. وجد بين بيوتها التي خربتها النباتات العشبية، هيكلاً عظمياً لكلب رعاة ألماني، لا يزال مقيداً إلى حلقة بسلسلة فولاذية، وهاتفاً يرن، ويرن، ويرن، إلى أن رفع هو سماعته، وفهم ما كانت امرأة مغمومة ونائية تسأل عنه بالإنكليزية، فأجابها نعم، إن الإضراب قد انتهى، وإنه قد أُلقي بالثلاثة آلاف قتيل إلى البحر، وإن شركة الموز رحلت، وإن ماكوندو تنعم أخيراً بالسلام منذ سنوات طويلة. وقاده ذلك التجوال إلى حي التسامح المتردي، حيث كانت تُحرق، في أزمنة أخرى، رزم من الأوراق النقدية لتنشيط رقصات الكومبيامبا، وتحول آنئذ إلى متاهة شوارع أشد كآبة وبؤساً من الشوارع الأخرى، مع بعض القناديل الحمراء التي لا تزال مضاءة فيه، وقاعات رقص مقفرة، مزينة ببقايا أكاليل زهر، حيث أرامل لا أحد الحزينات والبدينات، والجدات الفرنسيات، والقوادات البابليات، يواصلن الانتظار إلى جوار الفونوغرافات. لم يجد أوريليانو من يتذكر عائلته، ولا حتى من يتذكر الكولونيل أوريليانو بوينديا، ما عدا أكبر الأنتيليين سناً، وهو عجوز يضفي عليه رأسه القطني الأبيض مظهر مسودة صورة فوتوغرافية. وكان لا يزال يغني عند بوابة البيت مزامير الغروب

الحزينة. فكان أوريليانو يتبادل الحديث معه بلهجة البابيامنتو[1] العويصة التي تعلمها في بضعة أسابيع، ويقاسمه أحياناً حساء رؤوس الديكة الذي تطبخه ابنة حفيدته، وهي زنجية ضخمة، ذات عظام متينة، وردف مهرة، وثديين حيويين كبطيختين، ورأس مدور، تام، مدرع بخوذة قاسية من شعر سلكي، كأنها خوذة فارس من العصور الوسطى. كانت تدعى نيغرومانتا. وكان أوريليانو يعيش في تلك الفترة من بيع أدوات مائدة، وشمعدانات، وأوان أخرى من البيت. وعندما لا يكون لديه فلس واحد، وهو الأمر الغالب، يتمكن من جعلهم يعطونه، في حانات السوق، رؤوس الديكة التي سيرمون بها إلى القمامة، فيحملها إلى نيغرومانتا لتصنع منها حساء، تضاعفه بالفرفحينة وتعطره بالنعناع. وحين مات جدها، لم يعد أوريليانو يتردد على البيت، ولكنه كان يلتقي بنيغرومانتا تحت أشجار اللوز القاتمة في الساحة، حيث كانت تجتذب، بصفير الحيوان البري الذي تطلقه، عابري الليل القليلين. وقد رافقها مرات كثيرة، متحدثاً معها بالبابيامنتو عن حساء رؤوس الديكة، ولذائذ بؤس أخرى، وكان يمكن له مواصلة عمل ذلك، لو لم تُفهمه أن مرافقته لها تبعد الزبائن عنها. وبالرغم من إحساسه بالرغبة فيها عدة مرات، وبالرغم من أن ذلك كان سيبدو لنيغرومانتا نفسها، تتويجاً طبيعياً لحنينهما المتقاسم، إلا أنه لم يكن ينام معها. وهكذا كان أرويليانو لا يزال محتفظاً بعذريته عندما عادت آمارانتا أورسولا إلى ماكوندو، وعانقته عناقاً أخوياً أفقده أنفاسه. وفي كل مرة كان يراها، وأسوأ من ذلك عندما كانت تعلّمه

---

[1] البابيامنتو papiamento: لهجة من اللغة القشتالية، شائعة الاستخدام في جزيرة كوراساو.

الرقصات الدارجة، يحس بوهن إسفنج في عظامه، كذاك الذي أقلق جد جده عندما تذرعت بيلار تيرنيرا بورق اللعب في مخزن الحبوب. وفي محاولة منه لكتم عذابه، أغرق نفسه بعمق أكبر في الرقاق، وتفادى مداعبات تلك الخالة البريئة التي كانت تسمم لياليه بشذاها الكارثي. ولكنه كلما تجنبها أكثر، ازداد تلهفه إلى انتظار ضحكتها المجلجلة، وزعيق الهرة السعيدة الذي تطلقه، وأغنياتها الممتنة، وهي تحتضر حباً في أية ساعة، وفي أمكنة من البيت لا تخطر في البال. وفي إحدى الليالي، على بعد عشرة أمتار من سريره، وعلى طاولة مشغل الصياغة، فقد الزوجان توازنهما، فكسرا زجاج الخزانة، وانتهيا إلى تبادل الحب على بركة من حمض كلور الماء. ولم يقتصر الأمر على عدم قدرة أوريليانو على النوم دقيقة واحدة، وإنما أمضى اليوم التالي محموماً، يبكي من الغيظ. وبدا له أبدياً مجيء الليلة الأولى التي انتظر فيها نيغرومانتا في ظل أشجار اللوز، تخزه إبر القلق الجليدية، ويضغط في قبضته على البيزو والخمسين سنتافو التي طلبها من آمارانتا أورسولا، ليس لأنه بحاجة إليها، وإنما لكي يشركها في مغامرته، ويحقرها، ويعهرها بطريقة ما. اقتادته نيغرومانتا إلى غرفتها المضاءة بمصابيح خافتة، وإلى سريرها القابل للطي، بملاءته الملطخة ببقع الغراميات، وإلى جسدها ككلبة شرسة، متصلبة، قاسية، أعدت نفسها للتعامل معه كما لو أنه طفل خائف، فوجدت نفسها مع رجل فرضت قواه الخارقة على أحشائها حركة توافق مزلزلة.

صارا عشيقين. كان أوريليانو يقضي الصباح في حلّ رموز الرقاق، وفي ساعة القيلولة يذهب إلى غرفة النوم الهاجعة، حيث

تنتظره نيغرومانتا لتعلمه ممارسة الحب أولاً مثل الدود، وبعد ذلك مثل الحلزونات، وأخيراً مثل السرطانات، إلى أن تضطر إلى تركه لتتصيد غراميات زائغة. انقضت عدة أسابيع قبل أن يكتشف أوريليانو أنها تضع حول خصرها حزاماً يبدو كأنه مصنوع من وتر فيولونسيل، ولكنه كان صلباً كالفولاذ، وليس له نهاية، لأنه ولد وكبر فيها. وبصورة شبه دائمة، بين حب وآخر، كانا يأكلان عاريين في السرير، في الحر الباعث على الهذيان، وتحت النجوم النهارية التي يبرزها الصدأ على توتياء السقف. كانت المرة الأولى التي تمتلك فيها نيغرومانتا رجلاً ثابتاً. فحل بيتي، مثلما كانت تقول وهي تموت ضحكاً، بل إنها كانت قد بدأت تغذي أوهام قلبها، عندما اعترف لها أوريليانو بعاطفته المكبوتة نحو آمارانتا أورسولا، والتي لم يستطع التعويض عنها بالاستبدال، بل إنها تزيد أكثر فأكثر في تمزيق أحشائه كلما وسعت التجربة من أفق الحب. عندئذ واصلت نيغرومانتا مضاجعته، بالدفء المعهود نفسه، ولكنها صارت تتقاضى منه بصرامة، أجراً مقابل خدماتها، وعندما لا يكون لدى أوريليانو نقود يدفعها، تضيفها إلى الحساب الذي لا تسجله أرقاماً، وإنما خطوطاً تحفرها بظفر إبهامها وراء الباب. وعند الغروب، بينما تبقى هي متسكعة في ظلال الساحة، يمر أوريليانو من الردهة كغريب، موجهاً تحية عاجلة إلى آمارانتا أورسولا وغاستون، المعتادين على تناول العشاء في تلك الساعة، ويعود للاعتكاف في الغرفة، دون أن يتمكن من القراءة أو الكتابة، ولا حتى من التفكير، بسبب الجزع الذي تثيره فيه الضحكات، والوشوشات، والمداعبات التمهيدية، وبعد ذلك انفجارات السعادة الاحتضارية التي تملأ ليالي البيت. تلك كانت حياته قبل سنتين

من بدء انتظار غاستون وصول الطائرة، وكانت لا تزال على تلك الحال في مساء اليوم الذي ذهب فيه إلى مكتبة العالم الكتلاني، ووجد أربعة شبان يهذرون، منهمكين في مناقشة حول أساليب قتل الصراصير في العصر الوسيط. ولأن المكتبي العجوز كان يعرف ميل أوريليانو إلى الكتب التي لم يقرأها أحد غير بيدا المحترم، فقد حثه بشيء من الخبث الأبوي أن يتوسط في الجدال، ولم يكد هو أن يلتقط أنفاسه، وهو يشرح أن الصراصير، أقدم الحشرات المجنحة على الأرض، كانت الضحية المفضلة لضربات النعال في **العهد القديم**، ولكنها قاومت كجنس، وبصورة حاسمة، كل أساليب الإبادة، ابتداء من شرائح البندورة المخلوطة ببورات الصوديوم وحتى الطحين الممزوج بالسكر، لأن أنواعها الألف وستمائة وثلاثة، صمدت لأقدم وأعند وأقسى الملاحقات التي شنها الإنسان، منذ نشأته، ضد كل كائن حي، بمن في ذلك الإنسان نفسه، إلى حد أن الجنس البشري الذي تُنسب إليه غريزة التكاثر، لا بد أن تنسب إليه غريزة أخرى، أشد تحديداً وإلحاحاً، هي غريزة قتل الصراصير. وإذا كانت الصراصير قد تمكنت من الإفلات من الوحشية البشرية، فلأنها لجأت إلى الظلمات، حيث صارت عصية على الموت، بسبب خوف الإنسان الخلقي من الظلام؛ ولكنها صارت بالمقابل، شديدة الحساسية من وهج ضوء الظهيرة، ولهذا فإن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقتل الصراصير، سواء في العصر الوسيط، أو حالياً، وإلى أبد الآبدين، هي الضياء الشمسي المبهر.

كانت تلك القدرية الموسوعية بداية صداقة عظيمة. واصل أوريليانو الاجتماع، مساء كل يوم، بالمجادلين الأربعة الذين يدعون: ألفارو، وخيرمان، وألفونسو، وغابرييل، وهم أول وآخر من عرف

من أصدقاء في حياته. وبالنسبة لرجل مثله، رهين الحقيقة المكتوبة، كانت تلك الجلسات العاصفة التي تبدأ الساعة السادسة مساء في المكتبة، وتنتهي في المواخير عند الفجر، نوعاً من الكشف. لم يكن قد خطر له من قبل، أن الأدب هو أفضل لعبة اختُرعت لخداع الناس، مثلما برهن ألفارو في ليلة عربدة صاخبة. وكان لا بد من انقضاء بعض الوقت، قبل أن يتبين أوريليانو أن كثيراً من التعسف ينشأ من مثال العالم الكتلاني، فالحكمة في نظره لا تستحق العناء ما لم يُنتفع بها في اختراع طريقة جديدة لطبخ الحمص.

في الأمسية التي ألقى فيها أوريليانو محاضرته عن الصراصير، انتهى النقاش في بيت البنات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع، وهو ماخور وهمي في ضواحي ماكوندو. صاحبته قوادة باسمة، معذبة بهوس فتح أبوابٍ وإغلاقها. يبدو كما لو أن سبب ابتسامتها الدائمة هو سرعة تصديق الزبائن، وتقبلهم كشيء مسلّم به، وجود محلها الذي لا وجود له إلا في المخيلة، لأن الأشياء الملموسة نفسها فيه كانت غير واقعية: الأثاث الذي يتفكك لدى الجلوس عليه، والحاكي منزوع الأحشاء الذي استقرت فيه دجاجة حاضنة، وحديقة الأزهار الورقية، والتقاويم السنوية السابقة لمجيء شركة الموز، واللوحات المطبوعة حجرياً والمقصوصة من مجلات لم تُطبع قط. وحتى العاهرات الصغيرات الحييات اللواتي يهرعن آتيات من الجوار عندما تخبرهن صاحبة المحل بقدوم زبائن، كن محض اختلاق. يظهرن دون أن يحيين، بفساتينهن المزركشة برسوم أزهار، والتي يستخدمنها مذ كن أصغر بخمس سنوات، ويخلعنها بالبراءة نفسها التي لبسنها بها. ويصرخن في

ذروة احتدام الحب مذهولات، يا للهول، انظر كيف يسقط هذا السقف. وما إن يتلقين مبلغ البيزو وخمسين سنتافو، حتى ينفقنه على رغيف خبز وقطعة جبن، تبيعه لهن صاحبة المحل، وتكون أكثر ابتساماً من أي وقت آخر، لأنها الوحيدة التي تعرف أن ذلك الطعام ليس حقيقياً أيضاً. أما أوريليانو الذي كان عالمه آنذاك يبدأ برقاق ميلكيادس وينتهي في سرير نيغرومانتا، فقد وجد في الماخور المتخيل علاجاً حمارياً لخجله. لم يكن قادراً، في البدء، على التوصل إلى أية لذة، في غرف تدخلها صاحبة المحل في ذروة لحظات الحب، وتقدم كل أنواع التعليقات حول مفاتن المتضاجعين الحميمة. ولكنه توصل، مع مرور الزمن، إلى التآلف مع مفاجآت ذلك العالم، حتى أنه تعرى في صالة الاستقبال الصغيرة، في ليلة أشد اختلالاً من سواها، وجاب أنحاء البيت موازناً زجاجة بيرة على ذكره الضخم. وكان هو نفسه من أشاع التصرفات الشاذة التي كانت صاحبة المحل تحتفي بها بابتسامتها الدائمة، دون أن تعترض، ودون أن تقتنع بها، مثلما حدث عندما حاول خيرمان أن يحرق البيت، ليثبت أنه لا وجود له، أو عندما لوى ألفونسو عنق الببغاء وألقى به في القدر التي بدأ يغلي فيها طبيخ دجاج بالخضروات.

ومع أن أوريليانو كان يشعر في ارتباطه مع الأصدقاء الأربعة، بالمودة نفسها والتضامن نفسه، حتى إنه كان يفكر فيهم كما لو أنهم شخص واحد، إلا أنه كان أقرب إلى غابرييل من الآخرين. لقد ولدت هذه الرابطة عندما تحدث، مصادفة، في إحدى الليالي، عن الكولونيل أوريليانو بوينديا، وكان غابرييل هو الوحيد الذي لم يظن أنه يسخر من أحد بذلك. حتى صاحبة البيت

نفسها، ولم يكن من عادتها التدخل في الأحاديث، جادلت بحمية قوادة غاضبة، بأن الكولونيل أوريليانو بوينديا، الذي سمعت شيئاً عنه بالفعل في إحدى المرات، ما هو إلا شخصية ابتدعتها الحكومة كي تتخذها ذريعة لقتل الليبراليين. أما غابرييل بالمقابل، فلم يشك أبداً بحقيقة الكولونيل أوريليانو بوينديا، لأنه كان رفيق سلاح جد جده العقيد خيرينيلدو ماركيز، وصديقه الذي لا يفارقه. وكانت حالات ضعف الذاكرة تلك تصبح أشد حرجاً عند الحديث عن مجزرة العمال. فكلما تطرق أوريليانو إلى هذا الموضوع، لم تكن صاحبة المحل وحدها، وإنما كذلك بعض الأشخاص الذين يكبرونها سناً، يرفضون الحكاية الملفقة عن العمال المحاصرين في المحطة، وعن قطار المئتي عربة المحمل بالموتى، بل إنهم يصرون على ما بقي مثبتاً، في نهاية المطاف، في الملفات القضائية وفي كتب المدرسة الابتدائية: لم يكن ثمة وجود لشركة الموز قط. وهكذا كان يربط بين أوريليانو وغابرييل نوع من التواطؤ، يستند إلى وقائع حقيقية لا يصدقها أحد، ولكنها أثرت في حياتيهما إلى حدّ يجدان معه نفسيهما منقادين لموجة مرتدة من عالم منته، لم يبق منه سوى الحنين. كان غابرييل ينام حيث يفاجئه النعاس. وقد استضافه أوريليانو عدة مرات في مشغل الصياغة، ولكنه كان يقضي الليالي مؤرقاً، يشوشه تنقل الموتى الذين يجوبون الغرف حتى الفجر. وعهد به في ما بعد، إلى نيغرومانتا التي صارت تأخذه إلى غرفتها المزدحمة، عندما يكون ثمة زبائن، وتسجل حساباته بخطوط عمودية صغيرة وراء الباب، في الفراغات المتوفرة بين ديون أوريليانو.

كانت الجماعة، على الرغم من فوضوية حياتها، تحاول أن

تنجز شيئاً خالداً، بإلحاح من العالم الكتلاني. فقد كان هو، بخبرته كأستاذ قديم للآداب الكلاسيكية، وبما لديه من كتب نادرة، من أوصلهم إلى حالة يقضون معها ليلة كاملة في البحث عن الوضع الدرامي السابع والثلاثين، في قرية ليس لدى أحد فيها الاهتمام، ولا الإمكانية، للمضي إلى ما هو أبعد من المدرسة الابتدائية. ولانبهاره باكتشاف الصداقة، وذهوله من سحر العالم الذي حرمته منه خسة فرناندا، هجر أوريليانو دراسة المخطوطات، في الوقت الذي بدأت تتكشف له عن أنها نبوءات في أبيات شعر مشفَّرة. غير أن تأكده فيما بعد، من أن هناك في الوقت متسعاً لكل شيء، دون أن يضطر إلى التخلي عن المواخير، جعله يتحمس للعودة إلى غرفة ميلكيادس، مصمماً على عدم التهاون في مسعاه إلى أن يكتشف آخر الرموز. وكان ذلك في الأيام التي بدأ فيها غاستون انتظار الطيارة؛ وكانت آمارانتا أورسولا تجد نفسها وحيدة، حتى إنها ظهرت في صباح أحد الأيام في غرفته.

- مرحباً يا آكل اللحم البشري - قالت له - هاأنتذا في كهفك من جديد.

كانت لا تُقاوَم، بثوبها المخترع، وعقد طويل من فقرات أسماك الشابل، صنعته بنفسها. كانت قد تخلت عن الرسن الحريري، بعد أن تيقنت من وفاء زوجها، وبدا أن لديها، لأول مرة منذ عودتها، لحظة من الراحة. لم يكن أوريليانو بحاجة لأن يراها كي يعرف أنها جاءت. اتكأت بمرفقيها إلى منضدة العمل، عزلاء وشديدة القرب منه، إلى حدّ أحس معه أوريليانو بصوت عظامها العميق، وأبدت اهتماماً بالرقاق. وفي محاولة منه لتجاوز اضطرابه،

تمسك بصوته الذي هرب منه، وحياته التي تغادره، وذاكرته الآخذة بالتحول إلى رخوية بحرية متحجرة، وحدثها عن القدر اللاوي للسنسكريتية، وعن الإمكانية العلمية في رؤية المستقبل منعكساً بشفافية في الزمن، مثلما يُرى، في مواجهة الضوء، ما هو مكتوب على قفا ورقة؛ وعن ضرورة تشفير النبوءات كيلا تقضي على نفسها بنفسها، وعن *نبوءات القرون* لنوستراداموس، وعن دمار كانتابري الذي تنبأ به القديس ميلان. وفجأة، ودون أن يقطع حديثه، يحركه دافع هاجع فيه منذ منشئه، وضع أوريليانو يده على يدها، معتقداً أن ذلك القرار النهائي ينهي قلقه. ومع ذلك، فقد أمسكت هي سبابته بالبراءة الحانية نفسها التي كثيراً ما كانت تفعل بها ذلك في الطفولة، وواصلت الإمساك بها بينما هو يجيب على أسئلتها. ظلا على تلك الحال، تربط بينهما سبابة من جليد لا تنقل شيئاً من أي من الاتجاهين، إلى أن استيقظت من حلمها الآني، وضربت جبينها بيدها صائحة: «النمل!». وعندئذ نسيت المخطوطات، واتجهت نحو الباب بخطوات راقصة، ومن هناك أرسلت إلى أوريليانو، على رؤوس أصابعها، القبلة نفسها التي ودعت بها أباها في عصر اليوم الذي أرسلوها فيه إلى بروكسل. قالت له:

- ستشرح لي فيما بعد. لقد نسيتُ أنه اليوم الذي نضع فيه الكلس في ثقوب النمل.

واصلت المجيء إلى الغرفة بين حين وآخر، كلما كان لديها ما تفعله على مقربة منها، تبقى هناك دقائق قصيرة، بينما زوجها لا يزال يتفحص السماء. انخدع أوريليانو بذلك التبدل، وصار يبقى لتناول الطعام في البيت، وهو ما كان قد توقف عنه منذ الشهور

الأولى لعودة آمارانتا أورسولا. وقد سرّ غاستون بذلك. وفي أحاديث ما بعد الانتهاء من الطعام، وكانت تستمر أكثر من ساعة، كان يشكو من أن شركاءه يخدعونه. فقد أخبروه بأنهم شحنوا الطائرة على سفينة لم تصل. وبينما يؤكد له وكلاؤه البحريون أنها لن تصل أبداً، لأنها غير مذكورة في قوائم السفن المتوجهة إلى الكاريبي، كان شركاؤه يصرون على أن عملية الشحن كانت سليمة، بل إنهم صاروا يلمحون إلى أن غاستون يكذب عليهم في رسائله. ووصلت المراسلات إلى درجة كبيرة من الشكوك المتبادلة، فقرر غاستون التوقف عن الكتابة، وبدأ يلمح إلى إمكانية قيامه برحلة سريعة إلى بروكسل، من أجل توضيح الأمور، والعودة بالطائرة. ولكن هذا المشروع طوي، بعد أن أكدت آمارانتا أورسولا على قرارها بعدم التحرك من ماكوندو، ولو أدى ذلك إلى بقائها دون زوج. كان أوريليانو، في الفترة الأولى، يشاطر الآخرين الفكرة الشائعة بأن غاستون أبله على دراجة بعجلتين، وكان ذلك يبعث فيه إحساساً مبهماً بالشفقة. وفيما بعد، عندما حصل في المواخير على معلومات أعمق عن طبيعة البشر، فكر في أن وداعة غاستون تعود إلى عاطفة جامحة. ولكنه عندما تعرّف إليه بصورة أفضل، وانتبه إلى أن طبعه الحقيقي يختلف عن سلوكه الخاضع، راوده الشك الخبيث بأن انتظاره الطائرة لم يكن إلا مهزلة. وعندئذ فكر في أن غاستون ليس أبله بالقدر الذي يبدو عليه، وإنما هو رجل يتمتع، على العكس من ذلك، بالمثابرة، والمهارة، وبصبر لا ينتهي، وأنه قرر هزيمة زوجته بأن يُتعبها بإرضائه الدائم لها، وعدم القول لها لا، والتظاهر برضى لا حدود له، تاركاً إياها تتشابك في نسيج العنكبوت الذي تحوكه بنفسها، إلى أن

يأتي اليوم الذي تعجز فيه عن تحمل ضجر الأوهام التي تظنها في متناول يدها، فتعد حقائبهما بنفسها للعودة إلى أوروبا. وتحولت شفقة أوريليانو السابقة ملامة حادة. لقد بدا له منهج غاستون بالغ الخبث، ولكنه بالغ الفعالية في الوقت نفسه، فتجرأ على تحذير آمارانتا أورسولا. ومع ذلك، فقد سخرت من شكوكه، دون أن تلحظ شحنة الحب، والتململ، والغيرة التي في أعماقه. ولم يخطر لها قط، أنها تستثير في أوريليانو شيئاً أكثر من مجرد عاطفة أخوية، إلى أن جرحت أحد أصابعها وهي تحاول فتح علبة دراق، فسارع هو إلى مص دمها بنهم وورع بعثا القشعريرة في جلدها. فضحكت بقلق:

- أوريليانو! إنك خبيث بما يكفي لأن تكون خفاشاً مصاص دماء.

عندئذ طفح الكيل بأوريليانو. فراح يطبع قبلات يتمٍ على راحة يدها الجريحة، فاتحاً أشد سراديب قلبه خفية، وأخرج أحشاء لامتناهية ومعذبة، هي الحيوان الطفيلي الرهيب الذي نما خلال تعذيبه لنفسه. أخبرها كيف يستيقظ في منتصف الليل، ليبكي من الخذلان والغيظ، ممسكاً بملابسها الداخلية التي تتركها لتجف في الحمام. أخبرها بمقدار الجزع الذي يطلب به من نيغرومانتا أن تموء مثل قطة، وأن تشهق في أذنه غاستون غاستون غاستون، وبكم من المكر يسرق زجاجات عطرها ليجد أثره على أعناق الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع. راحت آمارانتا أورسولا تطبق أصابعها، مذعورة من عاطفة ذلك البوح، وتقلصها كحيوان رخوي، إلى أن تحولت يدها المجروحة، وقد تخلصت من الألم ومن أي أثر للشفقة، إلى عقدة زمرد وياقوت، وعظام

متحجرة وبلا حس.

- بهيمة! - قالت ذلك كما لو أنها تبصق، وأضافت:- سأذهب إلى بلجيكا على أول سفينة مغادرة.

كان ألفارو قد جاء، في عصر أحد تلك الأيام، إلى مكتبة العالم الكتلاني، ليعلن صائحاً عن اكتشافه الأخير: ماخور حديقة حيوان. يدعى *الطفل الذهبي*، وهو قاعة كبيرة في الهواء الطلق، يتجول فيها طليقاً أكثر من مئتي طائر كروان، تعلن تمام الساعة بنقيق يبعث على الصمم. وفي أقفاص الأسلاك التي تحيط بحلبة الرقص، وبين شجيرات الكاميليا الأمازونية الضخمة، هناك طيور مالك الحزين ملونة، وتماسيح مسمنة كالخنازير، وحيات من ذوات الاثني عشر جرساً، وسلحفاة بدرع ذهبية تغطس في أقيانوس اصطناعي مصغر. وهناك كلب ضخم أبيض، وديع ولوطي، ولكنه يقدم مع ذلك خدماته كفحل تناسل مقابل إطعامه. وللهواء هناك كثافة بريئة، كأنما اختُرع للتو؛ والخلاسيات الجميلات اللواتي ينتظرن دون أمل، بين بتلات ورد دامية وأسطوانات تجاوزتها الموضة، يُتقِنَّ طقوس حب تركها الإنسان منسية في الفردوس الأرضي. في الليلة الأولى التي زارت فيها الشلة دفيئة الأوهام تلك، أحست العجوز البديعة والصامتة التي تراقب الدخول، وهي تجلس على مقعد هزاز من الخيزران، أن الزمن يعود إلى ينابيعه الأولى، عندما اكتشفت بين الخمسة الداخلين رجلاً بارز العظام، لونه أصفر ضارب إلى الخضرة، وجنتاه تتريتان، موسوم إلى الأبد، ومنذ بدء الدنيا بجدري العزلة. فتنهدت:

- آي. أوريليانو.

كانت ترى، مرة أخرى، الكولونيل أوريليانو بوينديا، مثلما رأته

على ضوء قنديل، قبل زمن طويل من الحروب، وقبل زمن طويل من عزلة المجد ومنفى خيبة الأمل، في ذلك الفجر البعيد الذي جاء فيه إلى غرفتها ليصدر أول أمر في حياته: الأمر بأن تمنحه حباً. إنها بيلار تيرنيرا. وكانت منذ سنوات، عندما أكملت مئة وخمسة وأربعين عاماً من عمرها، قد تخلت عن العادة الوبيلة في حساب سنوات عمرها، وواصلت العيش في زمن الذكريات الراكد والهامشي، في مستقبل مكشوف ومحسوم بالكامل، بعيد عن المستقبلات المعكرة بفخاخ ورق اللعب وافتراضاته المخاتلة.

منذ تلك الليلة، صار أوريليانو يلوذ بحنان جدة جده المجهولة وتفهمها المشفق. وكانت، وهي جالسة على كرسي الخيزران الهزاز، تتذكر الماضي، وتعيد بناء عظمة الأسرة وشقائها، وبهاء ماكوندو المدمر، بينما ألفارو يخيف التماسيح بقهقهاته المجلجلة، وألفونسو يخترع الحكاية الشرسة عن طيور الكروان التي سملت، نقراً، عيون أربعة زبائن أساءوا معاملتها في الأسبوع السابق، وغابرييل في غرفة الخلاسية المفكرة التي لا تتقاضى ثمن ممارستها الحب نقوداً، وإنما رسائل موجهة إلى خطيبها المهرِّب، وكان سجيناً على الضفة الأخرى لنهر أورينوكو، لأن حرس الحدود أعطوه دواء مليناً، ثم أجلسوه على مبولة، فامتلأت ببراز مختلط بقطع الماس. ذلك الماخور الحقيقي، بصاحبته الأمومية، هو العالم الذي حلم به أوريليانو في حبسه الطويل. كان يشعر هناك بأنه على ما يرام، وقريب من رفقة الكمال، إلى حد لم يفكر معه في ملجأ آخر، مساء اليوم الذي أطاحت فيه آمارانتا أورسولا بأوهامه. ذهب مستعداً للتفريج عن نفسه بالكلام، ومتأملاً أن يجد من يحل له العقد التي تثقل على صدره، لكنه لم يتوصل إلى الفضفضة عن

نفسه إلا بدموع متدفقة، حارة، منقذة، في حضن بيلار تيرنيرا. تركته إلى أن انتهى من البكاء، وهي تحك رأسه برؤوس أصابعها، ودون أن يكشف لها أنه يبكي حباً، عرفت هي على الفور أقدم بكاء في التاريخ الإنساني، فقالت له مواسيه:

- حسن يا صغيري. أخبرني الآن من هي.

وعندما أخبرها أوريليانو، أطلقت بيلار تيرنيرا ضحكة عميقة، ضحكتها القديمة المنفتحة التي صارت أشبه بهديل الحمام. لم يكن هناك سر في قلب أحد من آل بوينديا لا يمكنها النفاذ إليه، لأن قرناً من ورق اللعب والتجربة، علماها أن تاريخ الأسرة دولاب تكرار لا خلاص منه، عجلة دوارة يمكن لها أن تواصل الدوران إلى الأبد، لولا التآكل المتزايد الذي لا يمكن إصلاحه في المحور. فابتسمت وهي تقول:

- لا تقلق. إنها في انتظارك، أينما كانت في هذه اللحظة.

كانت الساعة الرابعة والنصف عصراً، عندما خرجت آمارانتا أورسولا من الحمام. رآها أوريليانو تمر أمام غرفته، بروب رقيق الطيات، ومنشفة ملفوفة على رأسها كعمامة. لحق بها بما يشبه التسلل على رؤوس أصابعه، مترنحاً من السكر، ودخل إلى غرفة العرس في اللحظة التي فتحت فيها الروب، فأعادت إغلاقه فزعة. أشارت بإيماءة صامتة إلى الغرفة المجاورة، وكان بابها موارباً، وأوريليانو يعرف أن غاستون قد بدأ فيها بكتابة رسالة.

- انصرف - قالت دون أن تصدر صوتاً.

ابتسم أوريليانو، وحملها من خصرها بكلتا يديه، مثل أصيص بيغونيا، وطرحها على السرير. وبشَدَّةٍ فظة، جردها من روب الحمام قبل أن تجد الوقت لمنعه، وانحنى على هوة عريٍّ مغتسلٍ

لتوه، ليس فيه أي ظل للجلد، ولا أي أثر للزغب، ولا أي مكان خفي لم يتخيله في عتمة غرف أخرى. راحت آمارانتا أورسولا تدافع عن نفسها بإخلاص، بحيل المرأة العارفة، متملصة بجسد ابن عرس الزلق والمرن والعابق الذي لها، بينما هي تحاول تفتيت كليتيه بركبتيها، وتمزيق وجهه بأظفارها، لكن دون أن تصدر عنه أو عنها أية زفرة لا يمكن الخلط بينها وبين أنفاس شخص يتأمل شفق نيسان الشحيح من النافذة المفتوحة. كان عراكاً ضارياً، معركة حتى الموت، لكنها تبدو مع ذلك مجردة من أي عنف، لأنها معركة اعتداءات ملتوية وتفلتات شبحية، بطيئة، حذرة، وقورة، بحيث كان هناك متسع من الوقت، بين هجمة وأخرى، لتعود أزهار البتونيا إلى التفتح، وينسى فيه غاستون، في الغرفة المجاورة، أحلام طيرانه. كانا كما لو أنهما عاشقان متخاصمان يحاولان أن يتصالحا في قاع بركة ماء صافية. وفي حمى الجهد الضاري والطقوسي، أدركت آمارانتا أورسولا أن استغراقها في الصمت المطبق أمر غير عقلاني، لأنه قد يوقظ شكوك الزوج القريب، أكثر مما توقظها جلبة الحرب التي يحاولان تفاديها. عندئذ بدأت تضحك وشفتاها مطبقتان، دون أن تتخلى عن الصراع، ولكنها كانت تدافع عن نفسها بعضات زائفة وبحلحلة جسدها قليلاً قليلاً، إلى أن أدرك كلاهما أنهما خصمان ومتواطئان في الوقت نفسه، وانحط الصراع إلى تلاعب متوافق، وتحول العداء إلى مداعبات. وفجأة، كما لو أنها تلعب، وكأنها في شيطنة أخرى، أهملت آمارانتا أورسولا الدفاع عن نفسها، وعندما حاولت استعادة رد فعلها، مذعورة مما جعلته هي نفسها ممكناً، كان الوقت قد فات. وقد جمدتها هزة هائلة في مركز ثقلها، وسمرتها

في مكانها. وقوضت إرادتها الدفاعية لهفةٌ لا تقاوم في اكتشاف ماهية الصفير البرتقالي والكرات غير المرئية التي تنتظرها على ضفة الموت الأخرى. ولم تكد تجد الوقت لأكثر من مدّ يدها والبحث، في العماء، عن المنشفة، ودسها كمامة بين أسنانها، كيلا تُسمع صرخات القطة التي كانت تمزق أحشاءها.

ماتت بيلار تيرنيرا في كرسي الخيزران الهزاز، في ليلة عيد، وهي تراقب مدخل فردوسها. ووفقاً لمشيئتها الأخيرة، لم يجرِ دفنها في تابوت، وإنما جالسة على كرسيها الهزاز الذي أنزله ثمانية رجال، بحبال من ألياف الكابويّا، إلى حفرة هائلة، حُفرت في منتصف حلبة الرقص. والخلاسيات اللواتي ارتدين السواد، وشحبت وجوههن من البكاء، كن يرتجلن طقوس ظلمات، بينما هن ينزعن الأقراط، ومشابك الزينة، والخواتم، ويلقين بها في الحفرة، قبل أن تُختم بصفيحة حجرية، بلا اسم ولا تاريخ، وتوضع فوقها كومة من الكاميليا الأمازونية. وبعد تسميم الحيوانات، أغلقن الأبواب والشبابيك بالآجر والملاط، وتفرقن في العالم بصناديقهن الخشبية، المبطنة من الداخل برسوم قديسين، وقصاصات مجلات، وصور محبين متهربين، وبعيدين، ووهميين، يتبرزون ماساً، أو يأكلون أكلة لحوم البشر، أو يتوجون ملوك ورق لعب في أعالي البحار.

كانت تلك هي النهاية. ففي قبر بيلار تيرنيرا، ما بين تراتيل العاهرات وخرز حليهن، كانت تتعفن أنقاض الماضي، الأنقاض القليلة المتبقية بعد أن باع العالم الكتلاني المكتبة بالمزاد، ورجع إلى القرية المتوسطية التي ولد فيها، وقد هزمه الحنين إلى ربيع دائم. ما كان بإمكان أحد أن يحدس قراره. كان قد جاء إلى ماكوندو في

أيام ازدهار شركة الموز، هرباً من واحدة من الحروب الكثيرة، ولم يخطر له ما هو عملي أكثر من إقامة تلك المكتبة لبواكير نشأة الطباعة، وطبعات أصيلة بلغات عديدة، يتصفحها الزبائن العارضون بحذر، كما لو أنها كتب مزبلة، بينما هم ينتظرون دورهم لتفسير أحلامهم في البيت المقابل. أمضى نصف حياته في الحجرة الحارة التي وراء المكتبة، يخربش بخطه المنمق، بحبر بنفسجي، على أوراق ينتزعها من دفاتر مدرسية، دون أن يعرف بصورة مؤكدة ما الذي يكتبه. عندما تعرف أوريليانو عليه، كان لديه صندوقان ممتلئان بتلك الأوراق المرقشة التي تدفع، بطريقة ما، إلى التفكير برقاق ميلكيادس، ومنذ ذلك الحين، حتى رحيله، ملأ صندوقاً ثالثاً، مما يجعل من المعقول التفكير في أنه لم يفعل شيئاً آخر خلال وجوده في ماكوندو. والأشخاص الوحيدون الذين أقام علاقة معهم، هم الأصدقاء الأربعة الذين استبدل لهم الخذاريف وطيارات الورق بالكتب، وجعلهم يقرؤون سنيكا وأوفيد عندما كانوا لا يزالون في المدرسة الابتدائية. وكان يعامل الكتّاب الكلاسيكيين بألفة بيتية، كما لو أنهم كانوا، في عصر آخر رفاقه في الغرفة، وكان يعرف أشياء كثيرة يجب، ببساطة، عدم معرفتها، منها أن القديس أوغسطين كان يرتدي، تحت مسوح الرهبنة، جبة صوفية لم يخلعها طوال أربعة عشر عاماً، وأن أرنالدو دي فيلانوفا، مستحضر الأرواح، أصيب بالعُنّة منذ طفولته بسبب لسعة عقرب. كان ولعه بالكلمة المكتوبة محل احترام جليل، وعدم احترام مهذار؛ وحتى مخطوطاته نفسها، لم تكن بمنجى من هذه الازدواجية. فعندما تعلم الفونسو اللغة الكتلانية كي يترجمها، وضع حزمة من الصفحات في جيوبه التي كانت ممتلئة دائماً

بقصاصات جرائد وكراسات تعليمية عن مهن غريبة، وفي إحدى الليالي، فقد الأوراق في بيت الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع. وحين علم الجد العالم بذلك، لم يوجه إليه التوبيخ المرهوب، بل علق وهو يموت من الضحك، بأن هذا هو المصير الطبيعي للأدب. ولكن لم تكن هناك، بالمقابل، قوة بشرية قادرة على إقناعه بألا يحمل الصناديق الثلاثة معه، عندما رجع إلى قرية مولده، وأفلت سيلاً من الشتائم القرطاجية ضد مفتشي الخطوط الحديدية الذين حاولوا إرسالها في الشحن، إلى أن توصل إلى إبقائها معه في عربات المسافرين. وقد قال حينئذ: «هذا العالم سيتخوزق عندما يسافر البشر في عربة الدرجة الأولى، والأدب في عربة الشحن.» وكان هذا آخر ما سُمع يقوله. كان قد أمضى أسبوعاً أسود في التحضيرات النهائية للسفر، لأن مزاجه كان يتعكر أكثر فأكثر كلما اقتربت ساعة الرحيل، فتتشتت نواياه. وكانت الأشياء التي يضعها في مكان، تظهر في مكان آخر. ومحاصراً بالعفاريت نفسها التي عذبت فرناندا، كان يطلق السباب:

– كويونز[1]. أشخ على المرسوم السابع والعشرين لسينودس لندن الكنسي.

تولى خيرمان وأوريليانو الاهتمام به. ساعداه كما لو كان طفلاً، فعلقا بطاقات السفر ووثائق الهجرة في جيوبه بدبابيس مرضع، وأعدا له قائمة مفصلة بما يجب عليه عمله منذ خروجه من ماكوندو حتى نزوله في برشلونة، وبالرغم من ذلك كله، ألقى

[1] – collons الكلمة كتلانية في الأصل، وتعني «خصيات»، وتستعمل في اللغة الدارجة للتعبير عن الاستياء في الغالب، وعن الانشراح أحياناً.

إلى القمامة، دون أن ينتبه، بنطالاً يحوي نصف نقوده. وعشية الرحيل، بعد أن سمر الصناديق، ودس ثيابه في الحقيبة نفسها التي جاء بها، أطبق جفني صدفة المحار اللذين له، وأشار بنوع من المباركة الوقحة إلى أكوم الكتب التي تحمّل بها منفاه، وقال لأصدقائه:

- أترك لكم هذا البراز.

بعد ثلاثة شهور من ذلك، تلقوا منه في مغلف كبير، تسعاً وعشرين رسالة، وأكثر من خمسين صورة، راكمها في أوقات الفراغ وهو في عرض البحر. ومع أنه لم يسجل عليها تواريخ، إلا أن ترتيب كتابة الرسائل كان واضحاً. ففي الرسائل الأولى يتحدث بسخريته المعهودة عن حوادث الرحلة البحرية ومفاجآتها، وعن رغبته في أن يرمي عن حافة السفينة، وكيل الشحن الذي لم يسمح له بإدخال الصناديق الثلاثة إلى قمرته، وعن البلاهة الثاقبة لسيدة ترتعب من العدد ١٣، ليس تطيراً، وإنما لأنه يبدو لها رقماً ظل دون اكتمال، وعن الرهان الذي كسبه في أول عشاء، لأنه تعرف في الماء الذي يقدَّم في السفينة، على مذاق الشوندر الليلي لينابيع ليريدا. ومع ذلك، صار اهتمامه مع مرور الأيام، يتضاءل بواقع ما يجري على ظهر السفينة؛ وحتى أقرب الأحداث عهداً وأشدها تفاهة، صارت تبدو له جديرة بالحنين، لأنه بقدر ما كانت السفينة تبتعد، كانت ذاكرته تغرق بالكآبة. وكان تقدم سيرورة النوستالجيا تلك جلياً في الصور أيضاً. ففي الصور الأولى، كان يبدو سعيداً، بقميص المقعد الذي يرتديه، وخصل شعره الثلجية، في أكتوبر الكاريبي المتلألئ. بينما كان يظهر في الصور الأخيرة بمعطف داكن، ولفاع حريري، شاحباً بنفسه،

صموتاً من الذهول، وهو على متن سفينة شجن بدأت تمضي منومة في محيطات خريفية. وكان خيرمان وأوريليانو يردان على رسائله. لقد كتب كثيراً منها في الشهور الأولى، حتى أحسوا عندئذ أنهم أقرب إليه مما كانوا عليه عند وجوده في ماكوندو، وتخففوا إلى حد بعيد من غضبهم عليه لأنه غادرهم. كان يبعث إليهم قائلاً، في البدء، إن كل شيء لا يزال على حاله، ففي البيت الذي ولد فيه، ما زال الحلزون الوردي موجوداً، وأسماك القدّ المدخن ما زال لها مذاق لبّ الخبز نفسه، وشلالات القرية ما زالت تتعطر عند الغروب. وكان، مرة أخرى، ورق الدفاتر ممزقة الحافة نفسه، بخربشة بنفسجية، يخصص فيها مقطعاً خاصاً لكل واحد منهم. مع ذلك، وحتى لو كان هو لم ينتبه، كما يبدو، إلى ذلك، كانت رسائل الاستعادة والتشجيع تلك، تتحول شيئاً فشيئاً إلى شعرية رعوية خائبة الأمل. ففي ليالي الشتاء، بينما الحساء يغلي على المدفأة، يحن إلى حرارة حجرة دكانه الخلفية، وإلى هسيس الشمس في أشجار اللوز المعفرة، وإلى صفير القطار في سبات القيلولة؛ مثلما كان يحن، وهو في ماكوندو، إلى الحساء الشتائي على المدفأة، ونداءات بائع القهوة، وقبرات الربيع العابرة. ومشتتاً بين حنينين متقابلين كمرآتين، فقد حسه الرائع باللاواقع، حتى انتهى إلى أن ينصحهم جميعاً بمغادرة ماكوندو، ونسيان كل ما علمهم إياه عن العالم والقلب الإنساني، وأن يشخوا على هوراسيو، وأن يتذكروا دائماً، أينما كانوا، أن الماضي ما هو إلا كذبة، وأنه ليس للذاكرة من دروب للعودة، وأن كل ربيع قديم لا يُستعاد، وأن أشد الغراميات جموحاً، وأكثرها رسوخاً، ليست في نهاية المطاف إلا حقيقة زائلة.

كان ألفارو أول من استجاب لنصيحة مغادرة ماكوندو. فباع كل شيء، حتى النمر الحبيس الذي كان يسخر من المارة في فناء بيته، واشترى تذكرة سفر أبدية في قطار لا يتوقف أبداً عن السفر. وفي البطاقات البريدية التي راح يرسلها من محطات على الطريق، كان يصف، صارخاً، الصور العابرة التي رآها من نافذة عربة القطار، فكان كمن يمزق قصيدة الزوال الطويلة إلى نتف، ويلقي بها إلى النسيان: الزنوج الوهميون في حقول قطن لويزيانا، الأحصنة المجنحة على عشب كنتكي الأزرق، العشاق اليونانيون في غسق أريزونا الجهنمي، والفتاة ذات الكنزة الحمراء التي ترسم لوحات ألوان مائية في بحيرات ميشيغان، والتي رفعت ريشتها ملوحة له، ليس تلويحة وداع وإنما أمل، لأنها تجهل أنها إنما ترى قطاراً لا عودة له. بعد ذلك سافر ألفونسو وخيرمان، في يوم سبت، مفكرين بالعودة يوم الاثنين، ولم يُعرف عنهما أي شيء قط. وبعد سنة من رحيل العالم الكتلاني، كان الوحيد المتبقي في ماكوندو هو غابرييل، وكان لا يزال منساقاً مع التيار، تحت رحمة إحسان نيغرومانتا غير المستقر، ويُجيب على استمارات مسابقة مجلة فرنسية، جائزتها الكبرى رحلة إلى باريس. وكان أوريليانو، صاحب الاشتراك بالمجلة، يساعده في ملء الاستمارات، في بيته حيناً، وفي معظم الأحيان بين قوارير الخزف ورائحة الفاليريانا في دكان العقاقير الوحيدة المتبقية في ماكوندو، حيث كانت تعيش مرسيدس، خطيبة غابرييل السرية. كان هذا كل ما بقي من ماض لم يتحقق فناؤه بعد، لأنه ما زال يفنى ذاتياً بلا نهاية، مستهلكاً نفسه من داخله، منهياً نفسه في كل دقيقة، ولكن دون الانتهاء من إنهاء نفسه أبداً. كانت القرية قد وصلت إلى تلك الدرجة من

العطالة، إلى حدّ أن غابرييل، حين كسب المسابقة، وسافر إلى باريس، ومعه غياران من الملابس، وحذاء، وأعمال رابليه الكاملة، اضطر إلى أن يلوح بيديه لسائق القطار كي يتوقف ويأخذه. كان شارع الأتراك القديم قد تحول آنذاك إلى ركن مهجور، حيث أسلم آخر العرب أنفسهم لمشيئة الموت، وفق عادتهم القديمة بالجلوس أمام الأبواب، بالرغم من أنهم كانوا قد باعوا منذ سنوات طويلة آخر ياردة من القماش، ولم يبق في واجهات دكاكينهم القاتمة إلا دمى المانيكان مقطوعة الرؤوس. أما مدينة شركة الموز، التي ربما كانت باتريسيا براون تحاول استذكارها أمام أحفادها في ليالي التشدد والخيار المخلل في راتفيل، بولاية ألاباما؛ فكانت بطحاء أعشاب برية. والكاهن العجوز الذي حل محل الأب أنخل، ولم يهتم أحد بالتقصي عن اسمه، فكان ينتظر رحمة الله، وهو يستلقي على هواه في أرجوحة النوم، يضايقه التهاب المفاصل وأرق الشك، بينما الحراذين والجرذان تتنازع ميراث الكنيسة المجاورة. في ماكوندو تلك، المنسية حتى من الطيور، حيث بلغ إلحاح الغبار والحر حداً من العناد يصعب معه التنفس، كان أوريليانو وآمارانتا أورسولا، سجيني العزلة والحب، وعزلة الحب، في بيت يكاد النوم فيه يكون مستحيلاً، بسبب جلبة النمل الأحمر؛ الكائنين الوحيدين السعيدين، وأسعد مخلوقين على الأرض.

كان غاستون قد رجع إلى بروكسل. ففي أحد الأيام، بعد أن تعب من انتظار الطائرة، دس في حقيبة صغيرة أشياءه الضرورية وأرشيفه من المراسلات، وغادر بنية الرجوع جواً، قبل أن تُمنح امتيازاته إلى جماعة من الطيارين الألمان، قدّموا إلى السلطات

المحلية مشروعاً أكثر طموحاً من مشروعه. ومنذ المساء الذي مارسا فيه أول حب، واصل آوريليانو وأمارانتا آورسولا استغلال لحظات انشغال الزوج القليلة عنهما، لتبادل غراميات جامحة مكممة، في لقاءات محفوفة بالمخاطر، تقطعها في معظم الأحيان عودته المفاجئة. ولكنهما عندما صارا وحيدين في البيت، غرقا في هذيان الغراميات المضيعة. كانت عاطفة جنونية، بلا اتزان، تجعل عظام فرناندا ترتجف خوفاً في قبرها، وتبقيهما في حال من الهياج الدائم. وكان مواء آمارانتا أورسولا وأغنياتها الاحتضارية تتفجر، على السواء، في الساعة الثانية بعد الظهر، على منضدة غرفة الطعام، أو في الساعة الثانية فجراً في مستودع المؤونة. وكانت تقول ضاحكة: «أشد ما يؤلمني هو الزمن الطويل الذي أضعناه». وفي ذهول العاطفة، رأت النمل يعيث خراباً في الحديقة، ويُشبع جوعه الخرافي من أخشاب البيت، ورأت سيل الحمم الحية يستولي، مرة أخرى، على الردهة، ولكنها لم تهتم بمكافحته إلا عندما وجدته في غرفة نومها. هجر أوريليانو الرقاق، ولم يعد يخرج من البيت، وصار يرد كيفما اتفق على رسائل العالم الكتلاني. فقدا الإحساس بالواقع، ومفهوم الزمن، وإيقاع العادات اليومية. وأعادا إغلاق الأبواب والنوافذ كيلا يضيعا الوقت في خلع ملابسهما، فكانا يتجولان في البيت مثلما رغبت ريميديوس الجميلة أن تفعل على الدوام، ويتقلبان عاريين في برك وحل الفناء، وأوشكا على الغرق في مساء أحد الأيام، عندما مارسا الحب في حوض الاستحمام. وأحدثا من الخراب، في زمن قصير، أكثر مما أحدثه النمل الأحمر: حطما أثاث الصالون، ومزقا بجنونهما أرجوحة النوم التي تحملت

غراميات الكولونيل أوريليانو بوينديا الحربية الحزينة، وبقرا أحشاء الفرش، وأفرغاها على أرض الغرف ليختنقا في عواصف قطن. ومع أن أوريليانو كان عاشقاً ضارياً كشريكته، إلا أن أمارانتا أورسولا هي التي كانت تتولى القيادة بموهبتها غير المعقولة، ونهمها الغنائي، في ذلك الفردوس الكارثي، كما لو أنها ركزت، في الحب، الطاقة الجامحة التي كرستها جدة جدتها لصنع حيوانات السكاكر الصغيرة. وفوق ذلك، بينما كانت هي تغني تلذذاً وتموت ضحكاً من الأساليب التي تخترعها بنفسها، كان أوريليانو يزداد ذهولاً وصمتاً، لأن عاطفته كانت تأملية وحارقة. ومع ذلك، فقد بلغا معاً حدوداً قصوى من البراعة، لدرجة أنهما إذا ما أنهكهما الهياج، استنبطا متعاً أخرى من الإنهاك. فكانا يستسلمان لعبادة جسديهما، ويكتشفان أن لحظات الراحة من الحب تمنحهما احتمالات غير مطروقة، أغنى بكثير من احتمالات الشهوة. فبينما هو يدهن نهدي آمارانتا أورسولا المنتصبين بزلال البيض، أو يُطَرّي بسمنة جوز الهند فخذيها اللدنين وبطنها الدراقي، كانت هي تلعب لعبة الدمى بمخلوق أوريليانو العجيب، فترسم له عيني مهرج بأحمر الشفاه، وشاربي تركي بقلم فحم الحواجب، وتضع له ربطة عنق حريرية وقبعة من ورق فضي. وذات ليلة، دهنا جسديهما من القدمين إلى الرأس بمربى المشمش، ولحساه ككلبين، ومارسا الحب كمجنونين على أرضية الردهة، ولم يوقظهما إلا سيل من النمل آكل اللحم، يستعد لالتهامهما حيين.

وفي توقفات الراحة من الدوامة الهذيانية، كانت أمارانتا أورسولا ترد على رسائل غاستون. كانت تشعر أنه بعيد جداً ومشغول، بحيث تبدو لها عودته مستحيلة. لقد أخبرها في إحدى

رسائله الأولى بأن شركاءه قد أرسلوا له الطائرة بالفعل، لكن وكالة شحن بحري من بروكسل، أرسلتها خطأ إلى تنجانيقا، حيث سُلمت إلى قبيلة الماكونديين المبعثرة. وقد أدى ذلك الخطأ إلى مفارقات كثيرة، بحيث يمكن لعملية استرداد الطائرة وحدها أن تستغرق سنتين. وهكذا استبعدت آمارانتا أورسولا احتمال عودته بصورة مفاجئة. ولم يكن لدى أوريليانو، من جهته، أي اتصال بالعالم الخارجي، باستثناء رسائل العالم الكتلاني، والأخبار التي يتلقاها من غابرييل عن طريق ميرسيدس، الصيدلانية الصموت. وقد كانت، في البدء، اتصالات واقعية. فقد استرد غابرييل قيمة تذكرة رحلة العودة، كي يبقى في باريس، حيث صار يبيع الجرائد القديمة والزجاجات الفارغة التي تُخرجها الخادمات من فندق كئيب في شارع دوفين. وكان بإمكان أوريليانو أن يتخيله آنذاك في كنزة ذات ياقة عالية، لا يخلعها إلا حين تمتلئ مقاهي أرصفة مونبارناس بعشاق ربيعيين، وينام نهاراً ويكتب ليلاً كي يخدع الجوع، في الغرفة العابقة برائحة زبد الملفوف المغلي، حيث سيموت روكامادور. ومع ذلك، صارت أخباره تتحول شيئاً فشيئاً إلى الغموض والالتباس، وصارت رسائل العالم متباعدة وكئيبة، حتى اعتاد أوريليانو التفكير بهما مثلما تفكر آمارانتا أورسولا بزوجها، وظلا يطفوان معاً في عالم فارغ، حيث الحقيقة اليومية الوحيدة والأبدية هي الحب.

وفجأة، مثل انفجار في عالم اللاوعي السعيد ذاك، جاء خبر عودة غاستون. فتح أوريليانو وآمارانتا أورسولا عينيهما، وسبرا روحيهما، ونظرا إلى وجهيهما ويد كل منهما على قلبه، وأدركا أنهما وصلا إلى حد من التطابق يفضلان معه الموت على

الانفصال. عندئذ كتبت إلى زوجها رسالة حقائق متناقضة، أكدت له فيها على حبها ولهفتها لرؤيته مجدداً، وتسليمها في الوقت نفسه، باستحالة العيش دون أوريليانو، لأنها مشيئة القدر. وخلافاً لما توقعاه، أرسل إليهما غاستون جواباً هادئاً، شبه أبوي، في صفحتين كاملتين، مكرستين لتحذيرهما من خبو العاطفة، وبمقطع نهائي يتمنى لهما فيه، دون لبس، أن يكونا سعيدين مثلما كان هو في تجربته الزوجية القصيرة. كان موقفاً غير متوقع على الإطلاق، حتى إن آمارانتا أورسولا أحست بالإهانة، حين فكرت في أنها قدمت لزوجها الذريعة التي كان يتمناها ليتركها لمصيرها. وقد تفاقمت ضغينتها، بعد ستة شهور من ذلك، حين عاد غاستون للكتابة إليها من ليوبولدفيل، حيث تسلّم الطائرة أخيراً، ليطلب منها فقط، أن ترسل إليه الدراجة، لأنها الشيء الوحيد الذي له قيمة عاطفية لديه، من كل الأشياء التي تركها في ماكوندو. وقد تحمل أوريليانو غيظ آمارانتا أورسولا بصبر، وسعى جاهداً كي يثبت لها أنه قادر على أن يكون زوجاً جيداً في الضيق والوفرة؛ وكانت الضروريات اليومية التي حاصرتهما، عندما نفدت آخر نقود غاستون، قد خلقت بينهما رابطة تضامن لم تكن بالغة الفتنة والإثارة كالهوى، لكنها أفادتهما في مزيد من الحب، وفي أن يكونا سعيدين كما كانا في أزمنة العشق الصاخبة. وعندما ماتت بيلار تيرنيرا، كانا ينتظران ابناً.

وفي نعاس حبلها، حاولت آمارانتا أورسولا أن تقيم صناعة عقود من فقرات السمك. لكنها لم تجد من تبيعه إياها، باستثناء مرسيدس التي اشترت دزينة منها. ووعى أوريليانو لأول مرة أن موهبته في تعلم اللغات، ومعارفه الموسوعية، وقدرته الغريبة على

تذكر تفاصيل أحداث وأماكن بعيدة، لم يعرفها، كانت بلا نفع، مثلها مثل صندوق الأحجار الكريمة الأصلية التي لدى زوجته، والتي كانت قيمتها آنذاك تساوي كل المال الذي يمكن أن يملكه آخر السكان المتبقين في ماكوندو جميعهم. كانا يواصلان البقاء على قيد الحياة بأعجوبة. ومع أن آمارانتا أورسولا لم تفقد طيب مزاجها، ولا موهبتها في الشقاوات الإيروتيكية، إلا أنها اكتسبت عادة الجلوس في الردهة بعد الغداء، في نوع من القيلولة المؤرقة والتأملية. وكان أوريليانو يرافقها. ويبقيان أحياناً صامتين حتى الغروب، أحدهما في مواجهة الآخر، وكل منهما ينظر إلى عيني الثاني، يتحابان في السكون بمحبة كبيرة كتلك التي مارسا بها من قبل غرامياتهما الصاخبة. وتشككهما من المستقبل أعاد إلى قلبيهما الماضي. فرأيا نفسيهما في فردوس الطوفان المفقود، يتمرغان في مخاضات وحل الفناء، ويقتلان السحالي لتعليقها على أورسولا، ويلهوان بلعبة دفنها حية، وكشفت لهما تلك الذكريات حقيقة أنهما كانا سعيدين معاً على الدوام، منذ بدء امتلاكهما الذاكرة. وفي تعمقها في الماضي، تذكرت آمارانتا أورسولا مساء اليوم الذي دخلت فيه إلى مشغل الصياغة، وأخبرتها أمها أن أوريليانو الصغير ليس ابن أحد، لأنهم وجدوه طافياً في سلة. ومع أن هذه الرواية بدت لهما غير معقولة، إلا أنهما كانا يفتقران إلى معلومات تتيح لهما استبدالها بأخرى صحيحة. الشيء الوحيد الذي كانا على يقين منه، بعد تفحص كل الاحتمالات، هو أن فرناندا لم تكن أم أوريليانو. ومالت آمارانتا أورسولا إلى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس التي لا تتذكر عنها سوى قصص مخزية، فأحدثت تلك الفرضية في روحيهما

انقباضة رعب.

ومعذباً باليقين بأنه أخو زوجته، هرب أوريليانو إلى مقر الخورانية ليبحث في الأرشيف الذي أتلفته الرطوبة والعثة عن إشارة مؤكدة إلى نسبه. وكانت أقدم شهادة معمودية وجدها، هي الخاصة بآمارانتا بويندبا، وقد عمدها بعد بلوغها سن المراهقة، الأب نيكانور رينا، في الحقبة التي كان يحاول فيها إثبات وجود الرب بحيل الشوكولاته. ووصل به الأمر إلى إيهام نفسه بأنه قد يكون واحداً من الأوريليانات السبعة عشر، فتتبع شهادات ميلادهم عبر أربعة مجلدات، إلا أن تواريخ تعميدهم كانت أبعد بكثير من عمره. وحين رآه الكاهن المصاب بالتهاب المفاصل، وكان يراقبه من أرجوحته، تائهاً في متاهات الدم والنسب، ومرتجفاً من القلق، سأله مشفقاً عن اسمه. فأجابه:

- أوريليانو بويندبا.

- لا تُمت نفسك في البحث إذاً - هتف الكاهن بقناعة حاسمة، وأضاف:- قبل سنوات طويلة، كان هنا شارع بهذا الاسم، وكانت لدى الناس، في تلك الأزمنة، عادة إطلاق أسماء الشوارع على أبنائهم.

ارتجف أوريليانو من الغضب، وقال:

- آه! أنت أيضاً لا تؤمن بذلك إذاً.

- بماذا؟

- بأن الكولونيل أوريليانو بويندبا خاض اثنتين وثلاثين حرباً أهلية، خسرها جميعها - أجاب أوريليانو - وأن الجيش حاصر ثلاثة آلاف عامل وقتلهم بالرشاشات، وحُملت الجثث في قطار من مئتي عربة، لتُرمى في البحر.

تأمله الكاهن بنظرة مشفقة، وتنهد قائلاً:

- آه يا بني. أنا يكفيني أن أكون متأكداً من أننا، أنا وأنت، موجودان في هذه اللحظة.

وهكذا كان على أوريليانو وآمارانتا أورسولا أن يتقبلا حكاية السلة، لا لأنهما آمنا بها وإنما لأنها تنقذهما من مخاوفهما. ومع تقدم الحمل، كانا يتحولان إلى كائن واحد، ويندمجان أكثر فأكثر في عزلة بيت لا يحتاج إلا نفخة أخيرة كي ينهار مقوضاً. كانا قد اقتصرا على حيز أساسي، يبدأ من غرفة فرناندا، حيث عرفا فتنة الحب المستقر، حتى بداية الردهة، حيث تجلس آمارانتا أورسولا لتحيك أخفافاً وطاقيات للوليد المنتظر، وأوريليانو ليرد على رسائل العالم الكتلاني المتناقصة. واستسلمت بقية البيت إلى حصار الخراب العنيد. واختفى مشغل الصياغة، وغرفة ميلكيادس، وممالك صوفيا قديسة الرحمة البدائية والصامتة، في أعماق غابة بيتية، لم يجرؤ أحد على التوغل فيها. ومحاصرين بنهم الطبيعة، واصل أوريليانو وآمارانتا أورسولا زراعة الأوريغانو والبيغونيا، والدفاع عن عالمهما بحدود يخطانها بالكلس، وبإقامة آخر خنادق الحرب الأزلية بين الإنسان والنمل. وكان الشعر الطويل المشعث، والكدمات التي تظهر على وجهها صباحاً، وانتفاخات الساقين، وتشوهات جسد ابن عرس السابق المحبب، قد بدّلت كلها مظهر آمارانتا أورسولا الشبابي الذي وصلت به إلى البيت، ومعها قفص الكناريات عاثرة الحظ، والزوج الأسير، لكنها لم تبدل حيوية روحها. وقد اعتادت أن تقول ضاحكة: «يا للبراز! من كان يصدق أننا سننتهي حقاً إلى العيش كأكلة لحوم بشر!» وانقطع آخر خيط كان يربطهما بالعالم، في الشهر السادس من

الحمل، عندما تلقيا رسالة ليست، قطعاً، من العالم الكتلاني. كانت مرسلة من برشلونة، لكن غلافها مكتوب بحبر أزرق عادي، وبخط إداري، ولها المظهر البريء وغير الشخصي للرسائل المعادية. انتزعها أوريليانو من يدي آمارانتا أورسولا وهي تستعد لفتحها.

- هذه الرسالة لا - قال لها - لا أريد أن أعرف ما تقوله.

ومثلما توقع، لم يعد العالم الكتلاني إلى الكتابة. وظلت الرسالة الغريبة التي لم يقرأها أحد، تحت رحمة العث، على الرف الذي نسيت عليه فرناندا ذات يوم خاتم زفافها. ظلت هناك تحترق بالنار الداخلية لخبرها المشؤوم، بينما العاشقان المتوحدان يبحران ضد تيار تلك الأزمنة الأخيرة، أزمنة التمادي في الخطايا والنحس التي تبلى في السعي، دون جدوى، لحرفهما نحو صحراء خيبة الأمل والنسيان. ولأن أوريليانو وآمارانتا أورسولا كانا يعيان ذلك التهديد، فقد أمضيا الشهور الأخيرة وكل منهما يمسك بيد الآخر، ليكملا بغراميات نزيهة، تكوين الابن الذي بدأاه بمضاجعات جنونية المجون. وفي الليل، بينما هما متعانقان في الفراش، لم تكن تخيفهما اندفاعات النمل في باطن الأرض، ولا جلبة العث، ولا الهسيس المتواصل والواضح لنمو الآجام في الغرف المجاورة. وفي أحيان كثيرة كانت توقظهما مجادلات الموتى. فقد سمعا أورسولا تتشاجر مع قوانين الخلق من أجل الحفاظ على استمرارية سلالتها، وخوسيه أركاديو بوينديا يبحث عن الحقيقة الوهمية للاختراعات الكبرى، وفرناندا تصلي، والكولونيل أوريليانو بوينديا يتخبّل في خدع حربية وفي أسماك ذهبية، وأوريليانو الثاني يحتضر من العزلة في دوار حفلاته الصاخبة،

وعندئذ أدركا أن الهواجس المهيمنة تتغلب على الموت، واستعادا السعادة ليقينهما بأنهما سيواصلان حبهما، بعد تحولهما إلى الطبيعة الشبحية، وحتى زمن أبعد بكثير من مجيء أجناس حيوانية مستقبلية أخرى، لتنتزع من الحشرات فردوس البؤس الذي توشك الحشرات على انتزاعه من البشر.

وذات يوم أحد، في الساعة السادسة مساء، أحست آمارانتا أورسولا بقرب المخاض. القابلة الباسمة المتخصصة في توليد الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع، ساعدتها في الصعود إلى منضدة غرفة الطعام، وجلست فوق بطنها، وأنهكتها بحركات امتطاء جواد متوحشة، إلى أن أسكتت صرخاتها زعيق وليد ذكر مهيب. ومن خلال دموعها، رأت آمارانتا أورسولا نموذجاً بديعاً من سلالة آل بويندیا، متيناً وقوي الشكيمة مثل الخوسيه أركاديوات، وعيناه مفتوحتان وثاقبتان مثل عيون الأوريليانويات، ويبشر ببدء السلالة مرة أخرى من البداية، وتطهيرها من آفاتها الوبيلة، ومن ميولها إلى العزلة، لأنه الوحيد الذي ولد من الحب على امتداد قرن من الزمان. فقالت:

– إنه آكل لحم بشر حقيقي. سيكون اسمه رودريغو.

فعارضها زوجها:

– لا. سيُدعى أوريليانو، وسوف يكسب اثنتين وثلاثين حرباً.

بعد قصّ سرته، راحت القابلة تمسح عنه، بخرقة، اللزوجة الزرقاء التي تغطي جسده، مستضيئة بمصباح يحمله أوريليانو. وعندما قلبته على بطنه فقط، انتبها إلى أن فيه شيئاً زائداً عن بقية البشر، فانحنيا لتفحصه. وكان ذيل خنزير.

لم يفزعهم ذلك. فأوريليانو وآمارانتا أورسولا ما كانا يعرفان

بأمر السابقة العائلية، ولا يتذكران مخاوف أورسولا المنذرة، وانتهت القابلة إلى طمأنتهما بفرضية أنه يمكن بتر ذلك الذيل غير المجدي عندما تظهر أسنان الطفل. ولم يُتَح لهما الوقت بعد ذلك للتفكير في الأمر، لأن آمارانتا أورسولا كانت تنزف في تدفق لا يمكن وقفه. حاولا إسعافها بكمادات من نسيج العنكبوت ولبخات من الرماد، ولكن ذلك بدا كما لو أنه محاولة لكبح نافورة باليدين. وكانت هي نفسها، في الساعات الأولى، تبذل جهدها لتبدو مرحة المزاج. فكانت تمسك بيد أوريليانو الفزع، وتتوسل إليه ألا يقلق، وأن الناس من أمثالها لم يُخلقوا ليموتوا رغم إرادتهم، وكانت تنفجر بالضحك من وسائل علاج القابلة الشرسة. ولكن كلما كانت الآمال تفارق أوريليانو، كانت هي تتلاشى وتصير مرئية أقل فأقل، كما لو أنها تُمحى من الضوء، إلى أن غرقت في السبات. وفي فجر يوم الأثنين، جاؤوا بامرأة رتلت إلى جوار سريرها صلوات شافيه، منزهة عن الإخفاق في علاج البشر والبهائم، لكن دم آمارانتا أورسولا المشبوب لم يكن ليتأثر بأي وسيلة أخرى سوى الحب. وفي المساء، بعد أربع وعشرين ساعة من اليأس، عرفوا أنها مائتة، لأن السيل قد نضب دون علاج، وبدت رهافة بروفيلها، وما هو متورد في وجهها، شحب متحولاً إلى فجر من المرمر، وعادت تبتسم.

لم يدرك أوريليانو حتى ذلك الحين، كم كان يحب أصدقاءه، وكم يفتقدهم، وكم كان مستعداً لأن يدفع مقابل أن يكون معهم في تلك اللحظة. وضع الطفل في السلة التي أعدتها له أمه، وغطى وجه الجثة بملاءة، وخرج يتسكع دون وجهة محددة في شوارع القرية المقفرة، باحثاً عن ممر للعودة إلى الماضي. طرق باب دكان

العقاقير التي لم يعد يذهب إليها في الأزمنة الأخيرة، فكان ما وجده هناك هو ورشة نجارة. والعجوز التي فتحت له الباب وفي يدها قنديل، أسفت لهذيانه، وأصرت أن لا، وأنه لم تكن هناك دكان عقاقير قط، وأنها لم تعرف قط امرأة طويلة العنق وناعسة العينين تدعى مرسيدس. بكى وجبهته مستندة إلى بوابة مكتبة العالم الكتلاني القديمة، مدركاً أنه يدفع دموع بكاء مؤجل، على ميتة لم يشأ البكاء عليها في حينها كيلا يحطم سحر الحب. وهشم قبضتيه على جدران ملاط *الطفل الذهبي* وهو ينادي بيلار تيرنيرا، غير مبالٍ بالدوائر البرتقالية التي تتقاطع في السماء، والتي طالما تأملها بافتتان صبياني، في ليالي الحفلات، من فناء الكراوانات. وفي آخر صالة لا تزال مفتوحة في حي التسامح المهدم، كانت هناك مجموعة أكورديونات تعزف أغنيات رافائيل إيسكالونا، ابن أخي الأسقف، ووارث أسرار فرانثيسكو الرجل. أما الخمار الذي كانت ذراعه متيبسة، وشبه محروقة، لأنه رفعها على أمه، فدعا أوريليانو لتناول زجاجة من الخمر، ثم دعاه أوريليانو لتناول زجاجة أخرى. حدثه الخمار عن نكبة ذراعه. وحدثه أوريليانو عن نكبة قلبه المتيبس وشبه المحروق، لأنه رفعه على أخته. وانتهيا إلى البكاء معاً، فأحس أوريليانو لبرهة أن الألم قد انتهى. ولكنه عندما ظل وحيداً، في آخر فجر لماكوندو، فتح ذراعيه في وسط الساحة، مستعداً لإيقاظ العالم بأسره، وصرخ من أعماق روحه:

- الأصدقاء هم أبناء عاهرة!

أخرجته نيغرومانتا من بركة قيء ودموع. وأخذته إلى غرفتها، فنظفته، وجعلته يتناول فنجان حساء. ولاعتقادها بأن ذلك

سيواسيه، شطبت بخط فحمي الغراميات الكثيرة التي لا تزال ديناً عليه، واستحضرت إلى ذاكرتها، طوعاً، أشد أحزانها عزلة كيلا تتركه وحيداً في البكاء. وعند الفجر، بعد إغفاءة مشوشة وقصيرة، استعاد أوريليانو الوعي بوجع رأسه. فتح عينيه، وتذكر الطفل.

لم يجده في السلة. وأحس للوهلة الأولى بانفجار سعادة، لاعتقاده بأن آمارانتا أورسولا قد استفاقت من الموت، كي تهتم بالطفل. لكن جثتها كانت كومة حجارة تحت الملاءة. وانتبه أوريليانو إلى أنه وجد باب الغرفة مفتوحاً لدى دخوله، فاجتاز الردهة المفعمة بعبق الأوريغانو الصباحي، وأطل على غرفة الطعام، حيث ما زالت بقايا عملية الولادة: القدر الكبيرة، الملاءات الملطخة بالدم، أواني الرماد، وحبل سرة الطفل المفتول في قماط مفتوح على المنضدة، إلى جانب المقص والضماد. وفكرة أن القابلة قد رجعت خلال الليل لأخذ الطفل، منحته لحظة هدوء للتفكير. تهاوى على الكرسي الهزاز، وهو الكرسي نفسه الذي كانت تجلس عليه ريبيكا في أزمنة البيت الأصلية، لتُعطي دروساً في التطريز، والذي كانت تجلس عليه آمارانتا لتلعب الدومينو الصيني مع العقيد خيرينيلدو ماركيز، والذي كانت آمارانتا أورسولا تخيط عليه ثياب الطفل، وفي ومضة الصحو تلك، أحس أنه عاجز عن تحمل الثقل الهائل لكل ذلك الماضي في روحه. ومجروحاً برماح الحنين القاتلة، حنينه الخاص وحنين الآخرين، أُعجب بتمادي نسيج العناكب على شجيرات الورد الميتة، وإلحاح أعشاب الزؤان، وصبر الهواء في الفجر الشباطي المشرق. وعندئذ رأى الطفل. كان جلداً منفوخاً ومتيبساً، تجمَّع كل نمل العالم ليجره بمشقة إلى

أوكاره عبر درب الحديقة الحجري. لم يستطع أوريليانو التحرك. لا لأن الذهول شله، وإنما لأن رموز ميلكيادس الحاسمة انكشفت له في تلك اللحظة العجيبة، ورأى كتابات الرقاق مرتبة بدقة في مكان البشر وزمانهم: ***أول السلالة مربوط إلى شجرة وأخرهم يأكله النمل.***

لم يكن أوريليانو أشد صفاء في أية لحظة من حياته، مثلما كان عليه عندما نسي ميتيه والألم على ميتيه، وعاد إلى تسمير الأبواب والنوافذ بعوارض فرناندا، كيلا يسمح لأي إغراء من العالم بتشويشه، لأنه صار يعرف عندئذ أن قدره مكتوب في رقاق ميلكيادس. وجدها سليمة، بين النباتات الخرافية والبرك المدخنة والحشرات المضيئة التي أزالت من الغرفة كل أثر لمرور البشر على الأرض، ولم يجد الهدوء ليخرجها إلى النور، وإنما هناك بالذات، وهو واقف، ودون أدنى صعوبة، كما لو أنها مكتوبة بالقشتالية، تحت بريق الظهيرة المبهر، بدأ يحل رموزها بصوت عال. كانت تروي تاريخ الأسرة، وقد كتبها ميلكيادس بأدق التفاصيل وأتفهها، قبل مئة عام من وقوعها. لقد كتبها بالسنسكريتية، وهي لغته الأم، ورمّز الأبيات الزوجية بالرمز الخاص للإمبراطور أوغسطين، والأبيات الفردية برموز عسكرية لاسيديمونية. أما وسيلة الحماية الأخيرة، وكان أوريليانو قد بدأ بتبينها عندما أسلم نفسه لتشوش حب آمارانتا أورسولا، فتكمن في أن ميلكيادس لم يورد الوقائع مرتبة وفق زمن البشر المتعارف عليه، وإنما ركّز قرناً كاملاً من الأحداث اليومية، بحيث تتواجد جميعها متعايشة في لحظة واحدة. ومبهوراً بذلك الاكتشاف، قرأ أوريليانو بصوت عال، دون أن يتجاوز شيئاً، البيانات المغناة التي أسمعها ميلكيادس نفسه إلى

أركاديو، وهي في الواقع النبوءات المسبقة بإعدامه، ووجد نبوءة عن ميلاد أجمل امرأة في العالم، وهي تصعد إلى السماء جسداً وروحاً، وعرف أصل توأمين متوفيين تخليا عن فك رموز الرقاق، ليس عن عجز وعدم كفاءة وحسب، إنما لأن محاولاتهما كانت سابقة لأوانها. وعند هذه النقطة، متلهفاً لمعرفة أصله بالذات، تجاوز أوريليانو بعض المقاطع. عندئذ بدأ هبوب الريح الدافئة، الأولية، المفعمة بأصوات الماضي، وبهمس نبتات الجيرانيوم القديمة، وتنهدات خيبات الأمل السابقة لأشد حالات الحنين إلحاحاً. لم ينتبه لها، لأنه كان يكتشف، في تلك اللحظة، أول مؤشرات وجوده، في جدّ شهواني انساق للطيش عبر قفر هذياني، للبحث عن امرأة جميلة، لن يسعدها. عرفه أوريليانو، وواصل اقتفاء دروب أصله الخفية، فوجد لحظة الحَبَل به نفسها، وسط العقارب والفراشات الصفراء، في حمام مسائي، حيث قام عامل عادي، بإشباع شهوته مع امرأة أسلمته نفسها بدافع التمرد. كان مستغرقاً تماماً، فلم يشعر كذلك بهبة الريح القوية الثانية، والتي انتزعت قوتها الإعصارية الأبواب والنوافذ من مفصلاتها، وأطاحت بسقف الجناح الشرقي، واقتلعت الأساسات. عندئذ فقط، اكتشف أن آمارانتا أورسولا لم تكن أخته، بل خالته، وأن القرصان فرانسيس دريك لم يهاجم ريوهاتشا إلا من أجل أن يتمكنوا من البحث في أشد متاهات الدم اختلاطاً وتشابكاً، إلى أن ينجبوا الحيوان الخرافي الذي سيضع حداً لهذه السلالة. كانت ماكوندو قد تحولت إلى زوبعة مخيفة من الغبار والأنقاض، يطوح بها غضب إعصار توراتي، عندما قفز أوريليانو إحدى عشرة صفحة، كيلا يضيع الوقت في أحداث يعرفها جيداً، وبدأ بحل

رموز اللحظة التي يعيشها، يفك رموزها وهو يعيشها، متنبئاً بأنه يقوم هو نفسه بفك رموز آخر صفحة من الرقاق، كما لو أنه يرى نفسه في مرآة محكية. وعندئذ قفز عن سطور أخرى، كي يستبق النبوءات ويتقصي تاريخ وظروف موته. ومع ذلك، وقبل أن يصل إلى بيت الشعر الأخير، كان قد أدرك أنه لن يخرج أبداً من هذه الغرفة، لأنه مقدر لمدينة المرايا (أو السراب) أن تذروها الرياح، وتُنفى من ذاكرة البشر، في اللحظة التي ينتهي فيها أوريليانو بوينديا من حلّ رموز الرقاق، وأن كل ما هو مكتوب فيها لا يمكن أن يتكرر، منذ الأزل إلى الأبد، لأن السلالات المحكومة بمئة عام من العزلة، ليست لها فرصة أخرى على الأرض.

لأن الصعوبة التي تواجه قارئ «مئة عام من العزلة» هي متاهة الأسماء المتشابهة التي يُسمى بها آل بوينديا جيلاً بعد جيل، على امتداد مئة سنة، منذ إنشاء ماكوندو حتى انقراض السلالة، فقد رأينا أن نضيف إلى الكتاب شجرة لأسرة خوسيه أركاديو بوينديا، يرجع إليها القارئ عندما تلتبس عليه الأسماء.

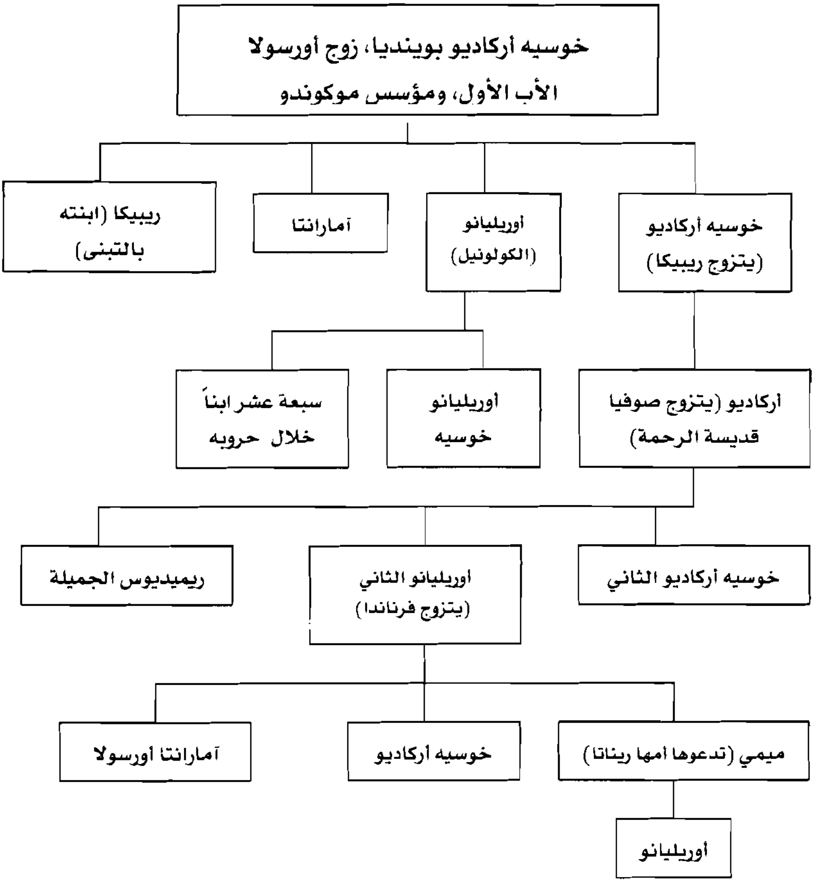

تصميم الغلاف: خالد سليمان

ISBN:2-84305-827-X
9 782843 058271